

بيير جرانديه

رمسيس الثالث

« قاهر شعوب البحر »



ترجمة: فاطمة عبد الله محمود

مراجعة: د. محمود ماهر طه

تقديم: كريستيان دى روش نوبلكور

بيير جرانديه

رمسيس الثالث

«قاهر شعوب البحر»

ترجمة

فاطمة عبدالله محمود

مراجعة

د. محمود ماهر طه

تقديم

كريستيان دى روش نوبلكور



الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٣

Pierre Grandet

RAMSÉS III HISTOIRE D'UN RÉGNE

الفهرس

تقـــــــديم

رمسيس الثالث بطل الإلياذة المصرية

يسحر الزائر من روعة جمال أروقة أعمدة معبد الأقصر، ويخلب لبه من عظمة وفخامة الكرنك، ثم يجد نفسه، بعد عبور نهر النيل، فى بداية طريق نحو الصحراء الغربية، حيث شيدت معابد ملايين السنين لملوك الدولة الحديثة. وهناك، سوف تطالعه بعض الأسماء الذائعة الصيت، مثل: حتشبسوت، وسيتى الأول، وابنه رمسيس الثانى، ثم رمسيس الثالث.

إن هذه المنشآت ما زالت تتألق على الدوام بالروعة والرومانسية، بالرغم مما أصابها من دمار، وبالرغم من أنها لم ترمم إلا فى بعض مواضعها، وتناثر الكثير من أجزائها المحطمة. وضمن هذه الأطلال، نجد أن المبنى الذى تتسم واجهته بالفخامة المهيبة، والمبتكرة أيضاً، هو معبد مدينة هابو الذى أمر بتشييده رمسيس الثالث.

ويتراءى البرج المرتفع الذى تعلوه الشرفات وهو من استحداثات هذا العهد، وكأنه يتحدى أى مهاجم. ويبدو أن فكرته قد استوحيت من نمط الأبراج الآسيوية الطراز؛ ويقوم مثلها بمهمة حراسة المكان. ترى، هل هذه كانت الرسالة التى أراد أن يضمنها هذا المبنى. ربما كان الأمر كذلك؛ لأن هذا الملك المغوار، قد واجه، خلال فترة حكمه أقسى الغزوات وأكثرها عنفاً وضراوة - ألا وهى غزوات «شعب البحر»، التى اندفعت لمهاجمة مصر من ناحية دلتا النيل، ولقد توجت مفاخر هذا الملك العظيم خاصة بمعركتين شهيرتين أولهما برية وثانيهما بحرية. ويمكننا أن نقارن هذا الانتصار الذى

د تقه رمسيس الثالث فأنقذ به مصر بالانتصار الذى أحرز على أتيلا وشرائم المتناثرة فأنقذ أوروبا.

لقد كان رمسيس الثالث ملكاً محارباً، ولم يكن ملكاً فاتحًا مثل معظم الملوك الفراعنة فى الأسرة الثامنة عشرة وعلى رأسهم تحتمس الثالث؛ واختلف الوضع على ملوك الأسرة العشرين، فإن المعارك التى خاضها هؤلاء الملوك وحققوا النصر بها كانت معارك دفاعية قبل كل شئ! كان ابن «ست تخت» يهدف إلى منع الليبيين والإبجيين وبقية كل تلك العناصر المختلطة القائمة على ضفاف البحر الأبيض المتوسط، من غزو أرض أوزوريس، وآمون وماعت. وجسد عن جدارة على جدران مدينة هابو تلك المعارك الضارية حيث تتراءى بجانب الليبيين، حشود الآخيين، والدانيين، والبلست (الفلسطينيين)، والشرادنة، والصقليين، والكثيرين غيرهم.

حقيقة أن بيوت الحياة الملحقة بالمعابد، كانت تتضمن محفوظاتها الكثير من الوثائق التى فقد معظمها من العصور العريقة القدم. ولكن «قاهر شعوب البحار» كان حظه أفضل فى هذا المجال. فبجانب الوثائق المتعلقة ببعض القضايا التى حدثت فى عهده، عثر أيضًا على بردية ضخمة (هى بردية هاريس –١، وهو اسم أول من امتلكها)؛ بداخل المعبد نفسه؛ وقد تضمنت قائمة بموارد مصر فى ذاك العهد، وتقدم كافة المعلومات اللازمة من أجل أن نستكمل معارفنا، ونتحدث بدون أى خطأ عن سير ومقدرة الإدارة الفرعونية.

ويستطيع بيير جرانديه – الذى أمضى ما لا يقل عن عشر سنوات فى دراسة مضنية لهذه الوثيقة – أن يقوم، بكل جدارة، بعملية إعادة تنظيم، لمختلف عناصر مؤسسات الدولة (الدينية والمدنية والعسكرية)، بالإضافة إلى المؤسسات الملكية التى كانت قد بلغت أوج اكتمالها، وفى نفس الحين اقتربت من حافة الهاوية.

لقد انتهت حياة المنقذ القومى عند حافة الهاوية التى ابتلعته. فها هنا، وأيضًا من خلال بعض البرديات الأخرى، تتراءى معالم أضخم مؤامرة فى نطاق الحريم الملكى عرفتها مصر، حيث قامت بتدبيرها إحدى زوجات رمسيس الثالث من الملكات الثانويات، بالاتفاق مع أحد الأمراء الطموحين. (فى دراسة بعنوان: قضايا وفضائح عهد الرعامسة، قام ب. فيرنوس بمعالجة هذه المؤامرة فى كتابه الذى نشر عام ١٩٩٣).

حقيقة من خلال هذه الدراسة خاصة، وبشكل استثنائى فى نطاق الحوليات المتعلقة بذاك العهد، تتراءى بعض الإيماءات عن علاقات رمسيس الثالث مع نساء عائلته.

حقيقة أن هذه الإيماءات ليست كثيرة ومتعددة، ولكنها على أية حال، ذات مضمون ما. ولقد كان رمسيس الثانى – هذا الفرعون المبهر – يكرس مكانة رفيعة ومتألقة للسيدات ذوات المقام الرفيع بعائلته، مثل أمه وزوجاته الملكات المعظمات العديدات. ولكن رمسيس الثالث يبدى تحفظاً ملحوظاً فيما يتعلق بالعنصر النسائى فى عائلته. إن صورة زوجته الملكة المعظمة إيزيس أم خليفته، رمسيس الرابع، تبدو وكأنها قد تلاشت فى قسمات نفرتارى حبيبة قلب بطل قادش، وهى تبدو فى النقوش البارزة على جدران مدينة هابو، من خلال مناظر أعياد الإله مين الرائعة الفخامة، أو من خلال المشاهد النقشية التى تطابق نفس نقوش عهد رمسيس الثانى. وكذلك تتطابق معها المشاهد الخاصة ببناته الملكات، ولكن بدون تحديد أسمائهن.

ولكن، قد يلاحظ بالرغم من ذلك، استثناء ما فيما يختص بالبرج الحصين بمدينة هابو. فهناك، نجد مشاهد تمثل الملك أثناء حوار حميم له مع بعض بناته اللاتى ارتدين ملابس متميزة الطرز. وبالأحرى علينا هنا ألا نرى فى هذه المشاهد مجرد إيماء إلى حياة الفرعون العائلية، فهذا أمر لا يعقل أبداً فى نطاق هذا المكان. ولكن قد يكون الأمر يتعلق بإشارة إلى الدور الشعائرى الذى كانت تقوم به كبرى بنات الفرعون؛ وكذلك، بالنسبة لبعض زوجات رمسيس الثالث الملكات المعظمات.

ولا شك أن هذا التساؤل يضفى المزيد من الإثارة والجاذبية على ذاك المشهد المشار إليه. فهو يتيح لنا كماً وافراً من المعلومات، من أجل أن نتتبع مراحل حياة آخر الفراعنة العظام بالدولة الحديثة المصرية، وما تتضمنه هذه الحياة من عهد متميز غير عادى ومأساة بلغت ذروتها.

كريستيان دى روش نوبلكور

مقــــدمة

لا ريب مطلقًا أن اسم وأعمال رمسيس الثانى يعرفها الجميع. لكن اسم رمسيس الثالث وأعماله وفتوحاته، قد يجهلها الكثيرون. ومع ذلك، فإن هذا الملك يعتبر بمثابة الفرعون الرئيسى فى نطاق الأسرة العشرين وآخر الملوك العظام بالدولة الحديثة. لقد استمر عهده أكثر من ثلاثين عاماً (١١٨٤ - ١١٥٣ ق.م (١)). وفى نطاق تاريخ مصر القديم، يكشف هذا العهد مرحلة الانتقال من الدولة الحديثة إلى العصر المتأخر.

ولقد قام رمسيس الثالث، خلال معركتين على التوالى، بقهر الجيوش الليبية المتكتلة ضده، واستطاع أن يحمى مصر من غزوات القبائل الهندوأوروبية، المسماة باسم «شعوب البحر»، وشيد المعبد الجنائزى «مدينة هابو» على الضفة اليسرى لطيبة، وأمر بإقامة عدد ضخم من المنشآت والأبنية، وعمل على أن تنقش العديد من النصوص الخاصة به على الكثير من جدرانها. وبالتالى أثبت وجود نشاطاته وأمجاده على معظم المواقع الأثرية بمصر.

وبالرغم من كل إنجازاته، وبالرغم من النشر النموذجى الذى كرس من أجل مدينة هابو بفضل التسجيل العلمى بجامعة شيكاغو فى الفترة ما بين ١٩٣٠ و١٩٧٠(٢)، وبالرغم من الأهمية التاريخية للفترة التى يقع بها عهده، لم يحظ رمسيس الثالث، حتى من جانب العلماء، بما يستحقه من اهتمام، أو مثل ما حظى به

على سبيل المثال توت عنخ آمون أو رمسيس الثانى. وبذا، فإن الضرورة تحتم أن نرجع قليلاً إلى الوراء، وبالتحديد إلى العام ١٩٤٨ لنطالع ما كتبه عنه عالم المصريات الهولندى «يانسن»، إنها الدراسة الهامة الوحيدة عن هذا الفرعون. ومع ذلك فهى لا تعدو أن تكون سوى كتيب صغير لا تزيد عدد صفحاته عن مائة صفحة، حيث تشغل الصور والأشكال مكاناً أكبر مما يشغله النص نفسه(٣).

ترى، ما هى أسباب عدم الاهتمام؟

حقيقة، هى أسباب بسيطة جداً.

أولاً، لأن بريق ذهب توت عنخ آمون ومفاخر وإنجازات رمسيس الثانى تعمل على الإلقاء بالفراعنة الآخرين فى منطقة الظل، فيبدون، أقل أهمية، ولا ينتظر الكثير من وراء دراسة أحوالهم.

ثانياً: لأن رمسيس الثالث قد اتخذ جهراً وصراحةً رمسيس الثانى كمثل أعلى له، فاستعاد اسمه وحاكاه فى أعماله، وبالتالى أدى ذلك إلى تشويه الصورة التى عرفت عنه تشويهاً بالغاً. فمن الأمور اللامنطقية المنبثقة من بعض المفاهيم الأخلاقية فى نطاق التاريخ، أن ينظر بشىء من اللامبالاة إلى الملوك الذين قاموا مثله بمحاكاة أحد أجدادهم العظام. وعلى سبيل، نجد أن نابليون الأول الكبير قد خلفه نابليون الثالث الصغير. وكذلك الحال، فإن كل ملك جاء بعد رمسيس الثانى، وتسمى بنفس اسمه، لا يعتبر فى نظرنا، سوى وريث ضئيل الشأن.

ولاشك مطلقًا أن مثل هذه المفاهيم لم تعد متبعة فى الوقت الحالى. فبالنسبة لأى مؤرخ فى القرن العشرين، تتساوى العهود الملكية ببعضها بعضاً، ولا يتميز عهد عن الآخر إلا بالمشاكل التاريخية التى يثيرها. ومن هذا المنطلق، فإن عهد رمسيس الثالث، بوقوعه فى نقطة اتصال بين الدولة الحديثة والعصر المتأخر، يتحتم أن يثير المزيد من الاهتمام عما يثيره حكم رمسيس الثانى. أما فيما يتعلق بتقليد ومحاكاة هذا الجد العظيم، فلم يكن ينظر إليه وقتئذ بمثابة انتحال، بل كان الملك ومعاصروه، يعتبرونه كعمل إيجابى، جدير بأسمى آيات المديح. ولم يكن ذلك مجرد محاكاة حرفية لإنسان ما، بل هو محاكاة لنموذج سلطة يجسدها هذا الإنسان تجسيداً كاملاً.

ولقد ساعدنا نصف قرن من دراسة تاريخ أساليب التفكير على زيادة تفهم هذا النمط من الظواهر وعلى إثراء رؤيتنا لتاريخ مصر خلال تلك الحقبة.

ومع ذلك، فليس من السهل مطلقاً كتابة تاريخ مصر القديمة. فإن هذه الحضارة لم تترك سوى عدد ضئيل من النصوص، وتفوقت عليها روما القديمة فى هذا المجال. وليس هناك أى نص مصرى قديم يمكن مضاهاته مضاهاة فعلية بالنصوص التى قدمها المؤرخون الكلاسيكيون. ولقد قام الكاهن المصرى «مانيتون» بكتابة نص عن تاريخ مصر فى العام ٣٠٠ ق.م، من أجل الحاكم اليونانى بطليموس الأول. وبفضله، استطعنا أن نحيط علماً بالتوزيع التقليدى لفراعنة مصر على مدى ثلاثين أسرة.

ولم نستطع أن نلم بهذا النص إلا من خلال أجزاء متفرقة حيث يمتزج الواقع بالأسطورة، وحيث تتشابك وتختلط الأحداث المتعلقة بعصور مختلفة من التاريخ المصرى القديم.وحتى بعد مرور أكثر من قرن على ظهور علم المصريات العلمى، مازال تاريخ بعض العصور يبدو غامضاً ومبهماً، ومما يؤسف له أن ذلك يتعلق خاصة وبصفة شبه دائمة بفترات القلاقل السياسية، التى يعتبرها المؤرخ ذات أهمية قصوى؛ إنها تلك العصور التى يساعد تفهمها ومعرفتها على معرفة وتفهم العصور التالية لها.

جملة القول، ووفقاً لما كتبه[٤] البعض : أن عالم المصريات يجد نفسه غالباً فى نفس موقف أى مؤرخ معاصر، يريد أن يكتب تاريخ الثورة الفرنسية ولكنه لا يجد أمامه فى المحفوظات سوى وثائق ترجع إلى عهد لويس السادس عشر ولويس الثامن عشر وبعض الإشارات الطفيفة عن وقوع بعض القلاقل والاضطرابات خلال الحقبة الواقعة ما بين العهدين.

ربما كان من الصعب كتابة صفحة من التاريخ المصرى القديم. فهل عسانا نستطيع أن نكتب سيرة حياة أحد الفراعنة ؟ وهنا أيضاً سوف يكون الأمر صعباً. حيث نجد أن النصوص الملكية، خاصة إذا كان الملك هو كاتبها بنفسه – قد أفعمت بنوع من الأيديولوجية الثقيلة الوطء، وتهدف بدون أى تحفظ إلى إلقاء الضوء على اكتمال عظمة الملك، وتطابق كل أفعاله مع الإرادة الإلهية أو واجبات وظيفته. مما

يؤدى إلى شعور القارئ لهذه النصوص بالملل والضيق. ومن المتناقضات التى تشوب الحضارة المصرية القديمة، يبدو من الصعب تماماً تحديد صفات أو معالم شخصية كل من الملوك الفراعنة، على الرغم من أننا نملك بعض أجسادهم المحنطة. وخلاف ذلك، فنحن نجهل كل شىء عن حياتهم الخاصة. فالميلاد، والتعليم والتربية، والحب... أى كل هذه التفاصيل اللازمة لأى سيرة ذاتية، نعانى من نقصها.

ولكن هل من المستحيل معالجة فترة حكم رمسيس الثالث من الزاوية التاريخية والبيوجرافية (سيرته الذاتية) ؟ لو كان الأمر كذلك، لما ظهر هذا الكتاب إلى الوجود. فعلى المستوى التاريخى، كما سبق أن أشرنا آنفًا، تعتبر فترة حكمه من أكثر الفترات إفرازاً للوثائق، فى تاريخ مصر القديمة. أما على المستوى الشخصى، فإن نفس سمة الملكية المصرية القديمة هى التى تسمح لنا بمعالجته وتفهمه. ففى نطاق أى حكم مطلق، يلاحظ أن أى عمل رسمى يحمل فى طياته سمة شخصية؛ وبذا فإننا عندما نكتب تاريخ حكم ما، فكأننا بالتالى نكتب السيرة الذاتية السياسية للحاكم القائم. وبالنسبة لرمسيس الثالث، تتراءى هذه السمة، من خلال النصوص، فى صورة مغالاة مائعة فى التعبير عن الأيديولوجية (الأفكار والعقائد و النظريات) الملكية. وقد يجعلنا ذلك نعتقد أنها تسمح بذلك، بالكشف إلى حدٍ ما، عن سيكولوجية إنسان لم يكن مولده يمكنه أساساً من تولى العرش.

المصادر الخاصة بحكم رمسيس الثالث

لقد استطعنا أن نتعرف على حكم رمسيس الثالث عن طريق عدد ضخم من المصادر : كتابات ملكية وخاصة، تماثيل، ومسلات، أدوات تتعلق بالشعائر أو بالحياة العادية. ولقد تضمنت النصوص وجمعت، فى الجزء الخامس من كتاب :

Ramesside Inscriptions , Historical and Biological

الذى قام بنشره عالم المصريات الإنجليزى كينيت أ. كيتشن، من جامعة ليفربول[٥] . وتضمن الجزء السابع من هذا الكتاب[٦] العديد من الإضافات. ولكن، لا شك أن حفائر الآثار، فى مصر أو فى منطقة الشرق الأوسط، ما زالت حتى اليوم تثرى هذه الحصيلة بالعناصر الجديدة، وتكشف عن آثار أبنية ومنشآت أو مواقع، كنا

نجهل كل شيء عن وجودها. ومع ذلك، فهناك مصدران يعتبران، سواء من ناحية الحجم أو المضمون، بالنسبة لتاريخ هذا الحكم، ذوى أهمية خاصة. إنهما : الكتابات المحفورة على جدران المعبد الجنائزى الخاص بالملك فى مدينة هابو، بالإضافة إلى وثيقة تاريخية، كتبت فى أواخر فترة حكمه، وتعرف باسم بردية هاريس -١-، وتحفظ حالياً فى المتحف البريطانى بلندن(٧).

معبد مدينة هابو، مثله كمثل بقية المعابد الجنائزية الملكية القائمة على الضفة اليسرى لطيبة، فباستثناء وظيفته الشعائرية البحتة، فقد اعتبر بالنسبة للأجيال اللاحقة، بمثابة نصب تذكارى لتخليد ذكرى حكم الملك الذى أقامه. ولقد غطيت جدرانه بالنصوص والمشاهد التى تصف حروب رمسيس الثالث، وتمثل الأعياد الدينية التى كان يشارك فيها، وتصور الأشياء الثمينة المتضمنة فى خزائنه، والأسرى الأجانب حصيلة انتصاراته. وبجوار، هذا المعبد يوجد أحد قصور الملك الذى كان يتخذه بمثابة استراحة عند حضوره إلى طيبة. وفى نطاقه، لا تختلف أوجه النشاط عن الحياة اليومية بالبلاط الملكى. وأخيراً، هناك مخازن الغلال والاسطبلات التى تحيط به. وتوجد أيضاً النصوص الاقتصادية المحفورة على الجدران، ومشاهد الذبائح، ومناظر حاملى القرابين التى تزين بعض الجدران وتسمح لنا بأن نتخيل مدى ضخامة عدد العمال الذين كانوا يعملون فى هذا المكان، وحجم كمية المنتجات المستهلكة، بالإضافة طبعاً إلى ما قد يطرأ من مشاكل شائكة ودقيقة فى مثل هذا الموقع.

ونجد إذن، أن النصوص والمشاهد فى مدينة هابو، تبدو فى هيئة كل يتداخل فيه الواقع الاقتصادى والدينى والتاريخى تداخلاً حميماً. وهذا الخليط أو المزيج، الذى تتميز به الحضارة المصرية القديمة، نستطيع أن نطالعه أيضاً فى بردية هاريس-١-. ولقد عثر على بردية هاريس -١- فى طيبة عام ١٩٥٥، بداخل خبيئة تعود، على ما يبدو، إلى أواخر عهد الدولة الحديثة، بواسطة كهنة مدينة هابو ضمن وثائق أخرى من محفوظات المعبد. ولن نغالى إذا قلنا إن كل ما تتضمنه هذه الوثيقة، هو شيء رائع وممتاز. فلننظر أولاً إلى حجمها : حقيقة أنها قد قسمت حالياً إلى (٨٠) ورقة، ولكنها، كانت قديماً، تتكون من مستطيل على هيئة قطعة واحدة فقط من البردى؛

يبلغ عرضها (٤٢) سم، وطولها (٤٢) متراً (أى ما يماثل ارتفاع قوس النصر فى باريس). وبذا، فهى تعتبر أطول ورقة بردى عرفت حتى الآن. أما من حيث مضمونها : فقد قام بكتابتها خمسة من الكتبة. ومن خلال حوالى (٥٠٠٠) سطر تسرد فى إطناب فائق السيرة الذاتية لرمسيس الثالث، على هيئة حديث يوجهه الملك، قبل موته بعدة أيام، لآلهة مصر ولرعيته، من أجل أن يذكرهم بالأفضال والحسنات الذى قام بها من أجلهم خلال فترة حكمه، ويلتمس منهم، فى مقابل ذلك، أن يدعموا ويعضدوا حكم ابنه رمسيس الرابع. ومن منطلق هذا المضمون، بالإضافة إلى التاريخ الذى حررت فيه هذه الوثيقة، وبالنسبة لمكان اكتشافها، ونظرا للأحوال التى اتسمت بها أواخر أيام رمسيس الثالث (تدبير مؤامرة لسلب العرش من وريثه الطبيعى)، لا يسعنا سوى الاعتقاد أن تلك الوثيقة قد كتبها وحررها رمسيس الرابع نفسه، وقام بتوجيهها إلى كبار الكهنة وعليه القوم الذين يحضرون عملية نقل جثمان رمسيس الثالث إلى مدينة هابو. وربما كان هدفه من وراء ذلك هو إحياء وتنشيط شعورهم بالولاء الملكى الذى، على ما يبدو كان قد أصابه الوهن. لقد كتبت هذه الوثيقة بخط واضح يمكن قراءته. وامتد طولها إلى العديد من الأمتار. وبذا، لا يستبعد أبداً أنها قد نشرت وأعلنت لكى يقرأها الجميع.

لقد سبق أن ذكرنا أن «بردية هاريس» هذه لا تمثل سوى نوع من السير الذاتية الفائقة المثالية التى كان كبار القوم من المصريين مولعين بنقشها فوق جدران لوحات مقابرهم من أجل الأجيال اللاحقة. ومع ذلك، فإن أهمية شخصية كاتبها المفترض واتسامها بالكمال والشمول قد جعل منها المثال الفريد لتاريخ إحدى أنظمة الحكم فى مصر القديمة. ولنعتبر إذن أن رمسيس الثالث هو محرر وكاتب هذه الوثيقة. وسوف نجدها مقسمة أساساً إلى جزأين أساسيين : حديث إلى آلهة مصر تتضمنه ال (٧٤) صفحة الأولى؛ ثم حديث إلى البشر، تستوعبه الصفحات الخمس الأخيرة. ويلاحظ أن الحديث الثانى لا يتسم بخاصية مميزة. ولكن، نجد أن الحديث الأول يفوقه تفصيلاً، فهو ينقسم إلى خمسة أقسام : ثلاثة أحاديث موجهة من الملك إلى الآلهة الخاصة بمدن مصر الرئيسية: آمون وآلهة طيبة، وآتوم – رع حوراختى وآلهة هليوبوليس، وبتاح وآلهة منف. وحديث موجه إجمالاً إلى مجموعة الآلهة الخاصة بالأقاليم

خاصة لمصر العليا، ولآلهة طيبة الثانوية، مع بعض التفاصيل المختصرة الموجهة (ثنى)، وهرموبوليس، وأبيدوس، وأسيوط وكوم أمبو، والموجهة لمنطقة مصر السفلى، لآلهة أتريب وبردميس.

أما عن القسم الخامس، فهو عبارة عن خلاصة للتقديمات والقرابين المتضمنة فى القوائم الاقتصادية، والتى وضعت كتذييل لكل من الأقسام الأربعة السابقة وتلفت النظر بتميزها الخاص. وتهدف هذه القوائم إلى إلقاء الضوء على إنجازات الملك، وبذا فهى تعدد وتصنف الخيرات التى وهبها خلال فترة حكمه، لكل من الآلهة المذكورة آنفًا. وحقيقة أن أحاديث بردية هاريس-١ تسمح لنا أن نتبين نوع، وأهمية ما حققه رمسيس الثالث، وأهميته، ولكن هذه القوائم تجعلنا نزيد من تقسيمنا لها من ناحية الحجم والعدد. ويبدو ذلك نادر الحدوث فى نطاق تاريخ مصر القديمة.

مصر فى عهد رمسيس الثالث

لم تكن مصر لتختلف فى عهد رمسيس الثالث عما كانت عليه فى عهد ملوك الأسرة التاسعة عشرة: فبداية من سواحل البحر الأبيض المتوسط وحتى «الفنتين»، تمتد حوالى (٣٠،٠٠٠) كم٢ من الأراضى الزراعية المتاخمة لنهر النيل وتنحصر فيما بين مساحات صحراوية ممتدة الأطراف. وينقسم هذا البلد، إلى قسمين إداريين كبيرين، هما مصر العليا ومصر السفلى، أى بالتحديد الوادى والدلتا؛ اللذين ينقسمان بدورهما إلى وحدات أصغر حجمًا، هى الأقاليم، التى يبلغ عددها عادة (٢٢) إقليمًا فى مصر العليا و(٢٠) إقليما بمصر السفلى. ويبدو أن هذه التقسيمات الكبرى والصغرى تتطابق مع المفاهيم الأسطورية لدى المصريين عن تكوين بلدهم مصر، ومع وضع عريق لتنظيمها السياسى، ولكنها لم تكن تتطابق تطابقًا دقيقًا بواقع الحال فى أواخر الدولة الحديثة: فالحدود الواقعة ما بين الأقاليم القديمة لم تعد كما كانت عليه خلال الدولة القديمة، فلقد اختفى البعض منها، وظهرت حدود جديدة. وفى نفس الوقت أخذ التعارض بين مصر العليا ومصر السفلى يتلاشى رويداً رويداً. (فى أواخر حكم رمسيس الثالث تم ضمهما إدارياً تحت رئاسة وزير أو رئيس وزراء واحد). ثم ظهرت تقسيمات جديدة: ففى نطاق الدلتا، حدد خط وسطى يفصل ما بين جزء شرقى

مزدحم ازدحامًا فائقًا بالسكان المدنيين، وبين جزء غربى يتسم خاصة بانتشار الزراعة، حيث السكان مخلطين من المصريين والليبيين، يعانون بصفة دورية من غزوات قبائل الصحارى. وكذلك، فإن منطقة مصر الوسطى، التى ترتبط بها واحة الفيوم لم تكن تحظى بأى وجود إدارى رسمى، ومع ذلك كانت على قدر كبير من الأهمية الاقتصادية والثقافية.

وبداية من الإشمونين (هرموبوليس)، وهى أحدث عواصم مصر الثقافية، إلى أهناسيا، (هرقليوبوليس) التى كانت تعتبر بمثابة العاصمة السياسية خلال الأسرتين التاسعة والعاشرة، امتدت من الجنوب إلى الشمال، على الضفة اليسرى للنيل، على جانبى بحر يوسف بعض المستوطنات العسكرية. وكانت قد أسست منذ بداية عهد الرعامسة، حيث شيدها هؤلاء الملوك لدرء خطر الاختراق الليبى من ناحية الفيوم. ها هنا إذن أكثر من منطقة ربما تتطلع إلى استقلال لا يمكن تحقيقه بسبب وجود سلطة مركزية قوية. ولكن هذا لم يمنع تمكن كل منها من الوصول إلى أنماط متباينة من الاستقلال السياسى خلال عصر «الانتقال الثالث».

وأخيراً، فبداية من الأسرة التاسعة عشرة، حيث كان الملوك المنحدرين من أصل عسكرى قد أقاموا عاصمتهم فى بى رمسيس، مدينة الإله ست، لم تعد السلطة السياسية القائمة تتخذ مقرها فى مصر العليا، كما كان يحدث خلال الأسرة السابقة. وحقيقة أن صورة الفرعون كان تواجدها مازال كاملاً فوق معابد وأبنية طيبة، ومع ذلك، فإنه لم يكن يتوجه إلى مدينة آمون إلا فى ظروف استثنائية: جنازة أحد الأجداد، ومناسبات التتويج، والاحتفالات الدينية الهامة. وبالرغم من أن الملوك كانوا ما يزالون يدفنون فى هذه المدينة الملكية الخاصة بالأسرة الثامنة عشرة، وبالرغم من أن كل ملك من الفراعنة كان حريصاً كل الحرص على إقامة بعض المقاصير فى الكرنك، وعلى إصلاح المنشآت القائمة بها، وبالرغم من أنها قد بقيت كما كانت من قبل بمثابة مركز دينى هام، فلقد تحولت شيئاً فشيئاً إلى مدينة نائية، ابتعد عنها صفوة رجال الدولة، وفقدت هيبتها ومكانتها الرفيعة. عموماً، لم تكن هى المدينة القديمة الوحيدة بمصر التى تقلص دورها، فى تلك الحقبة، لتتحول إلى مجرد مركز دينى. أما بالنسبة لمنف «مدينة الإله بتاح، الواقعة على ضفة النيل اليسرى، عند رأس الدلتا، فقد

بقيت حتى العصر الرومانى بمثابة أكبر مدن مصر. ولكن هليوبوليس، مدينة رع، الواقعة على بعد حوالى عشرة كيلومترات شمالاً، على ضفة النيل الأخرى، بعيداً إلى حد ما عن النهر، لم تعد سوى تجمع سكانى غير طبيعى يعيش بها الكهنة وتكثر بها المعابد؛ أما سكانها الأساسيون، فقد استقروا على ضفاف النيل فيما بين «برحابى»، أى جنوب منطقة مصر القديمة الحالية، وبين مصب القناة المنبثقة من النيل والمتجهة إلى المدينة العريقة. وفى ذلك الحين، كان فكر الرعامسة الدينى يشرئب نحو نظام واضح يجمع ما بين عقيدة الإيمان بعدة آلهة، وبين فكرة الإيمان بإله واحد فقط. وفى نفس الوقت، عمل هذا الفكر على تطوير وتنمية ما يسمى بالديانة الثالوثية. ومن منطلقها، اعتبر آمون ورع وبتاح، ثلاثة مظاهر مختلفة لإله واحد. ولذلك، أصبحت مدن هذه الآلهة بمثابة المدن الثلاث الرئيسية بمصر. وتباينت، كما لاحظنا، كل منها عن الأخرى فى مظاهر تطورها.

الواحات والصحراء الغربية

بعيداً عن الوادى، ولكن ليس بخارج الحدود المصرية تقع واحات الصحراء الغربية، وكأنها جزر فى بحر هائل من الرمال. وكان الفراعنة الرعامسة يسوسونها ويهيمنون عليها تماماً. فى الجنوب، كانت تقع واحات «الخارجة» و«الداخلة» الحالية ليكونا كياناً واحداً ممتد الأطراف يسمى بواحات الجنوب. أما فى الشمال، فتقع الواحة البحرية أو واحة الشمال؛ ولأهمية موقعها، الذى يسمح لها بمراقبة تحركات القبائل البدوية المتحرشة دائماً بمنطقة مصر الوسطى، اعتبرت ذات أهمية استراتيجية كبرى ما زالت تتمتع بها حتى ذاك الوقت، كمثل ما كانت عليه خلال الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة. أما واحة الفرافرة، فهى تقع فى أقصى الجنوب، ووفقاً للطقوس الخاصة بالإلهة حتحور التى كانت تمارس بها، فقد سميت ببلدة البقرة. وظلت هذه الواحة عند بداية حكم رمسيس الثالث تعانى من ذكرى هجمات الليبيين عليها خلال حكم مرنبتاح. هؤلاء الليبيون الذين ربما كانوا يفدون من واحة سيوة، الواقعة فى أقصى الغرب. ولم تكن، فى ذلك الوقت، تقع تحت السيطرة المصرية.

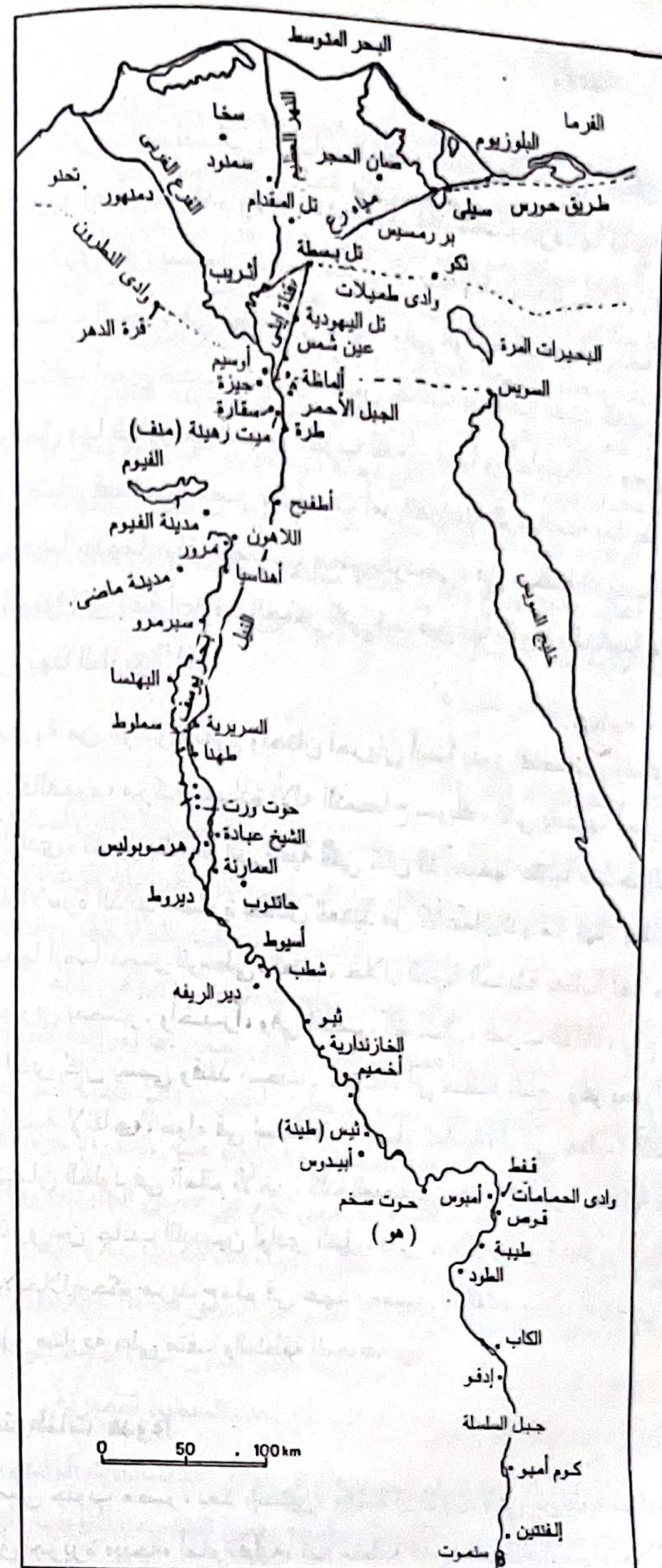
وربما لم تكن الواحات تقوم بدور هام فى نطاق اقتصاديات الوادى. ولكنها مع ذلك، كانت تسهم فى هذا الاقتصاد بواسطة بعض المنتجات النوعية التى تقدمها،

مثل: نوع من التراب الصلصالى، ونبات الحلفا، والملح والنترون. ولكن، فى ذاك الحين، كان النبيذ يعتبر من أهم وأوفر منتجاتها. فقد كانت كرماتها تنتج نوعاً منه متميزاً للغاية، والذى كان يستعمل خاصة خلال الاحتفالات الشعائرية[٨]. وتعتبر هذه الكروم من السمات المميزة فى نطاق زراعتها. وفى الواحة البحرية وواحة الجنوب، وهما من ممتلكات آمون طيبة، أمر رمسيس الثالث بزراعة عدد كبير من هذه الكرمات، وألحق بها الكثير من أسرى الحرب للعمل فيها ورعايتها[٩]. ومن أجل أن يكون هناك اتصال فيما بين مصر والواحات أمر الفراعنة الرعامسة بمد طريق دائم للمواصلات فيما بينهما. ولقد تضمنت مصر الوسطى، فى منطقة البهنسا الحالية، العديد من الحقول لزراعة أعلاف الحمير التى تستعين بها القوافل الخاصة بالخزائن الملكية المارة بهذا الطريق[١٠].

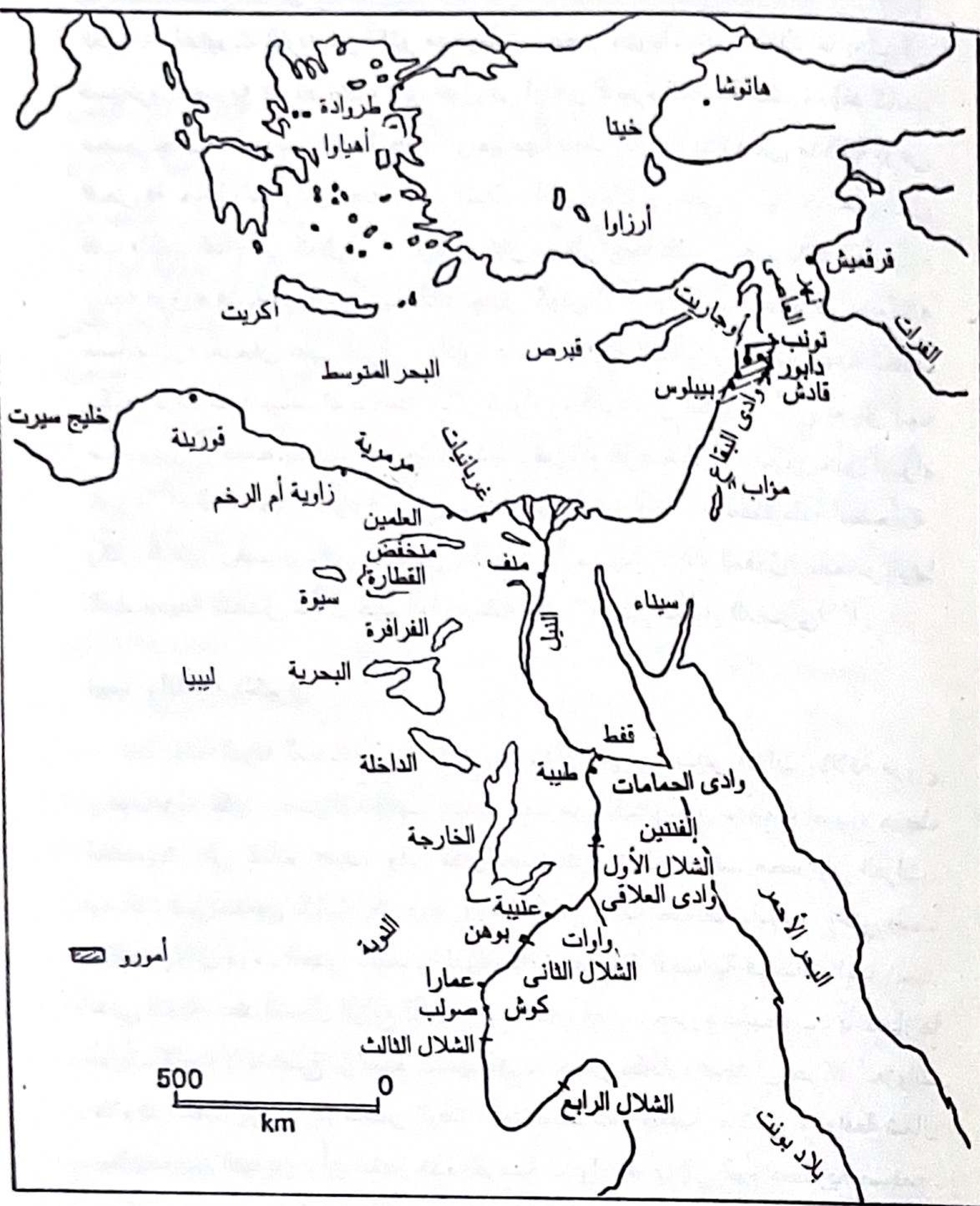
وعلى مقربة من الوادى، تقوم واحتان أخريان أيضاً بدور اقتصادى واستراتيجى هام لمصر. فالفيوم، مركز عبادة الإله التمساح سوبك، التى يغذيها بحر يوسف ويربطها بالوادى، تتميز بالسمة الزراعية التى كان قد أسبغها عليها منذ حوالى ألف عام فراعنة الأسرة الثانية عشرة بفضل العديد من الأعمال الهامة بها. وظلت هذه المنطقة ومعها أيضاً مصر الوسطى، تعتبر، خلال الدولة الحديثة بمثابة أحد مخازن الغلال الكبرى بمصر. وأخيراً، وفى أقصى الشمال، غرب الدلتا، يقع «وادى النطرون»، الذى كان يسمى وقتئذ «سخت - حمت»، أى منطقة الملح. وهو يعتبر بمثابة المنطقة الرئيسية لإنتاجه، سواء فى استعمالات الحياة العادية، أو فى عمليات التحنيط، من أجل ضمان الخلود فى العالم الآخر. كلتا المنطقتين كانتا تعتبران بمثابة نقطتى اختراق وغزو من جانب الليبيين لوادى النيل. فمن خلال وادى النطرون، ولمرتين متتاليتين، خلال حكم مرنبتاح، ثم فى عهد رمسيس الثالث، حاول الليبيون القيام بعمليات غزو ضارية على منف والمنطقة المحيطة بها.

أكثر المستوطنات هدوءاً

فى أقصى جنوب مصر، بعد «إلفنتين» والشلال الأول، وفى أثر قلعة «سنموت»، المقامة فوق جزيرة «بيجة»، أمام «فيليه» تبدأ منطقة النوبة القاحلة. وسواء خلال حكم



خريطة مصر فى عهد رمسيس الثالث



الشرق الأدنى والنوبة، وليبيا فى عهد رمسيس الثالث

رمسيس الثالث، أو فى عصر الرعامسة بأكمله، وبالرغم من بعض حركات التمرد الطفيفة، اعتبرت النوبة من أكثر مستوطنات مصر هدوءاً. وليس هناك ما يؤكد أن السيطرة المصرية قد تعرضت لأى أفول فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة. لقد كانت مصر تحكم قبضتها عليها جيداً؛ وتضعها تحت إدارتها بداية من منطقة بوهن المعروفة حالياً باسم وادى حلفا، عند الشلال الثانى، وتعين على رأسها حاكماً يحمل لقب «نائب الملك فى كوش[١١]»؛ والذى كان يحمل أيضاً لقب «زعيم بلاد الجنوب»، ولديه فرق مقاتلة قوية يرأسها «قائد جيش كوش[١٢]». وكان يساعده فى مهمته مساعدان، يقومان على التوالى، بإدارة منطقة النوبة السفلى ومنطقة النوبة العليا. وكان قادة الحاميات المحصنة مثل كاوا، وحكام المدن الكبرى التى يعيش بها مصريون أو متمصرون، وأيضاً مثل بوهن، أو الزعماء الأصليون، أى أمراء كوش[١٥]، الخاضعون لنفوذ الفرعون، يشاركون فى إدارة هذه المستوطنة الضخمة. وكان الأمير رمسيس، ابن رمسيس الثالث، أو رمسيس الرابع المقبل، يحضر إليها للقيام بمهمة التفتيش خلال حكم أبيه بصفته القائد الأعلى للجيش المصرى[١٦].

آسيا واللعبة الكبرى

منذ بداية الدولة الحديثة (١٥٥٠ ق.م)، قبل عهد رمسيس الثالث بثلاثة قرون ونصف، لم تكن مصر لتتوقف أبداً عن خوض القتال فى منطقة آسيا، حيث استحوذت على غنائم عديدة. وفى مدى نصف قرن فقط، وصلت مصر إلى الفرات. وهناك، قام تحتمس الثالث بكل فخر وزهو بإقامة لوحة ضخمة باسمه. والتى بينت بذلك - ولأول مرة - الحدود الشمالية لدولة كانت حدودها الجنوبية فى ذاك الحين تمتد حتى النوبة، عند الشلال الرابع للنيل. ومع ذلك، ففى عصر حتشبسوت، باعتبارها امرأة، كانت لا تستطيع أن تقوم بنفسها بقيادة جيش مقاتل، فنجد أن حركة الغزوات هذه قد توقفت إلى حد ما لبعض الوقت، وبذا استطاعت مملكة ميتانى ، الواقعة شمال «بلاد ما بين النهرين»، أن تنتهز هذه الفرصة لتحول نفسها إلى قوة عسكرية ضخمة. وبذا، فإن تحتمس الثالث (١٤٧٩ - ١٤٢٥) عندما عاود سياسة الغزوات فى آسيا، قد لاقى الكثير من الصعوبات التى لم يقابلها أجداده من قبل. ولكنه، بشجاعته وإقدامه، استطاع بالرغم من ذلك، أن يعيد سيادة مصر وسطوتها على معظم الأراضى التى

كان قد استولى عليها هؤلاء الأجداد. ولمراتٍ عديدةٍ واجه تحتمس الثالث جيوش «ميتانى».

وفى عام (١٤٠٠) ق.م، بدأت «ميتانى» تواجه فى شمال غرب المناطق التى تهيمن عليها، انبثاق قوة سياسية جديدة، هى مملكة الحيثيين «أو خاتى»؛ وكان حكامها لا يخفون ميولهم وطموحاتهم الاستعمارية الشديدة. ومنذ ذاك الحين، وجدت ميتانى نفسها فى وضع حرج للغاية: فهى من ناحية، تخوض معارك ضارية مع مصر فى ناحية الجنوب، وبالتالى، فهى معرضة للهجوم من ناحية الشمال من جانب ذلك العدو الجديد؛ وفى نفس الوقت، فإن آشور التى تخضع رغماً عنها لحمايتها ، والواقعة ناحية الشرق، كانت تتحين الفرصة المواتية من أجل التحرر من جبروتها. وفى حركة تغيير مفاجئ ومذهل للأوضاع والاتفاقيات لم يشهدها تاريخ المنطقة من قبل، إلا فى عهد رمسيس الثانى، أبرمت «ميتانى» مع مصر اتفاقية سلام بكل ما تدل عليه الكلمة من معنى. وتوج هذا السلام بزيجات متعددة بين أميرات ميتانى والكثير من الفراعنة المتعاقبين.

ولقد سمحت هذه الاتفاقية لمصر بأن تعدل وتنظم عمليات استغلالها لممتلكاتها فى آسيا. فعملت على تقسيمها إلى مناطق وأقسام إدارية يرأسها حكام مصريون، وأقامت بها شبكة من المحميات الحصينة ومراكز إمداد قتالية قوية. وأرغمت أمراء هذه المناطق الأصلية على تقديم منتجات أراضيهم بشكل ثابت ومنتظم. وبذا، عاشت مصر، خلال عهد الملك أمنحتب الثالث (١٣٨٧ - ١٣٥٠ ق.م) أزهى فترات حضارتها المادية. ولكن، بمجيء خليفته أخناتون، الذى لم يكن يولى جهداً يذكر لخوض الحروب، ولكن يصب كل اهتماماته لتحقيق حركة التعديل الدينى والسياسى، استطاع الحيثيون بقيادة سوبيلوليوما، أن يستولوا فى الفترة ما بين (١٣٤٠ - ١٣٢٩ ق.م) على سوريا وأمورو الساحلية، ليصبحوا بذلك بمثابة القوة العظمى فى منطقة الشرق الأدنى. ومنذ هذا الحين، حاولت كل من ميتانى ومصر أن يتحدا ويتعاونا معاً من أجل مواجهة هذا العدو القوى. ولكن «ميتانى» كان قد أصابها الضعف والتهاوى، وسرعان ما فقدت استقلالها. أما عن الجيوش المصرية بقيادة القائد حورمحب الذى أصبح فرعوناً بعد ذلك، فلقد اضطرت أن تقف مدافعةً عن أراضيها ضد هجمات الحيثيين، عند وادى البقاع، على مقربة من لبنان الحالية. وبموت سوبيلوليوما

«مقاليد» استطاعت مصر، فى عهد خلفاء أخناتون الضعفاء، أن تواجه إلى حد ما ذلك الغزو. وأصبحت الحدود الفاصلة بين القوتين المتصارعتين ثابتة منذ ذلك الحين، فيما بين المنفذ الشمالى للبقاع وبين مدينة قادش الحصينة.

وجاءت الأسرة التاسعة عشرة (١٢٩١ ق.م) . وخلالها، قام كل من سيتى الأول ورمسيس الثانى على التوالى، بمعاودة اتباع سياسة الهجوم ضد «خاتى» التى كان يتبعها الملوك المحاربون فى أوائل الأسرة السابقة ضد «ميتانى». وقام كل منهما، على التوالى، محققاً بعض الانتصارات المتباينة، بمهاجمة «قادش»، الواقعة على وادى «نهر العاصى»، وتعمل على استحالة وصول الجيوش المصرية إلى الفرات، الذى اعتبر دائماً بالنسبة لفراعنة مصر كهدف استراتيجى طويل الأمد. وربما كان الأمر يتشابه هنا باللعبة الكبرى أو الـ Great Game التى كانت تنتهجها الدبلوماسية البريطانية فى بداية القرن التاسع عشر وحتى القرن العشرين، وذلك من أجل أن تتمكن لندن من السيطرة على الطريق المؤدى إلى الهند. فإن المعارك التى قامت بين مصر وميتانى، ثم بين مصر وخاتى، والتى سادت تاريخ منطقة الشرق الأدنى بأكمله خلال الدولة الحديثة، تبدو كأنها «لعبة كبرى» أخرى سياسية وعسكرية، تهدف إلى جعل المنتصر يحقق سيطرته على سوريا، محور التجارة بين «بلاد ما بين النهرين» ودول حوض البحر الأبيض المتوسط، وبالتالى يتبوأ مكانة القوى العظمى على كافة أنحاء العالم المتطور وقتئذ. فقد استطاعت مصر، بأسلوب فائق البساطة من خلال كل مرحلة من مراحل هذه اللعبة ، أن تواجه، على التوالى، وكل على حدة، أعداءها الرئيسيين بمنطقة الشرق الأدنى. وفى نفس الوقت، كانت هناك قوة ثالثة، ضعيفة إلى حد ما، تتأهب فى الخفاء، لكى تحتل مكانة القوى الرئيسية بمنطقة الشرق الأدنى. أما عن القوى الآفلة نحو المغيب، فقد وجدت نفسها، عندئذ، معرضة للخطر من جبهتين اثنتين. ولذا، سارعت إلى التماس السلام وعقد اتفاقية دفاعية مع مصر. فإن مصر، من وجهة نظرها، بالنسبة لبعدها الجغرافى عن أراضيها، اعتبرت كأقل أعدائها خطورة عليها.

ولكن نفس هذه «اللعبة الكبرى» كانت تقتضى أيضاً جعل كل من فلسطين وسوريا فى حالة تبعية تحبذها كافة الأطراف المتصارعة، بالرغم من عدائهم لبعضهم بعضاً.

ولم يكن ذلك ليشكل أية صعوبة : لقد كانت السمات الجغرافية فى هاتين البلدتين تساعد كثيراً على وجود نوع من التفتت السياسى. وبالتالى، كان القائمون بالحكم فيها لا يهدفون إلا إلى تحقيق مصالحهم الشخصية فقط. ولم يكن من الصعب السيطرة على الدويلات المتناثرة الواحدة بعد الأخرى، خاصة أن أمراءها كانوا معدومى الولاء، لا تجمعهم أية رؤى سياسية عامة، ويحقدون على بعضهم بعضاً، لفشل البعض منهم، ولتمتع البعض الآخر بامتيازات خاصة. وبذا، لم يترددوا فى تقبل سيادة أى فرعون مصرى أو ملك خيتى عليهم. ولم يحاولوا مطلقاً اختيار أمير منهم، لمقاتلتهما، ويكونون هم أنفسهم خاضعين له.

وعندما ارتقى رمسيس الثالث العرش، حوالى عام ١١٨٤ ق.م، كانت مصر قد تخلت منذ حوالى قرن، وللمرة الثانية، عن ممارسة هذه «اللعبة الكبرى» من أجل العيش فى سلام.

الفصل الأول

من رمسيس الثانى إلى رمسيس الثالث

١- قادش، وموت رمسيس الثانى(١)

«إن السلام أفضل من الحرب»! بهذه العبارة أنهى «مواتاللى» ملك «خيتا» رسالته التى كان قد أرسلها إلى رمسيس الثانى فى العام ١٢٧٥ ق.م، فى ساحة القتال أثناء معركة قادش. ومن خلالها، يقترح عليه وقف القتال(٢). وعندما جمع رمسيس الثانى كبار ضباطه لاستشارتهم، لم تكن إجاباتهم لتختلف مطلقًا عن ذلك الرأى نفسه(٣). وبالفعل، لم يكن الأمر، فى هذه الحال، يتعلق باقتناعهم وبشعورهم الدفين، ولكن لمجرد أن الظروف كانت تحتم ذلك وتستدعيه. فالهدنة ليست سلاماً. ولم تعمل هذه الاتفاقية التى أبرمت فى قادش إلا على وضع حد لمعركة حربية مدمرة لكلا الطرفين. ولقد بينت مجريات الأمور، بعد ذلك، أن هذه الهدنة، صارت بمثابة مرحلة أولى لسلام أكثر دواماً، تبلور على مدى ستة عشر عاماً.

والجدير بالذكر هنا، أن مملكة خيتا كانت هى البادئة بطلب عقد تلك الهدنة. ولا شك أيضاً أن مصر كانت تطيب لها فكرة استغلال أراضيها فى آسيا بدون خوض أى معارك حربية. فلقد خاضت من قبل، من أجل الاستحواذ عليها معارك متتالية على مدى ثلاثة قرون كاملة. ولكن هذا لا يمنع أبداً من أن العمل العسكرى، كان يعتبر، منذ أوائل الدولة الحديثة، بمثابة عنصر أساسى مهم من ثقافتها واقتصادياتها. وبهذا، لم تتقاعس عن خوض معارك متتالية لانهائية تبرر قيام قوة حربية ضخمة، تدعم

من امتيازات كبار ضباطها، وثراء الفئة المتميزة بها. خاصة أن هذه المعارك تبعد عن حدودها بحوالى ألف كيلومتر. وبالفعل، ففى الفترة ما بين العام السابع والعاشر من حكم رمسيس الثانى (١٢٧٤ - ١٢٧١ ق.م)، كانت الجيوش المصرية تتجه كل عام فى طريقها نحو سوريا، حيث استولت على وادى نهر العاصى، شمال قادش، ومدينة تونب ودابور.

ولكن، بالنسبة لمملكة «خيتا» فإن معركة «قادش» قد عادت عليها باستتباعات صعبة وعسيرة. فإن بنيتها الأساسية كانت أقل قوة وصلابة من بنية مصر. ولم تكن تتمتع بقاعدة فوقية متينة مثلها. وكانت تتكون من عدد متناثر من المقاطعات ومن الشعوب غير الكاملة الاستقلال. ويبدو أنها قد ضحت بأموال طائلة وبتنازلات دبلوماسية كبيرة من أجل تعبئة جيوشها التى خاضت بها المعركة. ولاشك أن ذلك قد دمر خزائنها، بل ونال أيضاً من مكانتها وهيبتها. وحتى عندما عاد «مواتاللى» من معركة «قادش»، وجد فى مواجهته حركة تمرد قام بها برابرة «الجاسجا» الذين كانوا يعيشون فى شمال الأناضول. وكان تمردهم يؤدى دائماً إلى النيل من أمن عاصمته المعروفة باسم «حاتوشا». وفى مثل هذه الظروف غير المواتية، أى فى اللحظة الحرجة، ظهر له من الجانب الشرقى عدو جديد قوى الشكيمة، هو مملكة آشور. فلقد انتهزت فرصة ما تعانيه خيتا من صعاب. فتعللت بعلة واهية لتحتل إحدى ممتلكاتها وهى هانيجالبات، أى مملكة «ميتانى» القديمة، الواقعة شرق الفرات. وبالإضافة لكل تلك المشاكل، واجهت مملكة خيتا خلال السنوات التى تلت معركة «قادش» مشكلة أخرى دقيقة تتعلق بالأسرة الحاكمة وسلالتها. فخلال العام التاسع من حكم رمسيس الثانى (١٢٧٢ ق.م) توفى مواتاللى، واعتلى العرش من بعده ابنه مورسيل الثالث. وكان مورسيل، يشعر بالقلق الشديد لما يتمتع به عمه خاتوسيل من شعبية كبيرة. فقد كان إدارياً محنكاً، وقائداً لا يقهر أبداً. خاض معركة قادش بكل شجاعة، وتنازل لابن أخيه عن العرش. ولكن مورسيل الثالث عمل على تجريده من المهام التى يشغلها الواحدة بعد الأخرى. وفى العام السادس عشر من حكم رمسيس الثانى (١٢٦٤ ق.م)، خشى هذا العم من أن يقضى ابن أخيه الملك على حياته، فدبر له انقلاباً وأطاح به من فوق العرش. واعتلى هو العرش ليصبح خاتوسيل الثالث. وهرب الملك المخلوع لاجئاً إلى مصر.

وليس هناك أدنى شك فى أن هذه المشكلة قد زادت من تعقيد الأمور بين خصمى قادش القديمين : فقد كانت خيتا لا تتوقف أبداً عن مطالبة مصر بتسليمها الملك السابق المخلوع مورسيل الثالث؛ والذى كان قد استرجع من جديد اسمه السابق كأمير لأوروحى تيشوب. أما مصر، فمن ناحيتها، فكانت تبين أنها تعتبره هو الوريث الشرعى الوحيد للملك مواتاللى. وتأزمت الأمور بين البلدين وازدادت تعقيداً. وبهذا، ففى العام ١٢٦٢ ق.م، توقع رمسيس الثانى احتمال هجوم الحيثيين؛ فتوجه إلى فلسطين على رأس جيشه. ولكن لم تحدث هناك أية مواجهة. وللمرة الثانية، انتهزت آشور الفرصة المواتية، وقامت فى العام التالى، بضم مدينة هانيجالبات إليها. وحاول خاتوسيل أن يواجه هذا الخطر الجديد. ولكيلا يقاتل فى جبهتين فى وقت واحد، حاول أن يزيل الخلاف القائم بينه وبين فرعون مصر باعتباره الأقل خطورة. فلقد بينت معركة قادش عدم مقدرة مصر وكذلك خاتى على الانتصار. وعموماً، فإن الهدنة التى وضعت حداً لهذه المعركة قد أوضحت أنهما قد يستطيعان التفاهم فيما بينهما. بل يقال إن مستشارية مملكة خاتى تتضمن فى إدارة محفوظاتها، وثيقة لاتفاقية، أبرمت قبل ذلك بحوالى ١٨٧ عاماً بين البلدين، خلال العام (٣٣) من حكم تحتمس الثالث (١٤٤٦ ق.م)، فى تلك الفترة التى كانت مصر تسيطر على منطقة الشرق الأدنى، وفى الوقت الذى كانت خاتى لا تعدو أن تكون سوى مقاطعة ضئيلة بآسيا الصغرى. وربما نستطيع، بشىء من حسن الظن، أن نعتبر هذه الوثيقة بمثابة دليل على قيام صداقة قديمة بين البلدين، بل كاستهلال لنوع من التضامن. وفى نهاية الأمر، لاشك أن مصر تعتبر بالنسبة لخاتى بمثابة غريمة لها تفصلها عنها مسافات شاسعة ومترامية الأطراف. أى أنها بعيدة عنها وعن بؤرة سياستها.

السلام بين مصر وخاتى

واستتباعاً لكل ما ذكر، أبرم البلدان فيما بينهما اتفاقية سلام بكل ما تدل عليه من معنى، خلال العام الحادى والعشرين من حكم رمسيس الثانى (١٢٥٩ ق.م)، أو بالأحرى اتفاقية سلام بين غريمتى قادش السابقتين[٤]. لقد وضعت هذه الاتفاقية حداً لصراع دام قرناً كاملاً. ونصت على أن يتوقف كلا الطرفين نهائياً عن القتال، وعلى ألا يتعدى أى طرف منهما على أراضى الطرف الآخر؛ وأن يتم تحديد الحدود فيما

سيناء وفلسطين فى عهد رمسيس الثالث

خريطة لمدينة بر رمسيس (نقلاً عن دورنر)

بينهما، والتى كانت تفصل ما بين ممتلكاتهما فى آسيا. فمن جهة الغرب، مواجهة للبحر الأبيض المتوسط، فيما بين البحر وجبل لبنان، كانت هذه الحدود المبهمة إلى حد ما، تفصل ما بين «جبيل» المصرية وبين مملكة «أمورو»، تلك المحمية الخيتية التى حاول رمسيس الثانى، بدون جدوى، أن يستولى عليها فى بداية حكمه. ومن ناحية الشرق، كانت تتطابق بجنوب قادش، الذى بقى تحت سيطرة خيتا؛ بالإضافة إلى المنفذ الشمالى «للبقاع» المصرى.

وبالرغم من بعض سمات التوتر المؤقت، فإن تلك الاتفاقية كانت تنص على نوع من التضامن العسكرى المتبادل بين الطرفين؛ بل هى تحدد أيضاً الاشتراطات الخاصة بتسليم المعارضين السياسيين اللاجئين لدى كلتا الدولتين. جملة القول، أنها منذ إبرامها، عملت على إرضاء كلا الطرفين : مصر وخيتا ولقد بدت فى أول الأمر بمثابة اتفاقية لمواجهة بعض الأحوال القائمة، ولكنها بعد ذلك تحولت إلى معاهدة بكل معنى الكلمة. وبذلك، كان الملوك المصريون والخيتيون يتبادلون الهدايا فيما بينهم ويتراسلون بالعديد من الرسائل(٥)، حيث يطمئن كل واحد منهم من الآخر على أحوال عائلته وجياده. وفى الوقت نفسة كانت الملكات، وسيدات الأسرة المالكة، من كلا الجانبين يتبادلن أيضاً الرسائل فيما بينهن. وأحياناً، كان رمسيس الثانى، يشير فى بعض رسائله إلى ما حدث من قبل فى معركة «قادش(٦)». وكان قد أرسل خطابات عديدة إلى خاتوسيل الثالث، الذى كان قد طلب منه أن يرسل له على وجه السرعة، بعض الأطباء المصريين المهرة، خاصة أن الأطباء المصريين كانوا يحظون فى ذاك الحين بشهرة رائعة. ومن أجل إغراء هؤلاء الأطباء بالحضور إلى بلده، كان ملك خيتا يلوح فى رسائله إلى الفرعون، ليقضى على ترددهم وتخوفهم (الاختلاف شديد بين جو مصر والأناضول) بالهدايا والمنح التى سوف يغدقها عليهم عند قدومهم. وهناك واقعة تتسم بالطرافة، وتبين عن نوع من السذاجة والقصور الفكرى اللذين اتسم بهما ذاك المقاتل الجسور ملك خيتا. فلعلنا نتخيل مدى الدهشة التى أصيب بها رمسيس الثانى ورجال بلاطه عندما وجد، أن خاتوسيل الثالث يطلب إليه فى إحدى رسائله، أن يرسل إليه أحد كبار أطبائه من أجل أن يجعل أخته البالغة من العمر ستين عاماً، تحمل جنيناً !! حقيقة أن رد رمسيس الثانى كان يتسم بالذوق والأدب، ولكنه أظهر

تحرجه الشديد للاستجابة لمثل هذا المطلب الصعب، من صديق يحرص كثيراً على إرضائه، أو بالأحرى صديق، يتسم تفكيره ببعض القصور، ويثق ثقة شبه خيالية بمقدرة أطباء مصر، معتقداً أنهم قادرون على تحدى الطبيعة البشرية. فأبدى الفرعون فى رده إلى ملك خيتا، ملاحظة رقيقة قائلاً له إنه لم يسمع أبداً أن امرأةً فى مثل هذه السن قد استطاعت أن تحمل. ومع ذلك، فقد أخبره أيضاً، أنه سوف يقوم على الفور بإرسال ما يطلبه من أطباء، بل وسيعمل من جانبه، على أن يصاحبهم أيضاً، بعض كبار السحرة. فهم قادرون، على أن يحققوا، فى هذه الحالة، نتيجة مرضية (٧)...

وأخيراً، فبداية من العام ١٢٥٠ق.م حيث كان الخطر الآشورى قد ازداد تفاقماً من جديد، رأت خيتا أن تزيد من توطيد أواصر علاقتها بمصر فعملت بالفعل على تحقيق ذلك : تزوج رمسيس الثانى فى العام الرابع والثلاثين من حكمه، ثم فى العام الأربعين (١٢٤٦ - ١٢٤٠ ق.م)، على التوالى من أميرتين حيثيتين. ويبدو أن خاتوسيل الثالث، عندما كان وريثاً للعرش، كان قد قام بزيارة مصر فى الفترة الواقعة ما بين هذين التاريخين، بناء على دعوة رمسيس الثانى له. وتم تصويره فوق إحدى اللوحات بأبى سنبل خلال تلك الزيارة(٨).

وبهذا، ففى عام ١١١١ ق.م نجد أن رمسيس الثانى، فى أواخر أيام حياته وهو على فراش الموت كان يتأمل ويفكر فى إنجازاته، التى لا بد أنه كان يشعر بالرضا عنها، ويأمل بكل ثقة فى أنها سوف تستمر. إنه لم يهزم أبداً، حتى فى «قادش». لقد عرف، كيف يعمل فى الوقت المناسب على إحلال السلام مكان الحرب. وبذلك، فقد عاشت مصر خلال حكمه، أزهى أوقات ازدهارها وتألقها، وكأن الزمن قد رجع بها إلى العصر الذهبى. ولكن، يجدر بنا أن نذكر هنا، أن العلاقات بين مصر وخيتا، بعد موت خاتوسيل الثالث (١٢٣٤ ق.م) قد تراخت وضعفت بشكل واضح. فلقد واجهت تودهاليا التاسع آخر ملوك خيتا (١٢٣٤ - ١١٩٠ ق.م) مخاطر عديدة، ولم ير أية ضرورة فى التمسك بتضامن أضر كثيراً ببلاده على المستوى العسكرى(٩). ولكن لم تمس معاهدة العام ٢١ مطلقاً. وأصبح بعد ذلك، «مرنبتاح»، هو الوريث المنتظر، والذى كان رجلاً ناضجاً؛ حنكته المعارك القتالية. وأظهر وهو يساند أباه خلال سنواته الأخيرة على العرش، الكفاءة والمقدرة المطلوبة من أجل تولى الملك. وبتولى تحتمس

الثالث الحكم، بدأت مصر تعيش أزهى حقبات قوتها وسطوتها، والتى لم تشهد لها مثيلاً من قبل. ومع ذلك، ومن بعده على مدى عشر سنوات، تلاشى كل ذلك تماماً.

٢- نهاية الأسرة التاسعة عشرة

تنقسم أواخر الأسرة التاسعة عشرة إلى حقبتين اثنتين : الأولى، سنوات حكم مرنبتاح العشر، والثانية، حقبة مبهمة مداها سبعة عشر عاماً. وخلال هذه الحقبة الأخيرة، تولى الحكم أربعة ملوك، منهم واحد مغتصب، وواحد صغير السن للغاية، وسيدة من النساء القليلات اللاتى استطعن ارتقاء عرش الفراعنة. ولا شك أن حكم مرنبتاح يتشابه، فى أسلوبه وإنجازاته مع حكم رمسيس الثانى (نُصُب ومنشآت ضخمة والعديد من الانتصارات العسكرية). ولكن حكم خلفائه اتسم خاصة بالقلاقل والاضطرابات الداخلية، والصراعات من أجل العرش، مثلما كان يحدث فى عصور مصر الموغلة فى القدم. وبعد أن انتهى عهدهم، فى ظروف تكاد تكون غامضة، جاءت أسرة جديدة، لا يعرف بالضبط منبتها الأصلى، أثارت الاستياء والاستهجان.

ولا ريب أن المشاكل التى اتسمت بها تلك المرحلة ينبع مصدرها -إلى حدٍّ ما- من طول فترة حكم رمسيس الثانى: (٦٧) عاماً. فمثله مثل لويس الرابع عشر، عاش رمسيس الثانى إلى ما بعد موت معظم أبنائه. وكان مرنبتاح ابنه الثالث عشر، ووريثه المنتظر، منذ وفاة الأمير خع إم واست، فى العام (٥٥) من حكم أبيه (١٢٢٥ ق.م)، هو الذى خلفه على العرش. فلا شك إذن أن مرنبتاح، كان، وقتئذ، قد تقدم فى العمر، عندما اعتلى العرش بعد أبيه. وبهذا، فلم يتبق فى الحكم سوى حوالى عشر سنوات (١٢١٢ - ١٢٠٢ ق.م)[١٠]، اتسمت خمس منها بالقلاقل والاضطرابات.

وفى بداية حكمه، و بالتحديد فى العام الثانى، قام بحملة ردع فى فلسطين لحركة تمرد انفجرت على ما يبدو إثر موت رمسيس الثانى. وفى العام الخامس من حكمه، هب لقمع محاولة غزو للدلتا، قامت بها شرذمة من الليبيين المتكتلين، يعاونهم بعض المرتزقة الإيجيين. وفى العام التالى، قام بإخماد إحدى الثورات فى النوبة. لقد وجد نفسه ملزماً بالقتال فى كافة الاتجاهات، التى حارب فيها الفراعنة من قبله. ولكن بفضل قوته وكفاءته، بقيت ممتلكات مصر بالخارج على هدوئها حتى غروب شمس هذه الأسرة (انظر: الفصل الرابع ٣).

ومات مرنبتاح. ولم يرتقِ العرش من بعده الوريث الشرعى (سيتى الثانى). ولكن ارتقاه المدعو (أمون مس)، ونكاد لا نعرف عنه شيئاً[١١]. ولكنه، على ما يبدو، فى إطار خلفاء الملك، كان ينحدر من سلالة تتعارض مع سلالة سيتى الثانى[١٢]. وربما أنه أب للملك المقبل (سيبتاح). عموماً، لم يستمر فوق عرش مصر سوى ثلاث سنوات (١٢٠٢-١١٩٩ ق.م). ومن غير المؤكد أن سيادته قد امتدت على كافة أنحاء مصر. وعلى ما يبدو، أنه كان يتمتع بسلطة محلية فى منطقتى مصر العليا والنوبة. أما بقية مناطق مصر، فكانت تخضع لحكم «سيتى الثانى». وعموماً، فقد عمل «سيتى الثانى» بعد ذلك، بحماس وعنف، على تدمير خراطيش ذلك الملك، وعلى إقالة كبار الموظفين وبعض علية القوم الذين كانوا قد ساندوه. وأهمهم هو الكاهن الأكبر لآمون، المدعو روما-روى؛ وكانت أسرته تحتكر، طوال حوالى خمسين عاماً، أرفع المناصب الكهنوتية فى طيبة[١٣].

وبتولى الملك الجديد العرش، ساد النظام الأسرى من جديد. ولكنه لم يبق فى الحكم سوى ست سنوات (١١٩٩-١١٩٣ ق.م). ولم يترك آثاراً تذكر[١٤]. فليس هناك سوى مقبرته فى «وادى الملوك»[١٥]؛ ومعبد بسيط متواضع كان يقع وقتئذ أمام معبد آمون الضخم بالكرنك، ثم أدمج بفنائه الفسيح[١٦] بعد ذلك. وإبان فترة حكمه، عرف كيف يحكم قبضته على الممتلكات المصرية بآسيا، حيث كان قد خاض بعض المعارك خلال حكم أبيه. وبهذا، كان مبعوثوه يستطيعون التوجه إلى غرب سيناء، لاستخراج أحجار الفيروز من «سرابيط الخادم»[١٧].

سيبتاح وباى

لم يكن لسيتى الثانى سوى ابن واحد، هو سيتى مرنبتاح؛ الذى توفى قبل أبيه؛ وتركه دون أى وريث ذكر. وعند وفاة الملك، ارتقى العرش المدعو رمسيس سيبتاح، لاشك أنه أحد أبناء أمون مس [١٨]؛ واستقر فى الملك ستة أعوام [١٩] (١١٩٣-١١٨٧ ق.م). وكان مصاباً بضمور فى إحدى قدميه، لا شك أنه نجم عن إصابته بمرض شلل الأطفال[٢٠]. ولقد عرف هذا الفرعون غالباً باسم سيبتاح. ويبدو أنه لم يكن قد تعدى الثانية عشرة من عمره عندما تولى الحكم. وهنا، قام أحد المقربين، ويدعى

باى[٢١]، والذى حمل وقتئذ لقباً فريداً من نوعه وهو «المستشار الأعلى لكافة أنحاء مصر»[٢٢]، بالسيطرة الفعلية[٢٣] على مقاليد السلطة. وعلى ما يعتقد، أن هذا الشخص ينحدر من أصل آسيوى[٢٤]. وكان خلال حكم سيتى الثانى يشغل وظيفة النديم الملكى[٢٥]. وترجع حظوته هذه إلى أنه تمكن من «وضع الملك فوق عرش آبائه[٢٦]»، أى أنه قدم لسيبتاح تعضيداً ومساندة، ما كان ليستطيع بدونها أن يتولى الحكم. وبالتالى، ومكافأة له على ما قام به، أغدق عليه مليكه الشاب اليافع عطايا وامتيازات هائلة[٢٧]. إذن، ها هو سيبتاح قد خلف سيتى الثانى. ولا شك أنه لم يكن أفضل المؤهلين لخلافته، ولكنه، على الأقل، كان يعتبر بمثابة آخر السلالة من الذكور فى نطاق العائلة الملكية. وفى العام الثالث من حكمه، وجد أنه من اللازم أن يغير اسمه من «رمسيس سيبتاح» إلى مرنبتاح - سيبتاح. وكان يرمى من وراء ذلك، إلى تأكيد قرابته من مرنبتاح، آخر الملوك الذى أقر الجميع بشرعيته فى توليه العرش. ولكن، وبالرغم من ذلك، فقد عارض الكثيرون أحقيته فى تولى العرش. فهناك «تاوسرت»، بصفة خاصة، وهى أرملة سيتى الثانى، كانت تعتبر ارتقاءه للحكم منافياً للشرعية والعدل، وفضيحة فعلية. بل لقد فكرت فى أن تتولى بنفسها العرش الذى تركه زوجها بموته[٢٨]. جملة القول، يبدو واضحاً، أنه لم يتولَ الحكم، إلا لأن حزباً من كبار موظفى الدولة وصفوتها قد رشحه لذلك وسانده، رغماً عنها هى ومن كانوا يعضدونها.

أما عن باى، فقد ذكر من خلال «بردية هاريس -١»، تحت اسم غامض هو «يارسو». وصف أنه مغتصب، يفرض سطوته وجبروته على الزعماء المحليين الذين يتقاسمون أنحاء البلاد. ومات باى فى حوالى العام الرابع من حكم «سيبتاح». وبعد مرور عامين، لحق الملك اليافع بمعلمه المخلص فى العالم الآخر. وبموته، ولعدم خلفه لأية ذرية، لم يعد هناك أى وريث من سلالة رمسيس الثانى مباشرة، من الذكور. وبذلك، فبعد نيتوكريس بألف عام، فى أواخر الدولة القديمة، وبعد حكم نفروسوبك رع بستة قرون، فى أواخر الدولة الوسطى، وبعد حتشبسوت بمائتين وخمسين عاماً، إبان الأسرة الثامنة عشرة، وللمرة الرابعة، استطاعت إحدى السيدات، وهى «تاوسرت»، أن تتولى حكم مصر. ولم تستمر فوق العرش سوى عامين اثنين فقط (١١٨٧ - ١١٨٥

ق.م). ولم تقم بأية إنجازات دائمة[٢٩]. وانصب اهتمامها فقط على اضطهاد ذكرى سلفها بثأرها وحقدها. وبالرغم من أنه كان يوليها الكثير من الاحترام والاعتبار، فقد أمرت، بعد موته، بتحطيم خراطيشه أو بتحويلها إلى خراطيش خاصة بزوجها المتوفى. واعتبرته مغتصباً. وبالتالى، عملت على محو ذكرى حكمه الذى استمر ستة أعوام. وبموتها، محيت تماماً سلالة رمسيس الثانى؛ ومعها تلاشت الأسرة التى كان قد جسّدها أعظم تجسيد وأروعه.

٣- «ست نخت» ونشأة الأسرة العشرين

بدأت مصر تفتقر إلى «راع» يرعاها بكل معنى الكلمة. وأصيبت إدارة الدولة وجيشها بالقلقلة والاضطراب؛ وبالتالى، تلاشت وظائفها[٣٠]. ومثلما يحدث دائماً فى كل مرحلة انتقال بتاريخ مصر، أخذت العديد من السلطات تتناحر مع بعضها البعض، لتغتصب السلطة السياسية المحلية. واستتبع التصدع الذى أصاب الكيان الحاكم نوع من الرجوع إلى البربرية. وصار الحق فى جانب الأقوى[٣١]. وخشيت النساء من ممارسات العنف فلزمن بيوتهن[٣٢] لا يبرحنها. وعمل التدهور الذى أصاب الدولة على عرقلة سريان الشئون الاقتصادية، فهى عادة التى تمسك أساساً بزمامها. وبما أن الشعائر الدينية كانت ترتبط ارتباطاً وثيقاً بتلك النواحى الاقتصادية، فلقد توقفت تقريباً هذه الطقوس واستحالت ممارستها. وبالتالى، هددت المجاعة عدداً كبيراً من أفراد الشعب المصرى الذين يعملون فى نطاق المعابد. بل إن هذه المعابد نفسها قد أهملت، وبدأت تنهار وتتحول إلى أطلال. ولم تنج من ذلك معابد المدن المقدسة مثل (أون) هليوبوليس ومنف[٣٣]. وتم الاستيلاء على العبيد[٣٤] الذين يعملون بها. وتشتتت أو سرقت[٣٥] مواشيها. ونضبت غلات حقولها. وأصبح كهنتها، أو بالأحرى من جاهدوا من أجل الاستمرار فى ممارسة الطقوس[٣٦] الدينية بها، عاجزين تماماً عن تطبيق القواعد والأسس التى تقى المعابد من عمليات السخرة، والاستيلاء، والمصادرة[٣٧]. والأدهى من ذلك، أن مجموعات من الليبيين، قد لاحظوا عدم وجود أى قوى نظامية لردعهم عن اختراق حدود مصر، فعاودوا محاولاتهم القديمة من أجل التقدم نحو الشرق. واستطاعوا أن يحتلوا الجزء الغربى من الدلتا؛ وقاموا بغزو مدن إقليم سخا[٣٨]. ومن أقصى الجنوب، ظهرت مجموعات

أخرى منهم، من قلب الصحراء، وهددوا بغزواتهم المدن الكبرى بمصر العليا ومصر الوسطى. ومن سوء الحظ بالنسبة لتلك المدن كمثل ثنى، والأشمونين، وأسيوط أنها تقع على ضفة النيل الغربية. ولم يعط هؤلاء الغزاة أى توقير أو احترام لمدينة أبيدوس أكثر المراكز الدينية قداسة بمصر(٣٩). وفى ذاك الحين نفسه، قام بعض الآسيويين، بعد أن جلبهم الأمراء المحليين للاستعانة بهم كجند مرتزقة، باحتلال شرق الدلتا، مثلما حدث بالضبط فى عصر ملوك الهكسوس البغيض(٤٠).

وبالنسبة لمفهوم الإنسان المصرى خلال عصر الرعامسة، اعتبر الفرعون الشرعى سليلاً لرب الأرباب؛ وبالتالى، أضفيت عليه - طبيعياً - مميزات جسمانية، وأدبية تؤهله لتولى الحكم. ولكن مغتصب العرش، يفتقر تماماً لتلك المميزات، ولا يعدو أن يكون مجرد ساحر مبتدئ، تعمل كل أفعاله، حتى الحسن منها على التقهقر بمصر إلى حالة الفوضى والضياع التى كانت سائدة قبل خلق العالم. وبهذا، وكما لاحظنا آنفاً،فى قراءتنا السابقة، أن سيتى الثانى هو فقط، فى فترة من الفترات، الذى اعتبر فرعوناً شرعياً جديراً بالعرش(٤١)، ويتضح لنا أيضاً لماذا كان اعتلاء «سيبتاح» للعرش يثير الرفض والنفور. إنه بحداثة سنه، وإعاقته الجسمانية، وتبعيته «لباى»، يبدو كتجسيد كاريكاتورى لنقيض صورة الفرعون، الرياضى، المتسلط القوى، والمقاتل الجسور، خلال عصر الرعامسة. وعلينا أن نتخيل مدى دهشة وذهول هؤلاء الضباط، أبناء القادة العسكريين الذين عملوا فى جيش رمسيس الثانى، عندما وجدوا أن «سيبتاح» هو قائدهم الاسمىّ. حقيقة ليس هناك ما يثبت عدم ولائهم له؛ ولكن من المعروف أن مؤسس الأسرة العشرين قد انبثق من وسطهم نفسه.

عندما توفيت «تاوسرت»، ولم يكن هناك ما يثبت أنها قد خلعت عن العرش،استولى «ست نخت» على مقاليد الحكم، ونحن لا نعرف عنه الكثير. ولم نستطع حتى الآن معرفة اسمه السابق لاعتلائه العرش(٤٢). وليس هناك أيضاً ما يثبت أن هناك صلة قرابة بينه وبين العائلة الملكية بالأسرة السابقة. ولا شك مطلقاً، أنه لو كان الأمر كذلك، ما كان ليتوانى، هو أو ابنه رمسيس الثالث الذى كان يكنُّ إعجاباً كبيراً لرمسيس الثانى، عن ذكره وتأكيده. وتبدو قائمة أسمائه وألقابه أكثر تعقيداً وتشابكاً من قائمة أسماء وألقاب أى فرعون من الرعامسة. فاسمه كملك هو : «أوسرخعورع

ستب إن رع مرى آمون»، «وست نخت مرى آمون رع(٤٣)». وهو يفصح عن نوع من «الفبركة» المصطنعة الساذجة لبروتوكول ملكى، من أجل رجل من عامة الشعب. ولابد أن اسمه الفعلى كان «سيتى» أو «ست نخت». وزوجته كانت تدعى تى مرن عاست. أنجب منها رمسيس الثالث المقبل. ولا نعلم عما إذا كان قد أنجب منها أبناء آخرين أم لا. ولعلنا نلاحظ أن اسمه كملك قد تضمن أسماء ست، ورع، وآمون؛ أى هؤلاء الآلهة الذين اعتبروا رمزاً لقوات الجيش الثلاث، التى كانت تتخذ مواقعها فى بر رمسيس، خلال عصر الرعامسة. وبهذا، نستطيع أن نستنبط أنه ينحدر من أسرة من العسكريين بشرق الدلتا. ففى تلك المنطقة، كانت كثير من الأسماء تتكون من اسم «ست»، «إله» بر رمسيس. وهذا المكان نفسه، قد انبثق منه، قبل ذلك بحوالى قرن مؤسس إحدى الأسرات الجديدة وخلال حكم رمسيس الثالث، فإن «نائب الملك فى كوش» حورى ابن حورى، و«مدير الخزانة الملكية» بيرى المعروف باسم سوتخ إم حاب والكاهن الشعائرى الأكبر «يورى»، وربما أيضاً، المشرف العام على مدينة هابو ميرى باستت، قد انحدروا جميعًا من بوباستيس (تل بسطة)؛ المعروفة حاليًا باسم الزقازيق، التى تقع على بعد حوالى (٥٠) كيلومتراً جنوب بر رمسيس. ولا يستبعد أبداً أن «ست - نخت» نفسه منبته أصلاً من تلك المنطقة التى أفرزت لمصر مجموعة من كبار الشخصيات(٤٤) وقتئذ.وربما أن الفرعون قد أنعم عليهم بمثل هذه المناصب الرفيعة، لكى يكافئ من خلالهم، بعض الأفراد، والعائلات والأصدقاء، الذين كانوا قد ساندوه وعضدوه من أجل ارتقائه للعرش.

حكم «ست نخت»

لم يكن «ست نخت» ينحدر من أية سلالة ملكية. ولذا، فإن تتويجه ملكاً على مصر قد تم وكأنه اختيار من جانب الآلهة : فلقد ضاقت آلهة مصر مثل «ست» وغيره، من القلاقل والاضطرابات التى تعانى منها البلاد؛ وتاقوا إلى استعادتها لمؤسساتها التقليدية؛ وبهذا، فقد تبينوا ما يتحلى به من صفات طيبة، فعملوا، على ما يبدوعلى اختياره ليكون ملكاً على الملايين من البشر(٤٥). وعلى ما يُعتقد أيضاً، أنه، عند موت «تاوسرت»، قد تم اختياره بشكل عملى، كملك لمصر بواسطة معاونيه ومعضديه، وقادة الجيش، ورجال الدين والإدارة. ولكن العنصر الأساسى الذى سمح بتتويجه هو:

حلمـا تم فى ظروف أخـرى من تاريخ مـصـر، من أجل أن يتناغم الواقع مع الأيديولوجية، لجأ الكهنة إلى حيلة وهى تمثال الإله ست. ولقد تم ذلك فى نطاق معبده فى بر- رمسيس. وكان الهدف من وراء ذلك، هو إيهام الجميع، بأن الآلهة قد وقع اختيارها على الملك الجديد ضمن الحشد الكبير كله[٤٦].

لقد اتخذ ست نخت مقر حكمه فى قنطير، أى المقر الرئيسى للفراعنة منذ عهد سيتى الأول. وكان أول ما عمل من أجل تحقيقه، هو بسط سلطته الملكية على كافة أنحاء مصر. ويبدو أنه قد قام بحملة قمع وردع[٤٧]، ضد الحكام المحليين المغتصبين ومجموعات الأجانب المحتلين لبعض المناطق. ولم تنته هذه الحملة إلا فى اليوم العاشر من الشهر الثانى بفصل الشمو، فى العام الثانى من حكمه[٤٨]. وفى هذه المناسبة أمر بأن تنصب، فى معبد خنوم بالفنتين، لوحة تذكارية عن الانتصارات التى حققها فى أقصى جنوب مصر[٤٩]. ومنذ ذاك الحين، استطاع أن يركز اهتمامه على تنظيم إقامة الشعائر الدينية وممارسة حياة اجتماعية متطورة[٥٠]. وأمر بتعيين شخص يدعى «باك إن خنسو»، ابن أحد رؤساء العاملين بأملاك آمون يسمى «أمنمؤبى»[٥١]، كرئيس على كافة أملاك آمون. وفى الوقت الذى كان الملك قد وصل إلى سن الشيخوخة، كان ابنه، رمسيس الثالث المقبل، الذى ناهز الأربعين من عمره، وكما أومأ هو نفسه إلى ذلك فيما بعد، يقوم بممارسة مهام الحكم الأساسية: «لقد كنت القائد الأعلى لكافة بقاع مصر، وأهيمن على كل أنحاء الدولة، بعد أن جمعت فى كيان واحد[٥٢]». ويتضح أن الإدارة التى كان يسيطر عليها، بالرغم من القلاقل التى سادت أواخر الأسرة التاسعة عشرة، قد بينت منذ عهد سيتى الثانى، عن جدارة واستمرارية فائقة، ويلاحظ ذلك خاصة فى أعلى مراتبها: «حورى»، وزير سيتى الثانى، و«حورى» ابن «كاما»، نائب الملك فى كوش، الذى عُيِّن فى هذه الوظيفة فى العام السادس من حكم سيبتاح. وجميعهم، قاموا، على التوالى بخدمة «سيبتاح»، و«تاوسرت»، و«ست نخت»، و«رمسيس الثالث»[٥٣]. وعن الوزير حورى، فهو ابن أحد كبار كهنة «بتاح» يدعى أيضًا حورى، ابن الأمير العظيم «خع إم واست». وكان على ما يبدو أحد أحفاد رمسيس الثانى، ولكنه لم يدرج أبدًا فى قائمة المرشحين للعرش. وربما أن انحداره من سلالة نبيلة هو الذى ساعده على استمرارية حياته السياسية لفترة طويلة.

وقد تبدو نصب ومنشآت «ست نخت» قليلة العدد وضئيلة الشأن إلى حد ما، ولكنها من ناحية توزيعها الجغرافى، تبين أن سطوته كانت تمتد إلى كافة أنحاء مصر، والنوبة حتى سيناء. وفى هليوبوليس عمل على إصلاح وترميم معبد الإله «حورس خنتى بيرو»، الذى قال عنه رمسيس الثالث، بعد ذلك، إنه أبوه[٥٤]. وفى «منف»، كان هناك شخص يدعى «تا إرى» اشتهر باسم «أوسرماعت رع نخت»، قام خلال فترة حكمه بإدارة شئون بنات وأبناء الملك الصغار، بالإضافة إلى الحريم الملكى.[٥٥] وأمر «ست نخت» بأن يزين مدخل المعبد الكبير الخاص بالإله «بتاح» بركائز للأبواب من حجر الصوان الأصفر اللون، حيث لا تزال بعض بقاياها فى مكانها حتى الآن. كما نقش خراطيشه على الجانبين فوق العتب العلوى للصرح[٥٦]. وفى منطقة مصر الوسطى، عمل على تأسيس مؤسستين زراعيتين، استمر استغلالهما حتى عهد رمسيس الخامس. وكانت أولاهما مخصصة من أجل تموين ممتلكات الإله «سوبك رع» بـ «أناشا» (حاليًا نزلة العمودين)[٥٧]؛ أما الثانية فقد استُغلت من أجل إنتاج القرابين المخصصة لطقوس أحد تماثيل الملك فى مين نخت (على بعد حوالى عشرة كيلومترات شمالاً، بمنطقة سمالوط)، بالإضافة إلى إمدادها معبد موت بالكرنك[٥٨] بما يلزمه من منتجات تموينية زراعية.

وفى طيبة، على ضفة الكرنك، قام ست نخت أيضًا بتشييد معبد صغير أو ربما اغتصبه، يفتح بابه من ناحية الجدار الشرقى على الفناء الثانى لمعبد الإلهة موت[٥٩]. وبالرغم من ضآلة حجم هذا المعبد، الذى كان يسمى «بيت ست نخت مرى آمون فى ممتلكات آمون»، فلقد خصصت من أجله، بعض المساحات الزراعية فى منطقة مصر الوسطى[٦٠]. وعلى الضفة الأخرى، توجد مقصورتان خاصتان بمعبد بتاح، القائم على الطريق البادئ من دير المدينة حتى وادى الملكات؛ نجد بهما مناظر تمثل الملك، بجوار ابنه، فى العديد من مشاهد تقديم القرابين[٦١]. وأخيراً، وخارج حدود مصر، أرسل حملة إلى سيناء حيث مناجم أحجار الفيروز «بسرابيط الخادم»[٦٢]. كما مثل فوق إحدى لوحات «غرب عمارة»، موقع الإدارة الاستعمارية المصرية بمنطقة أعالى النوبة، بمصاحبة «نائب الملك فى كوش»، «حورى بن كاما».[٦٣] ولم تزد فترة حكم ست نخت على ثلاث سنوات[٦٤]. ويبدو أن قصر مدة حكمه، بالإضافة إلى بعض

المشاكل التقنية الخاصة ببناء مقبرته (رقم ١١) قد حالت دون إتمام هذه المقبرة بصفة نهائية .وكان من المفترض بناؤها بوادى الملوك. وبهذا، فقد تقرر دفنه، فى أحدث المقابر الواقعة بالجبانة وتحمل رقم (١٤) . وكانت قد أعدت من أجل «تاوسرت» . ولقد استغلت فترة السبعين يومًا التى تتم خلالها «شعائر أوزيريس» التقليدية المعتادة، أى بالتحديد عملية التحنيط(٦٥)، من أجل إجراء بعض التعديلات والتجهيزات وجعلها مطابقة لشخصية ساكنها الجديد. وبداخل هذه المقبرة حفر من أجله قبو للدفن خاص به. وبهذا بقى جثمان الملكة «تاوسرت» فى القبو الخاص بها .وتم إخفاء صورها وخراطيشها تحت طبقة من الجص، نقشت فوقها صوره وخراطيشه هو.أما عن المقبرة رقم (١١)، فبعد أن تمت بها بعض الأعمال والتغييرات، خصصت من أجل رمسيس الثالث (الفصل الثالث ٥٠) .

وكإضافة لازمة وضرورية من أجل أية مقبرة ملكية، شيد «ست نخت» معبداً جنائزياً على الضفة الغربية لطيبة (خلال عهد رمسيس الثالث، ورمسيس الرابع، كانت هناك شعيرة دينية، هى شعيرة «المقعد المحمول»، أو المحفة التى يحمل فوقها تمثال للملك(٦٦) ليتم الطواف بها فى موكب كبير) . ومع ذلك، فلم تتبق أية آثار لهذا المعبد. وقد اعتقد البعض، أنه قد يكون أحد المعبدين الصغيرين المجهولى الأصل اللذين عثر عليهما فى شمال مدينة هابو فى فترة الثلاثينيات من هذا القرن، ومع ذلك فليس لدينا ما يثبت هذا الاعتقاد(٦٧) . ولكن ابنه، رمسيس الثالث، من ناحيته، أمر بأن يشيد من أجله، للغرض نفسه، معبداً جنازياً صغيراً (قام بإدارته خلال فترة حكمه كاهن يدعى «مراس إيتف») بأبيدوس. ولقد تبقت منه بعض آثار لجدرانه(٦٨) . ولا شك أنه كان قد أُقيم، فى موقع، ما بين معبد سيتى الأول وبين المعبد الكبير الخاص بأوزيريس بكوم السلطان(٦٩) .

الفصل الثانى

بداية الحكم

١-تتويج رمسيس الثالث

إن ماضى مصر المجيد كان يبدو وقتئذ بعيداً للغاية. فمن هم الذين يستطيعون أن يتذكروه ؟ ها هى ثمانية عشر عاماً قد مضت على وفاة «مرنبتاح»، وثمانية وعشرون عاماً على وفاة رمسيس الثانى. وفى مثل هذا الزمن كان الأمل فى امتداد الحياة، لا يتعدى، فى أفضل الظروف والأحوال، ستين عاماً (١) ؛ فمن كانوا فى العشرين من عمرهم فى ذاك الوقت البعيد، ها هم قد وصلوا حالياً إلى سن الشيخوخة. ولا شك أن القليلين جداً ممن بلغوا التسعين من عمرهم، يستطيعون أن يتذكروا، تلك المعاهدة من أجل السلام، التى كانت قد أُبرمت منذ حوالى خمسة وسبعين عاماً، مع شعب لا يتذكره أحد؛ والتى ظلت تُحترم حتى هذا الحين.

«لقد تسلمت مقاليد الحكم من والدى وسط صيحات وهتافات الفرح(٢)». فها هو رمسيس الثالث، وقد احتشدت جموع الشعب لتحيته والهتاف له. فاليوم هو السادس والعشرون من أول أشهر فصل «الشمو»(٣)، بالعام الثانى أو الثالث من حكم «ست نخت». إنه تقريبًا، الشهر الأول من عام (١١٨٤) ق.م(٤)، حيث ارتقى رمسيس الثالث العرش. ولا شك أنه كان قد ناهز الأربعين من عمره(٥) . وكان خليفة لملك لم يرتقِ الحكم وفقاً لحقه فى الوراثة. ولذا، عمل رمسيس الثالث، من ناحيته، على تأكيد شرعية تتويجه، وألقى الضوء تماماً على توليه الحكم وفقاً لحقه الوراثى، حيث يقول :

«لم أرتكب أى عمل استبدادى ولم أعمل على إزاحة أحد من منصبه»(٦) . ولقد كانـ ذكرى هذه المناسبة يتم إحياؤها كل عام «بمدينة هابو» من خلال احتفالات استمر إقامتها حتى أواخر هذه الأسرة(٧) . وبداية من العام الثانى والعشرين من حكمه، كانـ الاحتفالات بذكرى هذه المناسبة، فى الكرنك والأقصر، تستمر حوالى عشرين يوماً يعمها الفرح والابتهاج ويكثر بها الطعام والشراب(٨) .

«مات الملك ! عاش الملك !» مثله كمثل ملوك عصرنا الحديث، كان أى فرعون يقوم، فور وفاة الملك السابق، بممارسة كافة مهامه الملكية . ومع ذلك، فالديانة المصرية تحتم، ألا يتواجد معاً فى العالم الدنيوى ملكان فى وقت واحد، حتى لو كان أحدهما مجرد جثمان لا أثر فيه للحياة . وبهذا، فبعد أن يتم دفن الفرعون المتوفى، أو مبدئياً بعد انقضاء السبعين يوماً اللازمة لتحنيط جثمانه، يتم الاحتفال الرسمى لتتويج الملك الجديد بصفة نهائية وتوليه العرش. ولأسباب رمزية كان يراعى مطابقة موعد ذاك الاحتفال مع بداية أية دورة من دورات الطبيعة، مثل : الإقمار، أو بداية العام الجديد. «فخلال حكم رمسيس الثالث، لم يتم الاحتفال بهذه المناسبة إلا بعد انقضاء مائتى يوم من توليه الحكم؛ حتى يتطابق موعده مع أول أيام فصل «البرت» أى الإنبات، ويعتبر بمثابة الفصل الثانى بالتقويم المصرى. وهو يتلو مباشرة الأعياد الكبرى التى تقام من أجل الإله «سكر». وتبين الأعياد بموت ثم بعث هذا الإله من جديد بعثاً رمزياً، عن تجدد الطبيعة(٩) .

تنصيب رمسيس الثالث

تقتضى التقاليد أن يتوجه رمسيس الثالث إلى الكرنك، بجوار آمون من أجل أن يتم هذا التنصيب(١٠) . وتحتم الأعراف العريقة القدم الخاصة بهذه المراسم، التى أمدتنا بعض المصادر بتفاصيلها(١١) بأن: يتم إيقاظ الملك، بقصره، فى فجر اليوم المحدد لإقامة هذه المراسم. ويوقظه من نومه العميق هذا، الكاهن الذى سيقوم بأداء الطقوس. ويعتبر كل ذلك بمثابة تمثيل صامت يرمز إلى انتقال الملك من الموت إلى الحياة، ومولده من جديد من أجل ممارسة وظيفته الملكية. وخلال حكم رمسيس الثالث، يبدو أن القصر الذى تم فيه هذا «المشهد» الأول كان يقع، على ما يبدو، فى الأقصر (ولم

يكن المقر الملكى بمدينة هابو الذى كان ينزل به خلال تنقلاته بطيبة قد شيد بعد) . ولا شك أن الملك قد وصل إلى الكرنك من خلال الطريق الذى اصطفت تماثيل الكباش على جانبيه، من أجل أن يدخل فى ممتلكات آمون عبر طريق الصرح العاشر، فى أقصى جنوب «الطريق الخاص بالطواف». ويتراءى هذا الطريق فى هيئة ممرات متتالية تتجه جنوباً، نحو معبد «موت» بدءاً من الفناء المستطيل الذى يفرق ما بين الصرحين الثالث والرابع بالمعبد.

ولم يكن الملك ليستطيع دخول المعبد فعلاً إلا بعد أن يتم تطهيره تطهيراً شعائرياً. وفى الفناء الذى يفرق ما بين الصرحين السابع و الثامن، كان يقف أربعة كهنة، يقومون بدور كل من الإله «حورس»، والإله «تحوت»، والإله «ست»، والإله «دون عاوى». وكانوا يمسكون بإناء معدنى ثمين. ثم ينثرون على جسده بعض الماء الطهور. وفى الوقت نفسه يتلون بعض العبارات الخاصة بهذا الشأن. وبذلك، يزيلون عنه أى دنس قد يحمله معه بدون أن يدرى إلى داخل المعبد. وفى الوقت نفسه، تسبغ عليه سمات الخصوبة التى تتضمنها مياه النيل، والمقدرة على الهيمنة على فيضان النيل السنوى، ليتسم حكمه بالخيرات والنماء.

وتنتهى عملية التطهير هذه، إذا سمح التعبير بذلك. وغالباً، يقوم الملك بتكرارها على مدى سنوات حكمه، كلما قام بصفة رسمية بزيارة أحد المعابد. ولقد أمر بأن تمثل مناظرها، ومعها مراسم الاحتفال بتتويجه، على الواجهة الشمالية للصرح الثامن بالكرنك(١٢) . وبعد عملية التعميد هذه بواسطة الماء الطهور، يتم دهن جسم رمسيس الثالث، ببعض الزيت المقدس، ويلبس ملابس مزينة بالعلامات الرمزية، ثم يدخل إلى المعبد. وفى المعبد يجد فى انتظاره جمعاً قد تم اختيار أفراده من الفئة المتميزة من كبار موظفى الدولة، وعلية القوم، وكبار الكهنة. ويقوم كاهنان جديدان، وقد تزينا بالرموز الدالة على «آتوم ورع وحورآختى»، بإلقاء هذه التراتيل : «ها هما التاجان نضعهما على رأسك، إنهما زينة أبيك رع، حتى تتمتع بعدد من اليوبيلات مثل تاتنن!». ويقومان، بأسلوب رسمى، بوضع تاج مركب ومعقد الشكل فوق رأسه، وهو التاج «آتف». ويبدو أن وضع هذا التاج على رأس الملك، كان يرمز، إلى عملية نقل

الملكية من الملك المتوفى، الممثل بأوزيريس، إله الموتى، إلى الفرعون الجديد المجسد لحورس، ابن أوزيريس وخليفته. وفى الحين نفسه، فإن ترتيل الصيغة الشعائرية يعمل على مطابقة الملك الذى توج لتوه بأحد أبناء رب الأرباب رع، ويدعو له، بأن يكون عدد مرات احتفاله بيوبيله مثل عدد مرات احتفال «تاتنن»، وهو أحد تجليات «بتاح» إله منف الذى يعده بفترة حكم لانهائية.

وبعد انتهاء هذه الشعيرة، التى تتضمن فى آن واحد العديد من المفاهيم المتباينة، والتى تعبر عنها آلاف من الطقوس الدينية، يتم قيادة الملك الجديد إلى قدس الأقداس بالمعبد. وهناك، يتلقى الموافقة من آمون على تولية العرش؛ فها هنا، تبلغ هذه المراسم لحظة ذروتها. بعد ذلك، يقوم كاهنان آخران، وقد تزينا بالرموز الدالة على «موت وخونسو»، أى زوجة الإله وابنه، بخرق الهدوء التام المخيم على القاعات الخاوية التى يعبرانها وهما يعزفان بصلاصل معدنية. وعند وصولهما إلى الملك، يمسكان بيده لقيادته إلى عتبة «الناووس»، الواقع فى عمق المعبد، حيث لاتصل ضوضاء العالم الخارجى إلا بالكاد، وحيث روعى، فى طريقة بنائه، أن يسوده الظلام الدامس. ولكن، فى لحظة واحدة، يُهيأ أن أبواب الناووس وتُعرف باسم «أبواب السماء» قد فتحت من تلقاء نفسها أمام الملك. ومثلما يبزغ ضوء الشمس من وراء الأفق عند الفجر ليبدد ظلمات الليل، يسطع فى وجهه بغتة ضوء باهر تسلطه نحوه عشرات المصابيح والأنوار. وفى وسط أدخنة البخور، وركام التماثيل الصغيرة المحطمة، وبين موائد القرابين المتخمة بشتى أنواع الطعام، والموائد الصغيرة التى تحمل الأوانى والأشياء الثمينة العديدة، كل هذه الأشياء التى كان أجداده قد قدموها كقرابين على مدى قرون عديدة، قُدِّر له، فى نهاية الأمر، أن يتطلع إلى تمثال أبيه «آمون - رع»، أكثر التماثيل قداسة، المكسو بطبقة من الذهب الخالص، المرصع بالمجوهرات المبهرة. هذا التمثال الذى لم يحظَ بالنظر إليه وجهاً لوجه سواه هو، وبعض الكهنة المتميزين، والذى يبدو أن أضواء ذاك الفجر الرمزى قد انبثقت منه. وبدا تمثال آمون رع، بسبب حيلة ما من جانب الكهنة بشكل مستتر، وكأنه يميل فجأة نحو الملك، مثلما يحدث عند استطلاع رأى الوحى الإلهى. وهنا شعر الملك بشعور قوى غامر. ولحظتها، عرف أن الإله وافق على تتويجه ملكاً، وقدَّر له حكماً يدوم «ملايين السنين».

وفى نهاية مراسم التتويج هذه، والتى كانت تسبقها أو تتبعها، على ما يبدو، مراسم مماثلة بمعبد الأقصر[١٣]، كان الملك يظهر عدة مرات، على باب الناووس، مرتدياً، على التوالى، بعض التيجان. وهى نفسها التى يرتديها ممثلة فى النقوش البارزة فوق جدران بعض اللوحات. بعد ذلك، يخرج الملك منتصراً من المعبد، وسط هتافات الجموع الحاشدة، وقد ارتدى «البسشنت»، أى التاج المزدوج المكون من تاجى مصر العليا والسفلى، وقد تزين أيضاً بالرموز الملكية. ويقول عندئذ: «إن الآلهة والآلهات يطلقون صيحات الفرح والابتهاج، فلقد تلقيت شارات الربين والرتبين، وبيدى، أمسكت، بالمروحة، والصولجان «حقات» والصولجان «آمس». والجدير بالذكر، أن رمسيس الثالث، قد أمر بأن تنصب مجموعة من التماثيل ذات سمات نادرة، فى «مدينة هابو»، خلال فترة حكمه، إحياءً لذكرى تتويجه هذا. ومن خلالها، يتمثل الملك فى حجمه الطبيعى، وقد أمسك «المكس» (أى الصندوق الأسطوانى الشكل الذى يضع فيه الملوك، عادةً، العقد المكتوب الذى ينص على أن الآلهة قد أسبغت عليهم الحق فى تولى عرش مصر)، فى الوقت نفسه الذى يتراءى فيه الإلهان حورس وست، الممثلان لجزءى مصر، وهما يضعان تاج مصر العليا[١٥] فوق رأسه.

ألقاب رمسيس الثالث

لم يكن المصريون القدماء يعلمون شيئًا عن أسلوبنا الحديث فى إضفاء أرقام متدرجة على أسماء الملوك الذين يحملون الاسم نفسه. ولكنهم، كانوا يميزون بين ملك وآخر بواسطة الأوصاف.، فكانوا يعرفون رمسيس «الثانى» باسم مضمون دينى هو: رمسيس مرى آمون (أى رع هو الذى أنجبه، محبوب آمون). أما رمسيس «الثالث»، فهم يسمونه: رمسيس حقا إيونو (أى رع، رب هليوبوليس، هو الذى أنجبه). ولكن الملوك الفراعنة لم يكونوا ليكتفوا باسم واحد. إن كل ملك يتسمى أساسًا بخمسة أسماء، إن لم يكن أكثر. إنها عدة صفات تبدو بمثابة ألقاب، تعبر عن وظائفهم التى أطلقتها عليهم الأيديولوجية المصرية فى الحياة الدنيا. وبهذا، كبداية، يوصف الفرعون بأنه «حورس» أى بمثابة تجلٍ جديد لابن وخليفة أوزيريس، أول ملك أسطورى حكم مصر. وبعد ذلك، نجد أنه موضع حماية الربتين: «نبتى» أى من ترعاه «نخبت» الكاب و«واجت» بوتو، الربتان اللتان تمثلان مصر العليا والسفلى، ونجدهما، غالبًا، فى

النقوش البارزة، على هيئة طائرين جارحين يحلقان فوق رأسه. ولكن، كان يخلع على الفرعون أيضاً لقب «حورس الذهبى» أو «الصقر الذهبى». ونحن لا نعرف مضمون هذه العبارة. وهو أيضاً «ملك مصر العليا والسفلى». «ابن رع»، وهذا آخر الألقاب وأكثرها أهمية، وهو يعبر عن بنوة الملك الحاكم للإله الشمسى الذى أصبح على مر التاريخ، من أكثر الآلهة أهمية فى نطاق مجموع الآلهة المصرية. وخلال عصر الرعامسة عامة، وإبان عصر رمسيس الثالث خاصة، يتراءى فيما بين لقبى «حورس الذهبى» و«ملك مصر العليا والسفلى»، لقب آخر، ربما كان هو اللقب السادس، وهو لقب «إيتى» أى «الملك».

وعادة يتبع كل من هذه الألقاب بعض الأسماء والذى يتسم معظمها بمفهوم أيديولوجى واضح. وإذا كان اسم «ابن رع» هو الاسم الشائع الفعلى للملك أى الذى حمله منذ مولده، فإن اسم «ملك مصر العليا والسفلى»، لم يكن بمثابة اسمه الأول "Prenom"، بل هو اسمه كملك، يخلع عليه، لحظة تتويجه؛ وغالباً، كان يصبح دارج الاستعمال مثل اسمه الفعلى.

وعندما يتولى الفرعون مقاليد الحكم، فإن ألقابه، التى تقوم الآلهة بتكوينها، وهم فى العالم الآخر، لم تكن قد أعدت بعد.ولكن، بعد انقضاء فترة وجيزة على مراسم التتويج، يدعى كهنة معبد بتاح فى منف، أنهم قد عثروا عليها فى الصباح، حيث قام الإله تحوت، خلال الليل، بتدوينها، بصفته إله الكتابة و«سكرتير» الآلهة، فوق بعض ثمار شجرة مقدسة تسمى «الإشد». وبالنسبة لرمسيس الثالث، ادعى كهنة بتاح، أن هذه المعجزة قد تمت[١٦] فى اليوم السادس من شهر «برت»، بعد توليه الحكم بحوالى ثمانية أشهر، وبعد بضعة أيام فقط من تتويجه. وعندئذ، يقرر أن تكون ألقاب الملك الرسمية، فى كافة المعاملات الرسمية، كما يلى[١٧]:

ـ حورس «عانسيت» («عظيم المُلك»).

ـ الذى ترعاه الإلهتان «ورحبو سدمى تاتنن» («المفعم باليوبيلات مثل تاتنن»).

ـ حورس الذهبى «أوسر رنبوت مى تم» («الغنى بالعديد من السنوات مثل آتوم»).

ـ الملك «مك كمت وعف خاسوت» («أى الذى يقوم بحماية مصر ويخضع الدول الأجنبية»).

ـ ملك مصر العليا والسفلى، سيد القطرين «أوسر ماعت رع مرى آمون» («رع المفعم بماعت، من يحبه آمون»).

ـ ابن رع، رب التيجان «رمسيس حقا إيونو» («رع صور الذى أنجب حاكم أون»)

وبعد أن توج رمسيس الثالث، وحصل على مجموعة ألقابه، أصبح فى مقدوره عندئذ أن يمارس حكمه. ولكن، فى حقيقة الأمر، ماذا عسانا نعرف عنه ؟ كيف كان يبدو ؟ ما هى أهم صفاته ومفاهيمه ؟ بل من هى أسرته ؟

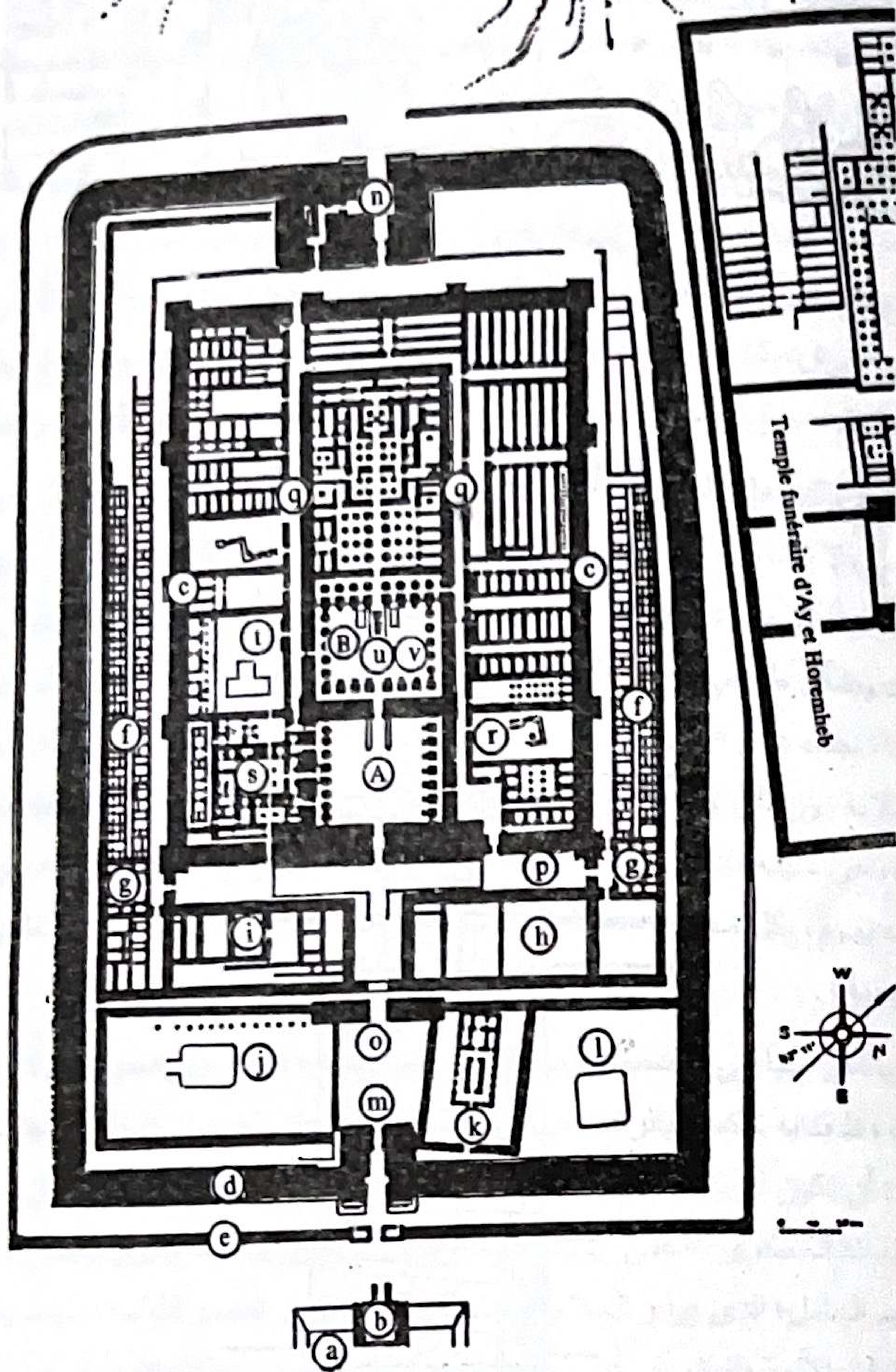
٢ـ الملك الجديد

شخصيته ، فكره ، عائلته

شخصية الملك

توجد لدينا بعض التماثيل التى تمثله. ولدينا أيضاً مومياؤه، التى عثر عليها عام ١٨٨١ بخبيئة «الدير البحرى» الشهيرة،، حيث كان كهنة آمون قد أخفوها فى حوالى العام (١٠٠٠ ق.م.) مع غيرها من مومياوات بعض كبار الملوك الفراعنة الآخرين، لحمايتها من لصوص المقابر خلال الأسرة العشرين[١٨]. ومع كل ذلك، فليس من السهل أبداً أن نكون فكرة محددة عن هيئة رمسيس الثالث الجسمانية. فلاشك مطلقاً، أن المومياء هى هيكل عظمى مكسو بالجلد، حيث جفت العضلات وفقدت الشكل الذى يضفى على وجه وجسد الإنسان وهو على قيد الحياة، الهيئة المميزة. أما بالنسبة للتماثيل المصرية، فهى على العكس، تعمل ـ تقليدياً ـ على إبراز رمز القوة الجسدية، ولا يهمها مطلقاً عوامل أو آثار الزمن[١٩]. وفيما بين هذين الطرفين المتناقضين، يمكننا أن نجد حلاً وسطاً. فهناك بعض تماثيله التى تتميز ببعض الواقعية؛ كمثل تلك التماثيل الحاملة للشارات تحت رقم (٤٢١٥٠) بمتحف القاهرة[٢٠]، وتحت رقم (٥٧٢٧) فى متحف فيلادلفيا [٢١]، بالإضافة إلى رأس تمثال ملكى له تحت رقم (٧٥١٠) فى متحف بوسطن[٢٢]. وجميعها قد تسمح لنا، بعد أن نستبعد عنها بمخيلتنا، الشعر واللحى المستعارة، أن نتخيل أن رمسيس الثالث كان وجهه مستديراً إلى حد ما،



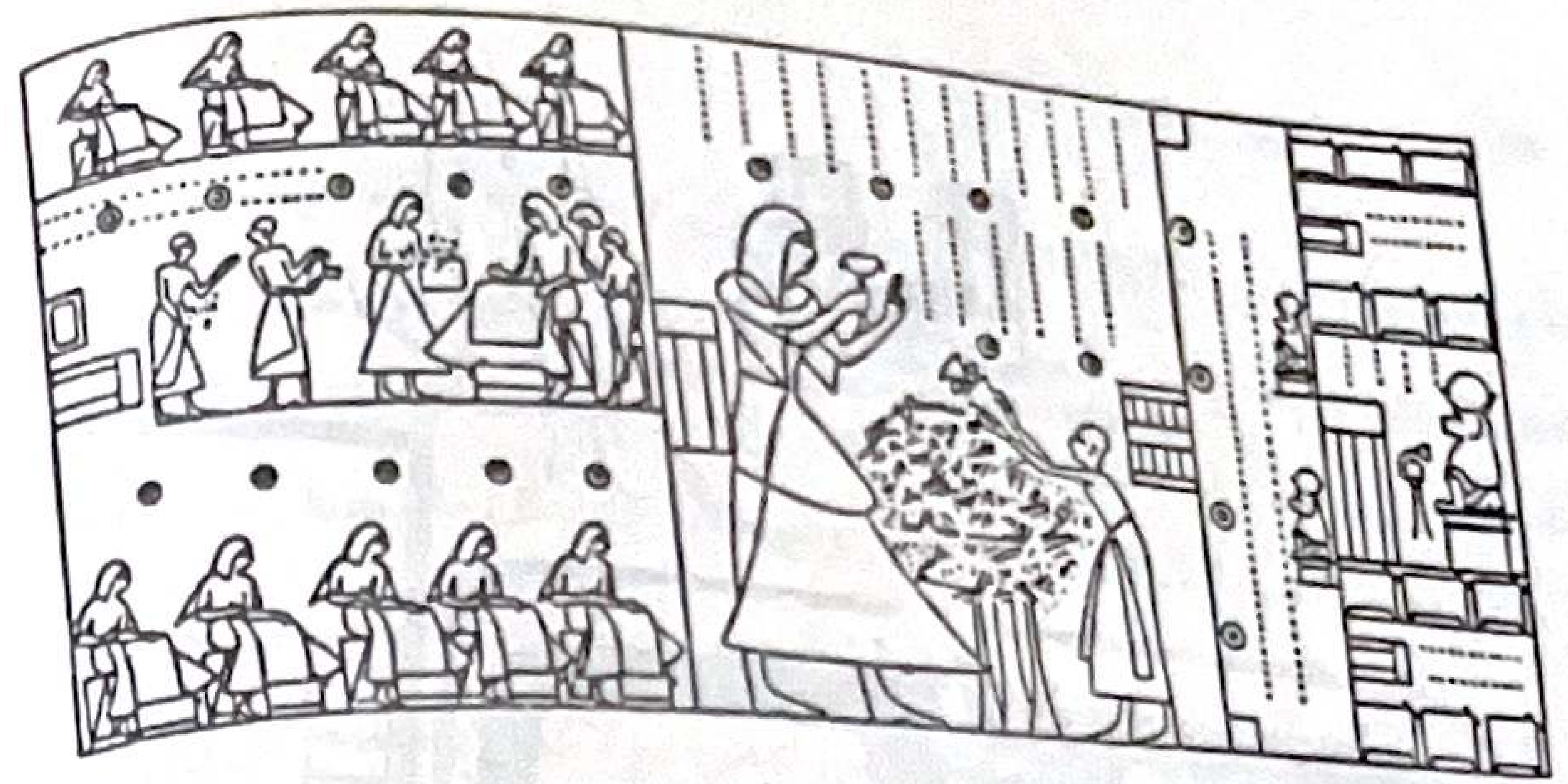


المعبد الجنازى الخاص بالملك رمسيس الثالث بمدينة هابو.

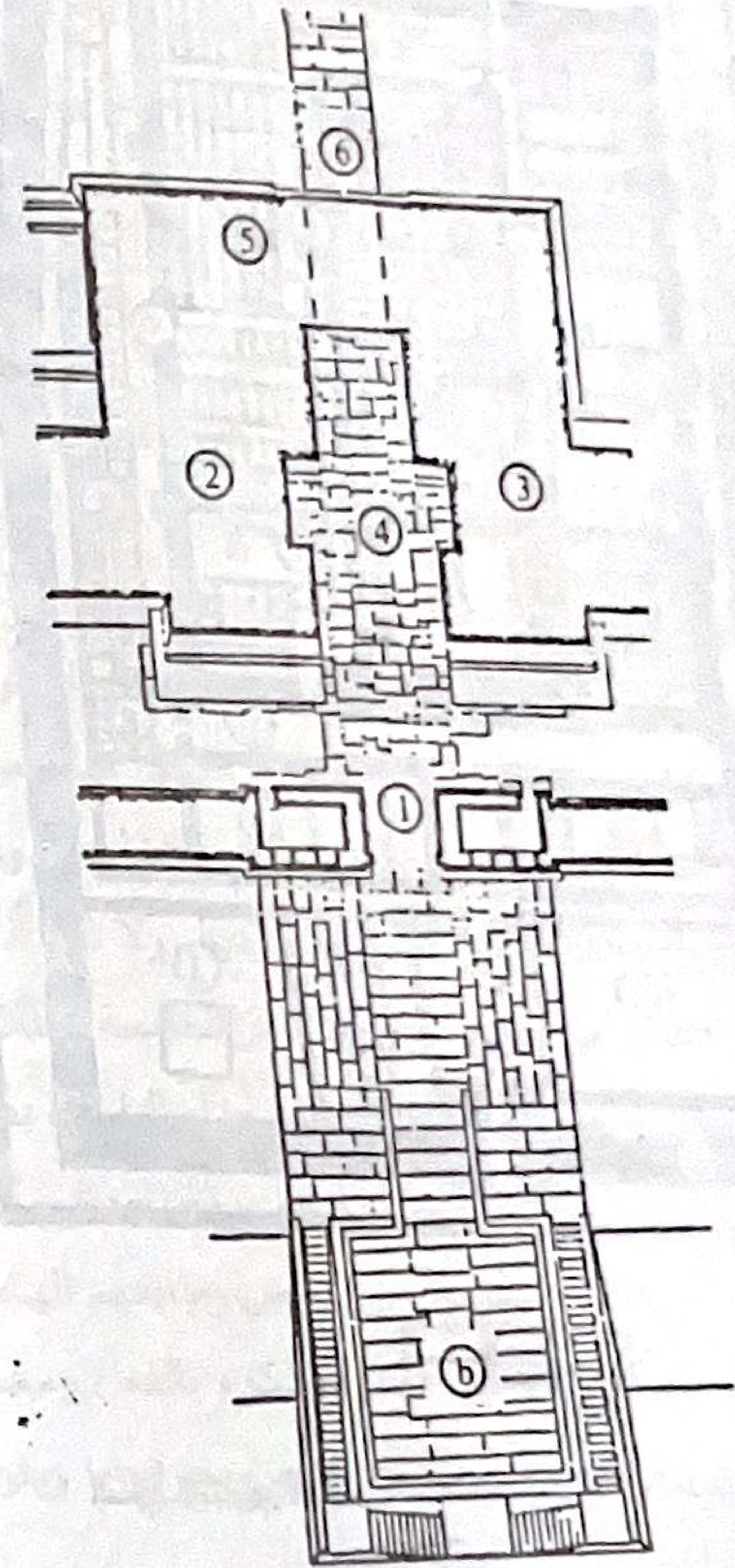
ذا وجنتين بارزتين بشكل واضح، وفم ذى شفتين غليظتين، وأنف ضخم قصير، وذقن غير مدبب. وربما قد تنم التعبيرات فى عينيه وعلى شفتيه من خلال مجموع تلك التماثيل، عن إنسان قد تعدى مرحلة التخيل والتأمل لتفاهات الحياة الدنيا، وبدأ يعيش مرحلة مفعمة بالحيوية الدافقة لقيادة البشر والسيطرة على كل ما يحيط به.

خلال عصر الرعامسة، وفى الأوساط المتميزة، كان الشاب يستطيع أن يتزوج وينجب أطفالاً وهو لا يزال فى العشرين من عمره. ولا بد أن الفتاة، بدورها، كانت تتزوج فى حوالى الخامسة عشرة من عمرها. وكان الأمل فى امتداد عمر الفرد لا يتعدى، فى معظم الأحوال، ستين عاماً(٢٣). ولقد علمنا أن «ست نخت» قد توفى بعد سنتين من ارتقائه العرش؛ إذن، فلا شك أنه كان مسناً وقت توليه الحكم. كما أن رمسيس الثالث كان قد بلغ وقتئذ سن النضوج. وعلى ما يبدو، كان قد ناهز السبعين من عمره عند موته(٢٤). وربما أنه ولد فى حوالى العام السابع والخمسين من حكم رمسيس الثانى. فلا شك أنه كان فى العاشرة من عمره عند وفاة «رمسيس العظيم». ومثل هذا السن اليافع ربما قد سمح له، أن يحتفظ، ببعض الذكريات عن حكمه، خاصة أنه كان يكنُ له إعجاباً كبيراً. وقد كان يعيش سنوات مراهقته خلال حكم «مرنبتاح»، ولا شك أنه قد ناهز العشرين من عمره عند وفاة ذلك الملك : أى كما ذكرنا آنفاً، السن التى يستطيع عندها أن يتزوج ويرزق بأبناء، أو بالتحديد. بأبنائه الخمسة الأوائل؛ و قد أنجب إجمالياً، عشرة أبناء(٢٥). ولكن هذه السن نفسها هى أيضاً التى تحددت خلالها معالم شخصيته : فتبلورت أفكاره الخاصة، وتكوّن رأيه الفردى عما كانت قد وصلت إليه مصر من أحوال متردية. ولا شك أنه عند تولى «ست نخت» الحكم، وهو فى الستين من عمره، كان قد ناهز الخامسة والثلاثين أو الأربعين.

وفى نطاق مصر القديمة بعصر الرعامسة، كان أبناء الملوك، يدربون على فنون الحرب وعلى بعض الأعمال الثانوية. وباعتبارهم ورثة للعرش، كانوا ينوبون عن آبائهم الملوك فى مهامهم ووظائفهم. فيمارسون بعض وظائفهم الهامة، مثل وظيفة المشاركة فى الحكم بجوار الفرعون القائم. فهذا ما ذكره بالفعل رمسيس الثالث فى «بردية هاريس -١-»(٢٦). ثم يتولى الوريث العرش من بعد أبيه؛ ويقوم بنفسه بقيادة المعارك الحربية الكبرى بداية من توليه الحكم بمفرده.



مكتب «رسائل فرعون» فى بر رمسيس.



خريطة المنصة والباب المحصن.

رجل فى عصره

لا شك أن رمسيس الثالث، مثل أبيه، قد انحدر من أوساط عسكرية. إنه ينتمى، بفضل مولده وتنشئته إلى مؤسسة أسرية، ارتبطت خلال الدولة الحديثة بعظمة مصر ومجدها. إنها مؤسسة تعتمد أساساً، وقبل كل شىء، على النظام والالتزام. وبهذا، تستطيع أن تتخيل، هذا الملك المقبل، فى بداية سن بلوغه، وهو يشاهد فى استياء احتضار الأسرة التاسعة عشرة؛ ويستعد هو وأبوه لاستلام ميراثها، عندما أوشكت «تاوسرت» على الموت، بدون أن تترك أى وريث. وتستطيع أن تتخيل - أيضاً - أنه وهو يرتقى العرش، كان مفعما بالإرادة القوية لإعادة تألقها؛ ولأن يكون بمثابة الوريث، والمكمل لحضارة عظيمة، يجسدها رمسيس الثانى ومرنبتاح، الذى كان قد عاصرهما.

ومع ذلك، فإنه لم يولد ملكاً، بل إن أباه نفسه قد ارتقى عرش مصر، فى عمر متقدم. ولا شك أن ذلك كان يسبب له بعض القلق وربما كان ذلك نوعاً ما من تأنيب الضمير أو الإحساس بالخطأ. وبهذا، نجد، أن رمسيس الثانى، كان يعمل بدون أى تعقيد وبشكل طبيعى جداً، على اتباع الأيديولوجية الملكية الخاصة بالدولة الحديثة. ولكننا، نجد، على العكس، أن رمسيس الثالث، كان يطبقها بالكثير من التزمت، والصلابة. وربما يرجع ذلك، من الناحية النفسية، إلى رغبة هذا الملك، فى التعويض بذلك، عن منبته الدارج من عامة الشعب. وكأنه يحاول أن يوضح لشعبه، أنه يعرف كيف يقوم، بكل مقدرة وصلابة، بوظيفة لم تسند إليه إلا بفضل بعض الظروف التاريخية.

وبالنظر ملياً إلى مضمون العبارات الخاصة بألقابه، نجد أن رمسيس الثالث، قد أفعم، منذ بداية حكمه، بالرغبة فى أن يجسد المثل الأعلى لفرعون الدولة الحديثة، ألا وهو: أن تكون فترة حكمه طويلة الأمد؛ وتكثر خلالها الإنجازات الضخمة؛ وأن يكون هو القائد العسكرى الأعلى، يقود بنفسه معارك الغزو أو الدفاع؛ وأن يصبح الملك الحكيم العادل؛ الذى يوفر السلام الاجتماعى والازدهار لمصر قاطبة؛ حيث يكفل متطلبات الآلهة والبشر فى آن واحد. وجملة القول، أن يكون ملكاً ملتزماً التزاماً دقيقاً وصارماً فيما يتعلق بحقوق وواجبات وظيفته. تلك الحقوق والواجبات التى جاءت بنص شهير يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة، ويعتبر بمثابة دستور مصر خلال عصر

الدولة الحديثة : لقد نصب رع الملك فوق عرش الأحياء من أجل الخلود والدوام، وحتى يحكم بين الناس ويهدئ من غضب الآلهة، ولكى تسود «ماعت» ويفنى «إزفت» (وتنطق أحيانا إسفت)، ولكى يقدم القرابين للآلهة والقرابين الجنازية للمتوفين العظام[٢٧].

«ماعت» و «إزفت» بالنسبة للمواطن المصرى خلال الدولة الحديثة، يلخصان تاريخ البشرية كله، منذ نشأته الأولى، فى مواجهة لا تنتهى أبداً بين هذين المضمونين الميتافيزيقيين، المتعارضين : «ماعت»، النظام المكمل الخاص بالكون والمجتمع، كما وضعه منذ النشأة الأولى «خالق العالم»، و«إزفت»، أى الخواء، والفوضى، والدمار، الذى تولد من نقائص وضعف البشر، والذى يرتبط وكأنه قدرهم بكل ما يفعلونه. وتتجلى «ماعت» من خلال قيام الملك بتوفير العدل بين الناس، أو بتشييد بعض النصب، أو إصلاح أحد المعابد، أو حروبه من أجل ضم أراضٍ جديدة إلى مصر، أو لحمايتها. ولكن «إزفت» يتجلى بتأثيره السيئ من خلال استبداد الأقوياء وتسلطهم، أو تمرد الفقراء وثورتهم حيث يشكل ذلك خطراً على النظام الاجتماعى؛ أو عندما يقوم بعض رؤساء إحدى المؤسسات باستحلال أموالها وممتلكاتها. أو عندما تنهار إحدى النصب العريقة القدم، أو عندما يهدد مصر خطر الغزو الأجنبى.

«إحياء ماعت، وتدمير إزفت». إن رمسيس الثالث الذى انحدر من وسط ثقافى رفيع[٢٨]، حيث يعتبر هذا المبدأ بمثابة الدعامة التى ترتكز عليها الأخلاقيات والتعليم، لا يثير أى دهشة وهو يتخذه كشعار يتبعه بكل وضوح وجلاء. بل لقد بذل هذا الملك كل ما فى وسعه، مثله فى ذلك مثل أعظم ملوك الرعامسة من أجل أن تتطابق به كل أفعاله وإنجازاته. وهو إذن نوع من الفلسفة المثالية للتاريخ. ويتضح من خلاله أن أوجه نشاط كل فرعون ليست فى واقع الأمر سوى محاولة لإعادة «العصر الذهبى»؛ الذى كان سائداً منذ النشأة الأولى فوق الأرض. وحيث تبرر أيضاً تاريخياً وأيديولوجياً محاكاة الملك لكل ما فعله فراعنة الأسر السابقة العظام. وبذلك، فلم يكن رمسيس الثالث يحاكى رمسيس الثانى فقط، ذلك النموذج الفريد ضمن الفراعنة الرعامسة، ولكنه كان يحاكى - أيضاً - والد رمسيس العظيم، «سيتى الأول»[٢٩]، ابن وخليفة رمسيس الأول، مؤسس الأسرة التاسعة عشرة والذى سبقه، على ما يبدو، على هذا الدرب نفسه.

الفرعون وملك الآلهة

وبرغم أن الأيديولوجية الملكية فى عهد الرعامسة قد استعارت الكثير من المفاهيم التى كانت سائدة فى أوائل الدولة الحديثة، فإن ذلك لا ينفى مطلقاً أنها كانت تتمتع بسمات خاصة بها. وهذه السمات الخاصة قد أثمرتها حقبة من التأمل الفكرى المتعمق، عملت على دفعها وتنشيطها الأحداث التى تميز بها النصف الثانى من الأسرة الثامنة عشرة. ففى أوائل الدولة الحديثة، كان الجميع يتفقون تماماً على أن الملك يحرز النصر بدون أى جهد فى كافة أعماله، ولا يتسلح من أجل ذلك إلا بإرادته وقواه الجسدية فقط. ولكن مظاهر التقلقل والفوضى التى سادت فترة العمارنة وحالة التدهور التى نجمت فى أعقابها، جعلت الجميع يؤمنون، خلال عصر الرعامسة، أن الملك «الطيب»، «الجسور المنتصر»، هو أداة من صنع إله أعلى، أحد ومطلق القوى. فلا شك أن المفاهيم الدينية المصرية، من خلال تطور دام آلاف السنين، قد وصلت فى النهاية إلى نوع من التوازن النهائى. وعمل هذا التوازن نفسه من أجل تقديم إجابة جيدة للتناقض الواضح فى إطار مذهب الشرك، ما بين وحدانية الإله الأعلى وبين تعدد تجلياته : «أمون رع» هو الإله الأوحد الذى خلق نفسه. وكافة آلهة مصر جميعها هى بمثابة تجليات له (الفصل الخامس -١-). وهذا الإله الأعلى الفائق الوصف، السامى المكانة، خالق البشر وجميع الآلهة الأخرى[٣٠]، هو بالتالى، المهيمن على الأقدار[٣١] وعلى مجرى التاريخ. وهنا يتراءى لنا شىء من التعارض، من خلال النصوص الخاصة بملوك الرعامسة، بين التأكيد القاطع، من جانب الملك على قيمته الفردية، وفى الوقت نفسه، على خضوعه للإله "Perinde ac cadaver". فهنا نوع من التعارض، يوضحه تماما، هذا السرد الذى يقدمه رمسيس الثانى، عن معركة قادش[٣٢].

« إنه لمحظوظ، هذا الذى ينعم بعنايتك الإلهية[٣٣]». بمثل هذه العبارات، كان رمسيس الثالث يتوجه بالدعاء لآمون، بل إنه كان أيضاً، من أجل تبجيل هذا الإله، يستعين بعبارات تكاد تكون قريبة من التصوف[٣٤]. وهو بذلك يفصح عن أنه حقاً ابن ذلك العصر الذى كان يعيش فيه. إنه العصر الذى كان يبدو الملك خلاله وكأنه كاهن أو رسول العناية الإلهية، واعتبر ذلك بمثابة بداية لتألق وازدهار مفهوم «الدولة الثيوقراطية» (حكومة إلهية يشرف عليها رجال الدين). ولقد وصف «آمون - رع» أنه

«ملك الآلهة»، منذ بداية الدولة الحديثة، واعتبر بالفعل، وقتئذ، وكأنه ملك حقًا. أما الفرعون، فهو بمثابة المجاهد من أجله، والمستأمن على عهده فوق الأرض؛ قد اختاره آمون شخصياً من أجل تولى الحكم، وذلك بفضل مزاياه وصفاته، ضمن الملايين من البشر[٣٥]. «أنت نفسك الذى وليتنى فوق عرش مصر باعتبارى سيد القطرين»[٣٦] بهذه العبارات، كان رمسيس الثالث يتوجه إلى آمون فى مدينة هابو. ونجده هنا، من أجل وصف الوظيفة التى كلف بها، يستعين بالعبارة المصرية التى تدل على الشخص البديل مثل «الوكيل»، فى نطاق الإطار الإدارى أو العسكرى. وبفضل الهبة الإلهية التى خلعت عليه، يستطيع الفرعون أن يوفر الازدهار المادى لمصر[٣٧]، ورجوع فيضان النيل الخصب كل عام[٣٨]. ولقد أنعم عليه بفترة حكم طويلة الأمد[٣٩]، وبشجاعة وجسارة مثل حورس وست[٤٠]، ومكانة مهيبة تجعل الجميع، بما فيهم رعاياه يخشونه ويرهبونه[٤١]. وهو رحيم مع المخلصين له، وصارم مع معارضيه[٤٢]، فهو يستطيع أن يبسط سطوته على العالم أجمع[٤٣]، بما فيه مصر والبلاد الأجنبية جمعاء[٤٤]. ولا شك أن كافة مشاريعه تتحقق[٤٥] بفضل الرعاية الإلهية، التى تكفل أيضًا حمايته وسلامته[٤٦] الشخصية، وتسمح له، بعد وفاته، بأن يصبح أحد أعضاء «التاسوع». وفى الحين نفسه يعمل معبده الجنازى على إعادة ذكراه فوق الأرض على مدى ملايين السنين[٤٧]. ... إذن، ها هو كم كبير من الحسنات والنعم، يجب عليه طوال فترة حكمه، أن يعبر عن امتنانه بها[٤٨]، وذلك بتشييد المعابد، وإمدادها بالمؤن اللازمة، وبمضاعفته من عدد الأعياد التى يحتفل بها.

رمسيس الثالث وأقرباؤه[٤٩]

فيما يتعلق برمسيس الثالث، ابن «ست نخت»، من زوجته «تى مرن عاست»، نحن لا نعرف عما إذا كان له إخوة أو أخوات. ولكننا نعلم، أنه رزق بالكثير من الأبناء الذين حظوا بممتلكات[٥٠] خاصة بهم. وخصصت من أجلهم «دار لتعليم الأبناء الملكيين»؛ مثلما كان يحدث فى عهد مرنبتاح. وكانت هذه الدار تخضع «لإدارة رئيسية عليا»[٥١]. ولقد رزق رمسيس الثالث بعدد ما من البنات[٥٢]، ولكن عدد أبنائه لم يكن ليقل عن عشرة. وقد أطلق على البعض منهم أسماء بعض أبناء رمسيس الثانى. وزوجته الرئيسية هى الملكة إيزيس، التى كانت تسمى أحياناً باسم أمها إيزيس

تاحم جرت»، ومعناه: «إيزيس، ابنة حم جرت». ولا بد أن أمها هذه كانت تنحدر من أصل أجنبى. فكلمة حم جرت هى المطابق للكلمة السامية حبس سلت، بمعنى نبات السورنجان[٥٣]. ولقد عاشت الملكة إيزيس هذه بعد وفاة زوجها، وعاصرت حكم ابنهما رمسيس الرابع. ولقد عد لها مقبرة خاصة بها فى وادى الملكات[٥٤]؛ ولكنها نهبت وسلبت فى أواخر عد ر هذه الأسرة، بواسطة بعض عمال «دير المدينة»[٥٥].

ولكن، لا شك أن رمسيس الثالث، قد اتخذ زوجة رئيسية ثانية، لم نتوصل بعد إلى معرفة اسمها. بل لقد اتخذ أيضًا بعض الزوجات الثانويات[٥٦]، منهن واحدة تدعى تى، التى تآمرت ضده، ف ، أواخر فترة حكمه، من أجل أن يستحوذ ابنهما بنتاؤور[٥٧] على العرش بدلاً منه. وكمثل زوجات الرعامسة الأخريات، كانت هؤلاء الملكات، يحظين مثل الملك «بقصر» يتم تموينه بمنتجات الأملاك الزراعية الشاسعة[٥٨]. وفى مختلف أنحاء مصر، يوجد مقر «الحريم» الخاص بهن، وبوصيفاتهن[٥٩]. «الحريم»[٦٠] الذى أحطنا به علماً هو: «حريم منف»؛ وكان يديره، خلال فترة ما من عهد رمسيس الثالث، شخص يدعى جحوتى إم حاب[٦١]. ثم هناك «حريم مِرْوِرْ»، عند مدخل الفيوم. وقد خصصت أراض زراعية فسيحة المدى من أجل إمدادها بالمؤن[٦٢]. وهناك مؤسسة خاصة تعرف باسم «مؤسسة حريم المرافقة»؛ وتقوم بإدارة كافة مراكز الحريم الأخرى، وتشرف على تنظيم كافة تنقلات العائلة المالكة. والجدير بالذكر، أن رئيس «مؤسسة حريم المرافقة» هذه خلال حكم رمسيس الثالث، والذى كان يدعى «بانيك»، قد شارك هو ومساعده، وستة من مرؤوسيه المنتدبين وكاتبان، فى «مؤامرة الحريم» (الفصل السادس - ٣).

ومن إحدى زوجتيه الرئيسيتين، أنجب رمسيس الثالث، فى بداية زواجه، خمسة أبناء، أسماؤهم، على التوالى، هى آمون حر خبشف، وبارع حرونمف، وخع إم واست، وسيتى حر خبشف، ورمسيس[٦٣]. وضمن مجموعة هؤلاء الأبناء الأمراء، الذين أنجبهم جميعاً قبل توليه العرش، نجد أن خع إم واست، ورمسيس هما فقط اللذان بقيا على قيد الحياة بعد موت أبيهما، حيث خلفه رمسيس على العرش[٦٤]. أما عن أمون حر خبشف، وبارع حرو نمف، وسيتى حر خبشف فقد حملوا لقب الوريث المنتظر، ولكنهم توفوا خلال فترة حكم أبيهم، وتم دفنهم فى المقابر التى كانت قد

أعدت قبل العام الثانى عشر بوادى الملكات. وجمعت معابدهم الجنازية فى غرب مدينة هابو(٦٥). وبعد فترة ما خلال حكمه أنجب رمسيس الثالث خمسة أبناء آخرين(٦٦). فمن ملكة مجهولة الاسم بالنسبة لنا، أنجب ثلاثة أمراء، هم: مونتو حرخبشف، ومرى أتوم، وسيتى حر خبشف (الثانى)؛ أما من الملكة إيزيس، فقد أنجب ابناً يدعى مرى آمون، وابناً آخر هو آمون حرخبشف (الثانى) وكان من المفترض أن ابنين منهم، هما آمون حرخبشف (الثانى)، وسيتى حرخبشف (الثانى) سوف يرتقيان العرش تحت لقبى رمسيس السادس ورمسيس الثامن.

على جانبى الباب المؤدى إلى قاعة الأعمدة الأولى بمدينة هابو، نجد بعض النقوش البارزة التى تتشابه مع مثيلتها من المواكب الممثلة بالرمسيوم فى المكان نفسه: صفان متناسقان يمثلان أبناء رمسيس الثالث، يتلاقيان عند محور المعبد(٦٧). ولكن تلك الأشكال تختلف مع مثيلتها القائمة بالرمسيوم والتى خلع على كل منها الأسماء والألقاب المحددة. أما فى مدينة هابو، فإن هذه الأشكال التى عرفت إجمالاً تحت اسم «قائمة الأمراء»، قد ظلت مجهولة الأسماء والألقاب خلال فترة حكم رمسيس الثالث(٦٨). وعندما ارتقى رمسيس الرابع العرش، أمر بنقش ألقابه تحت هذا الموكب. بل لقد ـ أضاف ـ أيضاً اسمه وألقابه كأمير بجوار الشكل الأول من كل صف، وزين جبهته بالحية الحامية الملكية. وبدوره، أمر آمون حر خبشف، أى رمسيس السادس، بنقش ألقابه كأمير وملك بجوار الشكلين الثانى والثالث، من كل صف، ولم ينس طبعاً وضع الحية الحامية الملكية فوق جبهتيهما. بل لقد أمر أيضاً ، بأن تنقش، بجوار الأشكال الأخرى القريبة، أسماء وألقاب أخيه سيتى حر خبشف (الثانى)، أى رمسيس الثامن، ثم أسماء إخوته الآخرين. وكان البعض منهم قد توفى منذ حوالى أربعين عاماً، وبشكل متدرج، ذكر أسماء وألقاب أبناء زوجة رمسيس الثالث المجهولة الهوية، وهم : بالرع حرونمف، ومنتوحرخبشف، ومرى أتوم، ثم أولاد الملكة إيزيس خع إم واست، وأمون حرخبشف الأول، ومرى أمون(٦٩) وكان سيتى حرخبشف الأول الأخ التالى لبارع حرونمف محذوفا، فى حين نجد أنه بدل نهائيا بسيتى حرحبشف الثانى الذى أصبح رمسيس الثامن ونقش اسمه مثل إخوته الأكبر منه فى الخراطيش أمام الرسم الذى يمثله وهو محلى بالحيه الحامية.

أب الأسرة بأكملها

حقيقة، إن رمسيس الثالث، كان أباً للعديد من الأبناء، ولكننا نستطيع أن نقول أيضاً ، إنه، هو بمفرده، كان أباً الأسرة بأكملها. بالفعل، لقد خلفه ثلاثة من أبنائه فى تولى العرش : رمسيس، الذى أصبح رمسيس الرابع، وآمون حر خبشف (الثانى) الذى أصبح رمسيس السادس، وسيتى حر خبشف (الثانى) الذى أصبح رمسيس الثامن. ونجد أن رمسيس الرابع ورمسيس السادس قد خلفهما مباشرة ابناهما على التوالى، رمسيس الخامس ورمسيس السابع اللذان توفيا، على التوالى، بدون أن يتركا وريثاً للعرش. وبهذا، ولمرتين اثنتين ، تولى العرش أحد أعمامهما الباقيان على قيد الحياة. بعد ذلك، وعند وفاة رمسيس الثامن، الذى لم يترك هو الآخر خليفة له، ارتقى ابن أخ له العرش. إنه، بالتحديد ابن أخيه الأكبر مونتو حر خبشف والذى أصبح رمسيس التاسع، والذى خلفه فيما بعد ابنه، وابن ابنه، على التوالى، رمسيس العاشر ورمسيس الحادى عشر. وفى تلك الحقبة نفسها، نجد أن تنتآمون، وحنوت تاوى ابنتى رمسيس الحادى عشر، قد تزوجتا، على التوالى، من سمندس، مؤسس الأسرة الحادية والعشرين، و«بانجم» الأول، الكاهن الأكبر للإله آمون بالكرنك، والذى أنجب بسوسنس الأول، ثالث ملوك هذه الأسرة. وعلى ذلك ومما لا شك فيه مطلقاً، يعتبر رمسيس الثالث بمثابة الجد الأكبر لكل هذه السلسلة من ملوك العصر المتأخر، والذين أمسكوا بمقاليد الحكم فى مصر حتى عام ٩٤٥ ق.م(٧٠). ولا بد أن الملك المقبل رمسيس الرابع، ابن الفرعون رمسيس الثالث والملكة «إيزيس ـ تا ـ حم جرت»(٧١)، كان قد ناهز الخامسة عشرة من عمره عند تتويج أبيه. إنها تقريباً السن التى يستطيع عندها المشاركة فى الحروب التى ثارت فى أوائل سنوات حكم أبيه مع إخوته الأكبر سناً. ومع ذلك، فلم تكن قد خلعت عليه مسئوليات فعلية. ولكنه كان هو وريث العرش المنتظر. وكالمعتاد، أنعم عليه بلقب «القائد الأعلى للجيش». وعلى ما يبدو، أنه قام، بهذه المهمة خير قيام؛ خاصة أن أشقاءه الأكبر سناً، قد ماتوا فى مقتبل العمر(٧٢). وبصفته «القائد الأعلى للقوات المصرية المحاربة»، قاد الجيش حتى مدينة «صولب»، فى أعماق النوبة، فى حملة ردع (٧٣). وأمر بأن ينقش اسمه فوق تمثال خاص بأحد الأمراء القادة المجهولين بمدينة هابو(٧٤). ويشاهد أيضاً، حاملاً للقب نفسه ممثلاً فى النقوش البارزة بمعبد ـ الاستراحة بالكرنك، وهو يقوم، خلال العام الثانى والعشرين

من حكم أبيه، بالاشتراك فى موكب الإله «مين» مع أبيه وأخيه «آمون حر خبشف (الثانى)»، (رمسيس السادس المقبل)(٧٥)، قائد كتائب المركبات. ويرى كذلك، وهو يقوم، نائبًا عن أبيه، فى حوالى العام السابع والعشرين، من خلال بعض النقوش البارزة، فوق أحد جدران مقبرة بطيبة تحمل رقم (١٤٨)، وهو يرقى أمنموبى ثالث أنبياء آمون الى مرتبة أعلى، هى مرتبة النبى الأول للاله مونتو (٧٦). وفى حوالى العام الخامس والأربعين من عمره، عند وفاة أبيه، استطاع بكل براعة وذكاء أن يكشف سر «مؤامرة الحريم» التى كانت قد دبرت فى ذاك الحين (الفصل السادس-٣). لا شك أن نبوغه وبراعته السياسية هى التى أوحت إليه بكتابة «بردية هاريس» ١. الرائعة ومع ذلك، فعندما أصبح هو الملك رمسيس الرابع، يبدو أن ابتهالاته للإله أوزوريس من أجل إطالة سنوات حياته وحكمه لم تلق أى استجابة. ولم يتشابه أبدا برمسيس الثانى العظيم الذى استمر فوق العرش طوال (٦٧) عاما(٧٧). وبعد موت أبيه بستة أعوام، لحق به فى العالم الآخر. وبالقطع، لم تسمح له هذه الفترة القصيرة الأمد، بممارسة كفاءته وبراعته كملك لمصر.

وبخلاف رمسيس، وأمون حرخبشف (الثانى)، وسيتى حرخبشف، ومرى أتوم الذين كانوا على منوال أولاد رمسيس الثانى الذين حملوا نفس الأسماء، كان كل منهم أحد كبار كهنة رع بهليوبوليس، ومارس منصبه هذا خلال حكم رمسيس الخامس(٧٨) وربما رمسيس السابع(٧٩) أيضاً. ويعتبر بقية أبناء رمسيس الثالث، فى نطاق التاريخ، كمجرد أسماء فقط. فمثلاً نحن لا نعرف عن الأمير مرى أمون سوى رقم تدرجه بين إخوته، وأن اسمه يتشابه مع اسم أحد أبناء رمسيس الثانى. وكذلك، بالنسبة للأمير خع ام واست، لا نعرف عنه سوى أنه كان كبيراً لكهنة منف، وأن اسمه يماثل سمياً له عظيم الشأن من أبناء رمسيس الثانى. وإذا كان خع ام واست قد مارس بالفعل، تلك الوظيفة، فهو على ما يبدو، قد دفن فى «منف»، وفقا للتقاليد السائدة وقتئذ. فلا يحتمل أبدا، أنه قد أشير إلى عملية دفنه هو من خلال النص المعنون «بدفن الكاهن ستم» الذى حرر فى العام الخامس والعشرين من حكم رمسيس الثالث، بدير المدينة (٨٠). وإذا كانت الكلمة المصرية «سم» أو«ستم» فى الواقع أحد ألقاب كبير كهنة بتاح، فهى كانت مستخدمة ليس فقط فى منف ولكن أيضاً فى مواقع مختلفة من مصر حيث كان يعبد هذا الإله خاصة فى دير المدينة.

وعن الفترة الواقعة ما بين العامين الرابع والعشرين والثامن والعشرين من حكم رمسيس الثالث، بينت العديد من الوثائق أن عمال دير المدينة، من خلال أعمالهم بوادى الملكات، قد أقاموا بعض المقابر الخاصة بالأبناء الملكيين، لم يعرف مكانها حتى الآن. وبالتالى، ربما لا يزال يرقد بها حتى الآن، هؤلاء الأمراء الأربعة الذين لم يعرف بعد مكان مقابرهم: «مرى أمون، وأمون حرخبشف الثانى، ومرى أتوم، وسيتى حرخبشف الثانى». والجدير بالذكر، أنه فى العام الرابع والعشرين تمت إقامة مقبرة خاصة بالأمراء؛ حقيقة إننا لا نعرف مكانها بالتحديد، ولكننا نعرف مقاييسها(٨١). وقد تكون هى نفسها التى ذكرت فى أحد النصوص، فى العام التالى، بأنها مقبرة «قائد عربة أوسر ماعت رع مرى أمون»(٨٢)، أو ربما مونتوحرخبشف، والد رمسيس التاسع المقبل(٨٣) وأخيراً، وفى العام نفسه الثامن والعشرين، كما بينت إحدى الوثائق، تم سحب بعض التوابيت(٨٤)، بوادى الملكات، من أجل وضعها بداخل مقبرتين خاصتين بأميرين من الأمراء. ويحتمل أن الأمر كان يتعلق بمقبرتين(٨٥) لاثنين من أصغر أبناء الملك، هما «أمون حرخبشف (الثانى)، وسيتى حرخبشف (الثانى)». وربما أن هذا ما تناوله فى رسالته أحد كتاب دير المدينة، ويدعى «نفر حوتب» فى رسالة له إلى الوزير «تو» رئيسه الأعلى وقتئذ.

٣- الاستقرار وتأكيد السلطة

رغم مكانة طيبة الواضحة حتى ذلك الحين، باعتبارها مدينة آمون المقدسة، فإنها، من الوجهة السياسية، لم تعتبر سوى مجرد إقليم ناءٍ بعيد، وبعد انتهاء حفلات تتويجه، كان رمسيس الثالث يغادرها فوراً. وربما كان يتوجه إلى بر – رمسيس مقره الرسمى بالدلتا، حيث يقوم، مثله مثل بقية الملوك الرعامسة، من قبله، بالهيمنة على شؤون مصر.

مركز السلطة – وبيت النزهة

كانت «بر رمسيس»، أو «بيت رمسيس» بمثابة عاصمة مصر، التى بدأت تتجه فعلياً، منذ أوائل الدولة الحديثة، نحو المشرق وحوض البحر الأبيض المتوسط، بل كانت تبدو فعلا وكأنها «طيبة مصر السفلى»(٨٧). ولكن للأسف لم يتبق شئ من

آثارها الآن، وكان حورمحب قد أقامها قرب مدينة أواريس، عاصمة ملوك الهكسوس القديمة، وخلع عليها رمسيس الثانى اسمه[٨٨]، وحقيقة أننا نعرف أن رمسيس الثالث قد استقر بها لإدارة شئون حكمه، ولإصدار مراسمه[٨٩]، ولإرسال مبعوثيه فى مختلف المهام[٩٠]، ولتجميع كتائبة الحربية المرابطة فيها، لينطلق من هناك، قائدا لجيشه نحو آسيا [٩١]. وحقيقة إننا نعرف أنه كان من مقره بها، يستقبل المراكب التى تنقل، من كافة أنحاء مصر، التماثيل الإلهية، التى تمثل فى عيده اليوبيلى [٩٢]، أو يستقبل المواد الثمينة التى تأتى بها حملاته من الخارج (الفصل الخامس -٦). ولكن، رغم كل ذلك، فليس لدينا الكثير من آثاره المعمارية [٩٣] بها. وليس هناك سوى «بردية هاريس -١»، على سبيل المثال، التى تذكر لنا، أنه قد أقام من أجل الإله ست، راعى «بر - رمسيس»، وبجوار مقصورته الكبرى فى أواريس، معبداً صغيرا، مهيأ بالعديد من العبيد والممتلكات اللازمة من أجل أوجه نشاطه [٩٤].

ولا شك، أن رمسيس الثالث، فى بداية فترة حكمه، قد استقر بالقصر الشاسع الأطراف الذى كان قد شُيِّد خلال الأسرة السابقة، بمدينة «قنطير»، شمال أواريس، وكان هذا القصر الفسيح الأرجاء محاطاً بمنازل كبار رجال الحكم[٩٥]. ومن ناحية الشرق كانت تقع ثكنات جنود الكتيبة العسكرية[٩٦]، المنحدرة أساساً من أصول أجنبية. وفى ناحية أخرى يقع معبد «عشتارت». ولم تكن مساحة هذا المجمع الضخم لتقل عن خمسة وثلاثين هكتاراً. وكان يتضمن فى أطرافه، بعض الأحياء السكنية، والحمامات، وقاعات الاحتفالات، والمكاتب، ومصنعاً للأسلحة، ومستودعات من أجل تخزين العربات الحربية، وحديقة لإيواء بعض الحيوانات النادرة. وجملة القول، كان يتضمن كل ما يلزم أى فرعون من الرعامسة فى حياته اليومية. ولكن، يبدو أن رمسيس الثالث، قد فضل بعد ذلك أن يكون له قصره الخاص به. فأمر بأن يشيد من أجله هو، عند أطراف المدينة قصر يخصص له. وأصبح هذا القصر بمثابة المركز الرئيسى لمدينة صغيرة، وأطلق عليه اسماً مشابهاً لاسم مدينة رمسيس الثانى، هو «دار رمسيس - حقا أيونو، المفعم بالنصر». ولقد وهب هذه المدينة لأملاك آمون طيبة وضمنها معبداً باسم «معبد رمسيس الثالث من أجل آمون»، ملأه بأفخر المقتنيات. ولقد ذكرت «بردية هاريس -١» أنها تعتبر بمثابة مركز حضرى بكل معنى الكلمة، تحيط بها من كل جانب الحدائق والمتنزهات، وتصطف على جانبيها أشجار الثمار الباسقة. ولقد قام

رمسيس الثالث، خلال فترة حكمه، بإحضار ما لا يقل عن ثمانية آلاف أسير حرب وعدد كبير مماثل من المصريين من أجل خدمته. ومن أجل سد احتياجات هذا الجمع الهائل من البشر، خصص الفرعون استثماراً لأراضٍ زراعية شاسعة بمنطقة الدلتا تدعى «كنكيمى باحم تاوى»، أى، «منتجات مصر تفيض على القطرين»[٩٧].

وعادة كان رمسيس الثالث يمكث بمقرة فى بر- رمسيس. ومثل كافة الملوك المصريين، كان يملك قصراً خاصاً رسمياً فى كل من مدن مصر الرئيسية. ولكنه، مع ذلك، أمر بأن يشيد من أجله، فى تاريخ غير محدد تماما، قصر آخر أطلق عليه اسم «بيت النزهة»، يقع على بعد سبعين كيلومتراً جنوب عاصمته، قريبا من الأراضى الصحراوية، بالمكان المعروف حالياً باسم «تل اليهودية»[٩٨]. ولقد دمر تماماً هذا الموقع فى الوقت الحالى. وفى هذا المكان نفسه، كانت قد شيدت قلعة خاصة بالهكسوس، وأقام بها رمسيس الثانى معبداً، والموقع بأكمله، كان ملحقاً وقتئذ بأملاك رع، الإله الشمسى لهليوبولس التى تبعد عنه بحوالى عشرين كيلومتراً جنوباً. وكان المدعو جحوتى مس، المنتدب من قبل الملك، يرأس المشرفين المختصين بإدارة شئون ذلك القصر، الذى كان يعمل به ما لا يقل عن ألفى فرد[٩٩]. ولكن، لم يتبق من هذا القصر سوى بعض الآثار المعمارية الطفيفة، أى مجرد بضع قواعد للأعمدة[١٠٠]. والجدير بالذكر هنا، أن القصور المصرية، بخلاف المعابد، كانت تشيد أساساً، بقوالب من الطوب اللبن، وتكسى جدرانها بطبقة من الخزف المطلى بمادة المينا. ولقد نقشت على جدران البعض منها، إيماءات خاصة بألقاب رمسيس الثالث ووظائفه، وتوجد حالياً، أجزاء منها ببعض المتاحف الأوروبية، مثل متحف فتزوليام بكمبردج[١٠١].

ومن المعتقد، أن رمسيس الثالث كان يحلو له، عند قدومه من «بر رمسيس»، أن يقضى بعض الوقت ويستريح من مهام الحكم، بهذا المقر، الذى يقع فى منطقة زراعية تحمل اسم : «أراضى قصر ملايين السنين الخاص برمسيس حقا أيونو فى ممتلكات رع، شمال هليوبوليس». ويتضمن الموقع أيضًا معبداً كان الملك قد أمر بتشييده[١٠٢]. ويبدو أن اسم هذه المنطقة المذكورة هنا، قد اختصر إلى حد ما، حيث أصبح «أراضى القصر» فقط، ومعناه باللغة المصرية ناى تاحوت. بل لقد كان يستعان به حتى عصر هيرودوت،الذى عبر عنه باللغة اليونانية بكلمة Natho[١٠٣].

ولا شك أن وجود الفرعون فى مثل هذا الموقع، كان يتطلب أيضاً، تكوين حامية عسكرية. فبجوار هذا المكان، وعلى مقربة من مساحة زراعية مترامية الأطراف، كان الملك قد أمر بإنشائها، وتسمى : أرض رمسيس حقا أيونو الجديدة التى يعيش على خيراتها القطران[١٠٤]، كونت مستوطنة عسكرية ضخمة. وبلغ عتادها البشرى ما لا يقل عن ألفى جندى؛ معظمهم ينتمون أساساً إلى كتيبة العربات الحربية. ولكنها تضمنت أيضاً، العديد من أبناء الأمراء الأجانب (ربما كانوا يلقنون، لأهداف سياسية معينة كانت تتراءى، وقتئذ، تعليماً وتربية مصرية بحتة). وكذلك ضم إليها الكثير من الجنود المرتزقة الوافدين من منطقة الشرق الأدنى. وحقيقة أن هؤلاء الجند قد استقروا تماماً فى مصر، ولكنهم، مع ذلك، كانوا فى أغلب الأحيان يحتفظون بأسمائهم وألقابهم ووظائفهم الأصلية. ، فكان هناك من يسمون بالـ «ماريانو» وتعنى: قائدى العربات الحربية، باللغة الآسيوية، وكان هناك أيضاً الجند الـ «العابرو»، وهذه الكلمة من أصل عبرى، ومعناها العبرانيون[١٠٥]. ولقد احتفظ العديد من هؤلاء المقاتلين الأجانب ببعض عاداتهم الخاصة بوطنهم الأم. فعلى سبيل المثال، نجد من أوصى أن يدفن بداخل تابوت بشكل إنسان ومصنوع من الخزف؛ وفقاً لما كان سائداً فى نطاق تقاليد الدفن فى فلسطين[١٠٦] وقتئذ.

إعادة تنظيم الدولة، وتأكيد سلطة الملك

بعد انقضاء حوالى عقدين من تدهور السلطة فى مصر، كان أول ما فكر فيه وركز عليه الملك هو، إعادة تنظيم الكيان الإدارى والجيش بأكملهما. ومن أجل تحقيق ذلك، احتفظ بجانبه، لخدمته، ببعض كبار المحنكين إدارياً ذوى الخبرة، الذين لا يشك مطلقاً فى ولائهم لشخصه. ومن أمثال هؤلاء، نجد الوزير حورى، الذى سبق أن تحدثنا عنه آنفاً. كما أوكل الملك الوظائف الهامة إلى بعض كبار الشخصيات المنتمين «لبوباستيس»، الذين يعتقد أنهم كانوا قد عاونوا والده على تولى السلطة (الفصل الأول -١، ٢). ولكنه مع ذلك، وعلى ما يبدو، قد أسند بالعديد من الوظائف الهامة ذات المسئولية، إلى بعض الشباب المتميزين. ولا شك أن الملك كان يرمى من وراء ذلك إلى تحقيق الوسيلة الفريدة لتكوين جهاز إدارى جديد للمستخدمين، كان قد اضمحل بشكل ملحوظ خلال عهد أواخر ملوك الأسرة التاسعة عشرة. بل كان الملك يهدف

أيضاً الى تأكيد وتثبيت أسس سلطته وسيادته، بتكوين كيان اجتماعى، يدين له بالولاء، ويعتبر بمثابة قاعدة سياسية صلبة[١٠٧]. وكان رمسيس الثالث يتمتع وقتئذ بفترة من الاستقرار كان قد حرم منها جميع الملوك الذين حكموا مصر منذ عهد «مرنبتاح». فاستطاع أن يحقق هدفه الذى عمل من أجله، وهو أن يصبح الجيش المصرى فى أفضل حالاته وأقواها، وأن تتحقق إنجازات ملكه الضخمة، وهذا بالفعل، هو عين ما حدث.

لقد بدأ إعادة التنظيم منذ العام الأول من حكمه. ولم يستكمل إلا فى أواخر العام الخامس. وتقول بعض النصوص الخاصة بمنطقة طيبة إن الملك قد قرر، فى أواخر ذلك العام، بأول يوم من أول أشهر فصل «البرت»، ووفقا لما كان يقوم به بعض ملوك الرعامسة من قبله، فور انتهاء حفلات تتويجهم، أن يقوم بزيارة تفتيشية شاملة لكافة المؤسسات الدينية. ومع ذلك، فلم ينفذ هذا الإجراء تنفيذا فعلياً إلا فى العام الخامس عشر من حكمه. أى أنه قد نفذ بعد مرور عشر سنوات من صدور الأمر به، وسوف نرجع بعد ذلك، لهذا الموضوع، بشكل أكثر تفصيلاً. فلعلنا نلمس أسباب ودواعى مثل هذا التأخير (الفصل الخامس - ١).

وبهذا، عمل الملك على إعادة تنظيم شئون الدولة وعلى مباشرة نشاطات مختلف مؤسساتها. وفى الوقت نفسه، كان يهدف إلى تأكيد سلطته، ولو بشكل رمزى على كافة أنحائها، وكل أراضيها. ومن أجل تحقيق هذا الهدف، درج الملوك الفراعنة، على أن يشيدوا بالمدن، والأقاليم، بل والقرى أيضاً، العديد من التماثيل التى تمثلهم فى أغلب الأحيان بصحبة الإله المحلى، وتقام من أجلها الشعائر[١٠٨]. ومن هذا المنطلق، نجد أن «ست نخت»، قد قام، خلال فترة حكمه القصيرة الأمد، بإقامة نصب وتماثيل على ذلك النمط فى منطقة مصر الوسطى. ولاريب أن ذلك يدل تماماً على الأهمية القصوى التى يوليها النظام الحاكم المصرى لهذا النوع من الإنجازات.

ولكن إذا كان ست نخت لم يسعفه الوقت للتوسع فى ذاك الشأن كما كان يرغب ويريد، إلا أن ابنه، استطاع أن يبدأ هذا النشاط فى وقت مبكر وعلى أوسع نطاق. فنجد، بداية من العام الثانى من حكمه، إحدى اللوحات التى عثر عليها فى ساحة معبد مونتو بالمداموود، شمال شرق طيبة، التى تشير، من خلال بعض النقوش البارزة

عليها، إلى تقديمه هدية توازى خمسين أرورا من الأراضى (مائتى هكتار) من أجل الشعائر الخاصة «بتمثال آمون رع ملك الآلهة» وبتمثال لرمسيس حقا أيونو، ابن آمون، الذى أنجبته موت «ربة الغذاء». ولقد أوكلت مهمة إدارة هذا المكان، وبشكل وراثى إلى حارس «محفوظات» ممتلكات أمون خع ام أوبى ابن «إى إم سبا». وها هى مسلة أخرى تشير بعض كتاباتها إلى إحياء ذكرى إقامة الملك لتمثال «رمسيس حقا إيونو ابن حرى شيف المحبوب مثل الإله ست»، بمعبد كان قد شيد بداخل إحدى القلاع المسماه بـ «رمسيس حقا إيونو الذى يحب جيشه»، على مقربة من هيرقليوبوليس، ناحية مدخل الفيوم، وخصص من أجله بعض الأملاك العقارية، أوكل بإدارتها الى قائد الكتيبة المحلية المدعو أمون خعو، وزوجته إيزيس وأسلافهما من بعدهما (١١٠).

ولا ريب، أن أكثر الأمثلة أهمية عن هذا النمط من النصب تقدمه لنا إحدى اللوحات التى عثر عليها فى منف، وهى تدلنا، بوضوح ودقة، على نمط النشاط الممارس من خلالها. بل وتبين أيضًا، أن مثل هذه الممارسة لم تكن تقتصر على القرى الريفية فقط(١١١). وتقول هذه الوثيقة، إن رمسيس الثالث، قد قرر فى العام الرابع والعشرين من حكمه، أن ينصب تمثالا يمثله هو شخصيًا، ويطلق عليه اسم «تمثال رمسيس حقا إيونو الأعظم، ابن بتاح، الذى أنجبته سخمت»، بداخل معبد «مرنبتاح» فى منف. ورأس الملك بنفسه عملية إدخال هذا التمثال إلى المعبد، وقد صحبه كبار الشخصيات المحلية، وفى اليوم الخامس والعشرين من الشهر الأول بفصل «الشمو» فى العام الرابع والعشرين من حكمه، أى فى عشية الذكرى الخامسة والعشرين لتتويجه (إذن، فربما كان تنصيب هذا التمثال فى ذلك الموعد هو نوع من إحياء الذكرى)، وأوكلت مهمة أداء الشعائر الخاصة بالتمثال إلى أربعة كهنة من المختصين: «كاهن من كهنة مرنبتاح» بمنف، وهو مرنبتاح ابن عاخبت، والذى خلع عليه، بهذه المناسبة، لقب «النبى» بالوراثة المختص بالتمثال، وهناك أيضًا كاهن آخر أقل مرتبة منه وهو «شد آمون»، بالإضافة إلى مغنيتين من أقاربهما.

وأصبح التمثال بهذا يتمتع بجهاز خاص من العاملين من أجله. وبواسطة المرسوم الخاص بإقامته، أصبح من حقه، أن يحصل، بشكل منتظم ودائم على المؤن

والمستلزمات اللازمة. ويقوم بتقديمها، كل من، خزانة معبد بتاح فى منف والخزانة الملكية معًا.

والجدير بالذكر هنا، أن الممتلكات والأموال المخصصة لممارسة الشعائر، تقدم منها بعض المكافآت، مثلما يحدث فى أى معبد مصرى، إلى مجموعة القائمين بممارسة هذه الشعائر من أجله.. فإن «مرنبتاح ابن عاخبت» ومساعديه كانوا يحصلون تقديرًا لخدماتهم على عشرة أرغفة خبز، وجرة مليئة بالجعة، وخمس حزم من الخضروات، وبعض اللحوم المشوية، وكمية من النبيذ، ومقدار عشرة جرامات من البخور، وسلة مليئة بأنواع الفاكهة، وثمانى باقات من الزهور، كل يوم. بل ويضاف إلى كل ذلك ثلاث فطائر وثلاثة مقادير من زيت الزيتون يحصلون عليها كل شهر. وأخيرًا فى أول أيام السنة من كل عام، يقدم إلى كل منهم ثوبان من الكتان الملكى الفاخر، وثوب مصنوع من أرقى أنواع النسيج، وقماش خاص بتزيين التمثال.

ومن خلال هذا المثال، يتبين لنا، مدى أهمية من يخلع عليه الملك لقب «ممارس الشعائر» من أجل مثل هذه التماثيل. وبشكل إجمالى، عند نهاية فترة حكم رمسيس الثالث، وفقا لما جاء «ببردية هاريس -١» ، لم يقل عدد التماثيل التى نصبت من هذا الطراز، المرتبطة إداريًا «بممتلكات آمون بطيبة»، والتى أمر رمسيس الثالث بإقامتها، عن (٢٧٥٦) تمثالاً. ولقد خصص الملك من أجل صناعتها مقدارًا لا يقل عن ثلاثة أطنان من الذهب، والفضة، والأحجار نصف الكريمة. وكان كل تمثال منها، يحفظ بداخل مقصورته الخاصة به، ولديه عدد من العبيد من أجل خدمته، ويملك بعض الحقول، بالإضافة إلى عدد من الماشية، وكلها تقع تحت إدارة الشخصية المهمة التى وهبت له كل هذه الهبات (١١٢). ولا شك مطلقًا أن إقامة مثل هذه التماثيل كانت تتضمن فى طياتها أهمية اقتصادية واضحة، وتعمل على تأكيد سلطة الفراعنة ونفوذهم بالأماكن النائية بمصر. ولكن، يلاحظ أيضًا، أن الشعائر التى كانت تؤدى من أجلها، قد حولتها، مع الوقت، إلى آلهة فعلية تعبد وتبجل، حتى بعد مرور أمد طويل على موت صاحبها. ووفقًا لما ذكر «ببردية ويلبور»، فإنه بعد وفاة رمسيس الثالث بعشر سنوات، لم تنمح أبدًا الشعائر الخاصة بالعديد من تماثيله فى نطاق قرى منطقة مصر الوسطى(١١٣).

إعادة السلام فى النوبة

تمتد النوبة، على بعد خمسمائة كيلومتر أقصى الجنوب، ما بين إلفنتين وصولب، وهى عبارة عن أراضٍ صحراوية جرداء كان الملوك الفراعنة ينفون إليها المجرمين(١١٤). ولكنهم، فى الوقت نفسه، كانوا يحققون من خلالها، استثمار مناجم الذهب، وتجارته، ويحصلون بذلك على جزء ضخم من ثرواتها(١١٥). وحتى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث، كانت هذه المنطقة تقع تحت إدارة مصر، ويرأسها «نائب الملك فى كوش» ويدعى حورس بن كاما. وكان حورس يشغل هذه الوظيفة منذ حكم سيبتاح(١١٦). ثم خلفه فى هذا المنصب نفسه، وحتى فترة حكم رمسيس الرابع(١١٧)، ابنه ويدعى «حورس» هو أيضًا. وينحدر «حورس ابن كاما» من تل بسطة، مثله كمثل بعض كبار موظفى الدولة. وكان يتباهى دائمًا بمنشئه هذا. ويعمل على أن يمثل، وهو فى أعمق أعماق منطقة النوبة، وقد انكب على عبادة آلهة بلده الأصلية، ولقد أعد بها أيضًا مقبرته الخاصة(١١٨). وبجوار مثل هذه الشخصيات، التى كانت تمارس نشاطها السياسى لفترة طويلة المدى، نجد، فى إطار حكم رمسيس الثالث، «نائب كوش» أى القائم بإدارة الجزء الجنوبى لهذه المستوطنة «باسر» بن «بن رع»، الذى عمل على أن يمثل، فى العام الحادى عشر من الحكم، فوق إحدى لوحات «غرب عمارة»، مقر إدارته(١١٩). وكان هناك أيضا، «قائدان عسكريان بكوش»، بمثابة مساعدين عسكريين لنائب الملك، وهما «باك إن سوتخ» و «بين إم واست» الذى تورط، فى أواخر الحكم، فى «مؤامرة الحريم»(١٢٠).

لقد كانت هذه المنطقة المترامية الأطراف، والتى تعتبر من أكثر المستوطنات هدوءًا، تخضع لسيادة قوية من جانب مصر. ومع ذلك، فقد كان يعيش فى أنحائها قبائل متعددة تميل إلى الشغب والتمرد، لم تخضع خضوعًا فعليًا مطلقًا. ومثلها فى ذلك مثل الليبيين أو سكان فلسطين، كانت تنتهز وتتحين كل فرصة تغيير الحكم فى مصر، وكل بوادر تراخٍ أو اضمحلال من جانب السلطة الفرعونية، لتتمرد وترفع راية العصيان، فقبل ذلك بعشرين عامًا، اضطر مرنبتاح، خلال العام الخامس من حكمه، أن يقود بنفسه حملة قمع وردع لإحدى الحركات الثورية فى منطقة «النوبة السفلى» أو

الواوات(١٢١). ولم تكن حركات التمرد والعصيان هذه لتهدد مطلقًا السيادة المصرية، التى تدعمها شبكة من الحصون والقلاع التى تعسكر بها قوات عسكرية مصرية على أعلى مستوى. ومع ذلك، فقد رغب رمسيس الثالث فى تأكيد سطوته ونفوذه على كافة أنحاء ممتلكاته. بل لقد أراد أيضًا، أن يمتد نفوذه إلى ما هو أبعد من هذه الحدود. ووفقًا لما تبينه ثلاثة مشاهد فوق جدران معبد مدينة هابو(١٢٢)، نجد أنه قد قام بحملة خاطفة إلى تلك الأراضى، ربما قد لا تعتبر بمثابة «حرب» فعلية، ولكن مجرد «استعراض» قوى، دأب الفراعنة الرعامسة، على القيام به على التوالى، وبصفة تقليدية. ولم تكن هذه الحملات لتتسم بخطورة تذكر. ولذلك، كان يشارك بها الأمراء من صغار السن، من أجل تدريبهم على ضروب القتال وفنونه. ومن قبل، قام رمسيس الثانى، فى مقتبل صباه، بالاشتراك فى إحدى هذه الحملات التأديبية خلال حكم أبيه(١٢٣). عمومًا، كان يتاح من خلالها الحصول على عدد ضخم من العبيد ومن الجند المرتزقة(١٢٤) بأرخص الأسعار.

وربما قد شكك البعض فى حقيقة قيام هذه الحملة، التى، على ما يعتقد قد ترجع إلى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث، (نجد الملك وقتئذ، منقوشًا فوق إحدى لوحات غرب عمارة كان قد أقامها «نائب الملك فى كوش» «حورى بن حورى»(١٢٥)). ولكنها، قد أكدت، من خلال «بردية هاريس (١)»، حيث ذكر عدد الأسرى النوبيين الذين وهبهم رمسيس الثالث إلى معبدى طيبة ومنف(١٢٦). وأكدت قيام هذه الحملة كذلك، هذه المعلومة التى تقول إن منطقة مصر الوسطى، قد تضمنت خلال عهد رمسيس الخامس، مستعمرة عسكرية تسمى بـ «بننانحسيو»، أى «قرية النوبيين»(١٢٧). وبما أن رمسيس الثالث كان قد أمر بعمل العديد من الإصلاحات فى «غرب عمارة»، وبتغيير اسمها. وكانت من قبل، تسمى «بر رمسيس مرى أمون» أى بيت رمسيس الثانى، فأطلق عليها اسم آخر، هو «بيت رمسيس حقا إيونو، المفعم بالانتصارات»(١٢٨). و أصبح له، فى أعماق النوبة أيضًا عند بداية الدلتا، مقران ملكيان يحملان اسمه، ويعبران، فى آن واحد عن مقدرته الحربية، بل يجسدان أيضًا، منذ بداية حكمه، أقصى حدود سيادته ونفوذه.

المؤسسات و الإدارة

المؤسسات

لا شك أن إنجازات رمسيس الثالث لا يمكن أن تقيم وتقدر إلا من خلال مؤسسات مصر[١٢٩] التى تولى حكمها بالوراثة. ويبدو واضحاً، أن هذه المؤسسات، تختلف تماماً عن المؤسسات القائمة بالدول الحديثة الحالية، فقد كانت تستوعب الدولة بأكملها، بما فيها من أراض، وشعب، وممتلكاتها وخيراتها، لتكون ما يشبه الكيان المركب المعقد، وتتبوأ مصر نفسها أى الدولة قمة هذا الكيان، باعتبارها مؤسسة عليا تستوعب فى نطاقها كافة المؤسسات الأخرى. وفى هذا الإطار نفسه، يلاحظ أن المؤسسات المستقلة، مثل المعابد، تمتلك أراضى، ومواشى، ومستخدمين خاصين بها. ويبرر استقلالها هذا الى أنها ترنو أساساً إلى تحقيق أهداف غير مرتبطة مطلقاً بأهداف الدولة (على سبيل المثال، ممارسة الشعائر والطقوس الدينية). ولا يرتبط هذا الاستقلال بكبر حجمها أو بصغره. فإن أى مبنى متواضع أنشئ من أجل إقامة الشعائر الجنازية لأحد موظفى الأقاليم المغمورين أو من أجل تمثال ملكى يمكن أن يحظى بالاستقلال نفسه الذى تتمتع به ممتلكات آمون الكرنك المترامية الأطراف. وضمن المنشآت الدينية، يبدو البعض منها شبه مستقل، أى يكون مستقلاً بداخل مؤسسة دينية أخرى شاسعة وضخمة : فنجد أن مدينة هابو وكافة المعابد الجنازية الملكية بطيبة، كانت تخضع لأملاك آمون، ولكنها، فى الوقت نفسه، لها وجودها ونظامها التأسيسى الخاص بها. وأخيراً، وعند مرتبة أدنى، توجد مؤسسات غير مستقلة، تعمل فقط، من أجل تقديم خدمات نوعية، لمؤسسة أخرى : فمن أجل خدمة مطالب المؤسسة الملكية، خصصت مؤسسة دير المدينة؛ وكان يخضع لها أيضاً الجيش أو إدارات الدولة، ومن أجل المعابد خصصت الممتلكات الزراعية، وقطعان الماشية، ومجموعات العبيد لخدمتها وتموينها.

ويتمثل التكوين الاقتصادى، والاجتماعى، والسياسى لكل واحدة من تلك المؤسسات فى هيئة نموذج واحد ثابت لا يتغير. فكل واحدة منها تعتبر بمثابة كيان لا يمكن التصرف فى ممتلكاته أو أفراده. ومهمة كل منها هى القيام بعمل معين ودائم، ذى مبررات محددة. ولكل واحدة منها لائحتها القانونية الخاصة بها، وأيضاً، هويتها الخاصة.

ولنحاول هنا، أن ندرس، على حدة، كل بند من تلك البنود المذكورة آنفاً. إن أى مؤسسة من تلك المؤسسات تعتبر بمثابة كيان لا يمكن التصرف فيه، أى أن كل مؤسسة مصرية كان لها ممتلكاتها الخاصة بها من أجل معيشتها، وأفرادها اللازمين للعمل فى نطاقها. وكان رؤساء كل من تلك المؤسسات يتعاقبون، الواحد فى إثر الآخر بأسلوب الوراثة، ويملكون جزءاً من ممتلكاتها. ولكنهم، بالرغم من ذلك، لا يستطيعون توريثها لأحد من بعدهم.

وأما عن تمتع كل واحدة من تلك المؤسسات بهويتها الخاصة بها: فإن هذه الهوية كان يعبر عنها بواسطة اسم علم. فمثلاً يقال «ممتلكات الإله (س)»، أو «المؤسسة الجنازية الخاصة بالموظف (جـ)»، أو «القطعان الخاصة بالمعبد (ز)». وكذلك، فإن كل مؤسسة مصرية كانت تدين بوجودها لمؤسسها[١٣٠] وخالقها؛ الحقيقى أو الصورى: فالإله هو خالق مصر، والملك هو مؤسس المعبد، وأحد أفراد الشعب هو المؤسس لإحدى المؤسسات[١٣١] الجنازية، على سبيل المثال.

ومن أجل إقامة مؤسسة ما، لا يستطيع مؤسسها أن يستعين إلا بممتلكاته الخاصة به. فنجد، على سبيل المثال، أن حاكم أسيوط المدعو جفاى حابى، خلال عصر الدولة الوسطى، عندما أقام مؤسسته الجنازية، قد ذكر بالتحديد أن الممتلكات التى خصصها من أجلها هى ممتلكات خاصة به هو شخصياً، ولا تخص مطلقاً الموقع العام الذى يقوم بإدارته رسمياً [١٣٢]. وبالمثل، فإن أى ملك يرغب فى إقامة مؤسسة جديدة (معبد جنازى، على سبيل المثال)، يجب أن يستعين لتحقيق ذلك بأملاك العرش الخاصة، ويعين المستخدمين بها من أسرى فتوحاته الحربية. وأساساً، لم تكن المؤسسات تنشأ إلا من أجل القيام بمهام تدوم إلى الأبد. ولا شك أن هذه المهام تتطابق، وفقاً لما يحدده منشئ المؤسسة. وقد تكون المؤسسة سياسية (خاصة بإحدى الإدارات الحكومية)، أو اقتصادية (تكوين قطعان ماشية من أجل أحد المعابد)، أو أيديولوجية (من أجل إقامة شعائر لأحد الآلهة أو الموتى). ولكنها، فى نهاية الأمر، تهدف جميعاً إلى هدف عام واحد : هو الهدف الدينى.

ولكى تتمكن هذه المؤسسات من القيام بمهامها، نجد أنها، قد أُعفيت، وفقاً لدرجة استقلالها، من متطلبات القانون العام (أى قانون الدولة). بل لقد أُعفيت أيضاً من

وانون المؤسسات الكبرى الذى انبثقت منه : الخدمة العسكرية[١٣٣]، والسخرة، والهيمنة السياسية. ويتضمن هذا الإعفاء، الذى يعمل أيضاً على توضيح حدودها، باللائحة الخاصة بتأسيسها. ولقد وفر لها هذا الإعفاء قدراً هائلاً من الاستقلال الإدارى والقضائى. وكان لكل مؤسسة جهازها الإدارى الخاص بها، الذى قد يتشابه مع جهاز الدولة نفسه. ويعمل رؤساء هذا الجهاز، من خلال اجتماعاتهم، وبصفتهم الرسمية، على فض الخلافات التى قد تحدث بين بعض أعضائه (انظر «دير المدينة» - الفصل الثالث - ٤).

اقتصاديات إعادة التوزيع

لا شك أن بعض الاعتبارات الأيديولوجية هى التى أضفت على أسلوب تنظيم تلك المؤسسات سمتها الرسمية. فبالنسبة للمعتقدات المصرية القديمة، اعتبر «العالم» بأكمله (أى مصر) بمثابة «مؤسسة» تتشابه مع النمط نفسه الذى وصفناه آنفاً: فالعالم قد خلقه إله أعظم على كل شىء قدير. وملأه بالمخلوقات لتعيش فى أجوائه. ومنح هذا الإله الأعظم لمخلوقاته كافة الوسائل من أجل معيشتهم، بل وحدد لهم بنيتهم الأساسية الاجتماعية. وأوكل إلى الملوك المتتاليين، بصفتهم مفوضين له، بمهمة إدارة هذا العالم. ولذا، فإن السلطة الحاكمة ترتكز على أساس دينى. ولم يكن هناك أى تمييز قاطع (ربما من الناحية التقنية فقط)، بين المجالات الاقتصادية، أو السياسية أو الأيديولوجية. فالاقتصاد كانت تسوسه السلطة السياسية، ويستخدم كلية من أجل الحفاظ على هذا العالم الذى خلقه الإله الأعظم. وكذلك، فإن أى عمل سياسى يجب أن ينبثق أساساً من المبررات الدينية : فالملك، يجب أن يعمل بكل حرص على الحفاظ على ما اكتسبه من ميراث. بل بالأحرى، عليه العمل على توسيعه وإنمائه؛ فهو بذلك يوفى بدينه للإله الذى أسبغ عليه الخيرات، ونصبه فوق عرش مصر[١٣٤]. وبهذا تبرر الحروب الدفاعية والفتوحات التى قام بها ملوك الدولة الحديثة. بل وتبرر أيضاً همتهم الفائقة فى بناء النصب والمنشآت وتقديم هباتهم وهداياهم المستمرة للمعابد.

إذن، فإن الاقتصاد المصرى يرتبط بنمط التنظيم الذى حاولنا أن نبينه سابقاً وبالمفاهيم التى ذكرت آنفاً. وخلاف ذلك، فهو يخضع لطراز معين من إعادة

التوزيع[١٣٥]. ومن منطلق هذا النظام يعتبر إنتاج مصر بأكمله، من الوجهة النظرية، ملكاً للفرعون. بعد ذلك، يقوم الفرعون بتوزيعه، على المستهلكين، وفقاً لاحتياجاتهم المتباينة. ولا شك أن وجود كل هذه المؤسسات فوق أرض مصر، كان هدفه الأساسى، على المستوى العملى، هو، إتاحة التوزيع الجماعى لذلك الإنتاج. وقطعاً، يعتبر هذا التوزيع الجماعى، من ناحية التنفيذ، أكثر سهولة، من التوزيع الفردى. فهو إذن نظام يكاد يكون مثالياً ينبثق أساساً من أسلوب «العصر الذهبى» الأسطورى، حيث كان كل إنسان يستمتع بكل احتياجاته اللازمة. ولكن، فى واقع الأمر، كان يتمخض عن نوع من التداخل والتشابك الفائق الحد والتعقيد فى مجال الدورات الاقتصادية، بكل ما يتضمنه من إشكالات فيما بين مختلف المؤسسات، ومن مظاهر التعدى والاغتصاب، أو الإخلال بالواجبات الوظيفية (الفصل الخامس والمقدمة). ومن منطلق هذا النظام، كان الاقتصاد المصرى يخضع تمام الخضوع للسلطة السياسية. وبالتالى، كان يتعرض لأزمات وصعوبات دائمة ومتتالية (ينظر الملخص : غروب الدولة الحديثة). بل ويقترن اقتراناً تاماً بالتكوين الاجتماعى الذى يتسم بالتدرج الفائق الحد؛ لينتج من وراء ذلك نمط من البيروقراطية المترامية الأطراف الشديدة الضخامة.

الإدارة

كانت الإدارة الخاصة بالملوك الرعامسة[١٣٧] تتضمن فى أجوائها العديد من الوظائف، تتحدد وفقاً لمبدأ التدرجات الوظيفية. ومن الوجهة النظرية، تعتبر هذه الإدارة، بمثابة تجمع للعديد من «العاملين» فى خدمة مصر؛ قد «يتشابه»، على سبيل المثال، بتجمّع عمال «دير المدينة» أو غيره من المؤسسات الأخرى[١٣٨]. ويبدو أن مبدأ شغل الوظائف عن طريق الوراثة، والذى كان يبرره تناقل الكفاءة والمهارة، كان يعمل، فى نطاق إدارة المؤسسات الدينية، على احتفاظ أسر بعينها[١٣٩] بالوظائف الهامة، على مدى أجيال عديدة متعاقبة. وهذا المبدأ لم يكن شائعاً فى نطاق الإدارة الخاصة بالملوك الرعامسة؛ فلا شك أنهم كانوا يتخوفون مما قد يكتسبه هؤلاء الموظفون الكبار من سلطة سياسية لطول فترة بقائهم فى مناصبهم.

والجدير بالذكر هنا، أن معظم أعضاء تلك الإدارة، بالرغم من تباين درجاتهم، كانوا يحملون ضمن ألقابهم العديدة لقب «الكاتب الملكى»[١٤٠]. وربما يعتبر هذا اللقب

بمثابة «درجة جامعية»، تبين أنهم ملمون بالكتابة والقراءة. وجميع من كانوا يشغلون وظيفة «كاتب الملك» يفخرون بها كل الفخر : «اعمل على أن تصبح كاتباً فسوف تسوس البشرية جمعاء»[١٤١]. ولكنهم كانوا يزدرون المهن العسكرية ومن يشغلونها[١٤٢]، فهى كما يرونها، تتسم بالخشونة والأحوال المتردية. وفى حالة عدم توافر العملة النقدية، كان هؤلاء الكتبة يحصلون على مرتباتهم[١٤٣] فى هيئة مباهج ومتع، أو بالحصول على بعض منتجات الأراضى الخاصة بالوظائف التى يشغلونها. بل كانوا يتلقون هبات الفرعون شخصياً بمثابة مكافأة لهم[١٤٤]. وبالإضافة إلى وظائفهم الأصلية، كانوا يكلفون بإدارة بعض الأراضى الزراعية الخاصة بمختلف المؤسسات، مثل : المعبد الجنازى الخاص بالفرعون[١٤٥]، وأراضى الإله آمون[١٤٦]، وبالتماثيل الملكية[١٤٧]، والعرش أيضاً[١٤٨].

وفى أعلى قمة الدولة[١٤٩]، كان يتربع الفرعون وأفراد عائلته، وهم : زوجته أو زوجاته (ولكن نجد أن واحدة منهن فقط هى التى كانت تحمل لقب «الزوجة الملكية المعظمة»، أى الملكة الرئيسية)، ثم هناك أيضاً أمه، بالإضافة إلى الأمراء والأميرات. وفى نطاق هذه المجموعة، يلاحظ أن الملك والأمراء فقط هم الذين كانوا يقومون رسمياً بأداء الوظائف العسكرية أو الإدارية (الفصل الثانى -٢ ، والفصل الرابع -١) وعندما يصل ولى العهد وأخوه الأصغر إلى سن الإدراك يقومان بمهمة قيادة كتيبة العربات بالجيش. وفى الوقت نفسه، كان بعض الأمراء الآخرين يكلفون بإدارة أملاك بتاح فى منف، وأملاك رع فى هليوبوليس. وجميعهم كانوا يهيمنون على أراضٍ شاسعة [١٥٠]، وعلى «حريم» وقصور يقيمون بها فى كافة المدن الكبرى[١٥١] بمصر. بل كان لهم أيضاً ما يسمى «بحريم المرافقة»، من أجل تلبية متطلباتهم خلال تنقلاتهم[١٥٢] المتعددة (الفصل الثانى -٢). والجدير بالذكر أن الأراضى الشاغرة، أى التى لا وارث لها، والمسماة بالـ «خاتو»، كانت تؤول إلى ملكية العرش، الذى يقوم بإسناد مهمة إدارتها المؤقتة إلى بعض الإداريين[١٥٣].

القصر الملكى

كان مقر الملك فى «بر - رمسيس» يعج بالعديد من كبار الموظفين الإداريين، حاملى الألقاب الرفيعة العريقة القدم (مثل : الرفيق[١٥٤]، الصديق الأوحد[١٥٥]،

المعروف للملك[١٥٦]، المستشار الخاص بملك مصر السفلى[١٥٧])، أو أصحاب الألقاب الفخرية الأكثر حداثة (مثل حامل المروحة الكبرى على يمين الملك[١٥٨]). وكان هناك بعض الشخصيات الرفيعة المقام، مثل الوزير، أو نبى آمون الأول؛ هم فقط المسموح لهم بحمل لقب «ربعت». وكان هذا اللقب يخص أساساً الأمير ولى العهد. وكذلك الأمر بالنسبة للقب الرفيع «حاكم» الذى كان يحمله أصلاً رؤساء مختلف مناطق مصر[١٥٩].

وكان هذا المقر الضخم يقع تحت إدارة «المدير الأعلى لبيت الملك»، الذى كان، على ما يبدو، يحمل لقبا آخر هو «كاتب الحسابات الخاص بملك القطرين» (خلال عهد الأسرة الثانية عشرة، كان «الوزير» هو المهيمن على شؤون ذلك المقر). وكان يقوم بمساعدته سكرتير إدارى، هو «الكاتب الخاص بالقصر». أما «كاتب المائدة» فقد كان يدير شؤون المؤن والغذاء. ويمكننا تحديد ثلاث شخصيات من شاغلى هذه الوظائف، خلال هذا العصر. فبالنسبة للوظيفة الأولى، نجد «بتاح موسى»[١٦٠]؛ وبالنسبة للثانية : «سينر»[١٦١]، والثالثة كان هناك : «حوريا»[١٦٢]. وكان هذا المقر الملكى يضم بين جنباته أيضاً : «كاهن شعائرى»[١٦٣] مختصاً، على ما يبدو، بمضاهاة سلوك الفرعون أمام الجماهير مع التقاليد المعمول بها وقتئذ. وكذلك كان هناك «كاتب بيت الحياة»[١٦٤]، أى رئيس دار الوثائق الملكية، حيث كانت تحفظ «النصوص الإلهية»، التى تفسر عناصر الغموض والإبهام فى إطار الديانة المصرية[١٦٥]. ولقد حددت شخصيات بعض العاملين[١٦٦] بتلك المؤسسة خلال حكم رمسيس الثالث[١٦٧]، حيث اشترك البعض منهم فى «مؤامرة الحريم» (الفصل السادس -٣). والجدير بالذكر، أنه بجوار «بيت الحياة» كان يوجد أيضاً «قصر الحياة». وفى نطاقه يعمل العديد من الأطباء تحت إدارة «رئيس الأطباء». وخلال عهد رمسيس الثالث، حددت شخصية أحد حاملى هذا اللقب، وهو «ابن عنات» (أى ابن الإلهة عنات)[١٦٨]؛ وهو من الأسماء السامية.

ومع ذلك، وفى نطاق هذا المقر الملكى، كان هناك العديد من العاملين، المكلفين بالقيام بالخدمة الخاصة للملك؛ ويرأسهم من يحمل لقب «رئيس الحجرة». ولقد شغل هذه الوظيفة[١٦٩]، خلال عهد رمسيس الثالث شخص يدعى رمسيس نخت. والجدير

بالذكر، أنه فى أواخر عهد هذا الفرعون، عُين بهذه الوظيفة شخص آخر، أطلق عليه اسم مشين هو «باى باك كامن» ويعنى «هذا الخادم الأعمى»، وحكم عليه بعقوبة الإعدام باعتباره أحد المتورطين الأساسيين فى «مؤامرة الحريم». ولاقى مساعده المدعو «عشاحب سد» نفس العقوبة (الفصل السادس – ٣). وبجوار رئيس الحجرة، كان «مدير الحجاب» المكلف بمساعدة الملك فى ارتداء ملابسه؛ وكان هناك أيضاً «مدير الأجنحة الخاصة»، أو رئيس البروتوكول، و«رئيس الأسرار»، الذى كان يقوم بالإشراف على الاحتفالات الدينية بداخل القصر. ووجد كذلك «القائم بالشعائر على مضجع الملك»؛ ولا بد أنه كان مكلفًا بالتعزيم، بواسطة التراتيل، على المؤثرات الضارة التى قد تعكر صفو وهدوء نوم الفرعون[١٧٠].

وأخيراً، يضاف إلى كل هؤلاء العاملين، عدد من الأفراد يطلق عليهم اسم «ندماء الملك» أو «ندماء القصر». وربما يبدو اللقب مبهماً وتافهاً من الظاهر، ولكن كان يحظى به أقرب المقرّبين من الملك[١٧١]، حيث يوكل إليهم بأكثر المهام دقة وحساسية. فخلال عصر الرعامسة، كلف البعض منهم بقيادة عدد من الحملات إلى «وادى الحمامات»[١٧٢]، وإلى مناجم النحاس فى «طمنة»، أو إلى مناجم الفيروز «بسرابيط الخادم»[١٧٣]. وفى أغلب الأحيان، كانوا يكلفون بمهمة الإشراف والتفتيش «بدير المدينة»؛ بمفردهم أو بمصاحبة بعض موظفى كبار الدولة[١٧٤]. وبصفة خاصة، كانوا يرافقون «الوزير»، عند حضوره هناك، فى بداية عهد رمسيس الثالث، من أجل تحديد مكان ما، أو للأمر ببدء أعمال الحفر لإقامة مقبرة خاصة بالفرعون[١٧٥]، أو لمراقبة وضع الأثاث الجنازى بتلك المقبرة[١٧٦]، بعد ذلك. وبالرغم من أن البعض منهم قد تورط فى «مؤامرة الحريم»، فإن العديد منهم، كانوا ضمن هيئة المحققين والقضاة، الذين كلفوا، فى نهاية عهد رمسيس الثالث، بمحاكمة المتهمين فى تلك المؤامرة[١٧٧].

وكان معظم هؤلاء الأفراد ينتمون إلى أصل آسيوى. ويستطيعون، بدون أن يكونوا فى الهيكل الإدارى نفسه، ولما يقدمون من خدمات للفرعون، أن يحصلوا بجواره على حظوة ونفوذ لا يستهان بهما. والدليل على ذلك هو ما أنعم به عليهم من تكريم وخيرات وفيرة. ويمكننا أن نذكر فى هذا الصدد، المهام الرائعة، التى قام بها النديم «باى»، حظى سيبتاح، فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة. وعلى ما يبدو، كانت الحظوة

التى يتمتع بها هؤلاء الأشخاص تمتد إلى العديد من الأجيال. فهناك، على سبيل المثال، أحد الندماء أيام رمسيس الثالث ويدعى «بتاح إم ويا»، الذى يعود أصله إلى منف[١٧٨]، قد أنجب من زوجته «حتحور»، ابناً أسماه «حورى»، الذى امتهن مهنة أبيه نفسها وشغل وظيفة مرموقة لدى رمسيس الثالث ورمسيس الرابع على التوالى. بل إنه قد قام، فى العام الرابع والعشرين من حكم رمسيس الثالث بالمساهمة فى إقامة الشعائر الدينية من أجل أحد تماثيل الملك، بمعبد «مرنبتاح»، فى منف (فيما يلى –٣). وخلال حكم رمسيس الرابع، كان قد كلف مع «الوزير»، بالاشتراك فى اللجان الموكلة بمهمة تحديد عمال «دير المدينة»[١٧٩]، ثم بمهمة البحث فى «وادى الملوك» عن المكان المناسب من أجل حفر مقبرة الفرعون الجديد[١٨٠]. بل لقد رجع، فيما بعد، إلى «دير المدينة»، حاملاً، من جانب الفرعون قائمة ضخمة بالمكافآت من أجل العاملين فى تلك المؤسسة[١٨١]. بل لقد أنعم عليه هو نفسه بمقبرة خاصة له[١٨٢] فى منطقة «سقارة»، بجوار هرم «تيتى»، فى نطاق جبانة منف.

القطاع الإدارى

تعتبر هذه الفئة من كبار العاملين المذكورين آنفًا، بمثابة الموظفين والندماء المكلفين بأعمال خدمة الفرعون فى نطاق البلاط الملكى. ومن بعدهم، يتدرج قطاع الإدارة الاعتيادية بمصر. وينقسم هذا القطاع إلى عدة قطاعات وظيفية أخرى، مثل: الجيش (وسوف نطالع أسلوب تنظيمه من خلال الفصل الرابع –١)؛ ثم هناك أيضاً الإدارة الاقتصادية؛ وكذلك ما يمكن أن تسمى بسكرتارية الدولة، التى تتمتع بأهلية معالجة العلاقات مع المستوطنات المصرية؛ وتوجد– كذلك – عناصر «الإدارة مركزية»، خاصة برجال الدين؛ ثم الأجهزة الخاصة بالوزراء، التى تشرف على «الإدارة الإقليمية»، وعلى أوجه نشاط مختلف «الوزارات» المتخصصة. ولا شك أن كافة هذه القطاعات كانت تخضع لرئاسة الفرعون، من خلال جهاز يطلق عليه اسم «مكتب الملك»، كان يقوم بإدارته «مدير خاص»[١٨٣].

والجدير بالذكر هنا، أن «المدير الأعلى» المكلف بإدارة قصر الملك (ينظر آنفًا)، كان مسئولاً أيضًا، عن الشئون الاقتصادية فى كافة أنحاء مصر، وبصفة خاصة فى إطار المنشآت الملكية. ولا بد أن يدرج تحت إدارته «مدير الأعمال الملكية». وتلك

الوظيفة لم تظهر إلا فى أواخر الأسرة العشرين[١٨٤]. ولقد رأينا فيما سبق، أن شخصاً يدعى «بتاح موسى»، خلال حكم رمسيس الثالث، «بالإدارة المركزية»، كان يحمل لقب «المدير الأعلى». ولكن، هذا اللقب نفسه، كان يطلق أيضاً، فى النطاق المحلى، على المديرين أو المشرفين بمختلف المؤسسات. فهناك، على سبيل المثال «مرى باستت»، «مدير مدينة هابو» (الفصل الثالث – ٣)، وهناك أيضاً رمسيس أوسرخبش «مدير بيت شان» بفلسطين[١٨٥]، وكذلك باك إن سوتخ «قائد الجنود بالنوبة»[١٨٦]، ولن ننسى أيضاً «مديرى الأملاك الإلهية»[١٨٧] بمصر. ولقد أحطنا علماً بمختلف الشخصيات التى حملت هذا اللقب[١٨٨] خلال عهد رمسيس الخامس. ووقتئذ، أضيف إليه لقب رفيع آخر، هو «المشرف الأعلى على مصر العليا»؛ حيث اختص به كبير كهنة آمون[١٨٩].

وبجانب تلك الإدارة، يوجد «مكتب مراسلات سيد القطرين». وهو بمثابة سكرتارية الدولة؛ وترتكز مهمته على إرسال واستقبال كافة المراسلات الملكية. وكان مقره بأحد المبانى الواقعة فى نطاق بر – رمسيس. وخلال حكم مرنبتاح، قام «ثاى» بنقش مبناه، وكان هو أيضاً مديره[١٩٠]. وهناك العديد من مديريه وكتبته عرفوا خلال عهد رمسيس الثالث، منهم أمنموسى بن باويا، الذى شيد مدينة هابو، وشخص يدعى أمنمؤبى، وكان قد ساهم، فى العام السادس والعشرين من حكم رمسيس الثالث بإحدى لجان التحقيقات بدير المدينة[١٩١]، وآخران يدعيان «ماى» و «بارع إم حاب»، كانا قد كلفا بمهمة محاكمة المتهمين فى «مؤامرة الحريم»، ولكنهما انساقا لغوايتهما، ودفعا حياتهما ثمناً لذلك (الفصل السادس – ٣).

ومن المؤكد أن هذا الجهاز كان يتمتع بأهلية الإشراف على المراسلات الداخلية الخاصة بالفرعون. ولذا، فإن «مراسلى الملك» كانوا يحضرون أحياناً إلى «دير المدينة» من أجل التفتيش على تقدم سير العمل فى المقابر الملكية أو الخاصة بالأمراء بطيبة[١٩٢]. وبجوار هؤلاء، كان يوجد أيضاً «الناطقون بلسان الملك». ويقوم هؤلاء بمهمة الإعلان عن أوامر الملك، بل ويمثلونه فى معظم الشئون. وضمن هؤلاء يمكننا أن نذكر «بن رننوت»، وهو أحد القضاة الذين قاموا بمحاكمة المتهمين فى قضية «مؤامرة الحريم»[١٩٣]. ومع ذلك، فمن الملاحظ أن، العمل الأساسى الموكل إلى هذا المكتب كان يتعلق بإدارة المستعمرات المصرية. وكان مبعوثو الملك إلى البلاد

الأجنبية – وهم غالباً من جنود العربات – يقومون بمهمة الربط بين تلك المستوطنات. وضمن هؤلاء، نستطيع أن نذكر «رخ بح توإف»، الذى كان قد حضر، فى العام الأول من حكم سيبتاح، من أجل تنصيب «نائب الملك فى كوش»[١٩٤]، ويدعى نخت آمون؛ الذى قام، خلال حكم رمسيس الثالث، بمهمة التفتيش بفلسطين الواقعة تحت سيطرة مصر[١٩٥]. بل وهناك أيضاً المدعو باحم نثر، الذى ترك لنا مناظر تمثل بعض عربات الملك الحربية فوق أحد جدران مقبرته «بالحيبة»، أمام إسنا[١٩٦]. وعلى ما يعتقد، كانت وظائف هؤلاء الأفراد تتيح لهم أحياناً، فرصة الترقى إلى المناصب العليا فى نطاق الممتلكات الأجنبية الخاضعة لمصر. وفى هذا الصدد، يمكننا أن نذكر، «نائب الفرعون فى كوش» المدعو حورى بن كامع؛ وكان قد بدأ مهنته بوظيفة «مبعوث إلى خارو» (أى فلسطين) وإلى «كوش»[١٩٧]. ولقد سار على منواله ابنه الأصغر[١٩٨] المدعو «أوبخ سنو».

وكان مراسلو هؤلاء المبعوثين، مديرين للأراضى الواقعة خارج نطاق مصر، يحملون لقب مدير البلاد الأجنبية؛ يضاف إليه تحديد موجز عن المنطقة التى يديرونها : فعلى سبيل المثال، نجد أن نواب الملك فى «كوش»، مثل حورى بن كاما، كانوا يحملون لقب : «حكام البلاد الأجنبية فى الجنوب»[١٩٩]. أما حكام فلسطين، فكانوا، مثل جحوتى مس، يلقبون «بحكام البلاد الأجنبية فى الشمال»[٢٠٠]. وعن قادة قلعة تكو Tjekou (تل المسخوطة) فى وادى طميلات، مثل أوسر ماعت رع نخت، الحاكمين لمنطقة حدود شرق الدلتا، فكانوا ينعمون بلقب «حكام البلاد الأجنبية فى أرض الإله»، أى الشرق[٢٠١]. وأخيراً، وخلال حكم رمسيس الثانى، نجد أن قادة سلسلة القلاع الممتدة من مرمرية وحتى «زاوية أم الرخم»، كانوا يلقبون بلقب «حكام البلاد الأجنبية بالغرب».

وعلى مستوى الإدارات نفسها التى أشرنا إليها آنفاً، كان هناك منصب : «مدير كهنة كافة الآلهة»، أو «كافة آلهة مصر العليا والسفلى»، أو من يمكن أن يسمى «بوزير الطقوس». ومع ذلك فإن الاختصاصات الفعلية لهذا اللقب، الذى كان يحظى به النبى الأول لآمون أو أحد أبنائه، خلال حكم رمسيس الثالث وخلفائه، كانت غير محددة المعالم[٢٠٢]. وبجوار صاحب هذا اللقب، يوجد «القائم بالشعائر بكافة أنحاء مصر».

وتركز مهمته على مراقبة انتظام سير الشعائر (خلال حكم رمسيس الثالث تضمنت «مؤامرة الحريم» اثنين من حاملى هذا اللقب، (انظر الفصل السادس – ٣). ويصاحبه أيضًا من يحمل لقب: «رئيس كتبة المؤسسات المختصة بالقرابين الإلهية لكافة الآلهة». وتعتمد مهنته على إمداد موائد الآلهة بالقرابين[٢٠٣]، وبكل ما يلزمها.

وأخيراً، فتحت إدارة الوزير الأعلى أو الوزراء، توجد «الحكومة الداخلية» لمصر، ويمكن أن تسمى أحياناً «بالمجلس الأعلى». وفى «دير المدينة»، كانت تسمى بمجلس المراقبين[٢٠٤]. ويقوم من يلقبون «بكتبة الحصيرة»، فى نطاقها، بمهمة قلم السكرتارية[٢٠٥]. وكانت هذه السلطة تتضمن فى إطارها عدداً محدوداً من الإداريين للأقسام المتخصصة. ولا شك مطلقاً، أنهم كانوا يمثلون محلياً بأهم مدن مصر. ومع ذلك، فليس من السهل دائماً تحديد اختصاصاتهم.

والجدير بالذكر، أنه فى أواخر عهد الرعامسة، كان هناك، على سبيل المثال، ضمن هؤلاء الإداريين: «مدير الخزانة»، «ومدير مخازن الغلال»، «ومدير قطعان الماشية»[٢٠٦]. ونجد أيضاً «مدير الضرائب»، المكلف بمهمة جمع المحاصيل[٢٠٧]. وكذلك يمكن أن نذكر «مدير أختام البحر»، الذى كان على ما يبدو، يدير جهازاً شبيها «بالجهاز الجمركى الحالى»[٢٠٨]. وفى كافة مستويات الإدارة، ومهما تباينت الأقسام، كان يوجد بعض الكتبة الحاملين للقب «إدارى منتدب»، «رودجو». وتكون هذه الفئة كياناً من الموظفين متعددى الكفاءات. فهم على سبيل المثال يمكن أن يكونوا مبعوثين من جانب الفرعون من أجل القيام بعمل فائق الدقة[٢٠٩]. ويمكن – أيضاً – أن يرأسوا الحملات التى يبعث بها إلى الخارج[٢١٠]. بل ويستطيعون كذلك أن يقوموا، مؤقتاً، بإدارة بعض المؤسسات[٢١١].

الــــوزارة

من خلال الإطار التقليدى للإدارة المصرية، نجد أن هناك وزيرين، أحدهما من أجل مصر السفلى، ومقره أساساً فى منف[٢١٢] (وربما فى بر – رمسيس أحياناً)؛ أما الوزير الثانى فهو من أجل مصر العليا، ومقره فى طيبة[٢١٣]. وخلال عهد رمسيس الثالث، اتُبع هذا التنظيم حتى العام التاسع والعشرين من حكمه. وفى هذه الفترة، نجد

أن «تو»، وزير مصر العليا، قد استطاع أن يبسط نفوذه حتى مصر السفلى. وإن كنا لا نلم كثيراً بمختلف الشخصيات الذين شغلوا منصب «وزير»، بداية من حكم سيبتاح، وحتى ذلك الوقت فى منطقة الشمال[٢١٤]، إلا أننا نعرف جيداً الذين شغلوا هذا المنصب فى منطقة الجنوب. كبداية، هناك «حورى»، الذى عمل فى خدمة سيبتاح وتاوسرت[٢١٥]؛ وعاصر مرحلة التغيير الأسرى، لأنه قد خدم أيضاً كلاً من ست نخت، ورمسيس الثالث[٢١٦] حتى العام الثانى عشر من حكمه. ولقد سبق أن ذكرنا آنفاً، أن «حورى» ربما كان، قد انحدر من سلالة لا يحق لها تولى العرش، وربما كان ابن أحد أحفاد رمسيس الثانى (الفصل الأول – ٣). وحورى أصله من منف. ولقد شغل أفراد عائلته وظائف مختلفة فى إطار ممتلكات الإله بتاح[٢١٧]؛ ومن ضمنها وظيفة «الكاهن الأكبر»[٢١٨]. ومثله مثل الوزراء الآخرين بطيبة، فقد أوكل إليه، ضمن مهامه المتعددة، مهمة إعداد وتنظيم الاحتفالات المحلية الكبرى (الفصل الخامس-٢). كما شغل أيضاً وظيفة «مدير دير المدينة». وفى إطار هذا المنصب، قام بمهمة التحقيق فى إحدى الفضائح التى وقعت هناك (الفصل الثالث – ٤).

ومن بعد «حورى»، جاء «تو» على قمة مصر العليا. وكان يشغل بعض الوظائف منذ العام الرابع عشر من حكم رمسيس الثالث[٢١٩]. بل ربما منذ العام الثانى عشر[٢٢٠]. ولقد مثل «تو» وعين فى عدة وظائف، بغرب طيبة، مع بعض كبار موظفى دير المدينة[٢٢١]، ومنهم «كاتب المقبرة» «آمون نخت» بن «إيو». وفى أواخر عهد رمسيس الثالث، عين مديراً لإحدى حظائر ماشية بعض معابد طيبة[٢٢٢]. وقام بالإشراف على الأعمال بشمال الكرنك فى العام الثانى والعشرين من عهد ذلك الفرعون. ثم عين «وزيراً أعلى» على كافة أنحاء مصر فى اليوم الثالث والعشرين من ثانى أشهر فصل الآخت بالعام التاسع والعشرين[٢٢٣] من حكم رمسيس الثالث؛ حتى يعمل على تنظيم الاحتفالات الخاصة باليوبيل الملكى تنظيماً دقيقاً مدروساً. ومن هذا المنطلق، أمر بعد ذلك، بأن تجمع تماثيل الآلهة الرئيسية بمنطقة مصر العليا، والمزمع عرضها فى الاحتفالات (الفصل السادس – ١)، ولقد عثر أيضاً على تمثال له فى مدينة منف[٢٢٤]. ولكن سرعان ما اختفى أثره بعد موت رمسيس الثالث مباشرة. فمنذ بداية عهد رمسيس الرابع، كثرت الإشارة عن خليفة «تو»، المدعو نفررنبت،

الذى عين فى منصبه «كوزير أعلى» على كافة أنحاء مصر[٢٢٥]. ترى، هل طرد «تو» من منصبه لأنه لم يستطع أن يكشف سر «مؤامرة الحريم» قبل وقوعها؟

ويمكننا أن نحيط علماً باختصاصات «الوزير الأعلى»، فى إطار الأسرة الثامنة عشرة، من خلال نص شهير، بعنوان، «نصائح الوزير» الذى عثر عليه بمقبرة «رخميرع» بطيبة. ولقد شغل هذا الشخص وظيفة «الوزير الأعلى» على منطقة مصر العليا خلال حكم تحتمس الثالث وامنحتب الثانى[٢٢٦]. مع أن هذا النص قد حرر، على ما يبدو فى أوائل الدولة الحديثة، فإن نمط النظام الذى يقدمه قد طرأت عليه تغييرات هامة. فلا شك أنه قد مضت فترة زمنية شاسعة، بين تاريخ تحريره وبين بداية عهد رمسيس الثالث، حيث مرت عليه ثلاثة أجيال كاملة، وبصفة تقليدية، نجد أن نشاطات «الوزير الأعلى»، كانت، تنقسم، بشكل تقليدى، إلى ثلاث وظائف، خلال الفترة التى عاش فيها «رخميرع»، ألا وهى: رئاسة الإدارة الإقليمية، وتمثيل الملك، وإدارة القصر الملكى. ونجد أن أولى هذه الوظائف الثلاث قد بقيت كما هى حتى عصر الرعامسة. وفى إطار هذا العصر نفسه، بدا «الوزير الأعلى» وهو يتقاسم الوظيفة الثانية مع الندماء، والمبعوثين والناطقين بلسان الملك. أما عن ثالث وظائفه، فقد كانت تتطلب منه خلال الأسرة الثامنة عشرة العمل على توفير الأمن والمؤن اللازمة للقصر الملكى؛ بالإضافة – أيضاً – إلى تنظيم الحراسة المصاحبة للفرعون خلال تنقلاته المختلفة. ولكن، بعد ذلك، أصبح يشترك فى أدائها «الوزير الأعلى» و«المتولى الأكبر لشئون الأبنية الملكية». حيث يقومان معاً بمهمة الإشراف على الحرس الملكى، و«حريم المرافقة».

وبصرف النظر عن تلك التحفظات المذكورة آنفاً، نجد أن «الوزير الأعلى»، خلال عهد الرعامسة، كان يقوم بمفرده، وفقاً لما ذكرنا من قبل، بمهمة رئاسة «الإدارة المحلية لكافة أنحاء مصر». وهو الذى يقوم بتعيين العاملين بها، ويراقب سير عملهم فى إطارها، ويمنحهم، تقديراً لجهودهم، بعض الأراضى، أو يقتطعها منهم عند مجازاتهم لتقصيرهم، وهو نفسه يحظى بمثل هذه الأملاك[٢٢٧]. وله هيئة ضخمة من الأفراد[٢٢٨] (سكرتارية، حجاب، رجال أمن، ومراسلين). ويقع مقره فى نطاق القصر الملكى نفسه، حيث توجد أيضاً الأقسام الوزارية المختلفة. ومن المؤكد أن هذا

المقر كان يتكون من مجموعة مبانٍ مترامية الأطراف. وقد ألحق بها العديد من المكاتب، والمحال المختلفة، وقاعة فسيحة الأرجاء. وفى هذه القاعة، ووفقاً لقواعد صارمة للغاية، كانت تعقد جلسات خاصة بأوجه سير العمل. فخلالها، كان الموظفون يقدمون له مختلف التقارير عما يؤدونه من عمل. والبعض الآخر منهم كانوا يحضرون، وفقاً لاستدعائه لهم من أجل استجوابهم بشأن بعض المشاكل المحددة. وأحياناً، كان بعض المتضررين يحضرون إليه فى هذه القاعة، لكى يقدموا له بعض الالتماسات أو الشكاوى. بل وكان هناك – أيضاً – من يحضرون لالتماس وساطة الملك فى بعض شئونهم. وخلال الأسرة الثامنة عشرة، كان «مكتب المحفوظات»[٢٢٩] الخاص «بالوزير الأعلى» يسمى «بالحجرة الكبيرة المغلقة». وبداخله كانت تحفظ الوثائق المتعلقة بكل ما يقوم به مرءوسوه من أوجه نشاط فى نطاق العمل، بالإضافة إلى ملف شخصى لكل منهم. ويقوم موظفوه بتحرير المذكرات والبيانات المتضمنة قراراته؛ ثم يتم تسجيلها واعتمادها بختمه.

ويقوم «الوزير الأعلى»، من خلال مراسليه، بالاتصال بأعضاء «الإدارة المحلية» المسئولين عن استقرار النظام، واستتباب الأمن، وازدهار الزراعة بمصر. أما عن الأقاليم، فقد كان يديرها المحافظون من منطلق عواصمها. وكان البعض من هؤلاء المحافظين يحملون لقب «الوزير المحافظ»[٢٣٠]. ويعاونه فى مهمته ما يمكن أن يسمى «بمجلس الكتبة». وبجانب ذلك، كان يوجد مديرو الحقول، الذين يشرفون على الشئون الزراعية. ومن المؤكد أنهم كانوا يخضعون لرئاسة زعيم لهم فى مختلف قطاعات مصر[٢٣١]. وتحت إمرتهم، تخضع الضياع؛ ووفقاً لاختلاف مساحاتها وأهميتها، كان يقوم على شئونها «رؤساء المدن» أو «رؤساء القصور» أو «رؤساء القرى»[٢٣٢]. وعن المناطق الزراعية، فقد كان يديرها الكتبة أو «مستشارو المقاطعة»[٢٣٣]. ويلتزم جميع هؤلاء الموظفين[٢٣٤]، بصفة دورية، بتقديم تقارير خاصة عن سير أعمالهم إلى «الوزير الأعلى»؛ وعن مدى تطبيقهم لأوامره. وعموماً، كان الوزير الأعلى، يقوم بمهمة محاكمتهم، على ما يرتكبونه من انحرافات شخصية أو تقصير فى وظائفهم.

وكان الوزير الأعلى يهتم اهتماماً فائقاً بتطبيق القوانين واحترامها، وبتنفيذ الأوامر والمراسيم الملكية الصادرة؛ و يعمل هو نفسه على نشرها من منطلق اجتماعاته

الدورية بالفرعون. ويأمر كذلك بانتشار مبعوثيه فى أنحاء البلاد. وتسمح له أهليته وكفاءته بالتحقيق فى حوادث السرقة والنزاعات حول الملكية والمقتنيات. وكان من حقه وضع الحدود الخاصة بها وضمانها. بل كان يستطيع أيضاً، باسم الملك، أن يقوم بتقسيم وتوزيع غنائم الحرب فيما بين مختلف المؤسسات. ومن أجل العمل على استتباب النظام فى البلاد، كان يرأس جهازاً من رجال الأمن[٢٣٥] يسمى «المجاو». وتحت قيادته – أيضاً –، كانت هناك فئات أخرى من رجال الشرطة تعمل على حراسة المرور النهرى، ولكن المراكب الخاصة بمختلف المعابد لم تكن لتخضع مطلقاً لسيطرتهم[٢٣٦]. وفى النهاية، نجد أن الوزير الأعلى كان يحق له قانوناً أن يحصل عن طريق السخرة على الأملاك والأفراد اللازمين من أجل تنفيذ بعض الأعمال النوعية أو الاستثنائية، وبصفة خاصة الأعمال الزراعية التى كانت تخضع لمسئوليته، أو تلك التى يأمره الملك بتنفيذها. ولكن الأملاك الخاصة بالمعابد[٢٣٧] والأفراد العاملين بها لم تكن متضمنة مطلقاً فى هذا الإطار، بل كانت معفاة تماماً.

الخزانة ومخازن الغلال

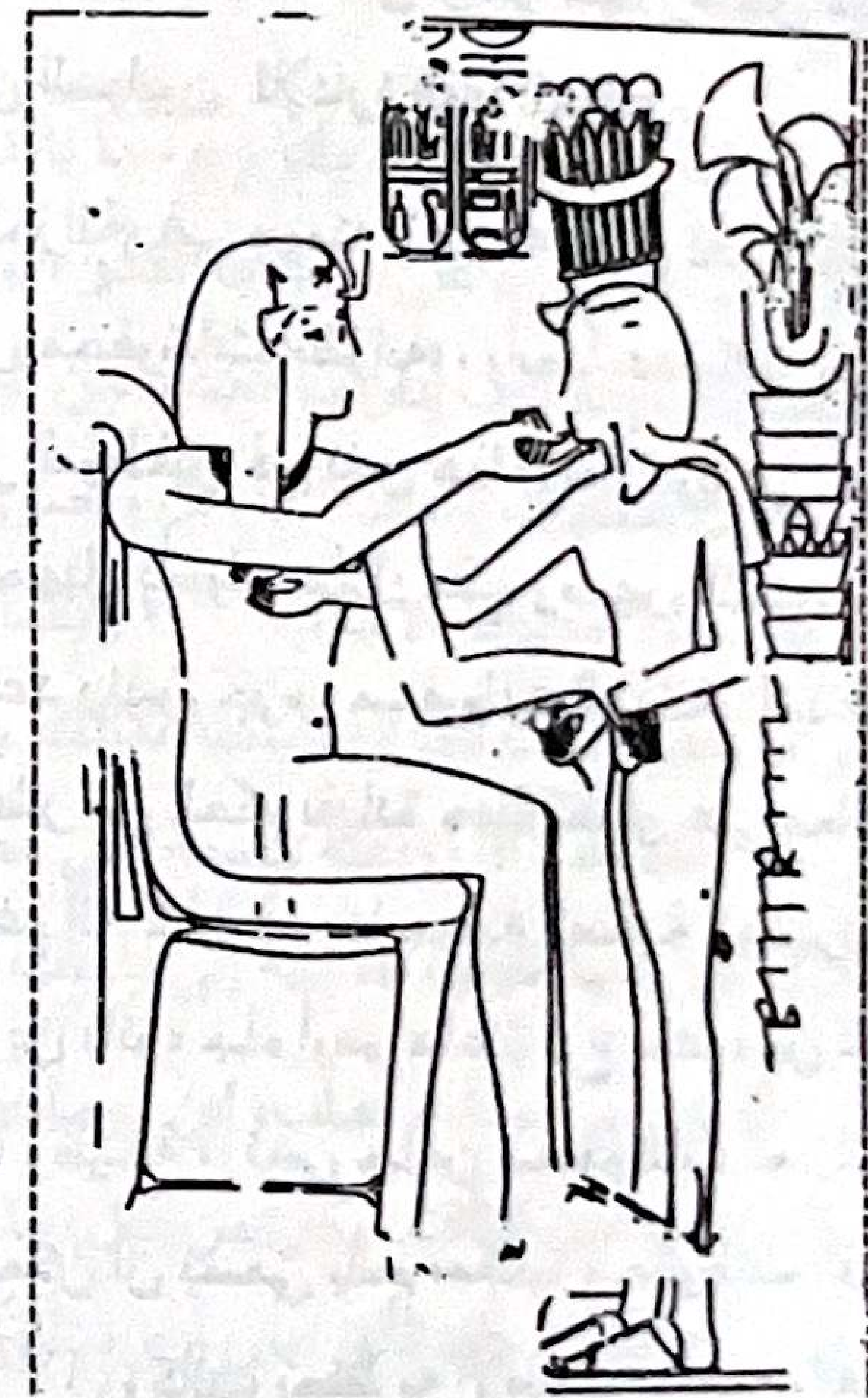
الخزانة الملكية يرأسها «رئيس الخزانة» الذى يلتزم يومياً بالتباحث مع «الوزير الأعلى». وهى تعتبر بعد مكتب «الوزير الأعلى»، بمثابة أكثر «الوزارات» أهمية فى نطاق الإدارة الداخلية المصرية. ويقع تحت إدارتها العديد من المخازن المتضمنة منتجات ثمينة أو نادرة من أجل متطلبات المعابد[٢٣٨]. بل وتحتوى أيضاً على تلال من الثياب العسكرية اللازمة للجنود المرتزقة الأجانب[٢٣٩]؛ وأيضاً، الملابس اللازمة لعمال دير المدينة. وعلى ما يبدو، كانت الخزانة الملكية تمتلك جزءاً من منتجات النوبة والواحات[٢٤٠]. بل ولها أيضاً، أملاك زراعية شاسعة، فى مصر الوسطى، التى يزرع بها عليق الحمير التى تتكون منها القوافل المتجهة إلى واحات الشمال[٢٤١].

وكان المدعو باى إرى الشهير بـ سوتخ إم حاب، ابن روماعت، وأصله من تل بسطة، هو المدير الأعلى لخزانة رمسيس الثالث. وكان من قبل، يشغل وظيفة «رئيس حدود البحر» (ربما الضرائب الجمركية). ولقد تألق «باى إرى» تألقاً باهراً فى وظيفته تلك. بل لقد حظى بالإضافة لتلك الوظيفة،على لقب «مدير خزانة مدينة هابو»،

وكلف بمهمة تموين ساحة الأعمال بها، بالأحجار المنحوتة (الفصل الثالث – ١). وبالرغم من ذلك، فلقد اعتبر كأحد المتواطئين فى «مؤامرة الحريم»، ودفع حياته ثمناً لهذا الخطأ. ولقى كاتبه المدعو «بالوكا» (الفصل السادس – ٣) المصير نفسه. ولقد بينت لنا بعض المصادر، عن ظهور شخص يدعى «خع إم تير»، شغل وظيفة «مدير الخزانة» فى ذاك العهد نفسه، قبيل تنفيذ حكم الإعدام فى «باى إرى»، أى فى العام السادس والعشرين. ولقد تابع خع إم تير هذا، وظيفته خلال حكم رمسيس الرابع ورمسيس الخامس[٢٤٢]. وفى أواخر عهد رمسيس الثالث، شغل هذه الوظيفة نفسها، من يدعى «مونتو إم تاوى». ولقد أوكل إليه هو ومساعده المدعو «بأى إف رعوى»،[٢٤٣] بأن يكونا ضمن الأعضاء المنتدبين لمحاكمة المتهمين فى «مؤامرة الحريم». وربما لم نتعرف على «بأى إف رعوى» فى مجال آخر خلاف ذلك. ولكن، على ما يبدو أن مونتو إم تاوى قد لاقى تقديراً كبيراً لما كان يقدمه من خدمات. فمثله مثل خع إم تير، بقى فى وظيفته حتى عهد رمسيس الخامس[٢٤٤]. وتبين كثرة عدد من يحملون لقب «مديرى الخزانة»، فى أواخر عهد رمسيس الثالث، أن هذا اللقب كان يحمله أيضاً الممثلون المحليون للإدارة العليا للخزانة.

ويعاون «مدير الخزانة» فى مهمته وكيل له يحمل لقب «نائب مدير الخزانة»، وآخر يلقب «برئيس حرس محفوظات الخزانة»، وأيضاً عدد كبير من «كتبة الخزانة». ولقد ترك لنا أحد كبار الموظفين فى نفس هذا الإطار، ويدعى خونسو، بعض النقوش الأثرية فى جزيرة سهيل بأسوان خلال حكم رمسيس الثالث. وربما كان هذا الشخص يشغل وظيفة «مساعد رئيس حرس محفوظات الخزانة» المدعو «بن باتو»؛ الذى قام، فى العام الخامس عشر من الحكم بقيادة حملة تفتيش على معابد مصر العليا (الفصل الخامس – ١)، برغم أنه كان قد بدأ حياته العملية كمجرد كاتب متواضع بتلك الإدارة[٢٤٦]. وبعد بن باتو، جاء أوسر ماعت رع نخت، ابن القائد حورى. وربما أنه قد، شغل هو أيضاً وظيفة «رئيس حرس محفوظات الخزانة»[٢٤٧]. ولا بد أن هذا الجهاز كان من الممكن أن يسمى باسم «مكتب محفوظات القصر الملكى» أو «مكتب محفوظات مصر»[٢٤٨]. وكانت تحفظ به الأصول الخاصة بالقرارات المتعلقة بمختلف الهبات، وبمراسيم إنشاء المؤسسات والنصب بمصر[٢٤٩].

وخلاف «مدير الخزانة»، يوجد «مدير مخازن الغلال المزدوجة الخاصة بالفرعون». وترتكز مهمته على تموين مختلف المؤسسات وفئات المرتزقة الأجنبية[٢٥٠] بالغلال. وخلال العام السادس من حكم رمسيس الثالث، شغل هذه الوظيفة شخص يدعى «بن نستى تاوى»[٢٥١]. وكان الجهاز الذى يرأسه يتضمن بضعة أقسام للمحفوظات، ومكتبا فرعيا فى منف[٢٥٢]، وآخر فى طيبة. وتحت إدارة «رئيس المؤن الملكية»، كان مكتب طيبة الفرعى يقوم بإمداد دير المدينة بمتطلباتها التموينية (الفصل الثالث – ٤). وبعد حكم رمسيس الثالث، كان هذا اللقب يخلع فى كثير من الأحيان على أشخاص يحملون أساساً لقب «الوكيل الأكبر»[٢٥٣] ... وأخيراً، نجد ضمن الوزراء المصريين الأساسيين، «مدير حظائر القطعان»؛ وهى وظيفة غير محددة المعالم. كما أننا لا نعرف شيئاً عن هوية من كان يحمل هذا اللقب[٢٥٤] خلال حكم رمسيس الثالث، ولكننا نعرف بوجود بعض مساعديه[٢٥٥]. وكان رؤساء حظائر القطعان بمختلف المؤسسات يحملون هم أيضاً، فى أغلب الأحيان، دون إعزاز شديد لقب «مدير المواشى»[٢٥٦].



رمسيس الثالث وإحدى بناته فى استراحة مدينة هابو

الفصل الثالث

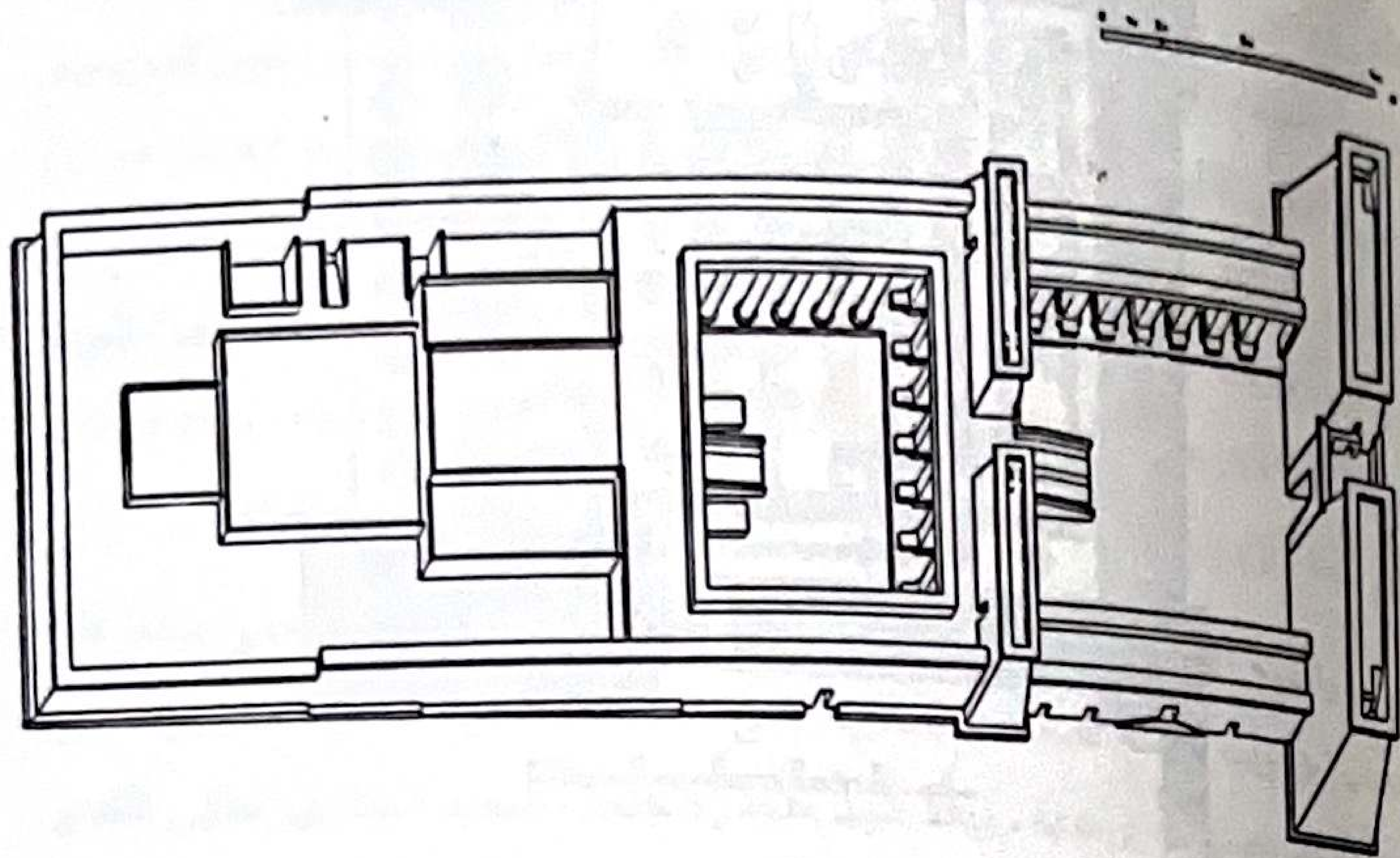
المقبرة و«قصر الأبدية»

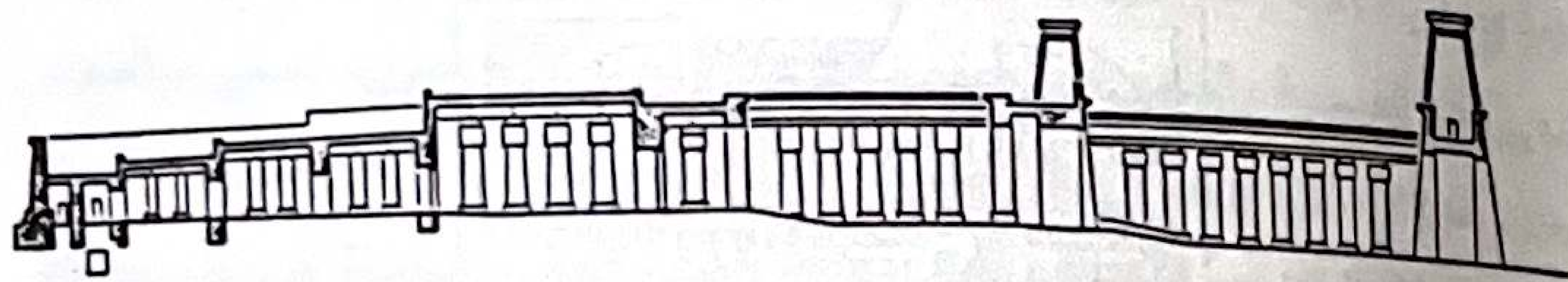
كانت المقبرة بالنسبة لكل مصرى ضماناً للحياة الآخرة والخلود أبد الدهر. وبهذا، فإن بناءها، يعتبر بمثابة شغله الشاغل وهو على قيد الحياة. ولم يكن الفراعنة الرعامسة، من منطلق هذه الرؤية، ليختلفون مطلقاً عن رعاياهم. وبذلك، كانوا يكرسون مثلهم من أجلها، حالما سنحت أحوالهم بذلك، القدر الأكبر من مدخراتهم. ويبدو، أن رمسيس الثالث قد أمر فى نفس يوم تتويجه[١]، بوضع الأساس من أجل بناء معبد جنازى له فى مدينة هابو، بحيث يكون متطابقاً مع الرمسيوم، أى معبد رمسيس الثانى الجنازى، على بعد بضعة كيلومترات شمالاً[٢]. ولا شك أنه قد أصدر أوامره بالعمل على إعداد مقبرة شخصية له بوادى الملوك.

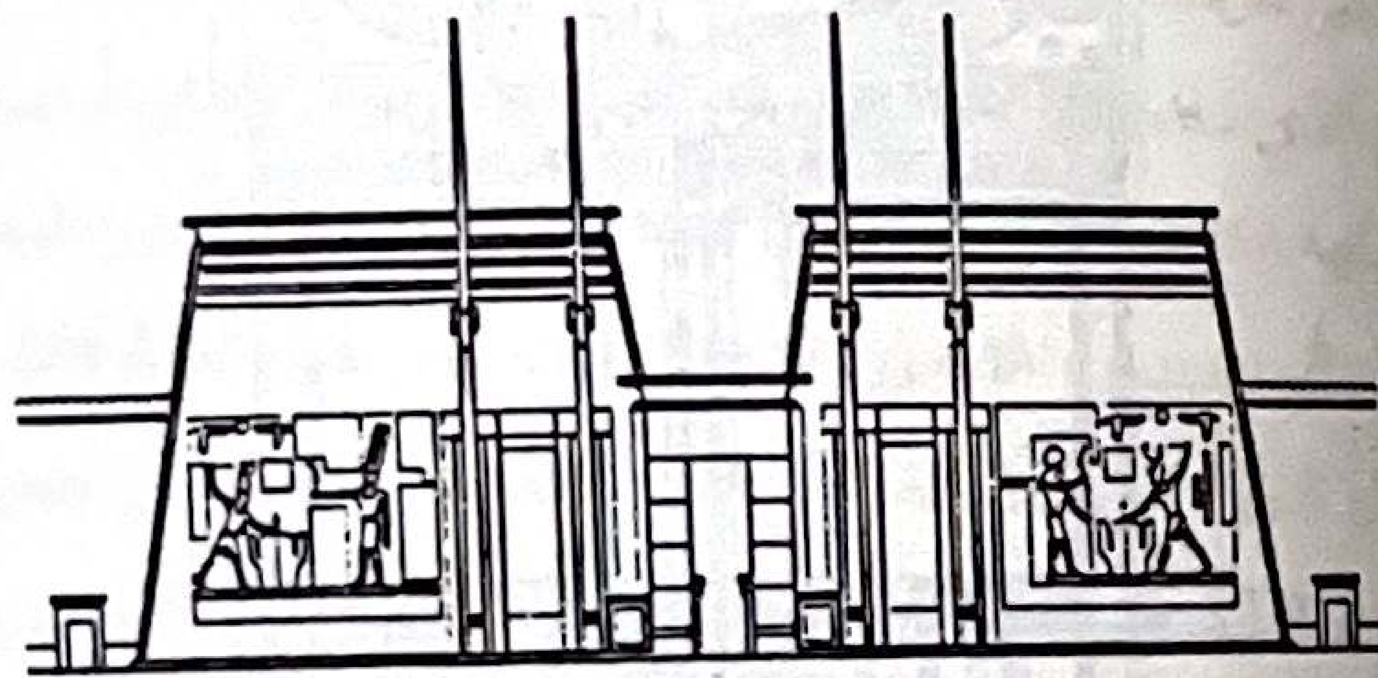
وبرغم هذه المسافة التى تفصل فيما بينهما، فإن هاتين المنشأتين كانتا تمثلان معاً ما يشبه المجموعة الواحدة. ولعلنا نعرف أن كل مقبرة مصرية تتكون من جزءين: سرداب دفن يقع تحت الأرض، يتضمن جثمان المتوفى، بعد تحنيطه، ومقصورة من أجل إقامة الشعائر، شيدت على هيئة منزل. وبداخل هذه المقصورة يلاحظ أن جزءاً من شخصية المتوفى، أى «الكا»، قد تجسدت من خلال النقوش البارزة أو التماثيل التى تمثله بحيث تبقى على قيد الحياة فى الحياة الدنيا. أما «روح» المتوفى، أى «البا»، الممثلة فى هيئة طائر له رأس آدمى، فمن المعتقد، أنها تغادر جثمان المتوفى فى الصباح وتعود إليه فى المساء. فهى، تقوم، خلال النهار بتقمص الأشكال الممثلة له

والقائمة بمقصورة الطقوس. وهى تستطيع أن تدخل أو تخرج من هذه المقصورة من خلال الباب الصورى، أو بالأحرى «الباب الوهمى». وعادة كان، يرسم هذا الباب على أحد جدران المقصورة. وبداخل المقصورة، تستطيع «البا» أن تتغذى بالمأكولات التى يقوم أفراد أسرة المتوفى وأقرباؤه، أو الكهنة الذين يمثلونهم، بوضعها من أجلها على مائدة القرابين. وبذا، تستطيع أن تنقل للجثمان المسجى أهم مقومات الحيوية والحياة.

ولا شك مطلقًا أن هذه المفاهيم قد ألهمت، بشكل جوهرى وأساسى الفن المعمارى الخاص ببناء مقابر الأفراد، والمقابر الملكية على حد سواء. ولذلك، نجد، على سبيل المثال، أن الذى يميز بين مصاطب الدولة القديمة والمجمعات الجنازية الخاصة بملوك نفس الحقبة، هو مجرد اختلاف فى المقاييس. وأن كم الأحجار والأتربة المبينة عن مكان المقبرة، قد اتخذ، من أجل أى فرعون عظيم، مقاييس هرم عملاق وضخم. وأن المقصورة المجاورة لها من أجل الشعائر، قد بدت هى الأخرى فى شكل معبد فعلى هائل المقاييس.ولقد سادت هذه الأفكار أيضاً، خلال الدولة الوسطى والدولة الحديثة، فى إطار تشييد النصب والمنشآت الضخمة على الضفة اليسرى لطيبة. ومع ذلك، فإن المقابر والمقاصير الجنازية، التى كانت حتى ذاك الحين متجاورة، قد فصلت فيما بينها العديد من الكيلومترات. فالمقابر التى تم حفرها فى ولدى الملوك، فى بطن إحد الجبال، تتشابه إلى حد ما مع الشكل الهرمى. أما المقاصير (أو بالأحرى المعابد)، فقد تم تشييدها فى وادى النيل، عند حدود الصحراء، على مقربة من الحقول التى تغمرها مياه الفيضان كل عام. ولذا، فإن معبد مدينة هابو الجنازى، هو بمثابة مقصورة من تلك المقاصير. وكذلك الأمر بالنسبة للمعابد الجنازية الأخرى، أو «القصور الأبدية» التى تجاورها. كل ما فى الأمر أن مقاييسها قد اتسعت وتمادت، لمجرد أنها مكان مخصص لإقامة الشعائر الخاصة بأى فرعون متوفى. أما عن التماثيل والأشكال، والنصوص التى تجاورها على جدرانها، فإنها تتطابق، من الوجهة الملكية، بمناظر الحياة اليومية المعتادة، وبنصوص السيرة الذاتية التى يجب على كل مصرى أن يمثلها بمقبرته. وفى البداية، كانت جدران المعبد، خالية تمامًا من أية نقوش وكأنها صفحات ناصعة البياض لكتاب ما؛ ثم سجلت عليها، على التوالى، الأحداث العظمى الخاصة بحكم فرعون ما عقدت عليه كثير من الآمال.







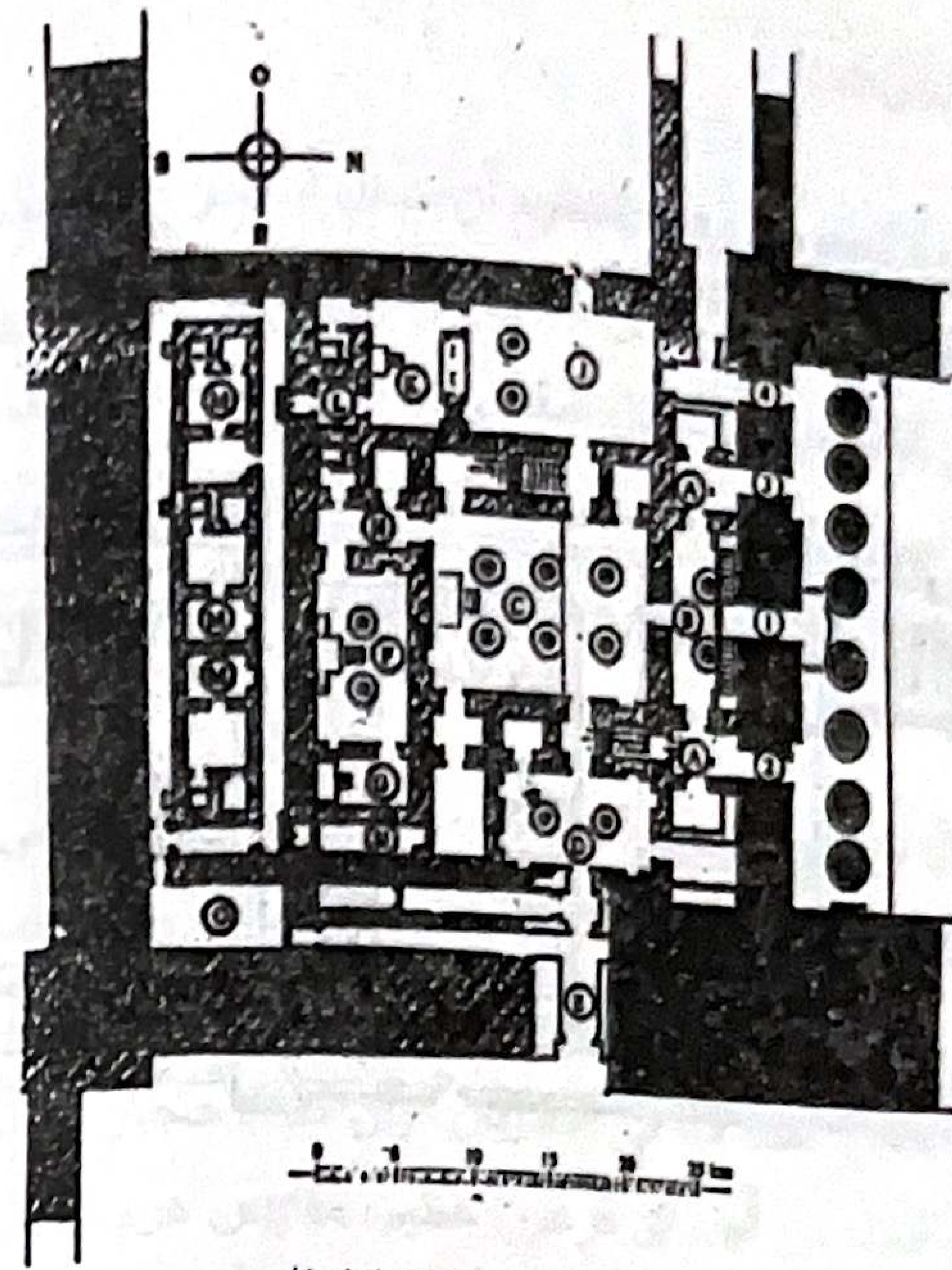
خريطة وقطاع رأس وصرح مدينة هابو.

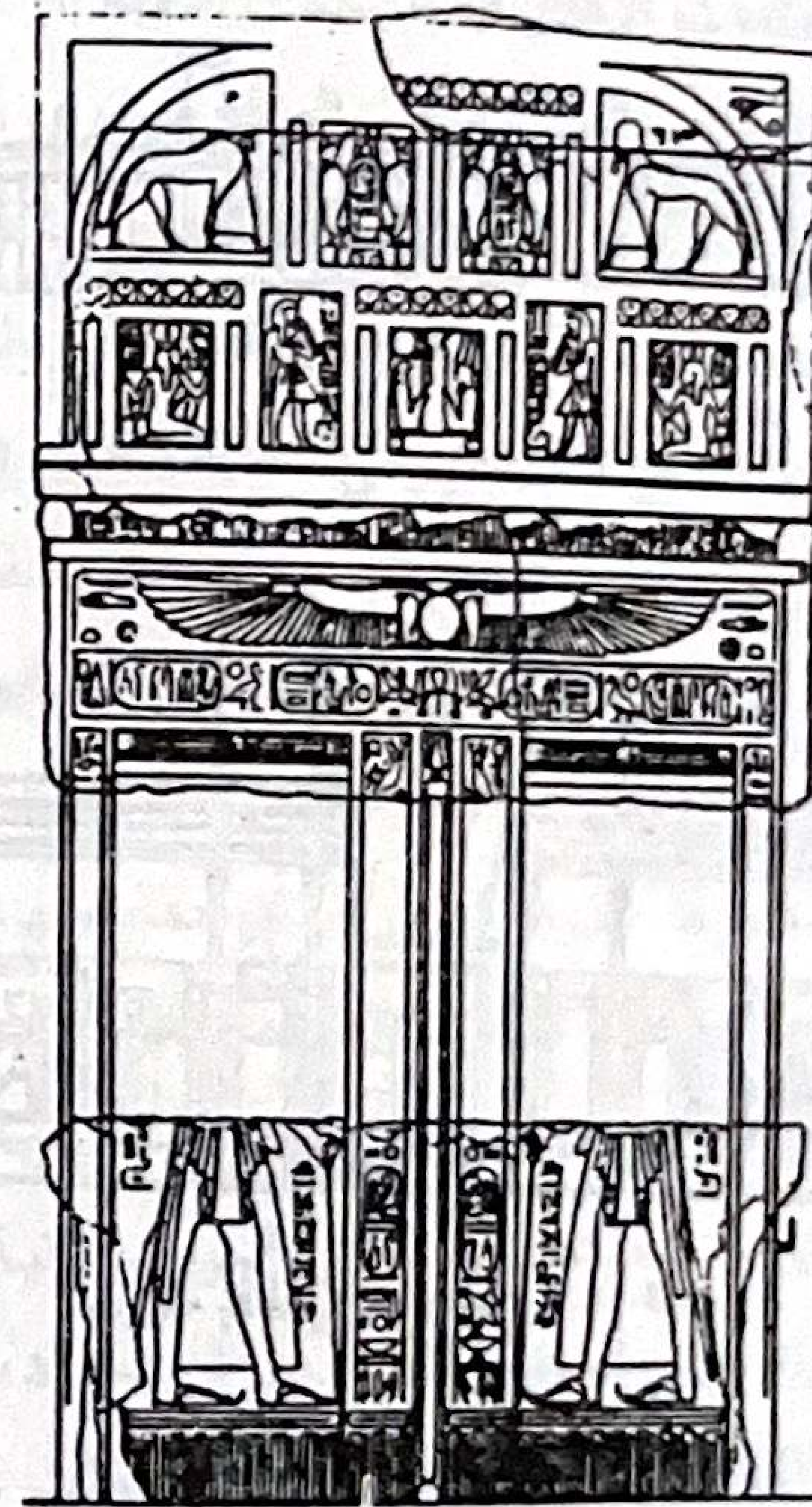
١- تأسيس وبناء مدينة هابو

اعتبر الأمر الذى أصدره رمسيس الثالث ببناء معبد مدينة هابو بمثابة أول عمل سياسى له، منذ اليوم الأول لتتويجه. ومن أجل ذلك، أصدر الفرعون المرسوم الأساسى، الذى يقال إنه هو الذى حرره بيده. أما عن اللوحات المصنوعة من معدن ثمين، والتى استنسخت منه، فقد حفظت بالكرنك بمعبد آمون(٣). وكان من المزمع أن الشعائر التى سوف تقام به ستوجه إلى إحدى التجليات الحديثة لإله طيبة، وهو «آمون المتحد بالأبدية»، وهو الشكل الذى سيتم تأليه الملك من خلاله عند موته. ومنذ نشأته، وبالرغم مما كان يتمتع به من استقلال بالغ، اعتبر هذا المعبد كأحد أملاك آمون.

وفى مواجهة الأقصر، على الضفة الغربية للنيل، يقف هذا الصرح حتى يومنا هذا فى أقصى جنوب سلسلة المعابد الجنازية التى تحدد موقعها الحدود ما بين نطاق الصحراء والأراضى الزراعية. ولقد شيد مباشرة جنوب المعبد الجنازى الملكى القديم الخاص بالملك «آى»، وحور محب، من الأسرة الثامنة عشرة. ومن خلال النصوص القديمة يسمى موقعه هذا «بربوة نب عنخ» (أى «ربوة إله الحياة») أو «أكمة جمى». وتضفى عليه القدسية والطهارة مقصورة مقدسة مبجلة للإله آمون، تسمى «بالمعبد الصغير» بمدينة هابو. وربما أن هذا المبنى كان قد شيد خلال الدولة الوسطى؛ ولقد تم ضمه إلى الساحة الخارجية لمعبد رمسيس الثالث. ولقد مر بسلسلة من التعديلات والتغييرات حتى بداية العصر الرومانى؛ ويدل ذلك على مدى ما يمثله من أهمية. ووفقاً لمفهوم دينى مركب ذكرته النصوص العريقة القدم، فإنه يحدد فعلاً موقع خلق العالم، والموقع الذى دفنت فيه العديد من الآلهة الأولية. وكان أولها هو الثعبان «كماتف»، ثم يليه ابنه الثعبان «كاموت اف»، الذى يتماثل بآمون أوبت (أى آمون الأقصر)؛ والذى أنجب بدوره الثامون الذى انبثقت منه بقية المخلوقات. وكان آمون يمثل، فى أشكال مختلفة، وفقاً لاختلاف دورة الموت والبعث من جديد : فلقد كان يطابق بالثعبان «كماتف»، والثعبان «كاموت اف»، وبأحد أفراد الثامون الذى أنجبها كاموت اف؛ وأخيراً بهيئته الأولية. كآمون الكرنك.

ومنذ أواخر الدولة الحديثة، وفى بداية كل عشرة أيام، كان «أمون أوبت»، أو «كاموت اف» سابقاً، يتوجه على رأس موكبه، عبر النهر، بداية من الأقصر وحتى


خريطة لقصر مدينة هابو (الحالة الثانية)


الباب الوهمى فى «قاعة العرش» لقصر مدينة هابو.

معبد مدينة هابو الصغير، الذى كرس من أجل الطقوس الجنازية الخاصة «بأجداده
«كمانف»، و«الثامون»؛ لكى يقدم لها القرابين. وكأنه ابن يؤدى الطقوس لآبائه
المتوفين. ومن هذا المكان، كان يمر، بعد ذلك، بمعظم المعابد الجنازية الملكية بالضفة
الغربية لطيبة من أجل إمداد موائدها بالمؤن. ولا شك أن العراقة والمضمون المتميز
الذى تتسم به هذه الطقوس هو الذى جعل رمسيس الثالث يقرر اختيار موقع مدينة هابو
من أجل أن يقيم به «قصر الأبدية» الخاص به. وبالفعل، فإن موقع «قصر الأبدية» هذا
قد ذكر، من خلال كلمات الإهداء والتكريس التى كتبها هذا الملك، باعتباره مكان
الخلق[٤]، والمكان الذى ولدت به الآلهة الأولية[٥]، وموقع مقابرها ومقاصير
طقوسها[٦]، بعد مماتها. وعموماً، لقد أمر هذا الفرعون بإصلاح وترميم «المعبد
الصغير» الذى يرجع إلى فترة الأسرة الثامنة عشرة. بل وأمر أيضاً بتشييد مقصورة
من أجل الموكب الاحتفالى الخاص «بآمون أوبت» بالأقصر وعبوره نهر النيل.

تشييد مجموعة مدينة هابو

لقد أراد الملك أن يكون المعبد بمثابة نسخة متطابقة للرمسيوم[٧]. ولعلنا نتخيل
مدى الصعوبات التى واجهت عملية إنشاء معبده الجنازى، وإقامة المؤسسة الضخمة
التى كان يتوسطها. واقتضى الأمر العمل على: تكوين مساحات شاسعة لأراضٍ
زراعية، وتجهيز القطعان وفئات العاملين بها، وإعداد ساحة العمل من أجل تشييد
البناء، الذى لم ينته إلا فى خلال عشر سنوات. ولقد أوكلت إدارة هذا العمل إلى
شخصية بارزة من شخصيات مجتمع طيبة. إنه «مدير الأعمال» و«مدير خزانة أملاك
آمون». ويدعى أمنمس، ابن «باويا»، وأمه تدعى نبتيت. ولقد قام أمنمس، ضمن مهامه
العديدة، بالإشراف على عملية نحت تماثيل الآلهة التى كانت ستوضع بمقاصير المعبد
الجديد. بل وأشرف أيضاً على صناعة المراكب المحمولة التى توضع فوقها تماثيل
الآلهة، خلال مرور مواكبها. بل وكان يقوم أيضاً بمراقبة ومتابعة عملية صناعة
الأثاث[٨] الخاص بالمعبد. ولا شك أن أمنمس كان خليقاً بأن يفتخر بما أنجزه من
أعمال. فمن خلال سيرته الذاتية، عدد ما أتم من أعمال فى الكرنك، وهى سلسلة من
الإنجازات القيمة؛ لم يتبق منها شىء، بكل أسف، حتى يومنا هذا. فلقد قام، خاصة،
ببناء ناووس مكسو بالرقائق الذهبية. وغطى الأعمدة التى تحيط به بطبقات من الذهب
والفضة. بل وصنع محفتين كبيرتين من أجل موكب الإله و«مقعده المقدس».

وخلاف ذلك، كان أمنمس ماهراً أيضاً فى مجال إقامة المدن وعلى دراية فائقة
بالفن المعمارى. وبالتالى اعتبر مؤهلاً وجديراً بتولى إدارة بناء مدينة هابو. وفى
أقصى شمال طيبة، فوق أراضى مستنقعات متضمنة أملاكاً لآمون، كان قد أشرف
على إقامة إحدى المستوطنات الزراعية، بل ولقد عيّن مديرا عليها، حيث استزرع
العديد من أشجار الكروم، وشيد الكثير من المعابد. وربما أنه، وهو يعمل فى ذاك
الموقع، الذى أطلق عليه اسم «ناى أمون رع»، ويعنى «أتباع آمون رع»، كان يشعر
وكأنه قد رجع الى موطن طفولته. فإن أباه المدعو «باويا» وأمه «نبتيت»، كانا من سكان
تلك المنطقة المعروفة باسم «مدينة صاحب الاسم – المستتر» وتعنى «مدينة آمون».

وقبل أن يلتحق أمنمس بمهمة الإشراف على ممتلكات آمون، كان قد شغل وظيفة
«كاتب مراسلات سيد القطرين»، وهى وظيفة على قدر ملحوظ من الاهمية. وخلاف
لقب «حامل المروحة الكبيرة على يمين الملك»، وهو لقب فخرى، فلقد أغدق عدد من
الملوك المتتاليين على هذا الموظف المتميز، العديد من الهدايا والمنح. بل لقد ذكر
أمنمس متفاخراً، أن آمون نفسه، قد امتدحه بواسطة الوحى. وضمن ما أسبغ عليه من
امتيازات أنه قد سمح له بأن يضع تمثالاً له بداخل معبده بالكرنك. بل واستطاع أن
يكون ثروة طائلة. ولكن الجدير بالذكر، أنه قد مات دون أن يترك وريثاً له. وبهذا،
فقد وهب هذه الثروة الطائلة إلى الإله آمون، وأوصى بأن تقام بها مؤسسة لإقامة
شعائره الجنازية. وأن يتولى إدارة هذه المؤسسة كهنة معبد أحمس نفرتارى، الذى يقع
على الضفة الغربية لطيبة.

ولقد استهل تشييد معبد مدينة هابو فى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث.
وكان قد خصص من أجله، من خلال مرسوم ملكى، فى العام الرابع من الحكم،
مساحات شاسعة من الأراضى الزراعية، والعديد من الفلاحين لزراعتها[١٠]. وفى
نفس العام الخامس، بعث الملك بحملة ضخمة، إلى خنيت، على بعد (١٥٠) كيلومتراً
جنوب طيبة، وتعرف حالياً باسم «جبل السلسلة». ويتضمن هذا الموقع العديد من
محاجر الحجر الرملى الهامة. وكانت هذه الحملة قد أرسلت من أجل إحضار الأحجار
اللازمة لبناء[١١] ذاك المعبد. ووصلت الحملة[١٢] إلى هدفها فى اليوم الأول من أول
أشهر فصل الشمو فى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث. وتحت قيادة «مدير

خزانة سيد القطرين»، «باى إرى»، الذى كان قد أنعم عليه أيضًا بلقب «مدير خزان
مدينة هابو»، استهل أعمالهم حوالى (٣٠٠٠) عامل، منهم (٥٠٠) قلاع حجار
و(٥٠٠) بحار، يقودون (٤٠) قارباً كبيراً مسطح الشكل وأربع سفن من أجل سحبها
وتبين إحدى اللوحات، المنقوشة على الركيزة الجنوبية للباب الرئيسى للمقصورة
المحفورة فى الصخر، منظر للملك وهو يقدم باقة زهور لبتاح(١٤) إله منف. وربما
يبرر وجود هذا الإله هنا لكونه رب الحرفيين والحجارين بدير المدينة. ويمكننا أن
نتصور أن عمال هذه المؤسسة، المعروفين بكفاءتهم الفائقة، قد تم تعبئتهم بشكل ضخ
من أجل تلك المناسبة. وخلاف هؤلاء العمال، كانت توجد أعداد كبيرة من الجن
يمثلون الأيدى العاملة غير المتخصصة. وكانت ترى أيضًا عربات خاصة بنق
الحجارة المقتطعة من المحاجر، إلى ضفة النيل. كما تبين النقوش البارزة التذكارية
عن هذه الحملة(١٥): أحد القادة العسكريين ويدعى «باحم نتر»، و «كاتب الجيا
واسمه توى؛ وقد مثلا لمرات عديدة.

ومن خلال أحد النقوش البارزة الذى كان «باى إرى» قد تركها، بعد وفاته بمكان
بارز عند مدخل المعبد، نجد أن اسمه قد كشط منها بعناية فائقة، فيما بعد. ولا شك أن
الغرض من وراء ذلك هو العمل على محو وتدمير ذكراه(١٦). ففى أواخر عهد
رمسيس الثالث، تبين أن «باى إرى» كان أحد المتواطئين فى «مؤامرة الحريم»(١٧).
وعلى شمال الباب المركزى للهيكل المنحوت فى الجبل الخاص بحور محب، ترى أحد
المناظر التى تمثل «باى إرى» وهو يتعبد باستت(١٨) إلهة تل بسطة عاصمة الدلتا التى
انحدر منها على ما يبدو. ويصاحبه فى نفس المنظر عدد كبير من كبار موظفى
رمسيس الثالث. والبعض منهم كانوا شركاء معه فى «مؤامرة الحريم». وحقيقة أن
القائد المدعو «باحم نتر» لم يكن من نفس المنطقة التى نشأ فيها(١٩) «باى إرى»، ولكنه
كان من أصدقائه المقربين. وقد اشترك هو الآخر فى «مؤامرة الحريم» (الفصل
السادس – ٣).

ولم يشيد معبد مدينة هابو بأكمله بالحجر الرملى. وبذا، فربما قد أرسلت حملات
أخرى مماثلة لتلك الحملة، فى حوالى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث. ولكن
مثل هذه الحملات لم تترك أية آثار تدل عليها. وقد تكون قد بعثت إلى مناطق أخرى

بمصر، مثل حتنوب، بجوار تل العمارنة، للحصول على حجر المرمر الذى نحتت منه التماثيل العملاقة؛ أو إلى محاجر أسوان، من أجل استخراج الجرانيت الذى تنحت منه أعتاب وأطر الأبواب(٢٠). ومع ذلك، فلا شك مطلقًا، أن «جبل السلسلة» هو الذى قدم معظم مواد البناء اللازمة لتشييد هذا المعبد. وبعد مرور عام كامل على هذه الحملة، أى فى العام السادس من حكمه، وجنوب المعبد الحجرى المنحوت فى الجبل للملك حور محب، بجوار النصوص العريقة القدم الخاصة بسيتى الأول، ورمسيس الثانى ومرنبتاح(٢١)، أمر رمسيس الثالث بعمل بعض نقوش بارزة فوق لوحة من الحجر الصخرى. ومن خلالها، اقتبس نفس ما كان يفعله أجداده السالفون، وهو: إقامة مراسم تقديم القرابين للإله «حابى»، إله فيضان النيل. ففى كل عام، فى اليوم الخامس عشر من أول أشهر فصل الآخت، وفى اليوم الخامس عشر من ثالث أشهر فصل الشمو، أى فى أواخر وفى بداية الفيضان، من أجل الاحتفال بعودته وضمانه، كانت تقدم كميات هائلة من القرابين، منها كميات من الغلال، ترسلها ممتلكات آمون من طيبة، من أجل نهر النيل.

٢- قصر الأبدية للملك رمسيس الثالث (٢٢)

يعتبر معبد مدينة هابو الذى أشرف على تشييده كل من «أمنمس» و «باى إرى» حتى اليوم من أجمل منشآت الضفة الغربية لطيبة، وهو مثل أى معبد مصرى، كان، يقوم، فى آن واحد بالعديد من الوظائف. وذلك وفقًا لما تقتضيه المتطلبات الدينية العقائدية. وبذا، فإن صرحه الضخم يمثل الكلمة الهيروغليفية التى تعنى «أفق»، أى الحدود ما بين العالم الدنيوى والعالم الآخر. أما محوره، فهو يمثل آخر مراحل الدورة النهارية للشمس. وربما أن هذه الرمزية قد دمغت، بداية من أوائل الدولة الحديثة، وعلى أوسع مستوى، «البناء المدنى» لمنطقة طيبة. وفى موقعها أمام الكرنك، حيث يفترض أن الشمس تشرق من هذا المكان، كانت المعابد الجنازية الملكية تجسد نقطة أفولها (الفصل الخامس – ٢).

ومن الواضح أن كلمات الإهداء والتكريس فى مدينة هابو تشير، على أوسع مدى، إلى تلك الوظيفة؛ فهى تطابق المعبد «بأفق السماء»، أو «ببطن جبل مانو»، حيث تتوارى الشمس(٢٣). وحالما يعبر المرء بوابته الضخمة، فإنه يتواجد «بداخل السماء»(٢٤). فإن

محوره يكوّن، من الخارج إلى الداخل، طريقاً للمرور ما بين عالم البشر وعالم الآلهة، ما بين أرض الأحياء ومقر الموتى[٢٥]. أما الطراز المعمارى لمحرابه، فهو يماثل معمار «القصر الأعظم»[٢٦] أو «القصر القائم فى الأفق»[٢٧]، أى المقر السمائى لإله الشمس.

ومع ذلك، فمثله مثل أى معبد مصرى، كان معبد مدينة هابو يعتبر أيضًا بمثابة المأوى والمسكن الذى يضم الآلهة، «والقصر» الخاص بآمون وبأشكاله المختلفة[٢٨]، ومحطة من أجل مركبه المقدس[٢٩]. ولكن بصفة خاصة، وعلى غرار المعابد الجنازية الملكية الأخرى، كان بمثابة «قصر ملايين السنين». أو بمعنى أدق بمثابة نصب تذكارى، و «محراب من أجل ترجى الانتصارات، والأعياد و ملايين السنين» للملك الذى شيده[٣٠] خلال فترة حكمه. واسمه الكامل الرسمى هو، «قصر ملايين السنين الخاص بملك مصر العليا والسفلى أوسر ماعت رع مرى آمون الذى ستكفل له الأبدية، فى ممتلكات آمون، غرب طيبة[٣١]». والجدير بالذكر أن الكلمة المصرية التى كانت تعنى «قصر» كانت تعتبر كاسم مؤنث. بل إن الصرح نفسه كان يجسد أحيانًا من خلال شكل إلهة[٣٢] تحمل اسمه فوق رأسها[٣٣]. ولقد شيد المعبد من أجل أن يدوم أمد الدهر. وبذا يقارن مدى بقائه ببقاء مدن مصر الرئيسية الثلاث: طيبة، وهليوبوليس، ومنف[٣٤]، التى يرجع منشأها إلى غياهب الأزمان. أو يُقارن بقاءه أيضاً ببقاء مختلف رموز الأبدية: الحركة اليومية التى تقوم بها الشمس، مياه المحيط الذى يحيط بالعالم، ودورة القمر أو تألق النجوم[٣٥].

وعلى غرار الرمسيوم، نموذجه الفعلى، بدا معبد مدينة هابو بكل ملحقاته وكأنه مدينة بكل معنى الكلمة. وتناثرت حول المعبد الأحياء السكنية، والمحال التجارية، والمكاتب، والورش والحدائق. وكل ذلك، كان يحيط به سور كبير. وفى إطار كل هذا التجمع، كان المعبد فقط، الذى وجد ليدوم أبد الدهر، قد شيد بالمواد البنائية السامية المستوى: الحجر الجيرى، والجرانيت والمرمر، وأخشاب الصنوبر اللبنانية. أما عن المساكن المحيطة به فقد بنيت من الطين اللبن؛ واستثنيت من ذلك أبواب الساحة الخارجية، وبعض العناصر المعمارية الأخرى التى كانت الضرورة تحتم بناءها بمواد أكثر صلابة، مثل الأعمدة أو أطر الأبواب.

القناة والمنصة

كان من الممكن الوصول إلى ذلك الموقع، عن طريق النيل عبر قناة صناعية كان رمسيس الثالث قد أمر بحفرها. ولا شك أن هذه القناة كانت تفتح على النهر فى مواجهة معبد الأقصر. وأمام مدينة هابو بدت هذه القناة وقد زينت بالأشجار ونباتات الزينة[٣٦] وفقًا لما أمر به الفرعون. ولقد امتدت فى هيئة بحيرة مستطيلة الشكل، تشرف عليها من ناحية المعبد منصة حجرية، أقيمت على نفس محور المعبد. وبدا مستوى سطح هذه المنصة، أكثر ارتفاعاً، إلى حد ما، من مستوى ارتفاع المعبد نفسه؛ واتصلا فيما بينهما بواسطة ممر معبّد. ولقد تضمن هذا السطح مصطبة مربعة الشكل، محاطة بسور قصير على هيئة حاجز كان الكهنة يقومون عليها بمختلف الطقوس أثناء فيضان النيل. ومنها، يهبون أيضًا لاستقبال المواكب النيلية الخاصة بآلهة الضفة الشرقية بطيبة. وعلى كلا الجانبين الشمالى والجنوبى لهذه المنصة، أقيم سلمان يؤديان إلى الطريق القائم عند مستوى الماء،على نفس محور القناة. ومن المعروف أن معظم معابد مصر قد أعدت بمثل هذا النمط.

الأسوار

أحيط المعبد وكل ملحقاته المباشرة بسور حصين مشيد من قوالب الطوب اللبن مستطيلة الشكل. واعتبرت بوابته الضخمة بمثابة جزء من واجهته الشرقية. ونفس هذه المجموعة قد أدمجت بداخل نطاق آخر، مشيد أيضاً من قوالب الطوب اللبن. وأمامه على بعد بضعة أمتار من الخارج، يوجد سور منخفض مبنى من الأحجار[٣٧] وبعكس السور الداخلى،ولم يكن السور الخارجى محصنا. وبدا على هيئة مستطيل غير متكامل؛ واتسمت أركانه الشمالية / غربية والجنوبية / غربية بالاستدارة. وعند مقدمته، بجوار مداخله، نصبت بعض اللوحات بمثابة نصب تذكارية[٣٨].

وفيما بين النطاقين المذكورين، امتدت مساحة من الأرض تتضمن فى نواحيها الشمالية، والغربية، والجنوبية، مساكن الكهنة تراصت على طول بضعة ممرات ضيقة. وفى أقصى شرق هذا الحى الخاص بالإسكان، شيد مبنيان إداريان. ولكن، أمام البوابة الأولى، امتدت مساحة شاسعة، قسمت إلى جزءين بواسطة جدار يمتد من

الشمال إلى الجنوب؛ تتضمن عند مستوى محور المعبد باباً محاطاً ببوابة صغيرة من قوالب الطوب اللبن. وفيما بين المعبد وهذا الجدار، من الناحية الشمالية، أقيم مذبح[٣٩]، وإسطبلات للخيول وحديقة؛ وفى الناحية الجنوبية، شيدت حظائر ومخازن خاصة بعربات الملك. وفيما بين هذا الجدار وبين السور الخارجى، من الناحية الجنوبية، استزرعت حديقة مترامية الأطراف. وفى وسطها امتد مجرى مائى مستطيل الشكل[٤٠]. وفى الشمال، استقر المعبد الصغير الذى يرجع إلى الأسرة الثامنة عشرة، بداخل نطاقه الخاص به؛ وفى الركن الشمالى الشرقى تقع البحيرة المقدسة الخاصة بمعبد رمسيس الثالث.

المعبد الصغير

ربما شيد هذا المعبد الصغير بمدينة هابو خلال الدولة الوسطى، وتم توسيعه إبان الأسرة الثامنة عشرة. وهو كما ذكرنا آنفًا كان يتمتع بأهمية دينية فائقة. وبعد حكم مرنبتاح، أمر رمسيس الثالث بإصلاحه وترميمه. ولقد زينت أفاريزه بخراطيش تحمل اسم الملك؛ ونقشت على جدرانه الخارجية الشمالية والجنوبية، مناظر تمثله وهو يقدم القرابين لإله المكان، آمون جسر ست. بل لقد أمر هذا الفرعون بأن تنقش عليه ألقابه وأسماؤه عدة مرات[٤١]. ولقد تضمنت الجدران الشمالية والجنوبية أيضًا بعض الكتابات التى تشير إلى ذكرى ترميم هذا المعبد : «عندما وجده الملك قد تحول إلى أطلال». ثم أضافت أن الملك قد أمر : «بإعادة بناء المعابد وتوفير القرابين من أجل جميع آلهة مصر العليا». وبالقطع انعكس هذا الاهتمام على كافة معابد مصر خلال العام الخامس عشر من الحكم (الفصل الخامس – ١). ونظراً لموقع هذا المعبد، كانت الضرورة تتطلب عبوره من أجل الوصول إلى البحيرة المقدسة الواقعة على شماله، للحصول على المياه اللازمة لإقامة شعائر معبد رمسيس الثالث الجنازى.

النطاق الخارجى

لا شك أن ساحات مدينة هابو على غرار ساحات العديد من معابد تلك الحقبة الفرعونية، كانت تتسم بسمات عسكرية واضحة المعالم، مراعاة بذلك لدواعى الأمن والأمان قبل كل شىء : وبذا، لم يكن يسمح بالدخول فى نطاقها إلا لمن يصرح له

بذلك. وتقتضى الضرورة أيضاً حماية ثرواتها من أيدى اللصوص. وفى هذا الصدد، نجد أن الساحة الداخلية، تتطابق مع التقاليد المعمارية العريقة القدم. ولكن الساحة الخارجية تشير، من خلال مظهرها، إلى الحروب التى خاضها رمسيس الثالث، فتعمل المناظر والنصوص فى المعبد على سرد تاريخها. ويصل ارتفاع السور المحيط بها إلى حوالى عشرين مترا. ويحيط به من الخارج طريق لمرور الدوريات الأمنية. وغرست فى حافته العليا العديد من الحراب والسنون. وبالنسبة للمدخلين الوحيدين الملحقين به، من الناحية الشرقية والغربية فقد حصنا عند مستوى محور المعبد، ببابين محصنين صنعا من الحجر على غرار النمط السائد فى مدن سوريا وفلسطين التى دأب فراعنة الدولة الحديثة على خوض المعارك[٤٢] أمامها. ووفقًا لما ذكر فى «بردية هاريس – ١»، يبدو أن بعض الساحات المماثلة قد شيدت فى عهد رمسيس الثالث، من أجل حماية معابد ثنى، والأشمونين، وأبيدوس، وأسيوط، وأيضاً، فى منطقة العريش، وهى أحد مراكز المياه التى تقع على ساحل سيناء وتحدد طريق الحملات الحربية إلى آسيا (الفصل الخامس ٥ ـ ٦).

الأبواب الحصينة

فى أغلب الأحيان كانت أبواب الحراسة الحصينة فى مدينة هابو تسمى بهذا الاسم السامى الأصل : «ميجدول»، أى «برج الحراسة». وهى تتكون من نظم دفاعية فائقة القوة والمتانة. ويقدم لنا، على سبيل المثال، الباب الشرقى بمفرده، والذى بقى سليماً حتى الآن، فكرة واضحة عن ذلك. وربما كان الباب الغربى، بصفة عامة، يماثله تماماً (كان يميل قليلاً إلى التعقيد والتركيب)، ولم يتبق منه شىء الآن. ولنفترض الآن أنك قادم من الخارج : فعليك، فى البداية، من أجل دخول المعبد، أن تعبر سد الحماية الذى يحيط بالساحة، من خلال باب، يقع على جانبيه أكشاك الحرس. وهنا، سوف تجد نفسك على مقربة من الساحة، أمام ممر ضيق ينتصب على جانبيه برجان عاليان بارزان. وتتسم واجهة كل من هذين البرجين بالانحدار الواضح؛ لتصل هكذا، فى النهاية إلى سطح الأرض. ويبدو مثل هذا التنظيم متطابقًا تماماً مع الأسلوب الذى كانت تتبعه القلاع الحقيقية، لكى تعمل على ارتداد القذائف على الأعداء المهاجمين. بعد ذلك، نجد أن الممر الضيق قد أدى إلى فناء أكثر اتساعاً إلى حد ما. ونفس هذا

الفناء تحدده الواجهة الداخلية للبرجين العاليين؛ وفى نطاق محور المعبد، المحصن بواسطة باب منيع صلب، تحدده واجهة الصرح، لتجمع فيما بينهما. ويتعلق الأمر هنا أيضاً بمحاكاة نفس النظام المتبع لحماية مدخل القلاع الحصينة : فمن ثلاث نواح، وعلى ارتفاع عدة أمتار من سطح الأرض، كانت مواقع التصويب تستطيع القضاء على الأعداء المهاجمين الذين قد يتمكنون من الوصول إلى مثل هذه النقطة. وبعد هذا الباب، يمكن الوصول إلى الجناح المحورى لهذا المبنى. وعند نهايته، يجد المرء نفسه، أخيراً، بداخل الساحة.

وعلى جدران الساحة المهيبة، تشاهد النقوش البارزة التى تشير إلى انتصارات الفرعون على أعداء مصر الخارجين. إنهم عادة يمثلون بقوى الخواء التى تعمل دائماً على التربص بنظام الخلق. وكان من المعتقد أن هذه هى الوسيلة الفعالة، باتباع السبل السحرية، من أجل منع دخول قوي الشر إلى المعبد، أى الصورة المصغرة للعالم. فمن المعتقد أن الأبواب المعتادة البسيطة لم تكن لتستطيع صدها بعيداً. وعلى الواجهة الخارجية للأبراج، ترى مشاهد عملاقة تمثل الملك وهو يصرع الأعداء الأجانب أمام الإله آمون. ونفس هذه المناظر تماثل تلك التى تزخرف واجهة البوابات الكبرى. ثم منظر آخر يمثل صفين من أسرى الحرب حيث يبدو زعماء القبائل المعادية لمصر التى حاربها رمسيس الثالث خلال فترة حكمه. وهناك مشاهد أخرى على هذا النمط تزين جدران الممر المحورى، المؤدى إلى الصرح الذى يطل على الفناء الداخلى. وفى الطابق الأول والثانى من هذا الصرح تبدو بعض الفتحات الواسعة، وهى تعتبر بمثابة «شرفات التجلى». ومن هذه الشرفات، يستطيع الملك، عند وجوده فى مدينة هابو، أن يمنح مكافآت لجنوده، أو يشرف على استعراضات أسرى الحرب. وفى شرفات التجلى هذه، فإن الفرعون عند ظهوره بها، إنما يجسد إله الشمس فى عيون الجمع الماثل فى مستوى أدنى، تحتها. وكانت مثل هذه الاحتفالات، التى تعتبر بمثابة عملية «إخراج» فعلى تصور انتصارات مصر، تستمر لفترة طويلة. وبذا، فقد أعدت من أجل الملك وحاشيته المصاحبة له، بالطابق الأول والطابق الثانى بالمبنى، مجموعة من الحجرات حيث يستطيعون أن يحصلوا على قسط من الراحة والترفيه، بين فترة وأخرى. ولقد زينت هذه الحجرات ببعض المناظر الهادئة، حيث يرى رمسيس الثالث، وهو جالس

فى مقعد مريح، يستنشق عبير الزهور بصحبة بناته، أو يلعب معهن لعبة «السنت» (الضامة)، الشبيهة بلعبة الشطرنج الحديثة، أو يلتهم الفاكهة التى يقدمنها له، وهن ينادونه باسم تصغيرى ودود : «فى صحتك، يا سيسى»[٤٣]. وكان من الممكن الوصول إلى هذه الحجرات القائمة بالطابق الأول، بواسطة درج، يبدأ من الفناء. ومن الدور الأول، يمكن الوصول إلى الطابق الثانى. أما السطح، فيمكن الصعود إليه عن طريق سلم داخلى.

وقد يتسم الباب المحصن بمدينة هابو بسمات غير عسكرية تماماً. ولكنه، بالرغم من ذلك يثير الكثير من الاهتمام. والجدير بالذكر، فى هذا الصدد، أن دخول المعابد كان مقصوراً تماماً فى مصر القديمة، على الملك فقط، والكهنة ومساعديهم. فالمعبد كان بمثابة المكان الذى يستيقظ فيه الإله فى الصباح الباكر يومياً. ومن هذا المنطلق يتكرر خلق العالم. وليس هناك أى تأثير لعامة المؤمنين على مثل هذه الأسرار الكونية. ولكن الآلهة كانت مخلوقات خيِّرة. ولم تكن جامدة الشعور أمام أقدار البشر : وبذا، كان هؤلاء البشر، يبتهلون إليها لكى تحسن مصيرهم، أو حتى للعثور على شىء فقد منهم، أو من أجل ألا يظلموا فى حياتهم. ولعلنا نعرف أن عبارة «مدينة هابو» قد فسرت من خلال النصوص، بأنها «المكان الذى يُستمع فيه إلى ابتهالات المساكين واستعطافاتهم». ومن أجل أن تمارس مثل هذه الديانة، شيدت، بداية من الدولة الحديثة، معابد صغيرة متواضعة بظهر جدار المعابد الكبرى، تتضمن بعض التماثيل الإلهية. أو بكل بساطة، كانت تشيَّد بعض الأروقة التى يوضع بداخلها تمثال ضخم للإله. وفى عهد رمسيس الثالث، شيد، بناء ضخم على هذا النمط فى الكرنك (الفصل الخامس – ٢). بل وشيد أيضاً مبنى مماثل، بدائى إلى حد ما، بالفناء الذى يقع به الباب الحصين بمدينة هابو. ويبدو على جداره الجنوبى، رسم ضخم عملاق يمثل الإله بتاح متضمناً لأحد مناظر تقديم القرابين. ولقد طعم هذا المشهد ببعض العجائن الملونة، وغطى بنقاب شفاف وأطلق عليه اسم : «الإله العظيم الذى يستمع إلى الابتهالات فى معبد رمسيس الثالث[٤٤]». وبذا، كان عامة الشعب، بدون أن يدخلوا المعبد الكبير، يحدوهم الأمل، بأن يستجيب هذا الإله الطيب لدعواتهم وابتهالاتهم، ويتدخل لدى آلهة المعبد الكبير من أجل أن يستجيبوا لهم أيضاً. وربما قد وقع الاختيار

على الإله بتاح من أجل هذه الوظيفة فى مدينة هابو لكونه أساسًا الإله الخاص بالعمال القاطنين «بدير المدينة» وما يجاورها من القرى[٤٥].

الصرح الأول

من أجل الوصول إلى المعبد، وبعد منطقة الباب الحصين، يوجد ممر فسيح الأرجاء مكشوف تحده من اليمين والشمال بعض الأبنية التى تقع قبل الصرح الأول. ولكن، قبل الوصول إلى هذا الصرح، يجب أن نعبر، من خلال محور المعبد، الباب القائم بالجدار الذى يقسم مكان هذه الأبنية إلى قسمين. وهنا، يجد المرء نفسه فى فناء ضيق يقع على الواجهة الشرقية للصرح. وعندئذ، تتراءى خمسة أبواب تسمح بالدخول إلى المعبد وملحقاته. فبداخل نفس محور الصرح يقع الباب الرئيسى للمعبد، أى «الباب العظيم لأوسر ماعت رع مرى آمون العظيم بمنشآته»[٤٦]. وعلى الجانبين الشمالى والجنوبى من الممر، يوجد بابان آخران يؤديان إلى الحى الخاص بسكن الكهنة. وأخيراً، وعند جانبى الصرح يوجد مدخلان : أولهما يسمح بالاتصال بالقصر الملكى الذى يقع فى جنوب شرق الساحة المحصنة. وثانيهما، يؤدى إلى طريق مرصوف، يمتد بطول الواجهة الخارجية للمعبد. وعلى طول هذا الطريق المرصوف، اصطفت الأماكن الخاصة بتوفير الخدمات للمعبد، بالإضافة لبعض المحال، والورش والمكاتب. وليس من السهل فى يومنا هذا أن نحدد اختصاص كل منها. وعموماً، فإن مثيلاتها بالرمسيوم تسمح لنا على الأقل، بأن نتخيل شكلها. ومن المعروف أنها كانت تتضمن خاصة، «مخازن الغلال»، وإسطبلات الجياد وحظائر الطيور المخصصة للقرابين[٤٧]. وبشكل متواز مع فناء المعبد، بالناحية الشمالية؛ توجد مساحة كبيرة من الأراضى الزراعية، تضم بئراً صناعية، بداخلها سلم يصل إلى مستوى الماء به. وفى نهاية الأمر، وبجنوب الفناء الأول، بجوار جدار المعبد، أقيم قصر رمسيس الثالث. وعلى الناحية الغربية من القصر كانت توجد حديقة خاصة. وفى أماكن متفرقة من هذا المجمع الضخم المترامى الأطراف، يلاحظ وجود بعض الآثار لمساكن ترجع إلى عصور متأخرة.

وبالنسبة للباب الرئيسى للصرح الأول[٤٨]، على غرار بقية الأبواب القائمة على مستوى محور المعبد، لم يكن يفتح، إلا خلال الاحتفالات أو المواكب الكبرى فى تلك

العصور. أما فى الأوقات العادية، فكان الكهنة يدخلون من خلال أبواب صغيرة جانبية «خدمات»، (سرفيس) قائمة عند الجدران الجانبية. ويلاحظ أن الواجهة الشرقية للصرح الكبير نفسه، قد زينت، على غرار برجى الباب المحصن بنقوش بارزة عملاقة تمثل الملك وهو يقضى على بعض الأعداء الأسرى. وعند قاعدتها، تشاهد قوائم طبوغرافية (وصف الأماكن وطبيعتها)؛ وهى عبارة عن نسخ لقوائم أصلية من عصور أقدم. وبها، تعدد البلاد الأجنبية التى وصل إليها المصريون فى أوائل الدولة الحديثة: وتمثل كل بلد فى هيئة أسير حرب مكبل بالقيود، ويبدو جسده على هيئة إطار بيضاوى يتضمن اسم موطنه الأصلى. وحقيقة أن الصرح الضخم كان يتسم بمظهر يفيض بالمنافع، ولكنه بالإضافة لذلك، كان له وظيفة دينية هامة. فلقد شيد على شكل الأفق الذى تغيب الشمس وراءه. فهو على ما يعتقد، كان بمثابة استراحة لرع خلال رحلته اليومية[٤٩]. ولقد زينت واجهته بأربعة صوارٍ صنعت من أخشاب أرز لبنان، وقد كسيت قمتها بالإلكتروم. وتعتبر هذه الصوارى الأربعة بمثابة محط من أجل الإلهات / الطيور، حامية الملكية. ومواقعهن، كما يلى : من الجنوب إلى الشمال : نخبت، إيزيس، ونفتيس، وواجت[٥٠].

فناء الاجتماعات والقصر

يتكون المعبد نفسه من عدة أجزاء متباينة. وتختلف وظيفة كل جزء منها عن الأخرى. ويعمل فتح بعض أبوابها أو إقفالها، من أجل أن يؤدى كل جزء منها وظيفته بطريقة مستقلة. فنجد أن الفناء الأول[٥١]، الذى غطيت جدرانه بزخارف بارزة تمثل بعض المناظر الحربية، كان بمثابة مكان للاجتماعات[٥٢] الخاصة بالقصر الملكى. وتمثل الزخارف البارزة على جدران هذا الفناء رمسيس الثالث، وهو يدخله، راكباً عربته الحربية، وقد أحاط به رجال حرسه، يتقدمه الأمراء وكبار موظفى الدولة. ثم منظر آخر، يمثله وقد أمسك بسوطه فى يده، ويقوم بالتفتيش على أحوال عرباته الملكية «بالإسطبل الكبير الخاص برمسيس الثالث فى مقره الخاص[٥٣]». ويبدو حائطه الشمالى، حيث يوجد باب «للسرفيس» (خدمات) وقد اصطفت أمامه بعض الأعمدة تزينها تماثيل للملك مزيناً بشاراته الملكية. أما الجدار الجنوبى، فهو يمثل واجهة قصر

الفرعون. وفى الوسط، وقريباً من مستوى سطح الأرض، توجد «شرفة التجلى(٥٤)»، ومنها، يستطيع الملك، وقد أحاط به رجال حرسه، أن يلقى بقراراته السياسية، على كبار رجال الدولة، والكهنة، أو على قادة الجيش(٥٥). ويمكن منها أيضاً أن يشرف على مهمة تقديم أسرى الحرب لآمون، أو على مكافأة الجنود الذين أبلوا بلاءً حسناً فى المعارك الحربية؛ بل ويحضر عمليات حصر الأيادى التى قطعت من جثث الأعداء الذين قتلوا أثناء المعارك الحربية؛ أو بكل بساطة، يقف فيها متأملاً الصرح الذى شيده(٥٦). وخلال فترة حكمه، كان رمسيس الثالث، قد أمر بتشييد منصة ذات مظلة فى مقدمة هذه الشرفة. ومنها، كان يستطيع أيضاً، أن يشاهد بوضوح أكثر، استعراضات المصارعة بالأيدى فقط، أو المعارك بواسطة العصى؛ وخلالها كان أمهر جنود الجيش المصرى وأكثرهم شجاعة، يواجهون ويسبون ويستفزّون أعتى وأقوى أسرى الحرب الأجانب: «استعد، أيها النوبى، العدو المقيت، سوف أصرعك أمام الفرعون!»؛ «انتبه، فسوف أمسكك من ساقيك وألقى بك على ظهرك أمام الفرعون!»؛ «الويل لك، أيها السورى، العدو المتبجح، إن الفرعون، مليكى، يساندنى ضدك». وكان الأبناء الملكيون، وضمنهم «ابن الملك، القائد الأعلى للجيش المصرى رمسيس، - أى رمسيس الرابع المقبل - يحيطون بالمتصارعين، ليشجعوا الأبطال المصريين: «هيا، هيا، أيها الجندى الشجاع!». ويوجد ضمن المشاهدين على المنصة بعض السفراء الأجانب. وبالرغم مما كان يعتمل فى نفوسهم من ضيق وحرج، فقد كانوا مرغمين على مشاهدة تلك الاستعراضات التى ترمز إلى قوة وبأس المصريين(٥٧).

وعلى جانبى شرفة التجلى يوجد ثلاثة أبواب لاتصال القصر الملكى بالمعبد. فالبابان اللذان يحيطان مباشرة بالشرفة من الشرق والغرب قد خصصا: من أجل خروج الملك للمشاركة فى المواكب الكبرى، مثل مواكب أعياد أوبت(٥٨) وأعياد الوادى(٥٩)؛ ثم ليعود منها ثانياً إلى مقره الملكى. أما عن الباب الذى يقع غرباً، فكان من الممكن أن يدخل منه الندماء والمحظيون ليصلوا إلى قاعة جلوس بداخل القصر الملكى. ولكن الفرعون كان هو أيضاً يخرج ويدخل من هذا الباب، عندما يريد أن يتقبل ولاء وإعزاز أولاده وهم يقدمون له باقات الزهور(٦٠)، وقد جلس فى الفناء، فوق عرشه محاطاً بندمائه.

وأساساً، كان تصميم قصر مدينة هابو يتسم بالبساطة المتناهية. ولكن، تمت فيه بعد ذلك، بعض التعديلات خلال فترة حكم رمسيس الثالث. وفى إطار ما تم به من تعديل، كان يبدو بمثابة مقر ملكى بكل معنى الكلمة. وفى نطاقه، كان الملك يستطيع أن يسكن هو وموظفوه وخدمه وبعض أفراد عائلته، عندما كان يحضر للمشاركة بالأعياد الدينية فى غرب طيبة(٦١). ويقع بابه الرئيسى جنوباً، عند الفناء الذى يسبق الصرح الأول. وكان هذا الباب يؤدى إلى قلب البناء، ومنه إلى قاعة للاستقبال ذات ستة أعمدة. وفى شمال هذه القاعة، وفى ممر ضيق إلى حد ما، يتراءى سلّمان يسمحان بالوصول إلى شرفة التجلى. وعند طرفى هذا الممر الضيق، شرقاً وغرباً، وبجوار البابين اللذين يخرج منهما الملك من أجل المشاركة فى أعياد أوبت وأعياد الوادى، توجد غرفتان صغيرتان، ربما خصصتا لكى تحفظ بهما الملابس فى مثل تلك المناسبات.

وعلى جنوب قاعة الاستقبال بالقصر، نظمت الأجنحة السكنية الخاصة برمسيس الثالث. وتتكون هذه الأجنحة السكنية من: قاعة جلوس مزودة بمنصة من أجل العرش الملكى. وعلى الجانب الشرقى من تلك القاعة نجد الحجرة الخاصة بالملك، وبها وضع مخدعه فوق مصطبة مرتفعة إلى حد ما. أما على جانبها الغربى، وفى ممر يتصل بصالة الاستقبال، فتقع غرفة للملابس ثم غرفة الحمام. وهى صغيرة الحجم إلى حد ما. وفى نهايتها، وخلف ساتر حجرى، يوجد حوض مربع الشكل مصنوع من الحجر الرملى، غير عميق، به ثقب من أجل تسريب المياه. وبذا، فإن الملك وهو واقف بداخل الحوض، وبدون أن يخدش حياؤه، يستطيع أن يتلقى المياه التى يسكبها فوقه خدمه بواسطة أوعية خاصة. ويعتبر هذا النمط من التجهيزات من السمات المميزة لقصر مدينة هابو. فهو يتضمن خمسة نماذج منها.

وبالناحية الغربية لهذا المجمع، توجد قاعة فسيحة ذات عمودين. وهى تمتد من ناحية الشمال، إلى الفناء الأول للمعبد. ويفصلها عن قاعة أخرى، بها المصطبة الخاصة بالعرش، نافذة صغيرة. وفيما يبدو كانت هذه القاعة تستعمل من أجل الاستقبالات المقربة الحميمة. ففيها، كان الملك يقوم بتقديم المنح والمكافآت لكبار القوم الذين يستحقون التكريم. ولقد ألحق بها حمام خاص، حيث يستطيع الملك أن ينعش

نفسه خلال فترات الراحة من اجتماعاته. أما عن قاعة العرش، فهى تقع أيضًا فى نفس هذا المكان. وتتصل، من الناحية الجنوبية، بواسطة ممر، بمجموعة مستقلة مكونة من ثلاثة أجنحة سكنية، لا شك أنها خاصة بأفراد العائلة الملكية أو ببعض كبار القوم الذين يرافقون الفرعون خلال فترة إقامته بمدينة هابو. ويتكون كل من هذه الأجنحة السكنية من : غرفتين كبيرتين، وحجرة ثالثة عادية وحمام. ويحيط بها جميعًا ممر مستطيل، بنهايته أبواب موصدة. وتبين بعض الآثار المتبقية فى هذا المكان عن وجود بعض السلالم؛ وهذا يفسر أن سطح القصر قد تحول إلى ما يشبه الشرفة، من أجل التمتع، فى فصل الصيف، بنسيم وطراوة فترة الغسق. وناحية الغرب، وبمكان منفرد خاص، يوجد بستان للتنزه والمرح؛ ألحق به بئر صناعية، وبحيرة، وبعض الشرفات(٦٢).

فناء الاحتفالات والأعياد

يمثل الجدار الغربى للفناء الأول بمدينة هابو الصرح الثانى(٦٣) للمعبد. وعند محور المعبد، يوجد مدرج منحدر، كانت تحيط به فى الماضى بعض تماثيل الملك العملاقة، ولكن لم يتبق منها شىء الآن(٦٤). وتقول النصوص فى هذا الصدد، إن هذا المدرج المنحدر، يمثل السلم الذى يصعده الإله رع من أجل الوصول إلى «جبل مانو»(٦٥). وهو يؤدى هنا إلى «باب أوسر ماعت رع مرى آمون، الذى يسر آمون برؤيته»(٦٦). وبعبور هذا الباب، يجد المرء نفسه فى الفناء الثانى للمعبد (٦٧)، الذى يرتفع مستوى أرضه عن مستوى الفناء الأول. وكما هو الحال فى كافة المعابد المصرية، نجد أن كل المداخل التى تحدد اتجاه محور المعبد، تتسم بارتفاع ما فى مستواها. وبداية من مقدمة الناووس يلاحظ انخفاض ما فى مستوى السقف، ويحدث أيضًا نوع من الإقلال التدريجى للضوء. ويماثل كل ذلك حالة الصعود إلى السماء والدخول فى مقر الآلهة، عند أقصى غرب العالم، حيث تبدو السماء والأرض وهما يتلاقيان فى ظلال الغسق. وبذا، فإن محور المعابد المصرية، يمثل ممرا، تظل أبوابه مقفلة تمامًا فى الأوقات العادية. ولم يكن يحدث العبور به، فى مدينة هابو، أو فى نطاق غيرها من المعابد، إلا فى أوقات الأعياد، عندما يقوم الكهنة بحمل تماثيل الآلهة التى تسكنه إلى

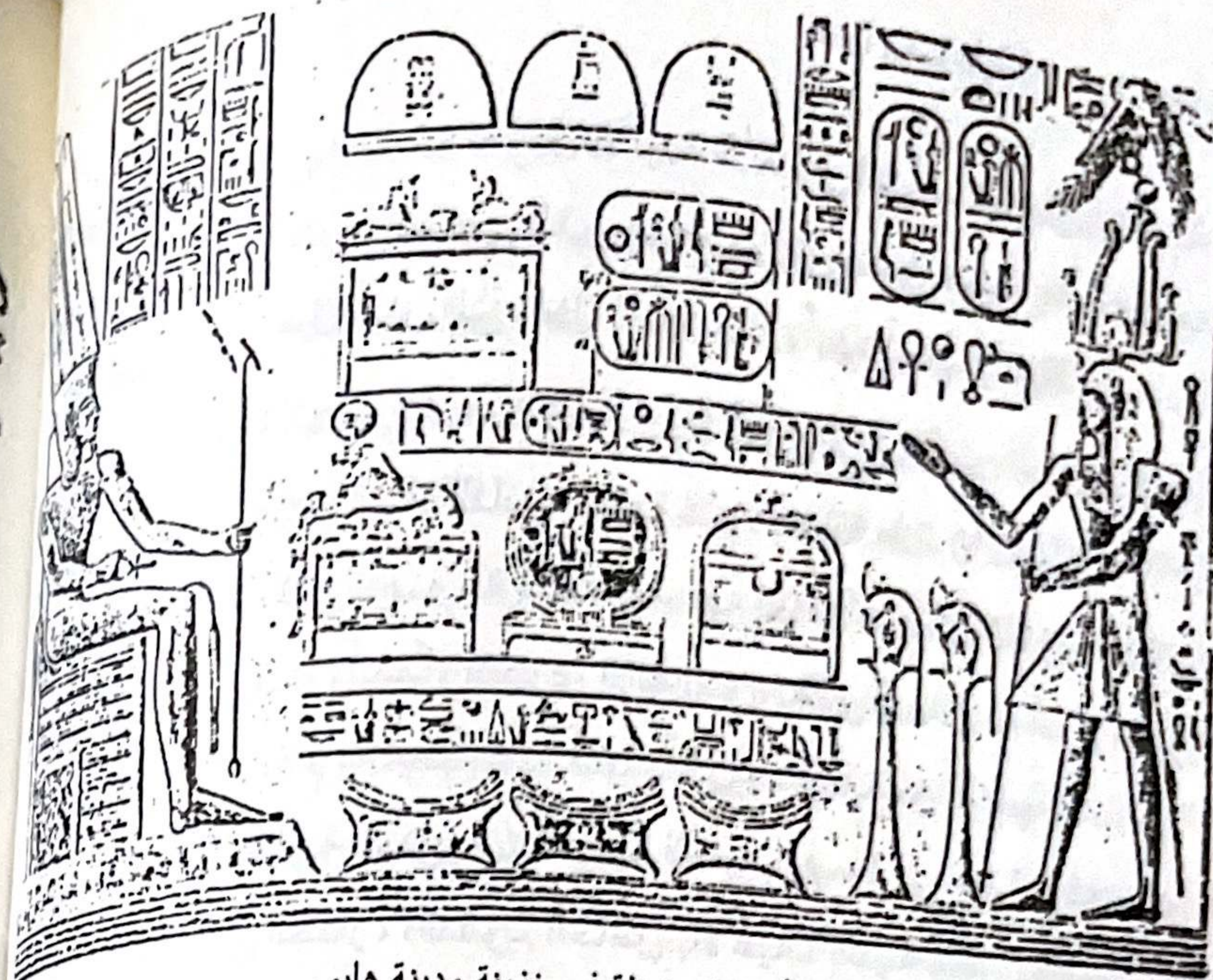
خارجه؛ أو يدخلون به بعض تماثيل الآلهة الأخرى التى جاءت لزيارة هؤلاء الأرباب. وبذا، فإن المدرج المنحنى الذى يجمع ما بين فناءى مدينة هابو، قد أعد خصيصاً من أجل توصيل آمون إلى داخل المعبد خلال أعياد أوبت السنوية(٦٨).

وكان لهذا المدرج المنحنى استعمالات عديدة أخرى فى مناسبات عدة. فوفقًا لما ذكرته النصوص، يعتبر الفناء الثانى بمدينة هابو، بمثابة «فناء الاحتفالات»(٦٩). وتبين النقوش البارزة التى تزينه أنه كانت تقام فيه احتفالات إحياء لذكرى «سوكر» إله الموتى بمنطقة منف، وأيضًا، لذكرى الإله «مين»، الذى يتماثل به آمون به إلى حد ما. بل لقد كانت تقام به أيضًا عدة أعياد أخرى : فبداية من الواجهة الخارجية للفناء جنوباً، وحتى الزاوية الجنوبية / غربية للمعبد، ينبسط فى هيئة ورقة بردى عملاقة ملصقة على الجدار، «التقويم الخاص بالأعياد» بمدينة هابو. ومن خلاله، دونت قائمة بالقرابين التى تقدم فى المعبد، وتواريخ كافة الاحتفالات والأعياد(٧٠) التى يحتفل بها فى نطاقه.

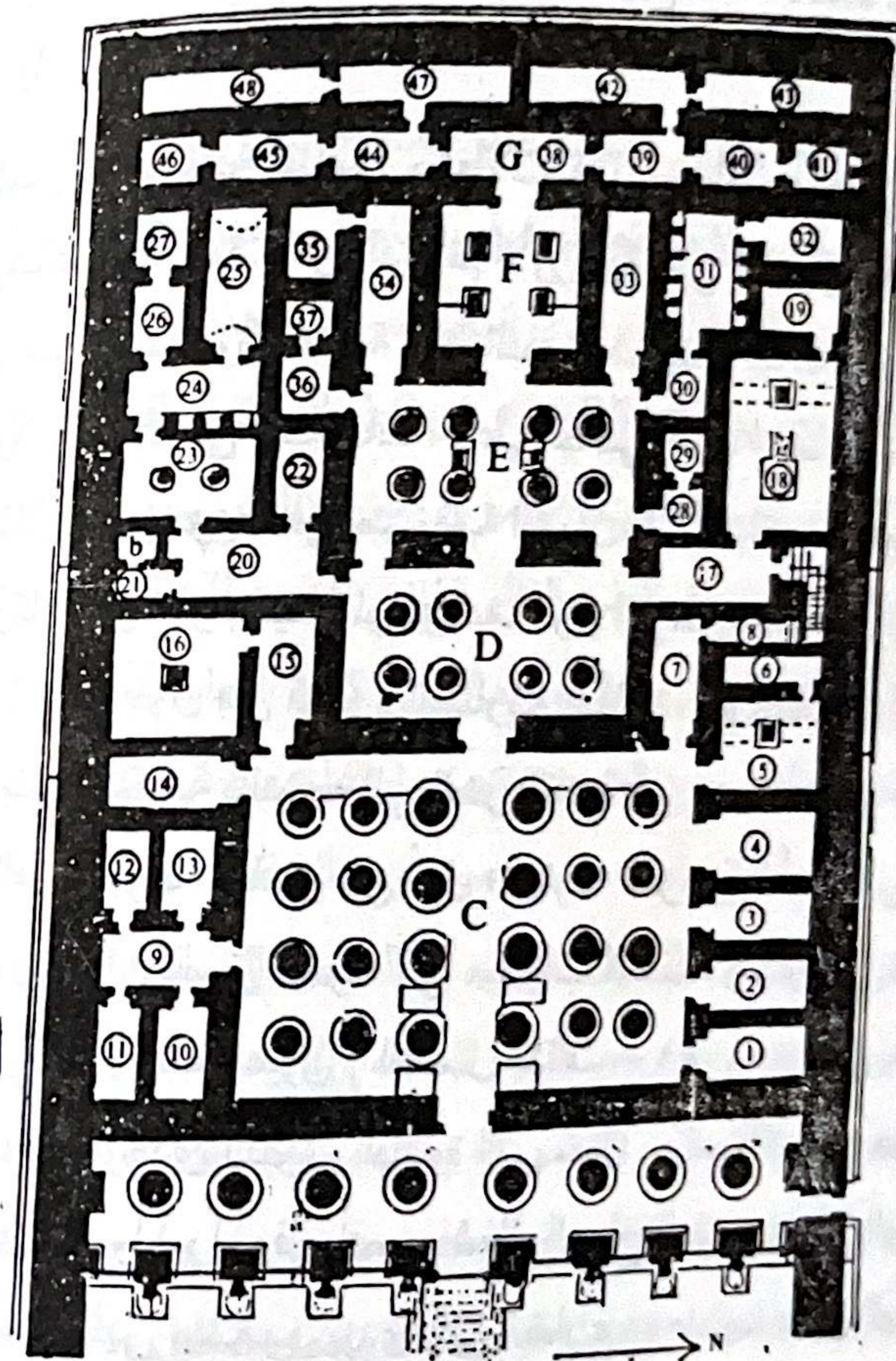
وبجوار الجدران الداخلية لفناء الاحتفالات هذا، يصطف عدد من الأعمدة شمالاً وجنوباً. بل وهناك أيضاً صف من الدعائم الأوزيرية على الناحيتين الشرقية والغربية، تبدو حالياً فى حالة متدهورة للغاية. وهناك منحدر يقفل بباب قائم بين الدعامتين المركزيتين، ولا يفتح إلا فى المناسبات. وعلى جانبى الباب انتصب تمثالان عملاقان من المرمر يمثلان الفرعون، «فى ضخامة الجبال» (٧١)، ولكن لم يتبق شىء منهما حالياً. ولم يتركا سوى آثار بسيطة لوجودهما فوق الأرض. وبالجدار الجنوبى، يسمح أحد الأبواب للملك بالدخول من قصره للمشاركة مباشرة، بالاحتفالات التى كانت تقام فى الفناء. كما يسمح للكهنة بالتوجه إلى البئر القائمة فى حديقته لجلب المياه اللازمة. وتستعمل هذه المياه، بوجه خاص من أجل «تعميد» الفرعون، أو بمعنى أدق للتطهير الشعائرى الذى يجب أن يسبق دخوله إلى محراب المعبد، والذى أشرنا إليه آنفًا عند معالجة موضوع تتويج الفرعون (الفصل الثالث – ١). وعند الزاوية الشمالية / الشرقية بالفناء، بجوار إحدى النقوش البارزة التى تمثل مراسم التطهير هذه، يقع البناء الصغير التى تؤدى به. وأخيراً، وفى أقصى شمال السطح المشرف على الواجهة الغربية للفناء، يوجد باب جانبى صغير يؤدى إلى الخارج. فعندما يكون الباب الخاص

N
O
E
S
0 5 10 20

خريطة قرية دير المدينة (نقلا عن برويز).



الأشياء المحفوظة فى خزينة مدينة هابو.



قدس أقداس مدينة هابو.

بالمنحدر مغلقاً، فإن هذا الباب الصغير يعتبر بمثابة المنفذ الوحيد إلى داخل المعبد. ولا شك أنه كان الباب الذى يدخل منه الكهنة وهم يحملون القرابين إلى هياكله، بعد إعدادها بأماكن خاصة.

وعلى غرار كافة منافذ العبور المحورية الأخرى بالمعبد، كان مدخل المحراب يوصد بباب ذى مصراعين من خشب الأرز، فائق الضخامة[٧٢] لمنع أى دخيل من تخطيه. وفى هذا المكان، وفى البداية فى نطاق ضوء ضئيل، ثم فى ظلام دامس، يتراءى مجال الآلهة الغامض المبهم : «العرش المهيب المصنوع من الالكتروم ذى الأرضية الفضية، والأبواب الذهبية، المنحوتة من الجرانيت الأسود والأحمر، ومن الحجر الجيرى أو الرملى، المطعمة بالنحاس، والمزينة بأشكال من الالكتروم والأحجار الثمينة النادرة المختلفة الأنواع والأشكال»[٧٣]. وعلى جانبى باب المحراب هذا، تتراءى بعض الكتابات المنقوشة وأمامها شكل بارز يمثل الملك، وكأنه يتلو بنفسه مضمون هذه الكتابات التى تحذر أى مخلوق من دخول هذا المكان قبل أن يتطهر تماماً.

ويدل تخطيط هذا المكان بالمعبد على شىء من التعقيد : «إنه بمثابة قاعة اجتماعات الآلهة والإلهات» [٧٤]. وأساساً، تؤدى به الشعائر من أجل «كافة الآلهة القاطنة فى السماء»، و «كافة الآلهة القاطنة فوق الأرض» [٧٥]. إن هذه القاعة تقوم إذن بمهمة «مجمع الآلهة»، بكل معنى الكلمة. ويتفرع منها العديد من المقاصير المليئة بالتماثيل، وأعداد من استراحات المراكب، والأدوات الخاصة بممارسة الشعائر. ولكن يبدو أن هذا التعقيد والتركيب لا يعدو أن يكون سوى أمر ظاهرى فقط. فإن كل ذلك، يمكن أن يقسم إلى عدة عناصر تتميز عن بعضها بعضاً؛ وتتمركز كل منها فوق إحدى قاعات الأعمدة، التى تتوالى الواحدة بعد الأخرى من الشرق إلى الغرب، فوق محور رئيسى.

قدس الأقداس

تبدو قاعة الأعمدة الأولى، وهى أكبر قاعات المعبد، وقد اصطفت على يسارها مجموعة مكونة من خمس حجرات، هى بمثابة خزانة المعبد [٧٦] . كانت تحفظ فيها الأشياء والمنتجات الثمينة النادرة؛ التى لا يمكن المجازفة بحفظها فى الأماكن الخارجية. وتبدو واجهة هذه القاعة الكبرى وقد زينت ببعض المناظر؛ نقش البعض

منها على مصراع بابها، بحيث يصعب تبين مكانها. وبداخل هذه الحجرات، تراكمت سبائك من المعادن الثمينة والنادرة والأحجار الكريمة، مثل الالكتروم وذهب الصحراء، أو ذهب أومبوس، وإدفو، وقفط، أو من آسيا أو النوبة؛ وأكوام من الذهب الحر، والفضة والنحاس، والرصاص، واللازورد، والفيروز[٧٧] . وقد وضعت على هيئة أكوام ضخمة، أو سبائك، أو حفظت بداخل صناديق، زينت أغطيتها بشكل يمثل أبا الهول[٧٨]. وتشاهد أيضاً، فى هذا المكان، أرقى أنواع الأقمشة، وأكوام من الصبر والمر[٧٩]، والصمغ المستورد من بلاد بونت [٨٠] . وبه كانت توجد أيضاً أدوات المائدة الخاصة بالشعائر، وجميعها من الذهب الخالص أو من الفضة والنحاس [٨١] ، والعديد من الصناديق، والكثير من الأدوات وآلات القيثار التى يصاحب عزفها إنشاد التراتيل[٨٢]. وبصفة خاصة، يوجد به الكثير من تماثيل الملك الكبيرة أو الصغيرة على حد سواء؛ فهى بمثابة الممثل الأوحد الذى يقوم نظرياً بأداء الشعائر الإلهية[٨٣] . وتمثله هذه الأشكال، سواء وهو واقف، أو راكع، أو ممسك بإحدى الأوانى، أو منتصب جامد فى هيئة تقديم القرابين. وضمن هذه التماثيل، التى كانت تستعمل كبديل للوجود الفعلى للملك خلال تأدية الشعائر، يمكننا ذكر : «تمثال تجليات أوسر ماعت رع مرى آمون»، وهو التمثال الذى كان يستعمل بنفس هذه الصفة خلال الاحتفالات بعيد التتويج[٨٤]. وكان هناك أيضاً تمثال آخر يسمى «أوسر ماعت رع الذى يقود الاحتفال بإطلاق البخور»؛ ويبدو وهو ممسك بصولجان ومبخرة. وهذا التمثال كان يمثل الملك، عند غيابه، خلال الطواف الذى كان يؤدى بداخل المعبد[٨٥] . وفى الناحية الغربية من موقع هذا الكنز الثمين، الذى نقشت على جدرانه بعض المناظر الممثلة لعملية وزن الذهب إشارة إلى دقة التقييم المتناهية التى تعالج بها مثل تلك الثروات[٨٦] ، توجد حجرة تتضمن القارب المقدس الخاص برمسيس الثانى المؤله. وقد خصصت له عند حضوره من الرمسيوم[٨٧] لزيارة مدينة هابو. فلقد تحول هذا الفرعون العظيم إلى إله. وعلى ما عرف، أن رمسيس الثالث كان يستلهم منه كل أعماله وإنجازاته. وبذا، فإن رمسيس الثالث كان يسبغ عليه الإجلال والتأليه، كما يسبغه على بقية الآلهة فى هذا المكان. بل كان يبجله كما يبجل الأب. ثم تتلو ذلك حجرتان خاصتان بأداء شعائر عبادة «مونتو» إله طيبة العريق القدم ورب الحرب[٨٨] .

ومن الناحية الشمالية لقاعدة الأعمدة الأولى، يتوالى عدد من الغرف الأخرى. وتعتبر كل واحدة منها بمثابة مقصورة صغيرة. فالحجرة الأولى كانت مخصصة من أجل أداء شعائر رمسيس الثالث وزوجته الملكة بواسطة أبنائهما الأمراء وبناتهما الأميرات[٨٩]. والجدير بالذكر، أنه حتى عهد رمسيس الحادى عشر، آخر الملوك الرعامسة، وجدت مؤسسة تسمى بمؤسسة «العرش المحمول» الخاص بالملك[٩٠]، وهو، بمعنى أدق، عبارة عن محفة محمولة، تسمح لكهنة مدينة هابو، خلال المراسم الاحتفالية بطيبة، بنقل التمثال الموجود بتلك الحجرة. أما عن الحجرة الثانية، فقد كانت بمثابة مقصورة «لبتاح» إله منف وأحد أشكال آمون فى تلك المدينة. وبالنسبة للحجرة الثالثة، فقد كانت تؤدى بها الشعائر الخاصة بآلهة مصر الوسطى الرئيسية: ثالوث أبيدوس (إيزيس، أوزوريس، حورس)، و«تحوت» إله الأشمونين وويواووت إله أسيوط. وكانت الحجرة الرابعة تحتوى على تمثال لمركب «سوكر» إله الموتى بمنف، الذى يمثل بتاح وأوزوريس. وكانت مواكبه، فى مدينة هابو، تتسم باحتفالاتها الضخمة. وتضمنت الحجرة أيضاً رمزاً للإله نفرتوم (عبارة عن فرع من البردى ثبتت به ريشتان تماثلان ريشتى آمون)، وكان يعرض هو أيضاً خلال تلك المواكب[٩١]. وفى أقصى الناحية الغربية، نجد فناء له سقف مائل، ألحقت به حجرة (خدمة) من أجل تشفية لحوم الحيوانات الخاصة بالقرابين، والتى تحضر إلى المجزر المقام بالناحية الشرقية للصرح الأول[٩٢]. ثم فى نهاية الأمر، تشاهد حجرة لها ملحق صغير، تحتوى على القارب المقدس الخاص بأحد تجليات آمون المقدسة بمدينة هابو خلال حكم رمسيس الثالث، أو «آمون القائم فى معبد رمسيس الثالث المفعم بالأبدية». والجدير بالذكر، أن الفرعون، بعد موته يتماثل به فيصبح «آمون المتألق بالأبدية[٩٣]».

وفى الناحية الغربية من قاعة الأعمدة الأولى، يوجد باب يؤدى إلى قاعة أعمدة أخرى، ولكن أقل مساحة؛ ومنها كان من الممكن الوصول إلى عدة مجمعات مختلفة: عند محور المعبد، مقصورة مدينة هابو؛ على اليسار، معبد كامل لأوزوريس؛ يميناً، مجمع خاص بإله الشمس رع - حور آختى رب هليوبوليس. وأخيراً، وبواسطة سلم خاص، قاعة مقامة فوق سطح المعبد، لتكون بمثابة مقصورة مشتركة لمجمع الآلهة الثانوية بمصر[٩٤]. إذن، فها هى مقاصير عديدة ومتباينة. وحتى لا ننسى شيئاً، علينا

أن نذكر أيضاً، المقاصير القائمة بقاعة الأعمدة الأولى، المخصصة لشعائر آلهة منف. إذن، فالأمر يتعلق هنا بالحرص على أن تؤدى الشعائر الخاصة بجميع آلهة مصر فى مدينة هابو، دون استثناء.

وبجوار المعبد، على جانبى محوره، يوجد جناحان مخصصان لكل من أوزوريس ورع. ويبدو هذا الأمر من السمات الثابتة، على الأقل، بداية من حكم حتشبسوت، فى إطار معابد طيبة الجنازية. فإن عبادة كل من هذين الإلهين قد أوحت بالكثير من الأفكار فى عالم زخرفة مقابر «وادى الملوك». بل تشير أيضاً إلى بعث الملك المتوفى بعثاً أبدياً، لتطابقه بالإله أوزوريس. وبالتالى، فسوف يصبح مثله، ملكاً على عالم الموتى المبرئين فى العالم الآخر، مثلما حكم فى الحياة الدنيا. وبتطابقه برع، فهو لن يتوقف أبداً عن مصاحبته يومياً فى رحلة عبوره للسماء فى مركبه الخاص.

المجمع الخاص بأوزوريس ورع - حورآختى

من الممكن الوصول إلى معبد أوزوريس فى مدينة هابو عن طريق ممر[٩٥]، يقع على أحد جانبيه هيكل ثانوى، وفى نهايته توجد حجرتان صغيرتان لحفظ الأشياء النادرة والمواد الفاخرة[٩٦]. ولقد شيدت هاتان الحجرتان خلال حكم رمسيس الثالث، بعد الانتهاء تماماً من بناء المعبد. وزينت الجدران الغربية والشرقية لهذا الممر بمشاهد تمثل عملية تقديم القرابين الغذائية لرمسيس الثالث بواسطة الكاهن إيون موت إف. ويعتبر ذلك من الأمور الأساسية فى إطار الشعائر الجنازية. ومن الملاحظ، فى نطاق معظم المقابر الخاصة، بل وفى بعض المعابد الجنازية الملكية، أن مثل هذه المناظر تزين الجدارين الطويلين للمقصورة الجنازية: أى بالأحرى، المقصورة المتضمنة فى أقصى نهايتها الباب الوهمى الذى تأتى من خلاله «با» المتوفى، من عالم الموتى، لتتغذى بالقرابين. وربما نستطيع أن نتخيل أن القاعات الخمس المتتالية الواقعة خلف المقصورة الجنازية، تمثل ما يفترض أن يكون موجوداً «خلف» ذاك الباب الوهمى: فهى صورة مصغرة لعالم الموتى الذى يحكمه أوزوريس. وبالفعل، فإن القاعة رقم[٢٦] قد زينت بمنظر يمثل «قرية العشب»، أو جنة المصريين الزراعية، اقتبس من الفصل (١١٠) «بكتاب الموتى». أما عن الحجرة التالية[٢٧]، فيبدو على جدارها منظر لكرمة اقتبس هو أيضاً من نفس «كتاب الموتى» (الفصل ١٤٨)، وهو يشير إلى تماثل

المتوفى ببعض الآلهة التى تدير شئون الكون. ونجد نفس هذين المشهدين بمقبرة رمسيس الثالث أيضاً. وبالنسبة للقاعة رقم (٢٥)، فيلاحظ، أن سقفها، على غرار أسقف مقابر وادى الملوك، يبدو مقوساً وتزينه خريطة لمختلف أنحاء السماء. وعلى ما يبدو، أن هذه القاعة، تصور مقبرة أوزوريس. كما أنها تتضمن باباً وهمياً يسمح للملك بتقديم القرابين للآلهة. وتنفصل هذه المجموعة من القاعات عن الممر بواسطة حجرتين (٢٣ - ٢٤). ويلاحظ أن ثانى حجرة منهما، قد أحيطت من جوانبها الثلاثة بما يشبه المائدة الحجرية، من أجل وضع القرابين. وعلى واجهتها الشرقية، توجد ثلاث كوات، لكى توضع بداخلها بعض تماثيل آلهة أبيدوس، مدينة أوزوريس. وأخيراً، نجد أن القاعة الأولى (٢٣)، قد زينت بمناظر تصور المراسم الخاصة بتتويج رمسيس الثالث وهو فى العالم الآخر، بعد وفاته. ويعتبر ذلك بمثابة إحدى المراحل الهامة من أجل تماثله مع أوزيريس، إله الموتى.

وعلى الجانب الآخر من قاعة الأعمدة الثانية بمعبد مدينة هابو، يلاحظ أن «المقر الخاص برع حور آختى (١٩١٧) يتسم بالمزيد من البساطة فى تصميمه. وفيما عدا حجرة (الخدمة)، فإنه، على غرار معظم المقاصير الخاصة بهذا الإله، لا يتكون أساساً، إلا من فناء مكشوف السقف، يسبقه بهو به درج يؤدى إلى سطح المعبد. وبالمقارنة بالظلام أو بالأحرى، بالظلام الذى يخيم على معبد أوزيريس، نجد هنا ضوء النهار المتألق الباهر. والشيء المميز بذاك الفناء، هو الهيكل المرتفع، الذى يتوسطه؛ والذى يمكن الصعود إليه بواسطة بعض الدرجات المواجهة لمشرق الشمس. ومثلما كان يحدث فى نطاق أى معبد فى العمارنة، كانت توضع فى كل يوم مجموعة رمزية للنباتات والحيوانات، التى تعمل الشمس بأشعتها على خلقها من أجل أن يعيش عليها البشر. وبذا، يرد البشر لخالقهم، جزءاً مما خلقه لهم، فى هيئة أضحية، ويعبرون أيضاً عن خضوعهم وطاعتهم له.

قدس الأقداس

وفى نهاية الأمر، ها نحن بداخل قدس الأقداس الخاص بمدينة هابو، تسبقه قاعة أعمدة خاصة[٩٧]. وعلى جانبيها، وفيما بين الأعمدة، بدت بعض التماثيل المجموعة المنحوتة من الجرانيت تمثل رمسيس الثالث يصاحبه، على التوالى، ماعت

وتحوت[٩٨]. وبخلاف قاعات الأعمدة الأخرى بالمعبد، يلاحظ أن هذه القاعة قد زودت بثلاثة أبواب، تتصل، من الناحية الغربية، بثلاث استراحات لمراكب آلهة ثالوث طيبة : آمون، وموت وخونسو[٩٩]. وتتصل هذه القاعة أيضاً بمحرابين ثانويين، ربما كانا قد أهديا من أجل بعض تجليات حورس. وعند زاويتها الشمالية الغربية، وبعد بهو فسيح، توجد قاعتان لهما مضمون دينى ذو أهمية فائقة. فإن القاعة (٣٢) كانت بمثابة مقصورة لآمون رع، خالق العالم. وبذا، نجد أن بعض النقوش البارزة الخاصة بالملك، تمثل هذه القاعة، وقد وقفت على بابه، وكأنها معبد بكل معنى الكلمة، لا يسمح مطلقاً بدخول من لم يتطهر. وتسبق تلك القاعة قاعة أخرى[١٠٠] (٣٨)، تتضمن جدرانها تسع كوات من أجل تمثال آمون، المتماثل برب الأرباب رع أتوم، وتماثيل للآلهة التى خلفت رع أتوم، وفقاً لما تقوله نظريات هليوبوليس الدينية، وهم : جب ونوت (الأرض والسماء)، وشو وتفنوت (الهواء والرطوبة)؛ وأخيراً أوزيريس (أول ملك) وست (قاتله). ويرمز النزاع الدائر بينهما إلى الصراع بين النظام «ماعت» وبين الخواء «إزفت»، أو بالأحرى صراع الخير ضد الشر، أو مجابهة الحق للعنف[١٠١]. أما إيزيس ونفتيس، فهما على التوالى زوجتا أوزيريس وست.

وفقاً لما ذكرنا آنفاً، تعتبر القاعة (هـ)، التى يسند سقفها أربعة أعمدة مربعة، بمثابة مكان استراحة مركب آمون[١٠٢]. ومن أجل الوصول إليها، تستلزم الضرورة، أولاً، عبور بابها الخارجى، ثم تخطى باب آخر يعمل على إقفال الفراغ القائم بين العمودين الواقعين ناحية الشمال. ولا شك أن القداسة المتناهية التى يتسم بها هذا المكان كانت تتطلب توخى مثل هذا الحرص الشديد. وعندئذ يتراءى قدس أقداس مدينة هابو : إنه المكان، الذى يوضع فيه عادة، فى نطاق المعابد الإلهية، الناووس المحتوى على تمثال الإله. ولكن الأمر كان يتعلق هنا بمعبد جنازى، وبذا، فقد حل مكان هذا الناووس باب وهمى، مثلما يحدث بالمحراب الجنازى الخاص بأى فرد. وبذا، فمن خلال هذا الباب الوهمى، كانت «با» الملك المتوفى، تغادر مقبرته فى الصباح الباكر، وتصل إلى معبده وتلتهم القرابين التى وهبت من أجلها. وعند حلول المساء، تعود ثانية إلى جثمانه المسجى بمقبرته بوادى الملوك. وفى هذا الصدد، نجد

أن الملك لا يختلف عن أبسط البسطاء من أفراد شعبه، فإن إعادة هذه الدورة إلى ما لا نهاية، هى التى تسمح له، فى نهاية الأمر، بالبعث من جديد والخلود أبداً. وأخيراً، فبعد هذه القاعة، يوجد جناحان صغيران متصلان ببعضهما بعضاً. وعلى ما يبدو، يتكون كل منهما من ثلاث حجرات. وفى نفس نطاقهما، يتبين أن الحجرتين (٤١) و(٤٦) تتضمنان أكثر التماثيل قداسة والخاصة بآمون المعبود المبجل بمدينة هابو؛ وبداخلهما، كانت تؤدى يومياً، أمام هذه التماثيل مراحل الشعائر الإلهية اليومية. ويؤدى بهو كل من هذين الجناحين المذكورين إلى مجموعتين من الحجرات، تتكون كل مجموعة منهما من حجرتين (٤٣٤٢ و٤٨٤٧)؛ وربما، كانت تحفظ بها الأدوات النادرة القيمة الخاصة بإقامة الشعائر.

زخرفة المعبد

لقد أُستهل تشييد معبد مدينة هابو فى أوائل العام الخامس من حكم رمسيس الثالث. ولكن، وفقاً لنصين منقوشين، على مقدمة صرحة الأول، اتضح أنه لم يتم الانتهاء تماماً من تشييده إلا فى العام الثانى عشر[١٠٣] من حكمه. وبذا، ففى الفترة الواقعة ما بين هذين التاريخين،قد أنجزت النصوص والنقوش والمناظر البارزة التى تتألق جمالاً فوق جدرانه.

ولنحاول أن نتأمل قليلاً ما تم بالنسبة لمعبد خونسو بالكرنك : فإن رمسيس الثالث لم يتح له الوقت الكافى لزخرفته، بعد أن أتم بناءه تماماً؛ بل بالأحرى استطاع فقط أن يزخرف عدة حجرات قليلة منه قرب قدس الأقداس[١٠٤]. ومن المحتمل جداً، أن عملية زخرفة المعابد المصرية كانت تتم من الداخل إلى الخارج، من الأعماق إلى المدخل. وتستهل البداية عادة، بالمناظر الدينية، فهى بمثابة السمات المميزة لتلك المعابد. فبالنسبة لمدينة هابو، زخرفت فى مرحلة أولى، فى أطراف العام الثامن من الحكم، كافة الحجرات المكونة للمحراب، بالناحية الغربية من الفناء الثانى[١٠٥]، ثم زينت جدرانها بالنقوش البارزة العملاقة الممثلة لأعياد سوكر، وآمون، ومين[١٠٦]، بل وأيضاً بالنصوص والمناظر التى تصور أولى المعارك التى خاضها الفرعون ضد الليبيين، فى العام الخامس[١٠٧] من حكمه.

وبمضى الوقت، بعد العام الثامن من الحكم، أى فى تاريخ المعركة التى خاضها الملك ضد «شعوب البحر»، تمت زخرفة الواجهات الشرقية للصرح الثانى الضخم بسلسلة من الكتابات ومجموعة من المناظر إحياء لذكرى هذا الحدث العظيم[١٠٨]، وأيضاً، فى نفس تلك الفترة، تمت زخرفة الأغلبية العظمى من جدران المعبد الخارجية[١٠٩]. فترى على الواجهات الغربية والشمالية من الزاوية الجنوبية / غربية للصرح الثانى الضخم، بشكل متسلسل ووفقاً لترتيب الأحداث التاريخية، مجموعات عديدة من مشاهد المعركة التى خاضها رمسيس الثالث فى النوبة[١١٠]، ومعركته الأولى ضد الليبيين[١١١]، ومعركته ضد «شعوب البحر»[١١٢]. حقيقة أن هذه المعارك قد وقعت فى تواريخ متباينة وتتعلق بأحداث مختلفة، ولكن يلاحظ أن ما تتسم به من وحدة الأسلوب والتكوين قد جعلها تبدو وكأنها انبثقت من منطلق واحد لا يتجزأ، وفى هذه الفترة عينها، لا بد أنه كان قد تم أيضا هذا العمل الضخم العملاق الخاص «بتقويم الأعياد»، الذى احتل بضخامته هذه كافة أنحاء الواجهة الخارجية الجنوبية للمبنى وحتى الصرح الثانى الضخم[١١٣]. وترجع أيضاً الى نفس تلك الفترة، النقوش البارزة الباهرة، التى تمثل الفرعون خلال رحلات صيد حيوانات الصحارى والثيران الوحشية، والتى تزين الواجهة الغربية للصرح الأول الضخم[١١٤]. ومن المؤكد أن «تقويم الأعياد» قد نفذ قبل العام الحادى عشر من الحكم، ففى نفس هذا التاريخ، زودت إحدى القوائم المكونة له[١١٥]، بثلاث قوائم جديدة تعدد فيها القرابين التى كرست لآلهة طيبة، شكراً لها وعرفانا، على النصر الذى أسبغته فى نفس ذاك العام للمرة الثانية، على الملك فى معركته ضد الليبيين[١١٦]. ومن المؤكد أيضاً، أن النقوش البارزة الممثلة لمناظر الصيد التى ذكرناها آنفا، تعتبر بمثابة رمز لمعركة رمسيس الثالث ضد الليبيين، التى مثلت على الواجهة الغربية للصرح. وتقترن نفس هذه المناظر مع منظر صيد الأُسود، بالواجهة الشمالية، والتى تنقسم الى جزءين، مع المشاهد الممثلة للمعركة ضد «شعوب البحر»[١١٧]. وهى تتعلق جميعاً بهذا المضمون الذى يقول : إن ملك مصر الذى ينتصر على الوحوش الكاسرة بصحارى النوبة «والمشرق»، يعتبره سكانها فى نفس جسارة وبأس هذه الضوارى ويخشون بطشه. ولقد عرف هذا المضمون منذ حوالى الأسرة الثامنة عشرة ومن خلال اللوحة الخاصة

بانتصارات تحتمس الثالث(١١٨). بل لقد استلهمها مرنبتاح نفسه، قبل تولى رمسيس الثالث الحكم بحوالى عشرين عاما، فقد أمر هذا الفرعون، بأن تنقش فى النوبة سلسلة من النصوص التى تشيد وتتغنى بانتصاراته، حيث خص نفسه بصفات «الأسد المنقض على فلسطين» و «الثور المهاجم للنوبة»(١١٩).

وفى نهاية الأمر، وبعد العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث، تم الانتهاء من زخرفة كافة الأجزاء الخالية المتبقية بمدينة هابو : النقوش البارزة بالفناء الأول، وبالصرح الأول الضخم، وبالأبواب المحصنة(١٢٠)، الخ، الخ. ولكن، يجدر الإشارة هنا، والتنوية بصفة خاصة الى الإنجازات المتعلقة بمجموعتى النصوص والنقوش البارزة التى كانت تهدف الى تخليد ذكرى معركة رمسيس الثالث الليبية الثانية، والتى حدثت فى هذا الوقت : المجموعة الأولى على الواجهة الداخلية للصرح الأول الضخم، والمجموعة الثانية فى الجزء السفلى بالجدار الخارجى للمعبد، فيما بين الصرح الأول والثانى (١٢١). وبعد فترة وجيزة، نفذت مجموعتان أخريان إحياء لذكرى معركة ضد الأسيويين وغير واضحة المعالم تماماً، وعملت هاتان المجموعتان على تكملة زخرفة الصرح. فلقد نفذت المجموعة الأولى منهما بالجزء السفلى للجدار الداخلى الشمالى بالفناء الأول. أما المجموعة الأخرى، فقد نقشت أعلى المجموعة الثانية التى تمثل مناظر عن المعركة الثانية ضد الليبيين (١٢٢). ولقد نفذت مناظر تمثل نفس هذه الأحداث، فى وقت لاحق، بالمعابد الثانوية التى أمر رمسيس الثالث بإنشائها على الضفة الشرقية لطيبة (الفصل الخامس).

هكذا، على ما يعتقد، تمت مراحل الزخرفة بمدينة هابو : فى الفترة الواقعة ما بين العام الخامس والعام الثامن، وما بين العام الثامن والعام الحادى عشر، ثم من العام الحادى عشر إلى العام الثانى عشر من الحكم. وربما أن أمنمس ابن «باويا»، المعمارى الذى شيد المعبد، قد امتد به العمر إلى اليوم الذى أوكل إليه فيه بمهمة الإشراف على تلك اللوحات من النقوش البارزة التى تتسم بنوع من الإبهار المتصنع، على غرار الأسلوب الدارج خلال حقبة الرعامسة، والذى استلهم البعض منها من النقوش البارزة بالكرنك التى تمجد انتصارات «سيتى الأول» الحربية.

٣- مدينه هابو : المظاهر الاقتصادية والاجتماعية

مدينة هابو، هذا المجمع المترامى الأطراف، يبدو اليوم خاويا قفرا. أما فى العصور العريقة القدم، فكان يعيش به جمع ضخم من الكهنة والعاملين. ومن «بردية هاريس ١» علمنا : أن رمسيس الثالث، خلال فترة حكمه، قد أمر، من أجل إنشائه، بتعيين ما لا يقل عن (٦٢٦٢٦) فرداً (١٢٣)، يضاف إليهم حوالى (٧٧٠) عاملاً للعناية بنظافة المعبد(١٢٤)، بالإضافة إلى (١٠٨٤) راعيًا لقطيعى الغنم والمواشى الذى كان قد كرسهم من أجله(١٢٥). ويعادل إجمالى هذه الأعداد ما لا يقل عن (٦٤٤٨٠) عاملاً. ولاشك أن معظم هؤلاء الأفراد كانوا متزوجين ولديهم الكثير من الأطفال. ويلاحظ أن أغلبية هذا العدد الضخم كان يتكون من الفلاحين الذين يقومون بزراعة الحقول التابعة للمعبد والمترامية الأطراف من أول مصر الى آخرها، وبالمقارنة، نجد أن بقية أملاك آمون، الفائقة الثراء، لم يعمل بها سوى (٢٢٠٠٦*) أفراد، أى ما يعادل ثلث مجموع العاملين بمدينة هابو. بل إن هذا الرقم الهائل يمثل حوالى ضعفى وسبعة أضعاف ال (١٢٣٦٤) والـ (٣٠٧٩) عاملاً الذين كرسهم الملك من أجل أملاك رع بهليوبوليس وأملاك بتاح فى منف. مع اعتبار أن هاتين المدينتين تعتبران، بعد طيبة من أكبر مدن مصر. ولا ريب أن هذه الأرقام الضخمة تعكس مدى القوى الاقتصادية التى كانت تتمتع بها أملاك آمون، وبالتالى، مدينة هابو التى تتضمنها. ومن المؤكد أن الفرق شاسع بين هذه المؤسسات الكبرى وبين المعابد الخاصة ببعض الآلهة الصغرى بالريف، على غرار معبد «وبواووت» فى أسيوط، الذى لم يكرس له رمسيس الثالث سوى أربعة أفراد لخدمته خلال فترة حكمه(١٢٧).

رجال الدين بمدينة هابو

على غرار كافة المعابد المصرية القديمة، كان رجال الدين بمدينة هابو ينقسمون الى طبقتين من الكهنة : فعلى القمة، يوجد «حم نتر» أو «عبيد الإله» الذين يقومون بأداء الشعائر(١٢٨)، ثم يأتى فى أثرهم الكهنة «الوعب»، أى «الكهنة المطهرون» (أو بالتحديد «غير المدنسين»)، المكلفون بالمهام المادية فى نطاق المعبد. وبالمقارنة بعدد العمال الضخم (٦٥٠٠٠) العاملين بالمعبد، يبدو عدد الكهنة فى إطاره، متواضعاً

للغاية. بل لقد بينت بعض النصوص أن عددهم لم يكن ليزيد على (١٥٠) كاهنا[١٢٩]، منهم (١٠٠) من الكهنة «الوعب»، أى مايعادل ثلث عدد الكهنة الإجمالى[١٣٠]. أما عن مساكن جميع هؤلاء الكهنة، فكانت تقع، كما سبق أن ذكرنا، فيما بين ساحتى مدينة هابو، ببيوت تتجمع فى هيئة صفين متوازيين، على طول الطرق الممتدة على جوانب الواجهات الجنوبية، والغربية والشمالية بالساحة الداخلية. ووفقا لما تبقى منها من آثار، يبدو أن عدد هذه البيوت، لم يكن ليقل عن (٧٠) بيتاً، منها (٥٠) بيتاً تقع بالطريق البعيد إلى حد ما عن المعبد. أما العشرون منزلاً الباقية، وهى الأكثر رحابة واتساعا، فإنها تقع على الطريق الأكثر قرباً من المعبد. ويلاحظ أن كلا جانبى هذين الصفين من المنازل كان يتضمن، عند نهايته الشرقية، مكتباً إدارياً خاصاً به. ويتراءى هنا، أن هذه الأرقام، تتطابق، بشكل متتابع، كما عرفنا آنفا، بنصف عدد كهنة «الوعب» ونصف عدد «الحم نتر» فقط، العاملين بالمعبد. إذن، فربما أن هذه المساكن كانت مجرد أماكن للإقامة المؤقتة، أثناء فترة العمل، فوفقا للتقاليد المتبعة، كان الكهنة ينقسمون إلى أربع مجموعات، تقوم كل مجموعة منها على التوالى، بمهمة أداء الشعائر الدينية.

وبجانب كهنة «الوعب»، فى إطار مجتمع الكهنة بمدينة هابو، كان يوجد أيضا كاهنان شعائريان. ووفقا لما تذكره النصوص المقدسة، كانت مهمتهما تتركز فى الإشراف على حسن أداء ونظام المراسم، وفى مراقبة إجادة تشفية وتقطيع لحوم حيوانات القرابين[١٣١]. ويضاف الى هذا الجمع عدد من النساء، يشاركن أحيانا فى الخدمة الإلهية: ومنهن بنات وزوجات كبار موظفى الدولة وعلية القوم والكهنة المحليون، اللاتى كن يحضرن من أجل الإنشاد خلال أداء بعض المراسم، الخاصة بالإله. إنهن، بشكل صورى، يمثلن «حريم» الإله. أما رئيستهن أو المسئولة عنهن، فيتحتم أن تنحدر من إحدى العائلات الرفيعة القدر فى طيبة، وهى عادة تحمل لقب «رئيسة حريم آمون بمدينة هابو»[١٣٢].

وعلى نمط كافة المعابد المصرية القديمة، نجد فى أعلى قمة التدرّج الوظيفى للكهنة، رئيساً أعلى، ويرتبط لقبه بالوظيفة الدينية التى يؤديها. ومثله كمثل بقية رؤساء المعابد الجنازية الملكية بطيبة، كان لقبه الرسمى هو: الكاهن «سم أو ستم»

ويرجع هذا اللقب إلى العبادة الخاصة ببتاح – سوكر – أوزيريس، وهو النسخة المكررة من أوزيريس فى منف. ولقد استلهم شعائره الفراعنة الرعامسة من أجل طقوسهم الجنازية. وفى كل عام، فى نهاية موسم «الآخت»، تقام احتفالات على مدى عشرة أيام تحاكى خلالها قصة موت وبعث هذا الإله. وتبلغ هذه الاحتفالات قمتها فى مدينة هابو، حيث تبدو فى هيئة موكب مهيب، يشترك فيه جميع رجال الدين. ومن خلال المناظر التى تمثل هذه الاحتفالات فوق جدران الفناء الثانى، يمكننا أن نتبين، على سبيل المثال: الإداريين، و «السم»، والكاهنين الشعائريين، والأربعين «حم نتر» والسبعين «وعب»، أى ما يعادل جميع الـ «حم نتر» وأغلبية الكهنة الـ «الوعب»[١٣٣]، وربما أن البقية الباقية منهم كانت منهمكة فى إدارة بعض الأعمال فى أنحاء المعبد.

وحقيقة أن وظيفة «السم» بمدينة هابو، كانت تحظى خلال حكم رمسيس الثالث بأهمية كبرى، ومع ذلك، نجد أن هوية من حملوا هذا اللقب تبدو غير واضحة المعالم. وربما كانت هذه الوظيفة قد خصصت من أجل كبار كهنة آمون الذين كانوا يقومون بخدمة الملك كمثل: باك ان خونسو بن أمنمؤبى، الذى ذكر بأحد النصوص باعتباره الـ «سم الأكبر فى طيبة»[١٣٤]. وهناك أيضًا خليفته فى أواخر عهد رمسيس الثالث، ويدعى أوسر ماعت رع إن نخت[١٣٥]. ومع ذلك، فإن ثالث رسل آمون المدعو «تانفر»، قد ذكر أنه ضمن ألقابه العديدة، قد حمل لقب «سم فى أفق الأبدية». ويلاحظ أن هذا اللقب، كان يستعمل خلال عصر الرعامسة فى نطاق المعابد الجنازية الملكية[١٣٦]. وبهذا، فمن المحتمل جدا أن «تانفر» هذا، قد شغل خلال مدة ما من الحكم وظيفة كبير كهنة مدينة هابو. وتجدر الإشارة أيضاً، أن شخصا يدعى «جحوتى مس»، قد تبوأ هذه الوظيفة فى العام الرابع من حكم رمسيس الرابع، وربما، أنه كان قد شغلها أيضا خلال السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثالث[١٣٧].

الإدارة بمدينة هابو

تحت الرئاسة العليا لكل من «الكاهن الأكبر لآمون بطيبة»، والكاهن «سم»، كان معبد مدينة هابو مثله مثل معظم مؤسسات الدولة يخضع لإدارة مجلس خاص به. ويتضمن هذا المجلس ممثلى الكهنة، وممثلى مختلف الأقسام الإدارية[١٣٨]. ويقوم

الرئيس الفعلى لمدينة هابو برئاسة هذا المجلس وعادة كان يحمل لقب «المشرف الأعلى»[١٣٩]. أما عن مساعديه، الذين كانوا مكلفين خاصة بإدارة بعض المؤسسات المرتبطة بالمعبد، فكانوا يحملون لقب «المشرف». ويمكن الإشارة الى اثنين ممن حملوا ذلك اللقب الرفيع : «بيا، Piay»، الذى كان يقوم بمنطقة الدلتا، بإدارة إحدى حظائر المعبد[١٤٠]، وهناك أيضاً، «ابن نستى تاوى»، الذى عمل، فى أواخر حكم رمسيس الثالث، بأملاك بتاح منف[١٤١].

ولم يلجأ رمسيس الثالث إلى خلع هذا اللقب الرفيع «المشرف الأعلى لمدينة هابو» على أحد أعضاء رجال الدين بطيبة. ولكن منحه لمن يدعى «مرى باستت»، الذى كان يحمل مسبقاً، خلال فترة الحكم، لقب «المشرف الأعلى لدى سيد القطرين»، ولقب «الرئيس الأعلى للضرائب». ولكن لا يمكن أن نجزم عما إذا كانت ألقابه هذه تحمل مضموناً «قومياً» أو «محلياً»[١٤٢]. وعلى ما يبدو أن هذا الشخص قد أمضى بعض فترات حياته العملية فى Hermopolis، مدينة الإله تحوت. فقد جاء ذكره بها، من خلال بقايا إحدى المقابر الخاصة بعائلته[١٤٣]، حاملاً للقب «رئيس جميع كهنة أونت» (الاسم الأصلى للأشمونين)[١٤٤]. ولكن نفس تكوين اسمه «ميرى باستت»، أى «المحبوب من باستت»، ربما قد يشير إلى أن أصله من «تل بسطة»، مثله مثل العديد من كبار موظفى الدولة خلال عهد رمسيس الثالث، الذين ربما كانوا قد قاموا بدور فعال فى إطار حكم هذه الأسرة (الفصل الأول، ٣). وربما كان تعيينه بمنصب رئاسة مدينة هابو قد بررته بعض الدواعى السياسية. فلا شك أن منبته الأصلى يضفى عليه سمات الوفاء والإخلاص. وربما أنه كان يدير مهام وظيفته هذه بكفاءة واضحة. وعموماً، فإننا لم نحط علماً باسم أى شخص آخر سواه كان يشغل وظيفة «المشرف الأعلى لمدينة هابو»، خلال فترة حكم رمسيس الثالث. ويحتمل أنه قد استمر بها، حتى بداية حكم رمسيس الرابع.

وفى العام الثانى من حكم هذا الفرعون، نجد أن ابنه ميرى باستت «رمسيس نخت»، الذى كان يشغل وظيفة «الكاهن الأول لآمون»، قد ورث عنه هذا اللقب، بل واحتفظ به حتى بداية عهد رمسيس التاسع، أى طوال ما يقرب من أربعين عاماً[١٤٥]. ولقد قام أحفاده بإدارة «أملاك آمون»، حتى بداية عهد رمسيس الحادى

عشر. ولا شك إذن، أن شغل «مرى باستت» لمنصب رئاسة مدينة هابو، كان بمثابة الدافع الأساسى لتألق وتفوق هذه العائلة الرفيعة الشأن. وفيما يبدو، أن علاقات التزاوج بين بعض أفرادها، قد عملت، بعد ذلك، على ارتباطها بعائلة «النبى الثالث لآمون، المدعو ثانفر janefer»، وأيضاً، بسلالات كبار كهنة إدفو والكاب[١٤٦].

وكما هو الحال فى نطاق مختلف إدارات الدولة، نجد أن كلاً من وظيفة «مدير الأعمال»، و«مدير الخزانة»، تعتبر، فى إطار التدرج الوظيفى بالمعابد، من أسمى الوظائف وأرفعها شأناً، انها تعتبر، بلا ريب، من أهم الوظائف وأخطرها شأناً بعد وظيفة «الكاهن الأكبر»، و«المشرف الأعلى». ولقد علمنا، قبل ذلك، أن أولاهما قد شغلها، بمدينة هابو، خلال فترة ما من حكم رمسيس الثالث، من يدعى «أمون موسى بن باويا»، الذى قام بتشييد المعبد وكان يهيمن أيضاً على «إدارة المنقولات». أما عن الوظيفة الثانية، فقد شغلها «باى إرى» «مدير الخزانة الملكية» - وهو أيضا مثل «ميرى باستت»، ينحدر أصلا من «تل بسطة» - والجدير بالذكر، أنه قام، فى العام الخامس من الحكم، بإرسال حملة الى «جبل السلسلة»، من أجل جلب الحجر الرملى، لبناء المعبد. ولكى نلمس مدى أهمية هذه الوظيفة الثانية، علينا أن نعرف جيداً أن الخزائن المصرية لم تكن تتضمن فقط الذهب والفضة، بل هى تستوعب أيضا، كل ما هو قيم وضرورى ومهم : بخور، أقمشة راقية، زيوت عطرية مستوردة، منتجات معدنية، أثاثات جنازية. وبهذا، فإن «مدير الخزانة» يعتبر مسئولا مسئولية كاملة عن كل ما تتضمنه من ثروات هائلة. وكان يساعده فى مهمته هذه العديد من الكتبة المتخصصين[١٤٧]. وهو يلتزم خلاف ذلك بعمل تسجيل دقيق، لكل ما كان يغدقه الملوك، خلال فترات حكمهم، من هبات وهدايا على معابدهم الجنازية هذه. وبذا، كانت وظيفته ترتبط ارتباطا وثيقاً بوظيفة «رئيس حرس المحفوظات» بالمعبد[١٤٨]، وأيضاً بوظيفة «مدير الصناع الحرفيين»، ومهمته الإشراف على صناعة المستلزمات الخاصة بالشعائر. وقد شغل هذا المنصب الأخير خلال عصر رمسيس الثالث، شخص يدعى «أمون خعو»، ولقد تمت مكافأته على تفوقه فى أداء عمله، بتعيين ابنه المدعو جحوتى إم حب بوظيفة «رئيس عمال الصياغة بأملاك آمون[١٤٩]».

وفى نفس إطار هذا التدرج الوظيفى تجدر الإشارة أيضاً إلى إحدى الشخ... المهمة، وكان يحمل لقب «رئيس الضرائب» و «رئيس حظائر القطعان»، وفى ... الوقت كان مسئولاً عن عمليات تموين المعبد. وكان صهر «ثالث أنبياء آمون» ... ويدعى باك إن خنسو يشغل هذه الوظائف خلال عهد رمسيس الرابع (١٥٠)، ومن ... المنطلق كان يقوم بإدارة بعض الأملاك الزراعية المترامية الأطراف، لا تقل مسا... عن (٢٣٨٢٠٧) كيلومترات من الحقول والبساتين، كان رمسيس الثالث قد أهداها ... أملاك آمون خلال فترة حكمه (١٥١).

وخلال حكم رمسيس الثالث أيضاً، كان المعبد ما يزال يملك العديد من الأراض... الزراعية فى الفيوم وفى مصر الوسطى(١٥٢). وبالإضافة لذلك، ووفقاً لما ينص ع... القانون، ومثله مثل معظم المعابد المصرية(١٥٣)، كان المعبد يحظى بجزء من إنتا... الأراضى الخاصة ببعض الأفراد(١٥٤)، وبعدة مقصورات(١٥٥)، وببعض المعا... الصغيرة التى تضم عدة تماثيل للفرعون(١٥٦). ومع ذلك، كان يملك أيضاً، فى إطا... وادى طيبة، بعض البساتين والحدائق المثمرة، حيث يقوم العمال المتخصصون بإنتا... الزهور، والفاكهة، والخضراوات(١٥٧). وفى نفس الوقت، كانت الكروم، الواقعة خاص... عند «نهر الغرب»، أى الفرع الغربى للنيل بالدلتا، تقدم له ما يلزمه من نبيذ(١٥٨). وأخيراً، كان المعبد يحظى بقطيع(١٥٩) ضخم من المواشى، يتكون خاصة مما اغتنمه رمسيس الثالث فى حروبه ضد الليبيين فى أوائل فترة حكمه(١٦٠). وربما قد لا نستطيع تحديد مقداره بالنسبة لعدد الرءوس الإجمالى (٤٢١٣٦٢) الذى قدم لآمون خلال فترة الحكم(١٦١). ولكننا، مع ذلك نعلم أنه قد جُزِّئ إلى قطيعين، يرعيان ببعض الأراضى بمنطقة الدلتا : «قطيع أوسر ماعت رع مرى آمون فى ممتلكات آمون»، عند الفرع الأوسط للنيل، بجوار إحدى الضياع المعروفة باسم «أوسر ماعت رع مرى آمون الذى يأسر المتمردين»(١٦٢)، و«قطيع أوسر ماعت رع مرى آمون الذى هزم الماشواش»، على ضفاف «مياه رع»، أى فرع النيل الذى يغذى بر رمسيس بالمياه(١٦٣). وقد ألحق بالعمل فى نطاقهما أعداد ضخمة من العاملين، لا تقل عن ألف عامل، كان معظمهم من الأسرى الليبيين.

ولقد أمر رمسيس الثالث ببناء أسطول خاص من السفن المهيأة لشحن المواشى(١٦٤)، لنقل إنتاج تلك الأملاك المترامية الأطراف، وما يقدمه الملك من هبات وعطايا إلى المحال الفسيحة المدى التى تحيط بالمعبد. وكان هناك أيضاً ما يمكن أن يسمى «بمستودع الهدايا»، الذى يقع تحت إدارة «مدير المخزن» (١٦٥)، يساعده «كاتب مائدة القرابين»(١٦٦). وكان هذا المكان يضم فى جنباته المنتجات النادرة الثمينة مثل الملح والنطرون(١٦٧). وهناك، أقيم أيضاً مجزر لذبح الطيور وإعدادها؛ و«مستودع للغلال» غير مسقوف من أجل استيعاب الكميات الهائلة من الغلال اللازمة للشعائر ولمن يقومون بأدائها(١٦٨). وفى نطاق أماكن خاصة، كان المئات من العجانين والخبازين، وصناع الجعة(١٦٩)، والصناع الحرفيين، (يقوم بالإشراف عليهم ومراقبة حسن أدائهم بعض الكهنة الشعائريين(١٧٠)) يعملون يومياً على تحويل هذه المنتجات إلى أصناف غذائية وقرابين؛ وفى نفس الوقت يقوم البعض الآخر منهم بصيانة أو صناعة الأثاث المقدس.

ومن أجل إدارة شئون كل هذا الإنتاج، ولتيسير نقله، ولتحويل واستيعاب كل تلك المواد، ولضمان سلامة حفظها وتخزينها ثم توزيعها، وبمساعدة القوة البشرية التى يستوعبها مثل هذا العمل، كانت مدينة هابو، مثلها مثل أى مؤسسة مصرية أخرى تتضمن الكثير من المكاتب التى يعمل بها عدد هائل من الكتبة(١٧١). وحقيقة كان هناك الكثير من الكتبة الاعتياديين «البسطاء»، فى كافة مستويات هذه الإدارة، ولكن تجدر الإشارة خاصة إلى من يسمى «بكاتب القرابين الإلهية»، ومهمته الإشراف على إنتاج المواد الغذائية والمستلزمات الضرورية لأداء الشعائر(١٧٢). ويلاحظ أيضاً وجود «كاتب التسجيلات» يساعده فى أداء عمله «كاتب الأولاد» (ربما كانوا العاملين الجدد من الشباب بالمعبد(١٧٣))، يقوم بالإشراف على العاملين تحت سلطته(١٧٤). وكان هذا الموقع يستوعب أيضاً فى نطاقه أعداداً كبيرة من رجال الشرطة الفائقى الكفاءة، و«الجنود» الذين يخضعون لقيادة أحد «كبار الضباط»(١٧٥)، وجميعهم يوفرون الحماية والأمن اللازمين للمعبد ولممتلكاته.

٤ – دير المدينة (١٧٦)

لا شك أن الملوك الفراعنة يتشاركون مع عامة الشعب فى الرغبة فى بناء مقابرهم الخاصة، متى سنحت لهم الفرصة. ولكن، لا ريب أيضًا، أنهم كانوا يملكون الإمكانيات الضخمة الهائلة من أجل تحقيق تلك الرغبة. ففى الناحية الشمالية/ الغربية لمدينة هابو، بالمنطقة الصحراوية التى تفصل ما بين جبل طيبة وبين هضبة «قرنة مرعى»، تقع إحدى القرى التى بنيت بيوتها بالحجر، وتسمى «بقرية المقبرة»(١٧٧)، الشهيرة باسم «دير المدينة». ولقد تضمنت دير المدينة فى جنباتها، خلال عصر الدولة الحديثة بأكمله، جمعًا من العمال المكلفين بمهمة تنفيذ مقابر الفراعنة بمنطقة «وادى الملوك»، وأيضًا ببناء مقابر زوجات هؤلاء الملوك وأبنائهم فى «وادى الملكات». ولقد عرفت هذه الطائفة خاصة، بفضل آلاف الشقفات، خلَّفها وراءهم سكان هذه القرية. واعتبرت هذه المجموعة بمثابة مؤسسة مكلفة بتنفيذ أوامر الملك؛ أو بالتحديد، من أجل بناء «المقبرة المهيبة العظمى لملايين السنين للفرعون فى غرب طيبة»، أو باختصار شديد «المقبرة». وكانت هذه المؤسسة قد تكونت بأمر من أمنحتب الأول، فى أوائل الأسرة الثامنة عشرة. ثم قام حورمحب بإعادة تنظيمها بعد فترة العمارنة. وكانت تحظى بأراضى خاصة بها. وتستوعب داخل نطاقها الفسيح المدى نقاط الحراسة القائمة عليها، ودير المدينة، ووادى الملوك ووادى الملكات والطرق التى تربط بين هذه الأماكن(١٧٨).

كانت «مؤسسة المقبرة» هذه تعتبر من الناحية النظرية، بمثابة عالم مقفل على نفسه، أو بالأحرى، «العالم الباطنى» كما تصفه النصوص. ولقد برر هذا الانغلاق بالرغبة فى الاحتفاظ بسر موقع المقابر الملكية وبما تتضمنه من كنوز. وبذا، فقد اتخذت من أجل ذلك، عدة إجراءات تعسفية وصارمة لمنع أفرادها من الاتصال بالعالم الخارجى، بل ومنعهم أيضًا من مغادرة قريتهم ونواحيها القريبة(١٧٩)، إلا بتصريح رسمى. ولم تكن هذه القرية لتختلف كثيرًا عن أى سجن بكل معنى الكلمة. وبذا، فقد أحيطت بجدار عالٍ، لا يتضمن إلا بابًا أو بابين، يقفلان فور مغيب الشمس. وعند طرفها الشمالى، أى عند «فم الوادى»، الذى يتحدد حاليًا بواسطة أحد المعابد البطلمية، تقع إحدى نقاط الحراسة، ويقف عليها من يسمون بـ «حراس الأبواب»(١٨٠)،

وذلك لسد الطريق نحو الوادى فى اتجاه الرمسيوم. وعند طرفها الجنوبى، فى اتجاه مدينة هابو، توجد خمسة مراكز للمراقبة تقوم هى أيضًا بنفس مهمة الحراسة(١٨١). وخلاف ذلك، يقوم بعض المفتشين المنتمين إلى إدارة غرب طيبة، وهم الـ «آتو»، بمراقبة انضباط قواعد الأمن من الخارج(١٨٢). وفى نفس الوقت يقوم رجال الشرطة المحليون، أى الـ «مجاو»، الذين يتسمون بالعنف والشراسة، بدورياتهم حول المنطقة بأكملها(١٨٣)، للبحث عن أى مخالفين. ويضاف إلى هذه الضغوط الجسدية، بعض الضغوط النفسية: فإن كل عامل، عند التحاقه رسميًا بهذه الطائفة، يتحتم عليه القسم بأنه ملزم بأن يبلغ السلطات المختصة عن أى عمل أو قول من جانب زملائه يؤدى إلى إفشاء سر المقابر التى يشتركون فى بنائها أو ينال من سلامتها.

إذن، فقد كانت هذه المؤسسة تعتبر بمثابة «منطقة محرمة». ولكن «وادى الملوك» كان أكثر تحريمًا منها. وفوق أعلى مكان بالدير البحرى، على ذروة الطريق، الذى يؤدى من دير المدينة إلى الجبانة، تقوم إحدى نقاط الحراسة بمنع الاقتراب منعًا باتًا من تلك المنطقة. وعندما كانت الضرورة تستلزم وجود عمال للعمل فى وادى الملوك، كان يتحتم عليهم التوجه إليه فى هيئة مجموعات، تحت الرقابة المشددة؛ وهم ملزمون، خلال فترات العمل هذه، عند حلول الظلام، بأن يتوجهوا للنوم فى مساكن مجاورة لهذا الموقع. ولم يكن مسموحًا لهم باصطحاب أفراد عائلاتهم(١٨٤).

إدارة دير المدينة

كانت «مؤسسة المقبرة» تخضع للهيمنة العليا من جانب الملك. وكان يديرها من طيبة «وزير الجنوب». إنه هو الذى يحدد لها، بأمر من الفرعون المهام الواجب أداؤها، ويشرف على تنفيذها. ويقوم بهذا التفتيش إما بصفته الشخصية(١٨٥) أو يوكل عنه بعض المفتشين(١٨٦). ومع ذلك، فبسبب انعزاله الواضح، حظى فريق العمل بدير المدينة باستقلالية إدارية واسعة المدى. فقد كان ينقسم إلى قسمين «الأيسر» و«الأيمن»، يتضمنان العديد من الحجارين، والنحاتين، والرسامين. وبلغ عدد أفراده خلال حكم رمسيس الثالث حوالى (٤٠) فردًا. أى ما يعادل (٢٠) فردًا فى كل قسم، بخلاف أفراد أسرهم(١٨٧). وعلى قمة هذا الفريق توجد مجموعة مكونة من ثلاثة «رؤسا

للمقبرة»[١٨٨]، منهم، «رئيسان للفريقين»، وثالثهما هو «كاتب المقبرة». وعادة كان يوجد مساعد لكل رئيس من هذين الرئيسين[١٨٩]. وغالباً يكون المساعدون أبناء لنفس الرئيسين. ويقوم كل من الرئيسين بالإشراف على الإنجازات التقنية بالقسم الذى اختص به. أما عن «الكاتب»، فهو مكلّف بأعمال السكرتارية، ويتلقى أوامر الوزير، ويقدم له التقارير عن مدى تقدم الأعمال، ويبعث له، إذا لزم الأمر، بشكاوى العمال، وهو الذى يمسك بدفاتر الحسابات الخاصة بفريق العمل، ويشرف على كشف الحضور، ويسجل بكل دقة أسباب غيابهم. وأخيرا، وكما هو الحال فى كل مؤسسة مصرية، كان يقوم بتحرير ما يشبه التقرير اليومى المتضمن أوجه النشاط والأحداث التى تمر بذلك الفريق مثل: إحياء الأعياد، والاحتفال بتتويج أحد الملوك، أو مناسبة وفاة أحد العمال، إلخ إلخ. وإلى هذه المجموعة العليا المكونة من ثلاثة أفراد (الرئيسين والكاتب)، كان يضاف أحياناً، «رئيس لرسامى الفريق». وهنا يصبح رؤساء الفريق أربعة[١٩٠]. وفى دير المدينة أيضاً، كان يسرى مبدأ وراثة الوظائف، فى مختلف التدرجات. ولم يكن الأمر ليختلف مطلقاً عما هو عليه، على سبيل المثال فى مجال رجال الدين بالمعابد أو فى إطار الإدارات المدنية. وهنا كذلك كان المبرر الأساسى، هو انتقال الكفاءة والمقدرة من الأب إلى الابن بالوراثة. وبذا، فقد تتابعت أجيال وراء أجيال فى هذا الموقع، فتكون بذلك ما يمكن أن يسمى «بالأسرات» بكل ما تدل عليه الكلمة من معنى، أو بالتحديد «أسرات» من العمال، أو من الرؤساء أو الكتبة. وفى بعض الأحيان، إذا استدعى الأمر، تعمل حركة الترقيات على دعم الوظائف الخالية.

وربما أننا لا نعرف شيئاً عن رؤساء الرسامين سوى أسمائهم (حورى[١٩١] ونفرحتب[١٩٢]). ولكننا أحطنا علماً برؤساء فريق العمل بدير المدينة، خلال عهد رمسيس الثالث. فهناك، «هاى»، بن «أنحورخعو»، الذى استمر فى وظيفته حتى العام العشرين من الحكم، وكان قد استهلها عند بداية تولى مرنبتاح العرش. وكان «هاى» هذا يرأس البر الغربى. إنه سليل إحدى العائلات العريقة القدم[١٩٣]. وهو يعتبر ثالث فرد من سلالته يشغل هذه الوظيفة. وكان قد ولد فى أواسط فترة حكم رمسيس الثانى. وبذا، فقد كان، خلال عهد رمسيس الثالث، قد أصبح شيخاً جليلاً[١٩٤]. و قبيل موته، ورث وظيفته هذه لابنه، ويدعى أنحورخعو «الصغير»، وكان يعمل من قبل مساعدا

لوالده[١٩٥]. وعين له مساعداً يدعى «هاى»[١٩٦] أيضاً؛ واستمر فى وظيفته هذه حتى تولى رمسيس السابع العرش، ثم ورثها عنه أبناؤه وأبناء أبنائه حتى أواخر الأسرة. وبهذه الكيفية، وحتى ذاك التاريخ، نستطيع القول إن هذه العائلة قد احتفظت بتلك الوظيفة، دون توقف، طوال قرنين وأكثر.

ويعكس هذا الاستقرار الواضح المدهش، نجد أن وظيفة رئيس البر الشرقى، قد مرت، خلال حكم رمسيس الثالث بفترات «تصدع أسرى» واضح. وربما يتعلق ذلك بالأحكام القضائية التى كانت قد صدرت بخصوص إحدى القضايا الإجرامية، التى استمر تناولها ما يقرب من عشرين عاماً. ففى أوائل حكم سيتى الثانى، عثر على رئيس هذا الجانب، ويدعى «نفرحتب» بن «نب نفر»، وهو ثالث فرد من سلالته يحمل ذاك اللقب، مقتولاً بيد «بانب»، أحد العاملين، إثر مشاجرة وقعت بينهما. وانتهز القاتل فرصة الأحوال السياسية المتدهورة فى الدولة؛ بالإضافة إلى أنه كان يحظى بالحماية من بعض الجهات العليا، وتمكن من الاستحواذ على نفس وظيفة القتيل. وأثار ذلك ثورة واعتراض «آمون نخت»، الشقيق الأصغر للقتيل. فقد كان يعتقد أن هذه الوظيفة من حقه هو، بما أن أخاه الأكبر قد مات دون أن ينجب أبناء. ومن سوء حظ «بانب»، أن المدعو آمون نخت هذا كان يتميز بالإصرار والعناد. فإنه، عندما وجد أنه لم يستطع أن ينال حقه بالقانون، بالرغم من محاولاته العديدة فى هذا المجال،خلال الفترة الواقعة بين مقتل أخيه وبين أواخر الأسرة العشرين، فقد انتهز فرصة مجىء الأسرة الحادية والعشرين، وكتب عريضة اتهام ضد قاتل أخيه، وأرسلها إلى الوزير «حورى»[١٩٧]. وبالرغم من تصرف «بانب» المشين وبالإضافة إلى اقترافه لجريمة القتل، فإنه منذ أن تولى وظيفته قام باستغلالها أسوأ استغلال مرتكباً العديد من الانتهاكات ضد زملائه». فقد لوحظ أن «حورى» الرئيس الأعلى لمؤسسة الجبانة، لم يتبع حياله أية إجراءات لقمعه وردعه. والجدير بالذكر، أن «حورى» هذا، كان سياسياً داهية، استطاع، بشكل ما، أن يحتفظ بمنصبه كوزير منذ عهد سيبتاح وحتى حكم رمسيس الثالث، بالرغم من التغيير الأسرى الذى حدث. ولكن، عندما تغير رجال السلطة، وتلاشت حمايتهم عن المدعو «بانب»، هنا فقط، رأى الوزير حورى أن هذا الشخص، يجب أن يخضع لأحكام القضاء: فتم التحقيق معه، وأودع بالسجن، ونفذ

فيه الحكم بالإعدام، فى أول يوم من أول أشهر فصل «البرت» بالعام السادس من حكم رمسيس الثالث[١٩٨].

أما عن «آمون نخت»، الذى كان قد تقدم به العمر كثيراً، فإنه قد توفى بحسرته، لأنه لم يستطع أن ينال الوظيفة المرغوبة[١٩٩]. وبعد «بانب» تولى هذه الوظيفة أحد العاملين البسطاء ويدعى «نخ إم موت»[٢٠٠]، من مواليد منتصف حكم رمسيس الثانى. فلقد عين رئيساً للبر الغربى. وكان جده الأول يدعى «سن نجم» والذى عاش خلال حكم سيتى الأول. ولقد شغل نخ إم موت هذه الوظيفة حتى وافته المنية، فى العام الرابع عشر من حكم رمسيس الثالث[٢٠١]. ثم خلفه[٢٠٢] ابنه خونسو فى وظيفته[٢٠٣]. والجدير بالذكر أن ابنه هذا كان يعمل مساعداً له فى وظيفته قبل ذلك. وعندما تولى خونسو هذه الوظيفة، اتخذ أخاه الأصغر المدعو «آمون خعو»[٢٠٤] كمساعد له. وشغل وظيفته هذه حتى أواخر حكم رمسيس الثالث. ومن بعده، جاء ابنه ثم أحفاده، وهكذا حتى انتهاء عصر الرعامسة.

أما فيما يتعلق بكتبة هذه المؤسسة، فإن المصادر حتى العام السادس عشر من حكم رمسيس الثالث لم تتحدث عنهم إلا قليلاً. وعند هذا التاريخ، بعد أن كان قد شغل وظيفة «الكاتب»، هذه شخص يدعى «باى»[٢٠٥]، ثم من بعده من يدعى «ثاى»[٢٠٦]، والاثنان غير معروفين تماماً، عين بها الوزير «تو» خليفة «حورى»، رساماً يدعى «آمون نخت»، ابن عامل يدعى «إيوى»[٢٠٧].

ولا شك أن آمون نخت كان يكن له، لذلك، الكثير من الامتنان والاعتراف بالفضل. ولذا، فقد عمل على أن يجمع بين اسميهما من خلال العديد من النقوش البارزة التى تركها فى منطقة «جبل طيبة»، ومثله معه على بعض اللوحات بل وسمى أحد أبنائه التسعة باسمه[٢٠٨]. والجدير بالذكر أنه قد استمر فى وظيفته حتى عهد رمسيس السادس[٢٠٩]. وكان يكتب ما يشبه المذكرات اليومية، وبفضله، أحطنا علماً بموضوع الإضرابات التى وقعت فى دير المدينة خلال العام التاسع والعشرين من حكم رمسيس الثالث (الفصل السادس – ٢). وبعد وفاته، خلفه فى وظيفته ابنه الأكبر «حورى شيرى»، الذى جاء أبناؤه من بعده ليحملوا هم أيضاً لقب «كتبة المقبرة» حتى موعد تفكك هذه المؤسسة. ويرجع الفضل لأحفاد أحفاده، «جحوتى مس»، و«بوتيح آمون»، والكثير من أفراد عائلتهم، فى وضع ملف ضخم مكون من أكثر من خمسين

رسالة مفعمة بالتفاصيل وبالمعلومات الهامة عن تاريخ تلك الحقبة المضطربة المليئة بالقلاقل[٢١٠] والاضطرابات. وخلال الأسرة العشرين، بالعام الثالث عشر من حكم «سمندس»، ساهم «بوتيح آمون» فى عملية إصلاح مومياء رمسيس الثالث قبل نقلها إلى خبيئة الدير البحرى[٢١١].

لقد عرفنا، «الرؤساء الأربعة بالجبانة» الذين كانوا يسمون أحياناً «بالإداريين الأربعة بالداخل» (الرئيسين، والكاتب ورئيس الرسامين). ومع هؤلاء، يتطابق «أربعة إداريون للوادى»[٢١٢]، أو بالأحرى «للخارج»، يتكونون من «كاتبين ورئيسى شرطة غرب طيبة»[٢١٣]، وهم، «باك إن ورل» فى أوائل حكم رمسيس الثالث[٢١٤]، ثم خونسو إم حب، ثم هناك أيضاً مونتو مس خلال السنوات العشر الأخيرة من الحكم[٢١٥]. ويبدو أن «مونتو مس»، قد قام بدور هام فى إطار الإضرابات التى وقعت خلال العام التاسع والعشرين من الحكم؛ وقام، بعد مرور ثلاثة أيام، بإعلام العمال بوفاة رمسيس الثالث[٢١٦]. ووفقاً لقواعد غير واضحة المعالم تماماً، كان هؤلاء الموظفون الكبار، يجتمعون غالباً فى هيئة مجلس، هو «القنبت»[٢١٧] الذى كان يسمى أيضاً «بمجلس المراقبين»[٢١٨]. ويتمتع بصلاحيات واسعة المدى. فهو يستوعب فى إطاره وظائف مكتب تسجيل العقود، ووظائف مجلس التأديب والانتظام، ووظائف محكمة قضائية. وكان تكوين تلك المحكمة يختلف وفقاً لفداحة القضايا وأهميتها؛ وهى تصدر أحكامها مدنياً وفقاً «لقانون الفرعون»[٢١٩] ووحى أمنحتب الأول المؤله[٢٢٠]، فى النزاعات التى تحدث بين عمال دير المدينة[٢٢١] وبعضهم بعضاً، أو بينهم وبين سكان ضفة طيبة الغربية. وأحياناً، كان مساعدو الرؤساء، وكهنة القرية، ومفتشو غرب طيبة أو حتى بعض العمال البسطاء يقومون بدور القضاة أو يمثلون كشهود[٢٢٢]. وغالباً، كانت القضايا الخطيرة (التى تتعلق خاصة بأمن أو بسلامة المقابر الملكية) تستدعى حضور الوزير إلى المحكمة، وفى معيته بعض كبار موظفى الدولة، مثل حاكم طيبة والنبى الأول لآمون[٢٢٣]. بل وتحتم الضرورة أيضاً احتجاز أو استجواب المتهمين «بمكتب التحقيقات»، الذى يتضمن بعض القضاة[٢٢٤].

وعادة، كانت جلسات «القنبت» بدير المدينة تقام بمقر يقع ما بين هذه القرية وبين الرمسيوم، فى بعض المنشآت القائمة على «الحدود»، ما بين «المقبرة»، وبين العالم

الخارجى. وتتحدث عنها النصوص باعتبارها «مركز مراقبة المقبرة»(٢٢٥)، يقوم على حراسته عدد من المباشرين؛ ويعتبر هو، ومكتب محفوظاته، بمثابة المركز الإدارى للمؤسسة. ولكنه، كان أيضاً، يقوم بدور همزة الوصل الوحيدة الرسمية ما بين أفراد مجتمع دير المدينة فى «الداخل» وبين باقى مجتمع مصر، إنه المكان الذى يتقابل فيه رؤساء المجموعة الإدارية الخاصة بالوزير أو بمبعوثه؛ بل هو أيضاً المكان الذى يتيح للعمال فرصة استقبال أصدقائهم أو أقربائهم الذين يعيشون بعيداً عن مجتمع دير المدينة. وهناك، كان من الممكن أيضاً إبرام العقود مع بعض الأفراد؛ بل والاجتماع كذلك لقضاء بعض الوقت وتناول المشروبات. وفى ذاك الموقع، كانت توجد عدة محال وأماكن خاصة بتخزين المنتجات والمواد التى تورد بصفة دورية إلى هذا المركز قبل توزيعها على الطاقم القائم به. ويتكون هذا الطاقم خاصة من العمال الحرفيين؛ ويكاد يكون منعزلاً فى حدود مكانه النائى هذا؛ وبذا، فهو يعتمد أساساً، من أجل إعاشته وتنفيذ أعماله، على نظام تموينى مركب للغاية.

رعاية العمال

من أجل سد احتياجات دير المدينة، كانت «مجموعة السخرة»، وتسمى «سمدت»، المكلفة رسمياً بخدمتها، تقوم كل يوم بإحضار حصص معينة من المياه والخضراوات، و الأسماك، وحطب الطهى، والجص، والألوان، وفتيلات المصابيح ومختلف الأدوات الأخرى. وتتكون هذه الـ«سمدت» من حوالى ثمانين عضواً. ومثلها مثل مجموعة العمال، قسمت إلى قسمين، وكان يهيمن عليها «كتاب الخارج»(٢٢٦) (وأكثرهم شهرة خلال حكم رمسيس الثالث هم : ون نفر(٢٢٧)، وحورى(٢٢٨)، وآمون نخت، وعخبت(٢٢٩)). وعادة، كان أفرادها يتمتعون باستقلالهم ولكنهم ملزمون، بسد متطلبات عمال «المقبرة». ومنهم نجد البستانيين(٢٣٠)، والمزارعين، والصيادين(٢٣١)، وحمالى المياه(٢٣٢) أو المواد الأخرى(٢٣٣)، والحطابين(٢٣٤)، وغسالى الملابس(٢٣٥)، وجامعى البلح والفخرانيين(٢٣٦). وفى نطاقهم أيضاً، توجد فئة أكثر تخصصاً مثل: الحدادين(٢٣٧)، والأطباء(٢٣٨). وبخلاف كل هذه المؤن، كان فريق دير المدينة يتلقى يومياً مقادير من الجعة، والخبز، والفطائر التى يقدمها «جهاز التموينات الملكية» فى طيبة والمعابد الجنازية المجاورة لدير المدينة. وفى بعض الأحيان، كان يضاف إلى

كل ذلك، كميات من الملابس تبعث بها بعض الفروع المنبثقة من «الخزانة الملكية» بطيبة، القائمة غالباً بساحة معبد مونتو بشمال الكرنك (الفصل الخامس -٢). وبالإضافة إلى ذلك، كانت تقدم بعض المنح والهبات الاستثنائية، التى توهب بمناسبة الأعياد، مثل عيد سوكر، أو عندما يريد الملك أن يعبّر عن رضائه بالنسبة لبعض الأعمال التى تم إنجازها(٢٣٩).

ومع ذلك، فإن الوقت الذى كان ينتظره العمال بفارغ الصبر هو نهاية الشهر. فهنا، كانوا يتلقون، بخلاف كل هذه الهبات والعطايا أجراً عينياً يسمح لهم بإعالة عائلاتهم. ويتكون هذا الأجر عادة من نوعين متباينين من الحبوب : قمح وشعير، يصنع منهما على التوالى، الخبز والجعة. ولم يحدد إجمالى هذا الأجر تحديداً دقيقاً. وربما كان متوسطه فى أفضل الأحوال، عبارة عن أربع زكائب من الحبوب يصل وزنها إلى حوالى (٧٧) لتراً لكل «رئيس»؛ وزكيبتين من أجل «الكاتب»، وزكيبة واحدة لكل عامل من العمال البسطاء(٢٤٠).

وعموماً، ومهما كان الأمر، فإن عدم توخى المساواة والعدل فى تسديد هذا الأجر الشهرى، قد أدى فى النهاية، خلال العام التاسع والعشرين من حكم رمسيس الثالث، إلى حدوث أول إضراب عرفه تاريخ البشرية كلها (الفصل السادس -٢). فإن الحبوب التى يتضمنها هذا الأجر كانت تأتى من الفرع المنبثق من «مخازن غلال الفرعون» بطيبة، الواقعة بساحة معبد «مونتو» بالكرنك، مثل «خزانة الفرعون»، حيث كانت تجمع من نفس أراضيها. وفى اليوم المحدد، تقوم «مخازن غلال الفرعون» بتوريد الكمية المطلوبة إلى موقع «مركز المراقبة بالمقبرة»، حيث كانت تكيل وتوزن قبل توزيعها. وكان بعض مساعدى الرؤساء أو الكتبة العاملين فى «مخازن غلال الفرعون» هذه يقومون بالإشراف أحياناً على هذه العملية(٢٤١). وفى العام السابع عشر من حكم رمسيس الثالث، اكتشف الرؤساء بدير المدينة، أن المكيال المستعمل من أجل تقدير الكميات لم تكن تتوافر به الخصائص اللازمة، وطالبوا بتغييره(٢٤٢).

وفى أغلب الأحيان، كان العمال يقتصدون جزءاً من هذه الغلال، للحصول عن طريق المقايضة على أنواع أخرى من الحبوب أو من أجل الحصول عن طريق

المقايضة على بعض مواد الصناعة، يحتفظون بها أو يبيعونها ثانيا لتحقيق ربح بسيط[٢٤٣]. وبهذا، فهم قد يستطيعون، خلال بضع سنوات، أن يصبحوا فى بسطة من العيش. بل إن البعض منهم قد يستطيع استزراع مساحات من الأراضى لحسابه فى ذلك السهل. والبعض الآخر كان يمكنه شراء بضعة حمير يقوم بتأجيرها لزملائه أو لأعضاء الـ«سمدت». وأخيرا. فهناك من كان يحاول الاستفادة من كفاءته المهنية، فيقيم بجوار القرية، مقبرة خاصة له مزخرفة بأجمل الزخارف. ولكن الإنسان لا يعيش بالخبز فقط. وبذا، فقد تراءت، بجوار كل ذلك، مع التقدم الاجتماعى الملحوظ، رغبة واضحة فى التثقف والتعلم. وبدا ذلك شديد الوضوح بوجه خاص لدى الكتبة، فقد أوصى بعضهم بأن يدفنوا ومعهم كتبهم المفضلة: كلاسيكيات الآداب المصرية، ونصوص عن معركة قادش، ونصوص شعرية وشعائر دينية[٢٤٤]، الخ، الخ،...

العمل والإجازات

وفقاً لنصوص التقويم المصرى، تنقسم السنة إلى عدد من الفترات، تتكون كل فترة منها من عشرة أيام. وكان العمل بدير المدينة يمضى على مدى ثمانية أيام متتالية (ويستمر العمل ثمانى ساعات يوميًا) يتبعها يومان راحة[٢٤٥]. وكما بينا آنفًا، يرتكز هذا العمل أساساً على تنفيذ المقابر التى يأمر الملك بتشييدها، بداية من أعمال الحفر وحتى أعمال الزخرفة النهائية. ولكن كانت هناك أيضا صناعة الأدوات اللازمة للعمل وصيانتها و إصلاحها. أما عن الأثاث الجنازى، فقد كانت تتم صناعته فى الورش الملكية، خارج مؤسسة «دير المدينة». وفى إطار هذا العمل، تجدر الإشارة إلى أعمال تغيير مقبرة «تاوسرت»، بوادى الملوك من أجل «ست نخت» (المقبرة رقم ١٤). وخلال عهد رمسيس الثالث أنجزت إنجازاً تاما حوالى ثمانى[٢٤٦] مقابر. وتطلبت الضرورة أيضاً، أن يقوم العمال بتكملة مقبرة لرمسيس الثالث، كان العمل قد بدأ فيها من أجل أبيه قبل وفاته (المقبرة رقم١١). كما تم أيضًا، حفر مقبرة إضافية، لأحد أبنائه (المقبرة رقم٣). وفى وادى الملكات، شيدت خمس مقابر من أجل أبنائه الآخرين (مقابر رقم٤٢-٤٣-٤٤-٥٣-٥٥). ولقد تم حفر وزخرفة هذه المقابر الخمس، وفقاً لطراز فريد وغير دارج. ويضاف إلى كل هذه الأعمال: إعداد وبناء العديد من المقابر التى لم يتم اكتشافها حتى الآن أو التى هدمت ودمرت؛ ومنها مقابر الملكات أو بنات

الملك، ومقابر بعض أبنائه الآخرين، التى لا نعرف عنها شيئا سوى ما ذكرته النصوص. ومع ذلك، ففى الأوقات التى كان لا يجرى فيها أى عمل محدد، كان من الممكن استدعاء العمال من أجل عمليات أخرى. ولذا، وعلى ما يبدو، فإن الحجارين بدير المدينة، قد ساهموا فى الحملة التى كانت قد أوفدت لاستحضار كتل الحجر الرملى لبناء «مدينة هابو»، خلال العام الخامس من الحكم. ثم قاموا بحفر البئر الكبيرة التى تقع شمال دير المدينة. وعند العام الخامس عشر وبعد مرحلتين من العمل الضخم، وصل عمق هذه البئر إلى حوالى(٢٢,٥٠) متر. بل ولقد استمر العمل فى تعميقها حتى تولى رمسيس السادس العرش[٢٤٧]. وفى نهاية الأمر، توقف العمل بها بعد أن كان عمقها قد وصل إلى حوالى (٥٢) متراً. ولم تستعمل أبداً للغرض الذى حفرت من أجله. بل لقد ردمت فى العصر البطلمى بسبب الأحجار المتناثرة من أطلال القرية التى كانت قد خلت من سكانها منذ أمد بعيد. وفى الفترة الواقعة ما بين عامى ١٩٤٨، ١٩٥١، عثر فى أعماقها على ما لا يقل عن (٥٠٠٠) شقفة أثرية[٢٤٨].

وربما لا تكون المعالجة الخاصة بالحياة فى دير المدينة خلال حقبة الملوك الرعامسة كاملة تماماً، لو أننا أغفلنا ذكر مدى أهمية المعتقدات والعبادات فى نطاقها. ففى إطار هذا المجتمع الصغير، كان هناك العديد من الاحتفالات الدينية، التى تتطلب بالتالى، التوقف عن العمل فى مناسباتها. فهناك، على سبيل المثال، احتفالات سوكر، وموعدها فى أوائل أشهر فصل الاخت . وتوجد أيضا أعياد حتحور، فى الشهر الرابع من فصل البرت، وهى تعد من الأعياد الرئيسية. ولكن، يلاحظ، أن الاحتفالات الخاصة بأمنحتب الأول المؤله[٢٤٩]، موسس ورب المؤسسة، والتى كانت تقام فى الشهر الثالث من فصل البرت، كانت تفوق الأعياد كلها فى مظاهر الورع والفخامة. بل لقد خلد ذكرى أمنحتب الأول المؤله حتى يومنا هذا من خلال اسم الشهر القبطى بؤونة، الذى يتراءى فيه التعبير المصرى القديم «بأمنحتب» أى (شهر «أمنحتب»). ويتضمن دير المدينة العديد من المعابد الصغيرة، يقوم بعض الكهنة المحليين بتأدية المراسم فى نطاقها. ففى الناحية الجنوبية، ما بين القرية ووادى الملكات وتسمى بالمصرية القديمة «تاست نفرو»[٢٥٠]، كانت توجد «القصور الإلهية المجاورة لها»، وهى معابد صخرية أقيمت من أجل «بتاح»، إله العمال الحرفيين، ومن أجل الربة

المحبة «مرت سجر» التى تجسد قمة جبل طيبة، الذى يعيش العمال تحت رعايتها وحمايتها(٢٥١). وفى الناحية الشمالية، فى نفس المكان الذى يقع فيه المعبد البطلمى الحالى، كانت توجد مجموعة من المعابد الصغيرة، أقيمت خلال الأسرة التاسعة عشرة. وكانت تؤدى بها بعض العبادات الأخرى، أهمها، هى عبادة «حتحور حور محيته» - أى «ربة الشمال»(٢٥٢)، وكان هناك أيضا عبادة أمنحتب الأول(٢٥٣)، الذى ذكر آنفا، وكان وحيه الخاص يقوم بفض النزاعات بين العمال(٢٥٤)، ويقوم كهنته بمهمة الشهود عند تحرير الوصايا(٢٥٥). بل وتوجد أيضاً عبادة خاصة بأمه «أحمس- نفرتارى» وعبادات لآمون والعديد من الملوك المؤلهين. وتبين الكثير من النصوص، خلاف ذلك، عن الورع الفردى من جانب العمال إزاء بعض الآلهة الأخرى، الأسيوية الأصل، مثل «عنات» و «قادش» و «رشب». ولكن لا ريب مطلقًا أنهم كانوا يكنون تقديساً وتبجيلاً من أعماق قلوبهم للأجداد الأوائل العظام. فيمارسون عبادتهم لهم من خلال بعض تماثيلهم التى يحتفظون بها فى منازلهم.

٥- المقبرة الملكية (٢٥٦)

حالما يرتقى أى فرعون من الرعامسة العرش، تتشكل لجنة خاصة يرأسها وزير الجنوب شخصياً، وتتوجه إلى وادى الملوك، الذى يبعد بحوالى كيلومترين من مدينة هابو، من أجل اختيار المكان الذى تقام به المقبرة الملكية الجديدة. والجدير بالذكر، أن المقبرة تعتبر بمثابة المكان الذى يصعب الوصول إليه، أما المعبد فهو المكان العام. وتوكل مهمة إنشائهما إلى مؤسسة دير المدينة. وبالنسبة للفرعون رمسيس الثالث، لم يتطلب ذلك جهداً كبيراً. فقد اقتصر الأمر على مجرد تخصيص المقبرة رقم (١١) بوادى الملوك من أجله، وكانت مخصصة من قبل من أجل «ست نخت»، ولكنه لم يشغلها. فقد كانت فترة حكمه قصيرة الأجل. ومات، ولم تكن تلك المقبرة قد انتهت بعد (الفصل ١-٣).

إنها تقع تقريبًا فى منتصف وادى الملوك ويتجه محورها من الشمال إلى الجنوب. ويقع مدخلها ناحية الشمال. ولا يقل طولها عن (١٢٥) مترا. وبهذا، فهى تعتبر، عن جدارة، من أكبر مقابر تلك الجبانة. ولقد عرفت، لفترة طويلة الأمد، بأسماء غير مستعملة مطلقا فى الوقت الحالى: «مقبرة عازف القيثار» أو «مقبرة

بروس»: اسم المستكشف الإسكتلندى «جيمس بروس»، الذى زارها عام ١٧٦٨ خلال إحدى رحلاته إلى منابع النيل، وقام فى العام ١٧٩٠، من خلال سرد لمغامراته وجولاته، بتجسيد شكل عازفى القيثار اللذين كانا يزينان بعض جدرانها(٢٥٧). بل لقد جسدهما بشكل مغالٍ فيه يكاد يقترب من الفانتازيا. وبالرغم من أن هذه الأشكال والصور كانت تناقض الحقيقة، فإنها، بالرغم من ذلك، قد أثارت خيال الأوروبيين لأمد طويل. بل لقد عملت على جذب العديد من السياح إلى وادى الملوك، خلال القرن التاسع عشر.

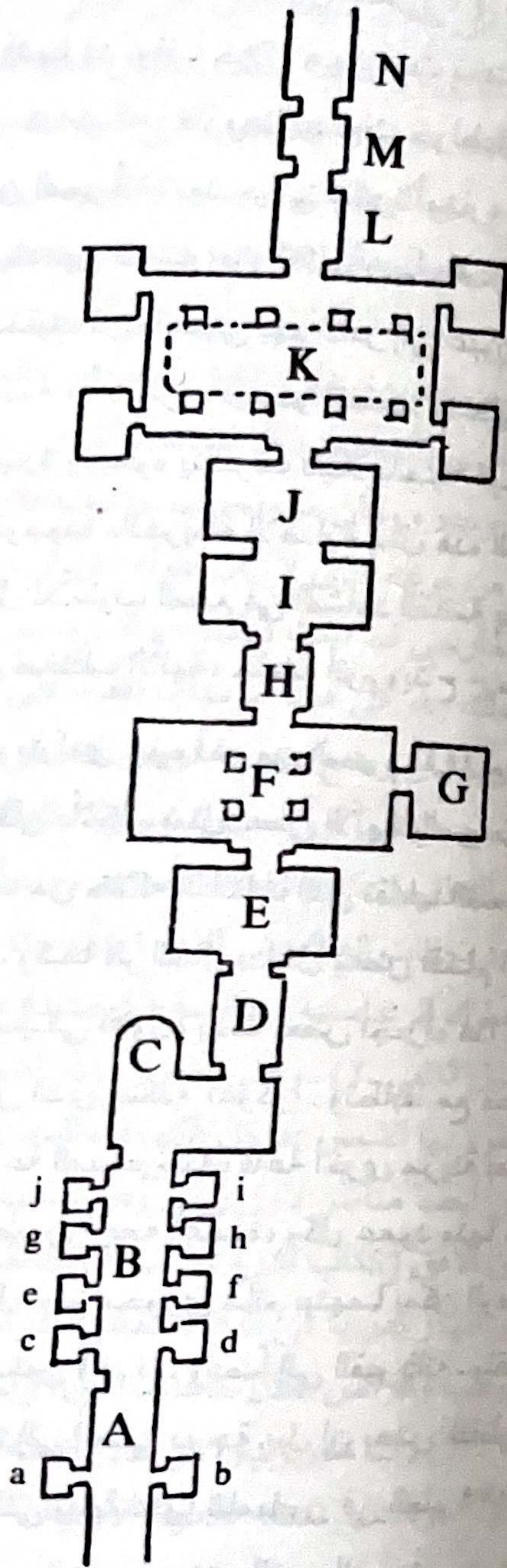
ويحدد مدخل مقبرة رمسيس الثالث هذه، من الخارج، بواسطة سلم ذى حاجز، تعتليه من كلا الجانبين نقوش بارزة تمثل رأسى بقرة مثبتتين فوق وتدين، ترمزان إلى الإلهة حتحور، التى تجسد الجبانة. وبعد باب المقبرة، يتراءى، ممر طويل، ينقسم إلى عدة أجزاء بواسطة بعض الأطر الخالية من الأبواب. ويلاحظ، أن الجزء الأول ينحدر انحدارا هيناً (A)، وزين بالزخرفة التقليدية التى تمثل مردة وشياطين العالم الجنازى، وبالنص الخاص «بصلوات رع» التى تعدد من خلاله تجليات إله الشمس الـ(٧٤). وبجوار المدخل، توجد حجرتان صغيرتان (كل واحدة منهما على إحد جانبى الممر). وهما فى حد ذاتهما تمثلان نموذجا غير مسبوق فى نطاق وادى الملوك: فإننا نجد أن التى على اليسار، تتضمن مناظر تمثل الخبازين، والجزارين، والطباخين، أثناء تجفيفهم لبعض الأسماك، أما التى على اليمين، فهى تتضمن مناظر تمثل موكباً ملاحياً (b).

وبعد تخطى أحد الأبواب، نجد أن الأرض قد أصبحت أفقية، وأن الجزء الثانى من الممر (B) قد زين بنص «ابتهالات رع»، وبأشكال لبعض الكروم. وتتلاقى كلها عند شكلين لإيزيس ونفتيس، وهما تستقبلان الملك المتوفى المتمثل فى أوزيريس. ويبدو هذا الجزء أيضا وقد تراصت على كل من جانبيه أربع حجرات يتطابق حجمهما مع الحجرتين القائمتين عند مدخل المقبرة. كما تبدو زخرفتهما فريدة وغير تقليدية. فيلاحظ أن الحجرتين الأوليين الواقعتين على اليسار قد زخرفتا بأشكال تمثل موكباً من مردة الإخصاب، أو بالتحديد يمثلون مدن وأقاليم مصر الرئيسية (e ، c). أما الحجرتان اللتان تواجهانهما من الجانب الآخر بالممر، فهما تتضمنان بعض المناظر التى تظهر كمًا من الأسلحة مكدسة فوق بعضها بعضا (عصى للقذف، أقواس،

ودروع، الخ...)، وكميات من جلود النمور والأوانى (f . d) . وعن كلتا الحجرتين
التاليتين، الواقعتين على كلا الجانبين، فقد زخرفتا بأشكال لكروم مقتبسة من الفصل
(١١٠) و (١٤٨) من «كتاب الموتى». وأخيراً، ففى الحجرة الأخيرة بصف الحجرات
الواقعة على اليسار، نشاهد عازفى القيثار الشهيرين الذين تحدث عنهما «بروس» (I)،
وهما يعزفان على آلاتهما الموسيقية أمام الآلهة آتوم، وشو، وأنوريس، ورع حور
آختى. أما فى الحجرة التى تواجهها، فترى بعض أشكال لأوزيريس (j) .



شكل يمثل عازف القيثار بمقبرة رمسيس الثالث



خريطة لمقبرة رمسيس الثالث بوادى الملوك

بعد ذلك، نرى باباً مؤدياً لجزء آخر من الممر (c). وعند هذا المستوى يبدو
حفر المقبرة وزخرفتها قد توقف خلال عهد «ست نخت». فحتى هذا المكان فقط
كانت تتراءى بعض خراطيشه، هنا وهناك، تحت خراطيش رمسيس الثالث. وأهم ما
يتسم به هذا الجزء من الممر أنه، بعد حوالى عشرة أمتار، يتحول إلى طريق مستو.
فعلى ما يبدو، أن المهندسين المعماريين القائمين ببناء المقبرة قد خشوا من الاستمرار
فى حفره فى خط مستقيم، فربما انتهى بهم الأمر إلى عبور الجدار الذى يفصله عن
المقبرة المجاورة الخاصة «بأمنمس»، فيجدوا أنفسهم بداخلها. ولذا، فقد غيروا اتجاه
المحور الرئيسى للمقبرة وجعلوه ينحرف قليلاً ناحية اليمين. وهيأوا بذلك قاعة
مستعرضة لم تكن موجودة بالخريطة الأصلية لمثل هذه المقبرة التقليدية. وزينت
جدرانها، بأسلوب مماثل للأسلوب المتبع فى المشاهد القائمة بمدينة هابو: بمناظر تمثل
الملك وهو يقدم القرابين لمختلف الآلهة، خاصة أتوم وبتاح - سوكر - أوزيريس.

وفى إثر هذه القاعة، يتراءى جزء آخر من الممر (D)، ثم قاعة مستعرضة أخرى
(E). ولقد زينت القاعتان بأشكال تمثل بعض الآلهة ونص من «كتاب الأمدوات» -
وهو نص فلكى - توصف من خلاله الكائنات التى تقابلها الشمس خلال رحلتها الليلية
فى العالم الآخر السفلى. وكما هو الحال بداخل بعض أقسام المقابر الأخرى بوادى
الملوك، بداية من حكم سيتى الأول، بدت بعض أجزاء هذا الكتاب، وهى تصف
الكهف القائم أسفل الأرض الذى يسكنه «سوكر». وتطابقاً مع معظم المقابر التى سبق
أن ذكرناها، نجد، بعد القاعة المستعرضة، قاعة أخرى مزينة بمشاهد الكروم مقتطفة
من «كتاب البوابات»، تتضمن أربعة أعمدة، وكل عمود منها مزين بمشاهد تقديم
بعض القرابين. ومن خلال سلم محورى قائم بينهما يمكن الوصول إلى بهو (H)،
يؤدى إلى قاعتين مستعرضتين (i ، j)، وأيضاً إلى القبو ذاته. ولقد بدت الزخرفة فى
كافة هذه الأجزاء متدهورة إلى أقصى درجة. بل إن بعض مناظرها لم تعرف حالياً
إلا من خلال بعض النسخ التى نقلها عنها شامبليون فى العام ١٨٢٩. ولم تتبق سوى
أجزاء قليلة من مناظر الطقوس الخاصة «بفتح الفم»، التى يتم من خلالها، عن طريق
السحر، إنعاش المومياوات قبل دفنها، وبعض مقتطفات من «كتاب الموتى».

وبالنسبة للقاعة المتضمنة للقبو (k)، فقد نحتت فى الصخر، على غرار مقبرة
أوزيريس، وقد عرفنا شكله من خلال مثيله الذى كان سيتى الأول قد أمر ببنائه فى
أبيدوس، خلف معبده الجنازى. وللقاعة سقف مقوس مثل السماء تحمله ثمانية
أعمدة مربعة الشكل. وكانت ما تزال تتضمن، فى أوائل القرن الماضى، التابوت
العملاق الضخم المصنوع من الجرانيت الوردى الخاص برمسيس الثالث (٢٥٨).
ويبدو وعاؤه على هيئة خرطوش ملكى، زينت جدرانه ببعض النصوص والمناظر
الدينية (كتاب الإمدوات، وكتاب البوابات، وأشكال لإيزيس ونفتيس(٢٥٩)). ولقد تم
إخراجه بصعوبة فائقة من المقبرة عام ١٨٢٠. وقام بهذا العمل المغامر «بلزونى»
لحساب «هنرى سالت»، الذى باعه بعد ذلك لمتحف اللوفر. أما عن غطائه، فقد تم
اكتشافه بعد ذلك بوقت وجيز، وكان من نصيب متحف فتزوليام بكمبردج (٢٦٠).
ويبدو هذا الغطاء الفريد من نوعه الذى لا يقل طوله عن أربعة أمتار، شبيها بالغطاء
الذى أقفل به التابوت الخارجى لـ «ست نخت»، والد رمسيس الثالث(٢٦١). وقد حفر
عليه نقش بارز يمثل الملك وهو فى هيئة مومياء، تقف على جانبيه إيزيس ونفتيس؛
وقد ثُبتت على رأسه ريشتان وضع بينهما قرص الشمس، فوق قرنين فى وضع
أفقى؛ وأمسك بيديه المتصالبتين فوق صدره بشاراته الملكية. ويتراءى هذا النقش
البارز وكأنه قد انبثق بالفعل من كتلة الغطاء الحجرى، ويتطابق الملك المتوفى ببتاح
سوكر- أوزوريس، أحد تجليات إله الموتى الذى تعبده منف. ولقد عرفنا سابقا، أن
عبادته قد طبقها الملوك الرعامسة، خاصة فى مدينة «هابو» من أجل طقوسهم
الجنازية. (سابقاً الفصل الثانى -٢). وعلى جدران هذا القبو، تبدو بعض مناظر هذه
الرحلة الليلية التى تقوم بها الشمس بداخل الكهوف السفلية فى العالم الآخر (كتاب
الكهوف). كما تبين أيضاً مناظر لأوزوريس وهو يستيقظ عند مرورها عليه، ثم
مشهداً لانبثاقها من الأفق (كتاب آكر) وظهورها متألقة فى الفجر. ويشاهد فوق
الجدار الأيمن، الذى انهار تقريبا فى الوقت الحالى، قرص الشمس وقد أحاطت به
بعض الإلهات، وكواكب وأقراص تمثل ساعات الليل؛ وأحاطت به حية؛ وقد تضمن
اسم رمسيس الثالث : «أن رب هليوبوليس هو الذى أنجبه». ويعتبر ذلك بمثابة إيماءة
إلى تماثل الملك بالإله، وبالتالى تمتعه بالحياة الأبدية (٢٦٢).

بعد ذلك، نرى باباً مؤدياً لجزء آخر من الممر (c) . وعند هذا المستوى يبدو أن حفر المقبرة وزخرفتها قد توقف خلال عهد «ست نخت» . فحتى هذا المكان فقط كانت تتراءى بعض خراطيشه، هنا وهناك، تحت خراطيش رمسيس الثالث. وأهم ما يتسم به هذا الجزء من الممر أنه، بعد حوالى عشرة أمتار، يتحول إلى طريق مسدود. فعلى ما يبدو، أن المهندسين المعماريين القائمين ببناء المقبرة قد خشوا من الاستمرار فى حفره فى خط مستقيم، فربما انتهى بهم الأمر إلى عبور الجدار الذى يفصلهم عن المقبرة المجاورة الخاصة «بأمنمس»، فيجدوا أنفسهم بداخلها. ولذا، فقد غيروا اتجاه المحور الرئيسى للمقبرة وجعلوه ينحرف قليلاً ناحية اليمين. وهيأوا بذلك قاعة مستعرضة لم تكن موجودة بالخريطة الأصلية لمثل هذه المقبرة التقليدية. وزينت جدرانها، بأسلوب مماثل للأسلوب المتبع فى المشاهد القائمة بمدينة هابو: بمناظر تمثل الملك وهو يقدم القرابين لمختلف الآلهة، خاصة أتوم وبتاح – سوكر – أوزيريس.

وفى إثر هذه القاعة، يتراءى جزء آخر من الممر (D)، ثم قاعة مستعرضة أخرى (E) . ولقد زينت القاعتان بأشكال تمثل بعض الآلهة ونص من «كتاب الأمدوات» – وهو نص فلكى – توصف من خلاله الكائنات التى تقابلها الشمس خلال رحلتها الليلية فى العالم الآخر السفلى. وكما هو الحال بداخل بعض أقسام المقابر الأخرى بوادى الملوك، بداية من حكم سيتى الأول، بدت بعض أجزاء هذا الكتاب، وهى تصف الكهف القائم أسفل الأرض الذى يسكنه «سوكر» . وتطابقاً مع معظم المقابر التى سبق أن ذكرناها، نجد، بعد القاعة المستعرضة، قاعة أخرى مزينة بمشاهد الكروم مقتطفة من «كتاب البوابات»، تتضمن أربعة أعمدة، وكل عمود منها مزين بمشاهد تقديم بعض القرابين. ومن خلال سلم محورى قائم بينهما يمكن الوصول إلى بهو (H)، يؤدى إلى قاعتين مستعرضتين (i ، j)، وأيضاً إلى القبو ذاته. ولقد بدت الزخرفة فى كافة هذه الأجزاء متدهورة إلى أقصى درجة. بل إن بعض مناظرها لم تعرف حالياً إلا من خلال بعض النسخ التى نقلها عنها شامبليون فى العام ١٨٢٩ . ولم تتبق سوى أجزاء قليلة من مناظر الطقوس الخاصة «بفتح الفم»، التى يتم من خلالها، عن طريق السحر، إنعاش المومياوات قبل دفنها، وبعض مقتطفات من «كتاب الموتى».

وبالنسبة للقاعة المتضمنة للقبو (k)، فقد نحتت فى الصخر، على غرار مقبرة أوزيريس، وقد عرفنا شكله من خلال مثيله الذى كان سيتى الأول قد أمر ببنائه فى أبيدوس، خلف معبده الجنازى. وللقاعة سقف مقوس مثل السماء تحمله ثمانية أعمدة مربعة الشكل. وكانت ما تزال تتضمن، فى أوائل القرن الماضى، التابوت العملاق الضخم المصنوع من الجرانيت الوردى الخاص برمسيس الثالث [٢٥٨] . ويبدو وعاؤه على هيئة خرطوش ملكى، زينت جدرانه ببعض النصوص والمناظر الدينية (كتاب الإمدوات، وكتاب البوابات، وأشكال لإيزيس ونفتيس[٢٥٩]) . ولقد تم إخراجه بصعوبة فائقة من المقبرة عام ١٨٢٠ . وقام بهذا العمل المغامر «بلزونى» لحساب «هنرى سالت» الذى باعه بعد ذلك لمتحف اللوفر. أما عن غطائه، فقد تم اكتشافه بعد ذلك بوقت وجيز، وكان من نصيب متحف فتزوليام بكمبردج [٢٦٠] . ويبدو هذا الغطاء الفريد من نوعه الذى لا يقل طوله عن أربعة أمتار، شبيها بالغطاء الذى أقفل به التابوت الخارجى لـ «ست نخت»، والد رمسيس الثالث[٢٦١] . وقد حفر عليه نقش بارز يمثل الملك وهو فى هيئة مومياء، تقف على جانبيه إيزيس ونفتيس؛ وقد ثُبتت على رأسه ريشتان وضع بينهما قرص الشمس، فوق قرنين فى وضع أفقى؛ وأمسك بيديه المتصالبتين فوق صدره بشاراته الملكية. ويتراءى هذا النقش البارز وكأنه قد انبثق بالفعل من كتلة الغطاء الحجرى، ويتطابق الملك المتوفى ببتاح سوكر – أوزوريس، أحد تجليات إله الموتى الذى تعبده منف. ولقد عرفنا سابقا، أن عبادته قد طبقها الملوك الرعامسة، خاصة فى مدينة «هابو» من أجل طقوسهم الجنازية. (سابقاً الفصل الثانى-٢) . وعلى جدران هذا القبو، تبدو بعض مناظر هذه الرحلة الليلية التى تقوم بها الشمس بداخل الكهوف السفلية فى العالم الآخر (كتاب الكهوف) . كما تبين أيضاً مناظر لأوزوريس وهو يستيقظ عند مرورها عليه، ثم مشهداً لانبثاقها من الأفق (كتاب آكر) وظهورها متألقة فى الفجر. ويشاهد فوق الجدار الأيمن، الذى انهار تقريبا فى الوقت الحالى، قرص الشمس وقد أحاطت به بعض الإلهات، وكواكب وأقراص تمثل ساعات الليل؛ وأحاطت به حية؛ وقد تضمن اسم رمسيس الثالث : «أن رب هليوبوليس هو الذى أنجبه» . ويعتبر ذلك بمثابة إيماءة إلى تماثل الملك بالإله، وبالتالى تمتعه بالحياة الأبدية [٢٦٢] .

الفصل الرابع

حروب على مدى عشر سنوات

إن الفرعون، هو من أنابه آمون رع من أجل الحفاظ على نظام الخلق فوق
الأرض. وبهذا، نجد أن الحروب، وفقاً لأيديولوجية الدولة الحديثة التى عمل تطوره
وازدهارها على دعم وتقوية فتوحات مصر خارج حدودها، كانت بالنسبة للفرعون
بمثابة أمر جوهرى وأساسى إنه الملك، هو الذى يقوم «بحماية مصر ويخضع البلاد
الأجنبية» (إتى مك كمت أوعاف خاسوت)(١). فهذا هو أحد عناصر الألقاب الخاصة
برمسيس الثانى الذى اقتبسه منه رمسيس الثالث؛ وهو يعبر تماماً، عن اهتمام الملك
منذ بداية توليه العرش، بهذا «الالتزام المحتدم».

ولاشك أن كثيراً من الأحداث التاريخية قد ساعدته بدون مشقة، على أن يطابق
أعماله وإنجازاته بهذا المثل الأعلى. فلقد اتسم الثلث الأول من حكمه بسلسلة من
المعارك الحربية التى حقق فيها الانتصار. وعملت على إحياء ذكراها العديد من
النصوص والمناظر بالمعابد التى أقامها فى طيبة. وبهذا، ففى العام الخامس والعام
الحادى عشر، اضطر أن يدحر ائتلافين متتاليين من القبائل الليبية لإبعادهما عن
حدوده الغربية. وفى الفترة الواقعة ما بين هذين التاريخين، وفى العام الثامن من
حكمه، جابه فى فلسطين وعلى سواحل مصر فلول المهاجرين من «شعوب البحر»
تلك الشعوب الهندوأوروبية التى كانت قد حاولت غزو جزء من آسيا الصغرى من
المشرق. وخلال تلك المعركة أو ربما بعدها، يبدو أن الملك خاض بعض المعارك
الأخرى فى سوريا. وبرغم قيادته لبعض الحملات من أجل أن يسود السلام فى النوبة

فى بداية حكمه (الفصل الثانى٣)؛ فإنه، قد قام، فى حوالى العام العشرين، بإرسال فرق محاربة، من أجل الاستحواذ ثانيا على استثمارات مناجم النحاس فى «تيمناع»، الواقعة بجوار خليج العقبة ضد بدو «بلاد سعير» (إدوم) فى جنوب النقب (الفصل الخامس - ٦).

ولو أننا نظرنا إلى هذه الحروب كافة نظرة شاملة، فإننا نلاحظ أنها اتصفت جميعها بالسمة الدفاعية. حقيقة أن هذه الحروب كان يتم إحياء ذكراها بشكل فخم ومهيب، مثلها مثل حروب سيتى الأول أو رمسيس الثانى؛ ولكن، لا يمكن أبداً مضاهاتها بها. فإن المعارك الآسيوية التى جابهها الملوك الرعامسة الأوائل، كانت على غرار تلك التى خاضها فراعنة أوائل الأسرة الثامنة عشرة ضد ميتانى، تنبئ عن منطلق سياسة فتوحات توسعية بسوريا. ولقد كان الفراعنة يشنونها باسم الدولة ضد دولة أخرى، مثل «خيتا»، على سبيل المثال؛ بدافع العداء بين كلا الطرفين. وبالتالى، كان من الممكن تفهم دواعيها وبواعثها. وإذا اقتضى الأمر لا يصعب التفاوض بشأنها.

ولكن، حروب رمسيس الثالث، مثلها مثل حروب مرنبتاح ضد الليبيين، كانت تعتبر كردود فعل دفاعية، ضد شعوب رحل شاردة، همجية ومتخلفة، انبعثت على حين غرة من العدم. حقيقة أنه كانت تجمعها غالباً ثقافة موحدة، ولكنها كانت تتكون من قبائل مستقلة تعيش حياة التشرد والترحال. ولم تكن لهذه الشعوب حدود معينة يمكن احتلالها والاستحواذ عليها. بل وكانت تفتقر إلى أى بنية أساسية دولية يمكن التعامل معها. ولم تكن هجماتها، المباغتة، الشرسة، تخضع لأى منطق أو عقل. وبالتالى، كانت فرصة الانتصار فيها تبدو ضئيلة للغاية؛ ولذا، اضطرت مصر أن تحيط مدنها بساحات حصينة. ولم تكن غزواتها المفاجئة هذه غير المبررة إطلاقا، لتختلف عن هجمات الوحوش الكاسرة، وكانوا بالفعل يتمثلون بها. بل كانوا يمثلون أيضاً بالكوارث الطبيعية. ولذلك، فقد استدعت الضرورة سحقهم كلما سنحت الفرصة بذلك، من أجل تلقينهم درسا قاسيا. ولكن، مما يؤسف له أن الوضع كان خلاف ذلك تماما: لأن الصلة بين البلاد عريقة الحضارة وبين الشعوب الشاردة التى تعيش على هوامشها تحكمها أسباب دنيوية بحتة. ولذا، فمع الوقت، يصبح أى عمل عسكرى من جانب هذه البلاد ذات الحضارة العريقة، لاحتواء هذه الشعوب البربرية، غير ذى طائل. وهذه الأسباب

تتضمنها نظرية تسمى «بنظرية مارتينيه»، إيماء إلى عالم اللغات أندريه مارتينيه. وبصفة عامة، تقول هذه النظرية : «إن غزوات البرابرة، أو بالأحرى هجمات ... ضد دولة تتصف بمستوى معيشى رفيع الشأن، تنبثق خاصة من انفجار سكانى فى إطار عشائر أو شعوب تحظى بتطور تقنى ونقص فى مجال موارد الاستهلاك... السلاح القتالى؛ ولكن، لم تعرف بعد فكرة تنظيم النسل أو تحديده»(٣).

فلا شك أن الذى مهد لحروب رمسيس الثالث هو التزايد السكانى فى ليبيا و... خلال الألف عام الثانية ق.م، عند اتصال شعوبها بالتطور التقنى المنبثق من مصر وخاتى، وبلاد ما بين النهرين، وتضاعف تعداد سكان هذه الشعوب بالنسبة للموارد الطبيعية المحدودة فى المناطق التى يعيشون بها. وبالتالى، فإن هذا النقص فى الموارد الطبيعية كان يعوض من خلال أسلوب معيشة يعتمد على الغزو والقرصنة، من أجل الحصول على المزيد من المتطلبات. ولكن حوالى عام ١٢٠٠ قبل الميلاد، سادت بشرق حوض البحر الأبيض المتوسط، فترة من الجفاف والقحط. فقامت قبائل وعشائر كاملة بهجرة أوطانها حاملة أسلحتها، ومندفعة فى كل مكان باحثة عن مأوى جديد.

١-جيش رمسيس الثالث

وأمام مثل هذا الخطر، بدت مصر فى عهد رمسيس الثالث على أهبة الاستعداد. فإن جيشها الذى كان قد أنشئ قبل ذلك بحوالى ثلاثة قرون من خلال طموحات الغزو والفتوحات لدى الأسرة الثامنة عشرة، قد أصبح جيشاً جراراً، مدرباً على أعلى مستوى، منظماً تنظيماً كاملاً، ويحتل مرتبة المؤسسة الرئيسية بمصر(٤). بل إن هذا الجيش قد قام، لمرات عديدة، فى نطاق سياسة مصر الداخلية، بدور جدير بمكانته وسطوته العالية. فمن بعد حورمحب ومؤسسى الأسرة التاسعة عشرة، رأينا أن ست نخت ورمسيس الثالث هما أيضاً من أبناء هذا الجيش (الفصل الأول-٣).

التشكيل

خلال فترات السلم، كان هذا الجيش يعسكر، فى عدد من المواقع، والقلاع، والمراكز الواقعة على الحدود، والمستوطنات العسكرية، سواء بخارج(٥) نطاق مصر أو بداخلها. وكان يوجد عدد من الحاميات فى آسيا، وبعض القوات بالنوبة يهيمن عليها

«نائب الملك فى كوش»، «وقائد القوات العسكرية فى كوش». وخلاف ذلك، كان هناك فيلقان، من أجل مصر العليا والسفلى، يرابطان منذ أواخر عصر الأسرة الثامنة عشرة، فى منف وطيبة(٦). ولا شك أن الوضع لم يكن يختلف كثيراً عن ذلك خلال عهد رمسيس الثالث. لقد كانت منف تتضمن العديد من الترسانات(٧) الحربية، وترسانة بحرية، وثكنات عسكرية ومقراً كان قد أقامه بها مرنبتاح(٨). وفى طيبة كانت توجد إحدى الحاميات العسكرية. وقد كلف رجالها، ضمن مهامهم، بمهمة ملازمة كبار موظفى الدولة الموكل إليهم بمهام فى مواقع بالخارج، وبحراسة المتهمين فى قضايا إجرامية(٩). وفى منطقة شرق الدلتا كانت ترابط العديد من الحاميات الضخمة كان البعض منها يعسكر فى بر- رمسيس، وفى عهد رمسيس الثالث، تمركزت فى منطقة «تل اليهودية» (الفصل الثانى - ٨).

وبخلاف هذه الحاميات والمواقع العسكرية، كانت هناك شبكة من المراكز العسكرية المحصنة(١٠) تسهر على حماية حدود مصر، وتهيمن على كافة تحركات الشعوب فى: سنموت، جنوب إلفنتين، وهى الحدود الواقعة فى أقصى الجنوب(١١)؛ وفى «قفط»، عند مدخل وادى الحمامات المؤدى إلى البحر الأحمر(١٢)؛ وفى إحدى مناطق الوادى المجاورة للفيوم، حيث كانت قد أنشئت الكثير من الحصون(١٣)من أجل مجابهه أى غزو ليبى(١٤) محتمل؛ وكذلك فى «ثارو» بالناحية الغربية لطريق حورس المؤدى الى فلسطين عن طريق ساحل سيناء؛ وأخيرا، فى «تكو» (تل المسخوطة)، فى أقصى شرق وادى طميلات(١٥).

وفى الجهة الشمالية المطلة على حوض البحر الأبيض المتوسط، أقيمت مواقع عسكرية يقوم من خلالها «قادة المصبات» بالهيمنة على منافذ النيل(١٦). وهناك، كان ساحل الدلتا يقع تحت المراقبة بصفة عامة، بواسطة إحدى المؤسسات المسماة «سور البحر». وكانت هذه المؤسسات تتسم خاصة بالسمة الاقتصادية، ولا تبدو عسكرية بكل معنى الكلمة. ومديرها قبل حكم رمسيس الثالث كان يدعى «باى إرى»، وهو نفسه كان يحمل لقب «مدير الخزانة الملكية»، واشتهر باسم «سوتخ إم حاب»، وهو أحد المساهمين فى بناء مدينة هابو أيضًا. وكانت مؤسسة «سور البحر» هذه تستوعب بداخلها وظائف جهاز خاص بالمراقبة على المرور البحرى، والجمارك ؛ وبالتالى، كان بها قسم خاص للمحفوظات(١٧). وأخيراً، ففى الناحية الشرقية والغربية من الدلتا،

على «طريق حورس» وساحل مرمرية، كانت توجد شبكة من الحصون المقامة على الطرق المؤدية إلى فلسطين. وهناك، وعند أقصى الجنوب، خاصة فى منطقة وادى النطرون، تقوم بعض المواقع العسكرية الأخرى بمراقبة تحركات العشائر والقبائل الليبية (انظر لاحقا - ٢ - ٦).

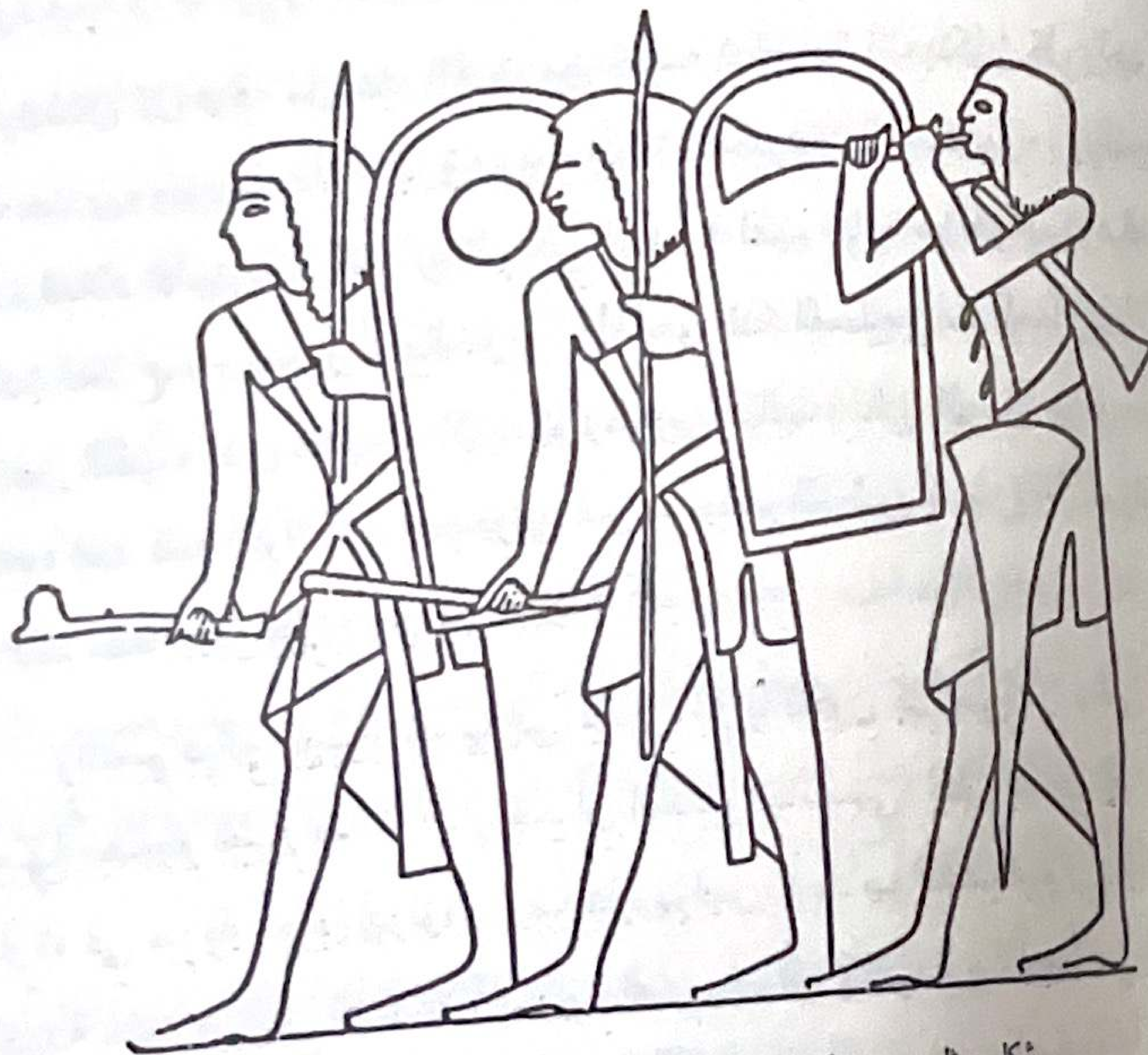
القوات المقاتلة

فى وقت الحروب، كانت القوات القتالية تتكون أساساً من الحاميات القريبة من موقع العمليات المرتقبة : فكانت هناك، قوات بر- رمسيس من أجل معارك آسيا، وقوات منف من أجل المعارك الليبية، وقوات كوش لقمع حركات التمرد النوبية. ويبدو أن هذه القوات، التى كان يضاف إليها غالباً، بعض عناصر البحرية القتالية، كانت تنقسم إلى «سلاحين» متكاملين، هما: سلاح المشاة وسلاح العربات الحربية، اللذان يتماشيان مع بعضهما بعضاً وفقاً للحقبة القائمة وللعدو المراد قمعه. ويضاف إلى ذلك، حوالى ثلاث أو أربع «فرق» عسكرية تتكون من خمسة آلاف جندى (هذا بالقطع، بخلاف مركز القيادة العليا وأركان الحرب). وإلى كل هذا الكيان، والذى قد تضاف إليه أحياناً فرقة إضافية قتالية، يتراءى أيضاً الحرس الخاص بالملك. إن هذا الحرس يعتبر، فى حد ذاته، بمثابة جيش بداخل الجيش. إنه يتكون عادة من أكثر الجنود تميزاً وجدارة، الذين ينتمون أساساً، إلى أصل أجنبى (من شرادنة ونوبيين[١٨]). ويحظى هذا الحرس الملكى بقافلة من العربات الحربية الخاصة[١٩]. وضمن عناصره يمكن تحديد : «حاملى شعار المقر الملكى»، و«جنود الحرس الملكى». وعادة، كان الفرعون يستعين ببعضهم من أجل القيام بالعديد من المهام[٢٠] المختلفة.

والجدير بالذكر أن هذه الوحدات كانت تحمل أسماء لبعض آلهة مصر الرئيسية مثل: (آمون، ورع، وست، وبتاح) (ولقد استمرت الاستعانة بالأسماء الثلاثة الأولى فقط فى عصر الأسرة العشرين[٢١]). ولكن جميع هذه الوحدات المتباينة، كانت تجسد التطابق الفعلى بالنمط الأساسى للمعارك التى خاضتها مصر فى أوائل الدولة الحديثة ضد آسيا، وضد الميتانيين والحيثيين، ألا وهو: المجابهة العسكرية فى موقع منبسط ومكشوف بين قوتين متناحرتين لهما بنية متماثلة. وغالبا، كان سلاح المركبات[٢٢]، خلال المعارك، يمثل قوة الفصل والانفصال فى بداية المعركة. فتندفع أعداد هائلة من

هذه العربات، فى هجمة ضخمة، من اجل اختراق وتشتيت الجبهة المعادية. وفى ذات الحين، يتبعها سلاح المشاة، من أجل تدمير عناصر العتاد المعادى الذى تمزق وتفرق، تماما، ويحتل موقع القتال. ولا شك أن استعمال الشارات كان يساعد، إلى حد كبير، على تحديد وتمييز مختلف الوحدات عن بعضها البعض، أما نافخ البوق، فكان يرتكز عمله على نقل الإشارات المتفق عليها فيما بين الوحدات؛ بل ويقوم أيضا بتحديد تطورات التنظيم التكتيكى للمعركة.

ويخضع الجيش عادة لقيادة الفرعون العليا الذى كان يقوده غالباً هو بنفسه. ولكن، كان هناك أيضا «رئيس القيادة العليا». وله مساعد، هو فى نفس الوقت «قائد سلاح العربات»، ويحمل رتبة «القائد الأعلى للخيول[٢٣]». وكانت هاتان الرتبتان تخلعان عادة، على أبناء الملك : وفقاً للترتيب؛ وريث العرش أولاً (إذا كان الملك لا يمارس القيادة[٢٤])، ومن بعده الذى يليه مباشرة فى ترتيب تولى الملك. وهذان الاثنان بدورهما، كانا لهما مساعدان، هما : «قائمقام الجيش» و«قائمقام العربات الحربية». وهما ضابطان محترفان على كفاءة عالية، قادران على ممارسة القيادة بكل معنى الكلمة بجوار الأمراء الحديثى السن، الذين لايتمتعون بخبرة كافية[٢٥].



شكل يمثل مجموعة من جنود جيش رمسيس الثالث، ومعهم نافخ البوق

الفرق العسكرية

كانت الفرق التى تتكون من خمسة آلاف جندى تخضع لقيادة «لواء»(٢٦). ولقد عرفنا البعض منهم من خلال المصادر الخاصة بفترة الملك هذه. فهناك على سبيل المثال، «لواء» يدعى «باحم نتر» الذى شارك فى العام الخامس من الحكم، فى الحملة التى أرسلت إلى «جبل السلسلة» من أجل جلب الحجارة اللازمة لبناء مدينة هابو (الفصل الثالث -١). ويبدو أن هذا اللواء قد تورط فى أواخر الحكم فى «مؤامرة الحريم»، وأطلق عليه اسم مشين هو «بابيس» (الفصل السادس-٣). وخلال العام الخامس عشر والعام السادس عشر، كان الملك قد أصدر أوامره بتشييد مقبرة من أجل قائد يدعى «ماى» فى جبانة منف. ولقد ذكرت بعض النصوص الخاصة بمنف، أن ذلك كان بمثابة «مكافأة» من أجل ما قدمه هذا القائد من خدمات كبيرة خلال المعركة الليبية(٢٧). وربما كان القائد «حورى ابن باك إن آمون»، الذى كانت زوجته تحمل لقب «مغنية حتحور منف»، هو أحد زملائه(٢٨) فى الجيش. وأخيراً، فمن خلال «بردية هاريس -١»، ذكر اسمان لقائدين باسلين، كان الملك قد كافأهما أيضاً، بتكليفهما بإدارة معبدى أخميم وأسيوط اللذين كان قد أمر بتشييدهما (الفصل الخامس -٥).

وتتشكل كل فرقة من هذه الفرق من خمسة فيالق مشاة، يتكون كل واحد منها من ألف جندى، يقودها «قادة الفرق»، بمساعدة «المشرفين العسكريين». وبالنسبة لرتبة «قادة البلاد الأجنبية»، كان يماثلها فى الدرجة لقب «قادة مراكز الحدود المصرية»، و«قادة القلاع»، - بمصر أو بالخارج- (٢٩)، و«قادة المستعمرات العسكرية»(٣٠). وهذا هو نفس اللقب، الذى خلع، خلال حكم رمسيس الثالث، على كل من «أوسر ماعت رع نخت»، قائد قلعة ثكو(٣١)؛ و«جحوتى مس»، حاكم فلسطين المصرية(٣٢). ولقد حظى ابنه قائد «قلعة بيت شان» بالرتبة الثانية(٣٣).

وتنقسم فيالق المشاة نفسها إلى خمس سرايا تتكون كل منها من مائتى جندى، يرأسها «حاملو الشارات»(٣٤). ونجد أن المدعو «بانحسى» كان يحمل لقب «حامل الشارة» فى سرية «حقا إيونو»، «رب هليوبوليس» أحد مرادفات اسم رع المتضمنة بتركيبة اسم رمسيس الثالث(٣٥). ومن المعروف أنه كانت توجد أيضاً «سرية أوسر ماعت رع مرى آمون ملك القطرين(٣٦)، البطل». ونفس هذه السريات، كانت

تقسم، بدورها إلى أربعة فصائل تتكون كل منها من خمسين جندياً. ويقودها ضباط يحملون لقب «قادة الخمسين»(٣٧).

وأخيراً، وفى أقصى نهاية التدرجات، نجد «قائدى العشرة»(٣٨) (قائد لعشرة جنود)، والجنود العاديين. ويسمى الواحد منهم : بـ «رجل الجيش»(٣٩).

سلاح المركبات

حقيقة إننا نلم بمعلومات كافية عن سلاح المشاة ؛ ولكن معلوماتنا تبدو ضئيلة للغاية بالنسبة لعتاد وتنظيم سلاح العربات الحربية(٤٠). وبالرغم من ذلك، نستطيع أن نقول إنه كان يخضع لقيادة بعض الضباط الذين يحملون رتبة «قائد الجياد»(٤١). وكان هذا السلاح يتضمن حوالى خمسمائة عربة حربية ؛ تنقسم إلى خمس سريات. وكل سرية تتكون من مائة عربة، يقودها «قادة فرق العربات»(٤٢) ويجر حصانان مثل هذه العربات الحربية(٤٣) والتى كان بها طاقم مكون من جنديين، واحد لقيادتها، والثانى هو المقاتل، أو الـ«سنن»(٤٤). وكان يصاحب سرب العربات الحربية هذه مجموعات من الجنود المشاة، هم «العداءون». ولا شك أن دورهم كان يرتكز، قبل وصول جيش المشاة، على التنقيب عن الثغرات التى أحدثت بأرض الأعداء(٤٥). وكان يصاحب هذه العربات الحربية أيضاً بعض الجنود المسمون بحاملى الـ«تكمو» (وهى كلمة مجهولة المعنى) ؛ ولا يعرف حتى دورهم المحدد(٤٦). وأخيراً، ففى نطاق الإسطبلات(٤٧) الخاصة بالحاميات العسكرية، يقوم من يحملون رتبة «حرى إحو» (حرفيًا : قائد الإسطبل)(٤٨)، وهو لقب يقترن عادة بلقب «مبعوث الملك إلى كافة البلاد الأجنبية»(٤٩)، بمهمة الإشراف على العربات وبتزويدها بالخيل. ويعاونهم فى عملهم هذا «صبيان الإسطبل». وضمن من حملوا هذا اللقب، شخص يدعى «باحم نتر» ابن «عا إمى آتف» الذى كان يعمل بنفس تلك الوظيفة، خلال عهد رمسيس الثالث ؛ ونقشت صورته عند مدخل مقبرته «بالحلا» فى «إسنا» بجانب عربتين كان مكلفاً بهما خلال عمله بالجيش(٥٠).

وفى نطاق سلاح العربات بالجيش، كانت المركبات الملكية تكون قسماً قائماً بذاته. فمن الملاحظ أن رمسيس الثالث خلال حروبه، كما صورت فى مدينة هابو، قد

استعان بما لا يقل عن ست مركبات (٥١)، وكلها خلع عليها أسماء ذات مضمون دينى أو حربى : «دريجوتبسجو الذى يشتت ما بين الأقواس التسعة» (أى أعداء مصر بالخارج)(٥٢)؛ وهناك أيضاً اسم «قن آمون»، «آمون يتسم بالشجاعة»(٥٣)؛ وكذلك اسم «مرى آمون»، «محبوب آمون» (أحد عناصر اسم تتويج(٥٤) الملك)؛ وكذلك اسم «آمون دى إف باخبش»، «آمون يقدم السيف»(٥٥)، بعل حر خبشف «بعل يعلوسيفه»، ثم «نخت إم واست»، الذى انتصر فى طيبة(٥٧). وجميعها كان لها طاقمها الخاص، من سائقين، ومروضى جياد، وحراس ومرافقين(٥٨)؛ وعلى رأسهم قائدهم المختص(٥٩). وفى مدينة هابو، يمكننا أن نرى رمسيس الثالث، وهو يتفقد الخيول، ممسكاً سوطه بيده، أثناء تجواله «بالإسطبل الكبير» التابع لقصره(٦٠) وكأنه هو شخصياً الذى قام بتدريبها. ويبدو فى هذا المشهد وقد تبعه حامل المروحة، والأمراء وكبار موظفى الدولة. ولا ريب أن المقاتلين الذين يخوضون المعارك وهم على ظهر هذه المركبات، وكذلك سائقيها ومروضى الجياد ومدربيها، كانوا يحظون بمرتبة(٦١) مرموقة فى إطار المجتمع. فإن الألقاب مثل : «قائد عربة القصر» أو «القائد الأول لعربة جلالة الملك»(٦٢)، كان يحملها الأمراء بصفة خاصة، مثل بارع حرونم اف، وسيتى حرخبشف الأول، ومنتوحر خبشف(٦٣). ومن المعروف، أن أحد مروضى الجياد بالقرب من بر - رمسيس فى عهد رمسيس الثالث، ويدعى «أوسر ماعت رع نخت»، المنتمى إلى أصل أجنبى، قد تلقى مكافأة من الملك تقديراً له على ما قدمه من خدمات. وهذه المكافأة هى عبارة عن حقل زراعى لا تقل مساحته عن خمسة هكتارات(٦٤).

الخدمـــات

بخلاف الأمراء، والوزراء، والندماء الذين كانوا يرافقون الملك إلى ساحة القتال، كان مجلس أركان حرب رفيع المستوى يقوم بمساعدة القيادة العليا، فى كافة التدرجات(٦٥). وعلى المستوى العام، كانت مجموعة من الأجهزة المتباينة تقوم بمهام متخصصة، قد لا تختلف كثيراً عما هى عليه فى وقتنا الحالى. وبذا، كان هناك «الكاتب المختص بحشد الجنود»(٦٦). ولا شك أن مهمته كانت تتركز فى العمل على تجميع الوحدات القتالية عندما تستدعى الضرورة ذلك. وكان هناك أيضاً مدير أو

«كاتب الجراية»، و«رئيس لحرس المحفوظات». وهو المسئول عن حفظ وحماية الوثائق المكتوبة الخاصة بالمؤسسة العسكرية. ويقوم «حرس محفوظات الجيش»(٦٧) بمهمة معاونة ضباط أركان الحرب. وعلى ما يبدو كانت كل سرية(٦٨) تخضع لقيادة واحد من هؤلاء الضباط. وهم يحملون، بشكل عام، رتبة «كاتب الجيش»(٦٩) (وقد أحطنا علماً باسم واحد منهم، خلال عهد رمسيس الثالث، ويدعى «إوى»(٧٠). وكانت مهمتهم تنحصر فى نقل الأوامر وتسجيلها كتابة، وتدوين كافة إنجازات الوحدات القتالية، وتعداد القتلى، والجرحى، والأسرى الأعداء، والغنائم التى يستولى عليها الجيش. ومن أجل توفير رواتبهم العسكرية، أقام رمسيس الثالث فى منطقة مصر الوسطى، فيما بين «أخميم»، «وقعو الكبير»، فى أراضى أوكل إدارتها إلى ممتلكات آمون، مستعمرة زراعية يعمل بها العديد من المرتزقة الشرادنة. ولقد بقيت هذه المستعمرة الزراعية حتى أواخر الأسرة العشرين(٧١). وبجوار «هيئة أركان الحرب»، كانت توجد «الشرطة العسكرية»؛ ويمثلها «رئيس مفتشى الجيش» لكل فرقة عسكرية، و«مفتش الجيش» لكل سرية(٧٢).

ومن أجل عتاد القوات المحاربة، وفرت للحاميات والمواقع الرئيسية الكثير من الترسانات ومستودعات الأسلحة، يعمل بها موظفون متخصصون(٧٣). وفى بعض النواحى المحيطة بقصر رمسيس الثانى فى بر - رمسيس، حيث يوجد فناء مترامى الأطراف غير مسقوف من أجل إيداع المركبات الحربية، اكتُشف(٧٤) منذ وقت غير بعيد، مصنع للأسلحة بكل ما تدل عليه الكلمة من معنى. فهو يتضمن العديد من مسابك المعادن، والورش المتخصصة فى أشغال المعادن وأشغال الأخشاب، والجلد، والعديد من المواد الأخرى. بل، واكتشفت به أيضاً بعض المخازن، حيث كانت تحفظ الأسلحة فى أوقات السلم. وفى مدينة هابو، تبين النقوش البارزة، عن مشاهد لعمليات توزيعها، يقوم بها بعض الأفراد المتخصصين؛ ويساعدهم بعض الكتبة بمراجعة الحسابات، على القوات العسكرية التى احتشدت بأمر رمسيس الثالث لشن هجوم على «شعوب البحر»(٧٥). وأخيراً، فمن المحتمل جداً أنه كانت هناك ناقلات للعتاد والمهمات الحربية؛ وإن كنا فى حقيقة الأمر، نكاد لا نعلم عنها شيئاً مطلقاً. ففى مجال النقل العسكرى، لم نحط علماً إلا بالسفن النهرية، التى يدير دفتها ويرأسها

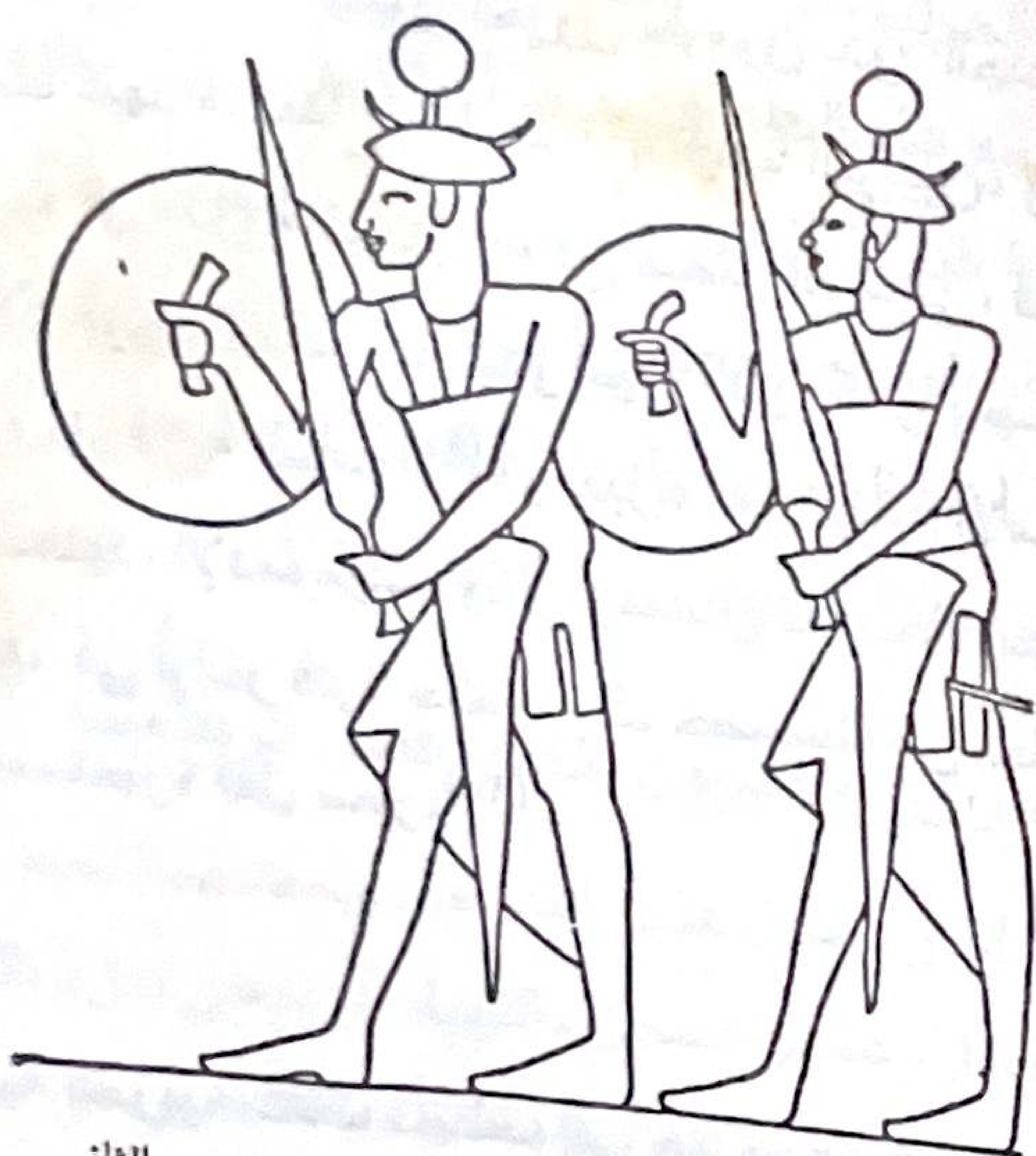
«رؤساء الحراس المرافقين». ولقد علمنا بمن يدعى «أمون إم ويا» الشهير بـ«كار» كان قد كلف، خلال حكم رمسيس الثالث بوظيفة رئاسة إحدى الناقلات العسكرية المسماة بـ«رمسيس حقا إيونو محبوب سخمت»(٧٦).

التجنيد : مصريون وأجانب

خلال حكم رمسيس الثالث، نجد أن الأغلبية العظمى(٧٧) من المجندين بالجيش المصرى كانوا من المصريين الأصليين(٧٨). وفى نطاق الجيش، خلال عهده، مثلما كان الأمر فى الحقب الأكثر قدماً، كانت توجد إدارة خاصة، بطاقم خاص من الموظفين (رؤساء التجنيد، وكتبة التجنيد) مهمتها تسجيل أسماء المجندين المقبلين وتدريبهم. ومع ذلك، فبجوار المجندين من المصريين الأصليين، اتجه الجيش أيضاً إلى أسلوب كان متبعاً منذ أوائل الدولة الحديثة، ألا وهو إفساح المجال لتجنيد أعداد كبيرة من الأجانب. حقيقة أن «آسيا» كانت لا تزال تقدم العديد من الجنود المرتزقة «العابيرو»، ومن قائدى المركبات «ماريانو»، وبعض الوحدات(٧٩) الإضافية؛ ولكن، لا شك أن الأغلبية العظمى من هؤلاء الجند الأجانب كانت تتكون وقتئذ من قدامى أسرى الحرب، : نوبيين، وليبيين، وآسيويين، وإيجيين، وحيثيين. وربما أن المصرى كان ينظر غالباً للأجنبى، باعتباره حيواناً كاسراً مفترساً، ضارياً وخطيراً، ولكنه، بالرغم من ذلك، كان يأمل فى أن يستخلص منه بعض المزايا الحسنة، بعد ترويضه و«استئناسه»، على المستوى العسكرى. وبذا، ففى نهاية كل حرب من الحروب، كان أسرى الحرب الأشداء الأقوياء يعتبرون دائماً بمثابة مجندين متميزين للغاية. أما قرناؤهم الأقل قوة وبأساً ؛ فيبعث بهم للعمل فى سراديب بعض المعابد، بعد أن يوسموا على أجسادهم، بواسطة الحديد المحمى، باسم الملك الذى قام بأسرهم خلال معركته. والبعض الآخر منهم كان يلحق ببعض الوحدات بالحصون أو بالمستعمرات الأجنبية، حيث تقوم الخزانة ومراكز الغلال الملكية بتوفير احتياجاتهم(٨٠). وفى أغلب الأحيان، يصبحون وكأنهم مصريون أصليون، ولا يتذكرون حتى لغة وطنهم الأصلى(٨١).

ومن خلال «بردية ويلبور»، التى دونت فى عهد رمسيس الخامس، نستطيع أن نحيط علماً بمدى انتشار تلك الممارسة. وتقول هذه البردية : إن الفيوم كانت تعتبر

منطقة استراتيجية فائقة الأهمية، ذات كثافة عسكرية كبيرة (كانت تتضمن «قرية الجنود»(٨٢)). ولقد بعث إليها بأعداد كبيرة من قدامى أسرى الحرب، المنتمين إلى أعراق مختلفة، وأقاموا ببعض قلاعها الحصينة أو بالمستعمرات العسكرية خلال الأسرتين التاسعة عشرة والعشرين؛ وخاصة فى أثر حروب رمسيس الثالث(٨٣). وضمنهم، كانت توجد أعداد كبيرة من الأسرى الشرادنة، وكانوا يكونون وحدات متميزة وذات كفاءة عالية فى نطاق الجيش المصرى منذ عهد رمسيس الثانى (ومنهم، كان يختار عناصر الحرس الخاص بالملك)(٨٤). وكانوا يجمعون فى هيئة وحدات نوعية (فكثيراً ما جاء ذكر «حاملى الشارات» من الشرادنة)(٨٥). وفى أوقات السلم، كانوا يعيشون بتلك المنطقة بمصاحبة أسرهم، حيث يتملكون أو يستزرعون الأراضى(٨٦)، فى بعض القرى التى تكاد أن تكون مثالية (٨٧) وفقاً لوصفها من خلال «بردية هاريس-١». وفى المنطقة الواقعة ما بين أخميم و«قعو الكبير»، كان الكثيرون منهم، كما سبق أن ذكرنا، يقومون باستزراع حقول شاسعة كان رمسيس الثالث قد وهبها لتلبية احتياجات ومتطلبات «كتبة الجيش».



بعض الجنود المرتزقة الأجانب فى جيش رمسيس الثانى.

ولكن، بالإضافة لذلك، كانت تلك المنطقة تأوى أيضًا أعدادًا كبيرة ممن يسمون بالـ «نحرو». ونفس هذه العبارة التى كان يوصف بها، خلال الأسرة الثامنة عشرة، الجنود المتفوقون والمتميزون الأجانب، القائمون بمصر[88]، يبدو أنها كانت تنطبق بصفة خاصة، منذ أوائل عصر الرعامسة، على قدامى القراصنة الإيجيين[89]، ومثلهم كمثل المرتزقة الشرادنة، كانوا يختارون من أجل الحرس المقرب من الفرعون. فها هو أحدهم – ويدعى رمسيس – قد مثل فوق إحدى اللوحات، بصحبة رمسيس الثالث فى إحدى زياراته لمدينة طيبة[90]. وكانوا يخضعون لقيادة وسلطة قائد يسمى «قائد النحرو»[91] (يماثل نفس درجة قائد القوات الحربية). وضمن هؤلاء القادة، خلال عهد رمسيس الثالث، يمكننا أن نذكر «أمون خعو»؛ الذى كان يتولى قيادة قلعة «مرمشع إف» (حرفيًا: قلعة رمسيس حقا إيونو الذى يحب [مر] جيشه [مشع إف])، الواقعة بمنطقة غير بعيدة من اهناسيا (هرقليوبوليس). وهناك، كان الملك قد نصب تمثالاً له[92].

وأخيراً، كان هناك أيضاً العديد من الجند المنتمين إلى أعراق غير محددة تماماً. فيوجد مثلاً، الـ «تكو»، أى الليبيون القادمون من الواحات ويقومون بالخدمة فى إطار الجيش المصرى (ذكرتهم التوراة باسم السكيم)[93]، ويحملون شارات خاصة بهم[94]. وربما كان هناك أيضاً ليبيون آخرون يقومون بدور الجند المرتزقة، فى نطاق الجيش المصرى منذ عهد مرنبتاح[95]. ثم نجد أيضاً النوبيين، وقد تجمعوا فى قرية تسمى «بن نحسيو» أى «قرية النوبيين»، فى مصر الوسطى، فيما بين سبرمرو، وهرداى[96]. وكذلك يوجد الشاسو، أى بدو آسيا، الذين كانوا يعيشون، بمكان قريب، بقرية الـ«بن شاسو» أى قرية الشاسو[97]؛ وأخيراً، وفى نهاية الأمر، أعداد من أهالى مدينة سعير، أو بالتحديد، الإدوميت. وكان رمسيس الثالث قد أسرهم خلال المعركة التى شنها على بلدهم فى أواخر فترة حكمه. ولقد خصصت من أجلهم مستعمرة تحمل اسمهم: النيسارو: «مستعمرة أهل سعير»[98].

البحـــرية

لا شك أن البحرية الحربية كانت تختلف إلى حد ما عن البحرية المدنية. وخلال عهد رمسيس الثالث، كانت تحتل مكانة هامة. فقد ساهمت فى معركته ضد «شعوب

البحر» (فيما بعد – ٤). بل واستعان بها أيضاً، فى أواخر فترة حكمة، من أجل القيام بحملات إلى البحر الأحمر (الفصل الخامس – ٦). وبسبب ما تبدو عليه سواحل الدلتا من جفاف ووعورة، فلم يكن لمصر الفرعونية جهة الشمال سوى بعض الموانئ النيلية. أما قواعدها البحرية الرئيسية، فكانت فى «منف»، حيث كان قد أقيم منذ الأسرة الثامنة عشرة، ميناء «برونفر» (سفراً سعيداً)، «وبر – رمسيس»، الذى وصف من خلال أحد نصوص الرعامسة، بأنه «الميناء الذى يربط ما بين مجموعات السفن الحربية[99]». وفى البحر الأحمر، كانت هناك أيضاً بعض الموانئ الحربية المؤقتة مثل ميناء «ساوو» قريبا من «قفط»، يضاف إلى ذلك أيضاً قاعدة عسكرية بحرية فى منطقة السويس.

ولا يبدوا التنظيم الخاص بهذه البحرية الحربية محدد المعالم تماماً. ولا شك مطلقاً، أنها كانت تعبأ تعبئة كاملة، فى حالات معينة فقط. وكانت السفن الكبرى الرئيسية، أى «المنش»، التى كانت تستعمل من أجل أغراض تجارية فى أوقات السلم، تمخر عباب البحار وقد سبقتها بعض سفن الحراسة المعروفة باسم «بير». وكان يقودها طاقم من غير المقاتلين، تحت إشراف قبطانهم الأعلى هو «رئيس المنش». ولكنها تتضمن أيضا، قوات محاربة مسلحة، يقودها «قادة جيوش سفن المنش»، بمساعدة معاونين من الضباط الأقل رتبة، هم «الحوتيو»[100]، وحاملو شارات البحرية. ولكن، مما يؤسف له، أننا لا نلم بتفاصيل تجمع هذه السفن فى هيئة أسطول أو تشكيل بحرى. ومثلما يتم فى نطاق القوات المحاربة البرية، كانت الأجور تسدد بواسطة هبات من الأراضى يقدمها الفرعون، فى إطار الخدمة بالبحرية العسكرية. ولذلك، فخلال حكم رمسيس الخامس، نجد أن بعض جنود البحرية وأفراد طاقم السفن الحربية كانوا يمتلكون مساحات من الأراضى الزراعية بمنطقة مصر الوسطى[101].

٢ – المصريون والليبيون خلال عصر الرعامسة

منذ أمد بعيد، وفى إطار اتصال هذين الشعبين ببعضهما بعضًا، لم يتوقف المصريون عن مقاتلة قبائل وعشائر الصحراء الليبية، أو بمعنى أدق، «التمحو». فتارة كانوا يغيرون عليهم فى هيئة حملات تأديبية، وأحيانا أخرى فى صورة غزوات خاطفة من أجل أسر العديد منهم واتخاذهم كعمال وعبيد، أو حتى للاستحواذ على

مواشيهم وأغنامهم[١٠٢] . ومع ذلك، فإن الليبيين، كانوا يتسللون، بصفة مستمرة، فى صورة فرادى أو مجموعات صغيرة، هرباً من ظروف معيشتهم القاحلة الجدباء، إلى منطقة غرب الدلتا، أو يقومون بسلب ونهب قراها. وبهذا، استطاعوا، على مدى عدة قرون، أن يستوطنوا جزءا من هذه المنطقة، حيث كونوا القاعدة العرقية المقبلة للمقاطعات الليبية التى نمت وتطورت فى نطاقها بعد انتهاء الدولة الحديثة[١٠٣]. ومع ذلك، وفى بعض الأحيان، وخلال فترات تغيير الحكم، أو عندما كان يسود مصر بعض الاضمحلال الذى يجر فى أعقابه نوعا من الاضطراب والتخلخل المؤقت فى الإدارة المصرية، أو حتى عند حدوث مجاعات تجعل من الصعب تماماً العيش فى الصحراء القاحلة أصلاً و أساساً، عندئذ كانت بعض القبائل، أو مجموعات من القبائل المتكتلة معا تقوم، بمحاولة الهجوم على مصر وغزوها.

وفى نطاق عصر الرعامسة، اضطر كل من سيتى الأول، ورمسيس الثانى، ومرنبتاح، ورمسيس الثالث أن يولوا اهتمامهم لهذه المشكلة التى ظهرت أساسا من خلال هجمات العشائر والقبائل التى لم يكن يعرفها المصريون خلال العصور السابقة، وهم «الليبو» سكان قورينة – ومنها اشتق اسم «ليبيا»، ثم المشواش – وأصلهم الجغرافى يقع ناحية الغرب[١٠٤] . ولقد قام الليبو، بمعاونة القراصنة الإيجيين، المعتادين على سواحلهم، بمهاجمة مصر خلال عهد مرنبتاح. ثم عادوا إلى مهاجمتها مرة أخرى، فى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث. وقضى عليهم وأبيدوا تقريباً. أما المشواش، فقد استطاعوا ان يشكلوا تكتلاً ضخماً من القبائل والعشائر، ليقوموا جميعاً بهجوم جديد ضد مصر، خلال العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث أيضاً.

وبذلك، نجد أن ملوك الاسرة التاسعة عشرة، قد لمسوا جيداً جسامة هذا الخطر. ولذا، فقد أقاموا، على حدودهم الغربية، شبكة دفاعية مترامية الأطراف، تسمح بالهيمنة تماماً على منافذ الغزو الرئيسية من جانب الليبيين على مصر : من ناحية، الشريط الساحلى الممتد من العلمين وحتى مرسى مطروح، ما بين البحر الأبيض المتوسط ومنطقة الرمال المتحركة بمنخفض القطارة. ومن ناحية أخرى، الطريق المؤدى من سيوة جنوباً وحتى الفيوم من جهة الواحات البحرية. وكانت هذه الشبكة الدفاعية الفائقة التحصين، تعتبر بفضل حاميتها القوية بمثابة أكثر المراكز أهمية

ومركزاً للقيادة العليا. بل وكانت تستوعب فى إطارها «المنطقة العسكرية» عند مدخل الفيوم، وخطاً من القلاع والحصون على ساحل الدلتا الغربى : وربما قد شيدت فى تلك الفترة حصون أوبنا، وحوت شعى، التى يحتمل أنها كانت تهيمن على مداخل وادى النطرون، عند غرب الدلتا، ولعبت دوراً هاماً خلال حروب رمسيس الثالث الليبية. ولكن رمسيس الثانى، كان قد أقام على ساحل المرمرية (بلد التحنو – وفقا للمصادر المصرية)، وساحل «غربانيات» عند «زاوية أم الرخم»، من ناحية العلمين سلسلة من القواعد العسكرية حتى حدود قورينة. فعلى بعد ٢٥٠ كيلومتراً من الإسكندرية الحالية، و٢٥ كيلومتراً غرب مرسى مطروح، تقع قاعدة «زاوية أم الرخم» العسكرية، وهى الوحيدة المعروفة جيدا فى الوقت الحالى. وهى تتكون من ساحة شاسعة مستطيلة الشكل محاطة بسور شيد من قوالب الطوب اللبن، تبلغ أطواله (٩٠) و(١٥٠) مترا. وداخل نطاقه، توجد بعض الثكنات العسكرية ومعبد. وهناك ترك جنود الحامية العديد من اللوحات، التى زخرفت بأشكال تمثل الملك وهو يقوم بأسر أو بقتل الليبيين[١٠٥].

ولكن، بالرغم من كل هذه التحصينات، استطاع الليبون، فى أواخر حكم رمسيس الثانى أن ينتشروا فى الدلتا، وأثار ذلك هلعًا ورعبًا لسكانها، بل لقد استطاعوا أن يعسكروا لبعض الوقت أمام تل بسطة[١٠٦] . وفى العام الخامس من حكم مرنبتاح[١٠٧]، حاولوا، بقيادة زعيمهم المدعو مريوى بن ديد، هم وحلفاؤهم: الايجيون و أكايواشا، وطوروشا، ولوكا، والشرادنة، وشكالوشا، أن يغزوا مصر، غزواً جماعيًا، بنسائهم، وأطفالهم ومواشيهم. واستطاعت إحدى كتائبهم القادمة من قورينه أن تلف حول منخفض القطارة جنوباً، لتهاجم «الواحة البحرية» و «الفرافرة»، وتدمرهما تدميراً. وفى نفس الحين، قامت المجموعة الرئيسية باكتساح بلاد التحنو، ثم غزت وادى النيل من ناحية وادى النطرون، بل واستطاعت أن تقيم معسكرها على حافة الصحراء، فى مواجهة مدينة بريرر – وربما إنها إحدى أسماء أوسيم (ليتوبولس) – فى شمال غرب القاهرة الحالية. ولكن، انطلاقاً من منف، قام مرنبتاح على رأس جيشه بالهجوم على هؤلاء الغزاة. وبداية من أول مواجهة بين الطرفين، بدت علامات الانتصار تتضح فى جانب الفرعون. وتغير الحال بالنسبة لليبيين وحلفائهم، لتتحول إلى مذبحة فعلية

بالنسبة لهم. ولم يفلتوا بأرواحهم من أيدى الجنود المصريين. فقد طاردوهم طوال ست ساعات كاملة، وسددوا نحوهم سيلا جارفا من السهام. بل كان الجنود المصريون يفضلون قتلهم بدلاً من اقتناصهم كأسرى حرب. وانتهت المعركة بوقوع ما لا يقل عن ثمانية آلاف وتسعمائة قتيل، وتسعمائة أسير فقط. ولم يستطع زعيمهم أن يفلت بحياته إلا بالهروب. وعندما رجع إلى بلده، اعتبر كمسئول أول عن الكارثة والهزيمة النكراء التى لحقت بهم، وخلع عن عرشه وأصبح مجرد هدف للكراهية والازدراء من جانب مواطنيه. وفى نهاية المعركة، قام المصريون بسلب ونهب المعسكر الليبى ثم أشعلوا فيه النيران(١٠٨). ودخل الجيش المصرى مكللاً بالنصر إلى منف. وفى مساء نفس ذلك اليوم، تم خوزقة بعض الأسرى الليبيين(١٠٩)، كنوع من التنكيل بهم. وفى نفس هذا الوقت، كان مرنبتاح يقف فى قاعة الاستقبال بقصره الفسيح الأركان الذى كان قد أمر بتشييده، وهو يعلن من خلال كلمة مسهبة وسط هتافات ودعوات كبار الحاضرين حوله : بأنه على يقين من أنه قد قضى إلى الأبد على الخطر(١١٠) الليبى الذى كان يهدد مصر.

ومع ذلك، فلقد انتهز الليبيون فرصة القلاقل والاضطرابات التى وقعت فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة، فلم يتوانوا عن تكرار محاولات اختراقهم الأبدى لمنطقة الدلتا. ووفقا لما قاله رمسيس الثالث، عما حدث فى العصر الذى حكم فيه خلفاء مرنبتاح الضعفاء «لقد استطاع الليبو والمشواش أن يستقروا بمصر. واستولوا على المدن القائمة عند الساحل الغربى (للدلتا) من منف إلى «قربن»، ووصلوا إلى كافة أنحاء شواطئ «النهر العظيم». لقد سلبوا ونهبوا المدن القائمة فى منطقة سخا على مدى العديد من السنوات، خلال تواجدهم(١١١) «بمصر» و«النهر العظيم». كان يعنى، خلال الدولة الحديثة، فرع النيل، الذى يمر من أتريب وسمنود، ويقسم الدلتا إلى قسمين شبه متساويين. ولهذا، يكون الجزء الغربى بأكمله من تلك المنطقة قد اكتسحه الليبيون، فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة. وخلال نفس الحقبة، استطاع الأسيويون أيضا أن يكتسحوا جزءها الشرقى (الفصل الأول – ٣).

وتولى العرش ست نخت ثم من بعده رمسيس الثالث، وساعدت إعادة التنظيم المتتالى فى عهد كل منهما، للمؤسسات المصرية، على وضع حل نهائى لهذه

الأوضاع : «لقد تم أسر الأعداء الآسيويين والتحنو. هؤلاء الذين كانوا (من قبل) يشوهون صورة مصر. لقد نهبوا وسلبوا الدولة تماماً [.......]. لقد اضطهدوا الآلهة كما يضطهد أى فرد. فلم يكن هناك بطل يتصدى لهم عندما يتمردون ويشقون عصا الطاعة(١١٢)». ولكن الهدنة، أو بالأحرى الهدوء، لم تستمر سوى حوالى خمس سنوات.

٣-المعركة الليبية الأولى

«جاء من يقول لجلالته : لقد بدأ أهالى التحنو يتحركون. لقد أخذوا يتآمرون. وتجمعوا بأعداد هائلة: الليبيون، والسبد، والماشواش» بهذه الكلمات بدأ، فى مدينة هابو، السرد الخاص بأولى المعارك الليبية التى خاضها رمسيس الثالث. ولقد أحيا ذكراها بواسطة صفين كاملين من المناظر بالنقوش البارزة(١١٤)، بالإضافة إلى نص، بعنوان: «التسجيل العظيم فى العام الخامس». ومن خلاله، يسرد فى عبارات تكاد تكون مبهمة تسلسل المعارك، والأحداث التاريخية التى تعتبر بمثابة خلفية لها (١١٥). ولكن، يلاحظ: أن تاريخ هذا التسجيل يرجع إلى العام الخامس من حكم الفرعون، ومع ذلك، فهو يتضمن بعض الإيماءات إلى غزوات شعوب البحر التى وقعت فى العام الثامن من حكمه. ويعنى هذا، أن ذلك التسجيل لم ينقش فى مكانه هذا إلا بعد العام الثامن من الحكم. وبالقطع، يفصح ذلك عن الصعوبة التى قد يلاقيها المؤرخ عند سرده لبعض الوقائع اعتماداً على المصادر التاريخية المصرية : فعادة تكون النصوص أو النقوش البارزة مجرد تكوينات لأحداث ماضية، وتهدف خاصة إلى التمجيد والتفخيم، وتستلهم نماذج شهيرة رنانة، تمثل وصف معركة «قادش» أو النقوش البارزة الممثلة للمعارك الحربية، على جدران معبد الكرنك.

وفى وقت سابق، أى فى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث، وفقا لما ذكرته بعض المصادر(١١٦) :حاول كل من الليبو والماشواش بالإضافة إلى عشائر السبد(١١٧)، الذين كانوا قد انضموا إليهم، أن يخفوا أهدافهم لغزو مصر، وراء ادعائهم الرغبة فى الحضور إليها من أجل قيام الفرعون باختيار زعيم لهم. وهم بذلك كانوا يتظاهرون بانتهاج أحد تقاليد التبعية والخضوع لمصر. خاصة أن رمسيس الثالث نفسه قد أكد أنه كان معمولاً بها منذ قديم الزمن. ولبى الملك رغبتهم، واختار لهم أحد الأمراء الليبيين

الذى كان قد تلقى تعليمه فى مصر كزعيم لهم. ولكن، سرعان ما ألهمته الآلهه عن نواياهم الدفينة وقرر على الفور تعبئة جيوشه من جديد.

ووفقا لما يتبين فى مدينه هابو من خلال المناظر التى تمثل زيارة الملك لأحد معابد آمون (لابد أنه الكرنك)، قبل انطلاقه إلى إحدى معاركه: يبدو هذا الإله بمصاحبة خونسو وتحوت، وهو يقدم له سيفه المقوس الخاص، المسمى «بالحربى» لتدمير الليبيين(١١٨). ولا شك أن المشهد برمته، يعبر، بشكل رمزى، عن رغبة الفرعون رمسيس الثالث فى أن يبدو دائماً، بمثابة الذراع الأيمن الدنيوى لآمون. بل إن مرنبتاح نفسه، قبيل معركته مع الليبيين، تحت رعاية الإله بتاح، قد تراءى له حلم يحمل نفس المضمون(١١٩).

وفى نهاية هذه المراسم، تبين لنا تلك المناظر الملك، وقد سبقته شارات وعلامات «الوبواووت» وثالوث طيبة، وهو يحمل قوساً بيده ومعه السيف الذى أنعم عليه به آمون، وهو يخرج من باب المعبد مع(١٢٠) مونتو إله الحرب. ثم منظراً آخر، يمثل الملك فى مواجهة جيشه المصطف فى حالة الانتباه «المصرى» (أى بانحناءة بسيطة كدليل للاحترام والتبجيل)، وقد تبعه أمراء مصر بالملابس الرسمية وبأسلحتهم، وأيضا حرسه الخاص. ثم ها هو فى منظر آخر، وهو يهم بالصعود إلى مركبته وقد انطلقت أصوات البوق، وأحاطت به كوكبة من الجنود بجوار عربته، وصحبه القائد الأعلى للقوات الحربية. وتبين المناظر أيضا صفوف الجيش وقد تميزت من خلالها الكتائب المكونة من جنود أجانب أشداء (بدو آسيويين، ونوبيين، وشرادنه، وإيجيين)، ويتقدمها الملك فى مركبته الحربية، يعدو بجوارها أسده المستأنس. ثم نرى الملك بعد ذلك وقد بلغ الحدود الليبية، وتقدمته مركبة أخرى تحمل شارة آمون، لتفتح أمامه الطريق نحو «بلد التمحو(١٢١) الخسيس الدنئ».

وها هو العدو وقد تراءى. ودارت عندئذ المعركة. وربما كان موقعها فى شمال غرب منف(١٢٢). وعلى رأس سلاح مركباته، بدا رمسيس الثالث منطلقًا بأقصى سرعة، وقد ربط بزمام جياده حول وسطه من أجل التمكن من تصويب سهامه، وهو يطلق صيحة الحرب الرهيبة، التى «جعلت الجبال نفسها ترتعد خوفًا عند سماعها اسمه». وانقض على الليبو، المميزين بملابسهم التقليدية(١٢٣)، فتقهقروا مشتتين،

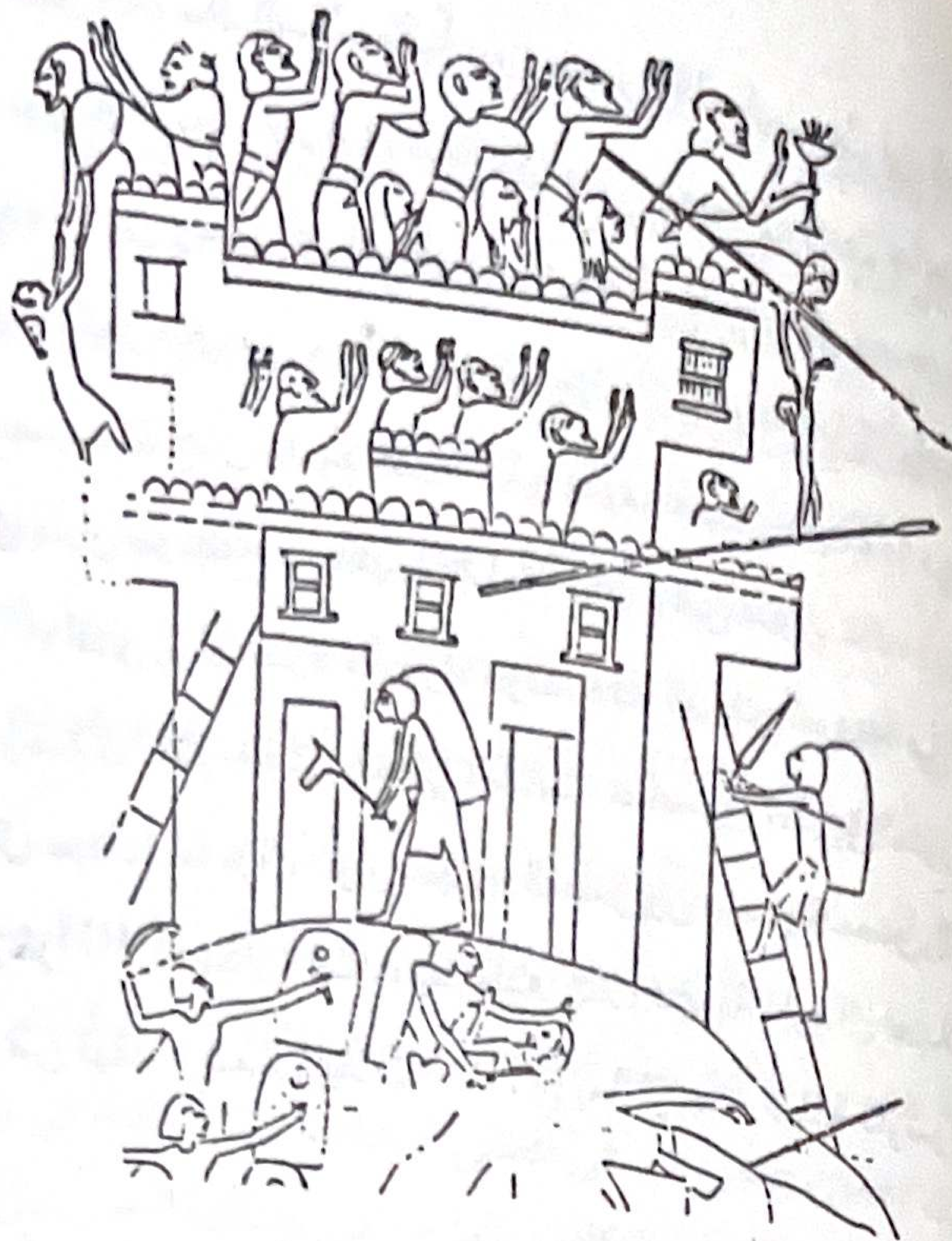
ووقعوا صرعى. فقد اخترقتهم السهام، وانسابت دماؤهم فوق الرمال. وفى نفس الوقت كان الجنود المشاة المصريون يذبحون من بقى منهم على قيد الحياة، أو يهشمون رؤوسهم بهراواتهم. وفى المساء، كان العدو قد دحر دحراً كاملاً. وكان رمسيس الثالث قد أقام مركز قيادته بإحدى القلاع الواقعة على حافة الصحراء، أو «مدينة أوسرماعت رع مرى آمون الذى يقمع بلد التمحو»، ربما تعرف فعلاً، تحت اسم آخر مشابه مثل «المكان الذى أبيد فيه الليبيون بيد مرنبتاح بجوار ليتوبولس» (١٢٤). وهناك، استطاع، بشكل ما، أن يحتفل بانتصاره، فبدا وهو واقف فوق منصة أقيمت مؤقتاً، ليستعرض صفوف الأسرى الذين اقتنصوا بالمعركة(١٢٥)، وهم يمرون أمامه. وبدا هؤلاء الأسرى وقد اقتادهم الضباط المصريون بعنف وشراسة واضحة، فهم يصفعونهم على وجوههم أو على أقفائهم ليجعلوهم يسرعون فى خطاهم. ولم تكن أعداد هؤلاء الأسرى وفقاً لما ذكرته المصادر، لتقل عن أربعة آلاف أسير. وبدا كل واحد منهم وقد قيدت ذراعاه خلف ظهره. وربطوا جميعًا ببعضهم بعضًا، من رقابهم، بواسطة الحبال، والبعض منهم قد قيدت يداه فى «كلبشات» خشبية. ومن أجل مزيد من الإذلال، أجبروا على النظر، أثناء مرورهم هذا، إلى كتبة الجيش المصرى وهم يقومون بحماس شديد، بتسجيل عدد الأيدى وأعضاء التذكير التى استؤصلت من جثث القتلى الليبيين فى المعركة، لحصر أعدادهم. ولم يكن عدد هؤلاء القتلى ليقل عن اثنى عشر ألف قتيل، أى ما يعادل ثلاثة أضعاف الأسرى(١٢٦). وهكذا، كان يحق للفرعون، أن يختتم هذا الاحتفال، وسط الهتافات والدعوات باسمه، بتوضيح مدى أبعاد هذا النصر الباهر المكتمل أمام كبار موظفى الدولة المرافقين له. ويبين لهم أنه لم يكن ليتحقق أبداً بدون العون من جانب آمون.

بعد ذلك، بدأ الملك يتأهب للعودة منتصرا إلى مصر على رأس جيشه(١٢٧)، وهو يدفع أمامه صفوفا عديدة من الأسرى. وكان البعض منهم قد ربطوا، وهم أحياء، تحت عربته المنطلقة بأقصى سرعتها، وقد اقتيد الأسرى، الأحياء إلى معبد آمون، ليقدموا له كعبيد(١٢٨). بل لقد اضطر زعيم هؤلاء الأسرى أن يرفع صوته بالهتاف للفرعون، لعله ينقذ بذلك نفسه من الموت. وبدأ شعراء البلاط الملكى، من خلال بلاغتهم المتسمة بالتكلف والتحذلق، يتغنون بانتصارات الفرعون: «لقد حطم إلى الأبد العمود الفقرى للتمحو. وانقطعت أرجلهم عن وطء حدود مصر [....]. وولى التمحو

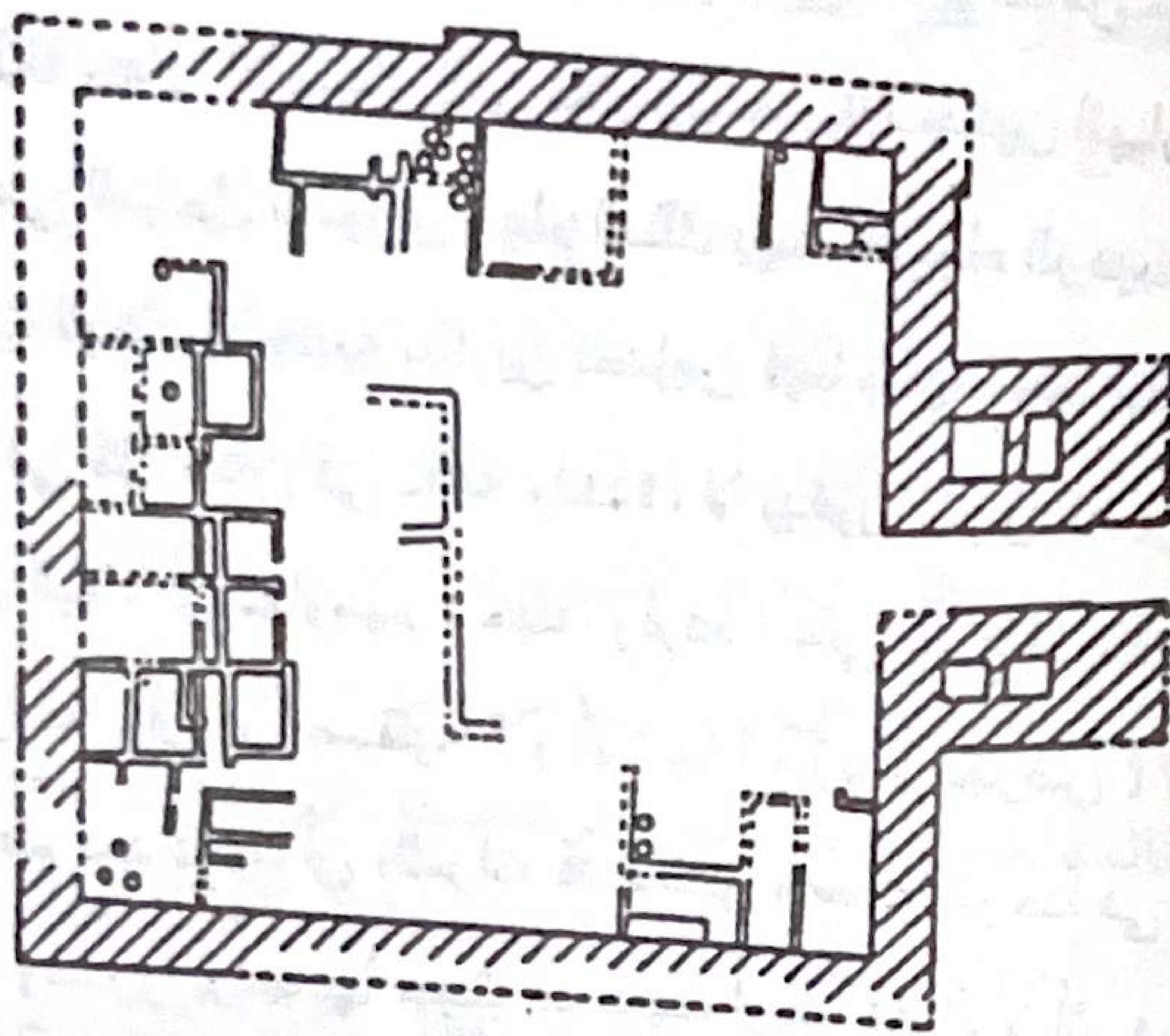
الأدبار وهم يعدون بأقصى سرعة. أما المشواش، فهم مسرورون، لأنهم قد فروا واختبأوا فى بلدهم. إنهم يقولون: «إن ديد، و ماشكن، ومريوى [الزعيم الذى كان قد قاد الهجوم على مصر خلال عهد مرنبتاح وأبيه هو «ديد»]، وكذلك «ورمر»، وتتمر، وكل الزعماء الأعداء الذين اندفعوا من ليبيا للهجوم على مصر، قد أحرقوا من أولهم لآخرهم. لقد أمرت آلهة مصر بقتلنا لأننا اعتدينا، عن قصد، على مقاطعاتهم. والآن، عرفنا ما تتمتع به مصر من قوة وجبروت(١٢٩) !». ومع ذلك، وبالرغم من كل هذا التفخيم والتفاخر، قامت ليبيا بهجوم آخر على مصر، خلال العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث.

٤- الحرب ضد شعوب البحر (١٣٠)

فى الفترة الواقعة ما بين حكم رمسيس الثانى ومجىء الأسرة العشرين، كان الهدوء النسبى يخيم على منطقة آسيا. ولا شك أن مرنبتاح، كان قد اضطر أن يفتتح أولى سنوات حكمه، بحملة تأديبية فى فلسطين، التى كانت قد تمردت عند سماعها لنبأ وفاة أبيه(١٣١). ولذا، كان قد اضطر أن يحاصر، ثم يستولى، على التوالى، على عسقلان الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ثم «جزر»، الواقعة على الطريق المؤدى من السهل الساحلى إلى هضاب الضفة الغربية، ويانو أمو، جنوب غرب بحيرة طبرية(١٣٢). فهناك كانت قد قامت بعض حركات التمرد والرغبة فى الاستقلال مهددة بذلك أمن وأمان «بيت شان» المصرية. وبعد أن حُجمت هذه الحركات الثورية، فسرعان ما خمدت تماماً من تلقاء نفسها. فلم تكن تلقى أى تعضيد أو تشجيع من الحيثيين، مثلما كان يحدث فى الماضى البعيد: فلقد التزم، بعد ذلك بنصوص معاهدة رمسيس الثانى، التى عادت على مصر بمنافع جمة. ولكن هناك أمر جدير بالذكر: فخلال تلك المعركة، وعلى طريق العودة بعد انتهائها، يبدو أن جيش مرنبتاح قد أراد أن يزيد من مجال انتصاراته، فقد قابل فى طريقه، عند جبل «إفرايم(١٣٣)» فى منطقة السامرى، فيما بين القدس، شعبا يدعى «إسرائيل»، وقاتله. وتجدر الإشارة إلى أن المصريين لم يكونوا ليعلموا مطلقا بوجود هذا الشعب. ولقد تنازل الملك، وأمر بأن تمثل هذه الواقعة على جدران الكرنك(١٣٤). وأحيا ذكراها من خلال التراتيل الخاصة بانتصاراته(١٣٥).



جيش مرنبتاح وهو يحاصر عسقلان



خريطة لقلعة الخروبة على طريق «دروب حورس»

وبعد هذه المعركة، ساد السلام ثانياً بين مصر وفلسطين. بل إن المراسلين، الذين كانوا يقومون بمهمة الربط والتراسل فيما بين بر – رمسيس وبين حامياتها المصرية، لم ينقلوا أية أخبار عن وجود أى اضطرابات، خلال فترة حكم رمسيس الثالث، إلى الحراس القائمين بالحراسة على مراكز حدود «سيل»(١٣٦)، عندما كانوا يمرون بهم. بل لقد استطاع مرنبتاح أن يقيم هناك على طول طرق اتصالاته، بعض المراكز الإضافية، مثل «آبار مرنبتاح بجانب التلال(١٣٧)»، وهى بدون شك، نبع مياه نفتواح «Nephtoah»(١٣٨)، الذى جاء ذكره بالتوراة، وقد حدد البعض موقعه فى «ليفتا» غرب القدس(١٣٩). وخلال حكم سيتى الثانى، كانت حصون «طريق حورس» (الطريق الساحلى لشمال سيناء) ما تزال تأوى الجنود المصريين، ومنها حصن الخروبة، الذى تم اكتشافه مؤخرا (١٤٠)، وكان الملك، يستطيع بكل سهولة، إرسال حملات من أجل جلب النحاس من تيمنة، شمال إيلات(١٤١). وربما نهجت الملكة تاوسرت(١٤٢) نفس نهجه.

ومن داخل آسيا الهادئة المستكينة، انبثق فجأة، وعلى حين غرة بعد ذلك، خطر داهم لم تكن مصر تتصور مداه و لا استتباعاته. ففى العام الثامن من حكم رمسيس الثالث، ومن خلال بعض الأخبار التى نقلها بعض اللاجئين الهاربين من مدينة عمور، الواقعة على الساحل السورى، علم الملك بهذه الأنباء الرهيبة: «من جزرها بوسط البحر، قامت البلاد الأجنبية بتكوين تضامن فيما بينها. ولقد بدأ الغزاة تحركهم بالفعل، وانتشروا فى كل مكان فى دفعة واحدة، لا يبغون سوى الدمار والخراب. ولم تستطع أى بلد من البلاد أن تقاومهم: خيتا، وقوده [على خليج اسكندرون] وقرقميش [عند منحنى الفرات] وأرزاو [صقلية] و ألاشيا [جزيرة قبرص] قد دمرت عن آخرها (١٤٣). ثم علم بعد ذلك، أن «الغزاة، قد اتخذوا معسكراً موحداً فى عمور، بعد أن قضوا على شعبها ودمروا أراضيها حيث أصبحت أرضاً قفراء لا أثر فيها لأى حياة. وأنهم قد استولوا على «إدارة مصر». وأخيراً، عرف أيضاً، أن «التحالف الذى تم بين الغزاة يتكون من بولاستى، وسيكالا، وشكالوشا، ودنونة، و أواشاشا(١٤٤)».

المصريون والإيجيون

بخلاف شكالوشا، و أواشاشا، الذين لا نعرف عنهم شيئاً يذكر(١٤٥). يلاحظ أن الشعوب التى جاء ذكرها بذلك النص قد أثارت انتباه العالم على مدى قرون عديدة: فإن بولاستى (الفلسطينيين بالتوارة) قد أعطوا اسمهم لفلسطين بعد ذلك، أما سيكالا (وهما سيكاوى، وسيكولس فيما بعد) فقد أعطوا اسمهم لصقلية، أما عن دانونا أو دانوى (الدانيين)، فقد جاء ذكرهم كثيراً فى إطار الآداب الكلاسيكية. ولكن خلال تلك الحقبة من أوائل القرن الحادى عشر ق.م، كانوا مجرد أفرع متباينة لكيان بشرى ضخم، يسمى «بشعوب البحر(١٤٦)». وكانوا يميلون دائماً إلى الهجرة والترحال.

والعديد من هذه الشعوب، أو الشعوب الحليفة لها، كان المصريون على علم بوجودهم إلى حد ما، فمنذ عهد تحتمس الثالث، أى فى أواخر النصف الأول من الأسرة الثامنة عشرة، أى قبل هذه الفترة التى نتناولها الآن، بحوالى قرنين ونصف، كان المصريون يعلمون بوجودهم، فى أقصى الشمال، «بجزر قائمة فى وسط البحر» – الأرخبيل الإيجى – بل إن طيبة كانت تتضمن فى جنباتها البعض من هؤلاء القوم: إنهم بمثابة أجداد الإغريق. إنهم ممن يمكن أن يطلق عليهم بكل بساطة اسم «المقدونيين» ويستندون على حضارة فائقة الاتساع. والبعض منهم، كانوا يحضرون كثيراً إلى مصر من أجل أن يقدموا للفرعون، تعبيراً عن روابط الصداقة، العديد من مصنوعاتهم الفاخرة. وبالرغم من ذلك، فإنهم كانوا يثيرون القلق والريبة. إنهم من ينطبق عليهم تماماً هذا المثل اليونانى القائل: «إننى أخشى الدانيين، حتى ولو كانوا يحملون هدايا». حقيقة أن تحتمس الثالث، كان يستقبل البعض منهم فى بلاطه، ولكنه، على الرغم من ذلك، وجد أن الضرورة تستلزم، أن ينشأ فى نطاق جيشه، ما يمكن أن يسمى بوظيفة «قائد البحر»(١٤٨)، من أجل مراقبة ساحل الدلتا. ولقد استمرت هذه الوظيفة قائمة حتى أواخر عصر الرعامسة. لأن هؤلاء المقدونيين كان لديهم عتاد بحرى فائق التطور؛ وبناء احتلوا مكان الصدارة، لأمد بعيد، بشرق حوض البحر الأبيض المتوسط لنوعين من الممارسات لا يكادا يختلفان كثيراً عن بعضهما بعضاً، ألا وهما: التجارة، والقرصنة «إن الإغريق القدامى، الهمج البرابرة الذين كانوا يعيشون فى السواحل والذين يقطنون الجزر، قد اندمجوا واختلطوا ببعضهم بعضاً فى

عرض البحر، ومارسوا القرصنة [——]. فالقرصنة من وجهة نظرهم أمر غير مشين. بل بالعكس، إنها مثار للفخر» (١٤٩).

وفى أواخر العام ١٤٥٠ ق.م، استطاع المقدونيون أن يستولوا على جزيرة كريت، القريبة من أفريقيا. وبذا، عملوا على تدمير الحضارة المينوية، وقطعاً، فمنذ ذلك الحين، غدت الدلتا تقاسى خلال كل صيف، أى فصل الرياح المواتية، من غارات هؤلاء القراصنة. «كنت قد أصبحت، بين الكريتيين مثاراً للاحترام والتوقير [——]. وقد اشتقت أن أبحر نحو مصر [——] وقمت بتجهيز تسع سفن؛ سرعان ما امتلأت بالراغبين فى الإبحار [——]، وأبحرنا، وكانت الرياح الشمالية مواتية تماماً، وقوية، وأخذنا نمخر عباب البحر، بكل سهولة ويسر، وكأننا ننساب فوق مياه نهر من الأنهار [——]. وفى اليوم الخامس، وصلنا إلى مصر ذات النهر البديع [النيل] ودخلت بسفنى التسع إلى هذا النهر. وأصدرت أوامرى إلى المراقبين بأن يقفوا للمراقبة. ولكنهم اندفعوا منساقين لرغبتهم فى اكتساح الحقول المصرية الجميلة، واختطاف النساء والأطفال العزل، وقتل الرجال وتعالت صيحات الحرب فى جنبات المدينة. وسمع جميع الأهالى هذه الصيحات، وخرجوا من بيوتهم فى ساعة الفجر. وامتلأ الوادى كله بالجنود المشاة والفرسان وأيضاً بوميض السيوف. وألقى زيوس، الذى يطلق الصاعقة، الرعب والهلع، فى قلوب رجالى. ولم يعد أحد منهم يستطيع البقاء ومواجهة القوة العاتية. وحاقت بهم الكارثة من كل جانب. وطاح الجنود المصريون تقتيلاً وفتكاً بأسنة السيوف البرونزية فيمن كانوا معى. وقاموا بأسر الأحياء منا، من أجل أن يعملوا عندهم مرغمين»(١٥٠). فها هى «الأوديسة»، بالرغم من أسلوبها الأدبى الغريب من نوعه، ومن تاريخها القديم للغاية (القرن الثامن ق.م)، تقدم لنا، من خلال هذا النص، أوضح دليل على تلك الممارسات، وعلى نمط حياتهم.

وخلال حكم أمنحتب الثالث وحكم أخناتون (١٣٨٧-١٣٣٠)، ذكرت النصوص المصرية القديمة بعض الأسماء الإضافية «لشعوب البحر» المقبلين. وبذلك، فقد عرفنا، أن صقلية الشرقية، قد تضمنت مملكة دانونا(١٥١). ولقد شغل وظيفة رئيس الحرس الفرعونى وقتئذ، أمير من جبيل، بالإضافة إلى الكثير من الجند المرتزقة الشرادنة(١٥٢). ولكننا علمنا أيضاً، بوقوع حوادث قرصنة، ضد قبرص والمشرق،

بواسطة بعض البحارين من بلد اللوكى، وهى «ليس» فيما بعد، الواقعة على الساحل الجنوبى الغربى من الأناضول(١٥٣). وفى أقصى الغرب، نجد أن المصادر الحيثية المعاصرة لتلك الحقبة، من ناحيتها، قد تشير إلى مملكة أهياوا أى الأشايى الذين كانوا يثيرون القلق من ناحية رغبتهم الجامحة فى الفتوحات.

وبعد انقضاء مرحلة العمارنة، وبالرغم من أن مصر كانت قد استعادت الكثير من قواها المفقودة، فإنها، بالرغم من ذلك، كانت تقاسى من هجمات القراصنة الإيجيين، على سواحلها. بل إن رمسيس الثانى نفسه، خلال السنتين الأوليين من حكمه (١٢٧٩-١٢٧٨)، «قد اضطر لملاقاة ومجابهة «الشرادنة ذوى القلب الجسور [——] الذين قدموا [——] على متن سفنهم الحربية، من أواسط البحر (١٥٤)». ولقد أسر العديد من هؤلاء الشرادنة وكانوا يتميزون خاصة بكفاءتهم وبراعتهم الحربية. وربما كانوا ينحدرون من أصل الشردانو فى «جبيل». وبعد مرور عدة قرون، اشتق اسم سردينيا من نفس اسمهم الشرادنة. ولوحظ أنهم، خلال العام الخامس من حكم رمسيس الثانى، كانوا يكونون جزءاً هاماً من حرسه خلال معركة قادش(١٥٥). ولهذا، فمنذ ذاك الحين، من خلال طراز أسلحتهم المقدونية (درع مفصلى، وسيف مستطيل مثلثى، وترس مستدير) وخوذاتهم التقليدية (خوذة ذات قرنين يعتليها قرص مثبت فوق فرع قصير)، قد أصبحوا، واستمروا حتى نهاية الدولة الحديثة، يشكلون جزءاً متميزاً بارعاً فى نطاق الجيش المصرى(١٥٦). ومع ذلك، لم يكن الشرادنة خلال حكم رمسيس الثانى هم فقط أحد شعوب البحر الذين عرفنا بوجودهم. ففى قادش، وضمن حلفاء الحيثيين، كان يوجد من يسمون «باللوكا» («اللوكى» فى مصادر الأسرة الثامنة عشرة)، وأيضًا من ينتمون إلى مدينة دردانيا (ومنها اشتق اسم دردانيل)(١٥٧). والجدير بالذكر هنا، أن هؤلاء الليشيين، والدردانيين، واللوكيين قد ذكروا فى «الإلياذة» ضمن أعداء الإغريق الآخيين(١٥٨). وربما أن ملحمة «حرب طروادة»، قد احتفظت لنا حتى الآن، بذكرى المقاومة التى أبدتها إحدى المدن الحليفة للحيثيين ضد غزوات الأهياوا فى الفترة الواقعة ما بين ١٣٠٠ – ١٢٠٠ ق.م.

وبعد فترة وجيزة من العام ١٢٠٠ ق.م. عانت كل من إيجة والشرق الأدنى من جفاف وجدب، سبق أن ذكرناها آنفًا فى مقدمة هذا الفصل. ولا شك أن ذلك قد جر

فى أعقابه الكثير من مظاهر المجاعة والقحط والاضطرابات حول منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط. واضطر مرنبتاح أن يرسل كميات من الغلال إلى الحيثيين(١٥٩) بل لقد طالب الحيثيون، بأن ترسل كميات أخرى من الغلال لحليفهم، أمير أوجاريت (الآن تسمى : رأس شمرة)، الواقعة على الساحل السورى(١٦٠). وربما ترجع محاولة الغزو الليبى لمصر فى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث إلى مظاهر المجاعة والقحط السائدة وقتئذ. وتبين الأناشيد والتراتيل التى تتغنى بتدمير الليبيين والقضاء عليهم، أنه كان يصاحب جحافل الغزاة منهم، حوالى ثلاثة آلاف «من سكان بلاد البحر»، أى الأكيواشا، و «الآخيين»، والتوروشا (الأتروسكيين المقبلين)، والشكالوشا، والشرادنة، واللوكيين. ولا شك مطلقاً، أن هذه المساهمة والمشاركة، تبين أن الليبيين وقراصنة إيجة، كانوا يرتبطون معاً بصلات صداقة وود عريقة القدم. ولقد كان الطرفان يتشاركان ويتعاونان معاً منذ عصور سحيقة: فإن الإيجيين كانوا قد اعتادوا، منذ أمد بعيد، عند إبحارهم من جزيرة كريت متوجهين نحو سواحل الدلتا لنهبها وسلبها، أن يرسوا ويستريحوا قليلاً على السواحل الليبية الصديقة. ولا ريب إذن، أنه من أجل مراقبة تحركاتهم المريبة، وتحركات الليبيين أيضاً، عمل رمسيس الثانى على إقامة هذا الصف من القلاع فى مرمرية. وفى العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث، وإبان المعركة الثانية التى شنها الليبيون على مصر تبين أنهم كانوا قد تسلحوا تسلحاً كاملاً بالسلاح الذى قدمه لهم المقدونيون (فيما بعد فى هذا الفصل – ٦).

نهاية أوجاريت وخيتا

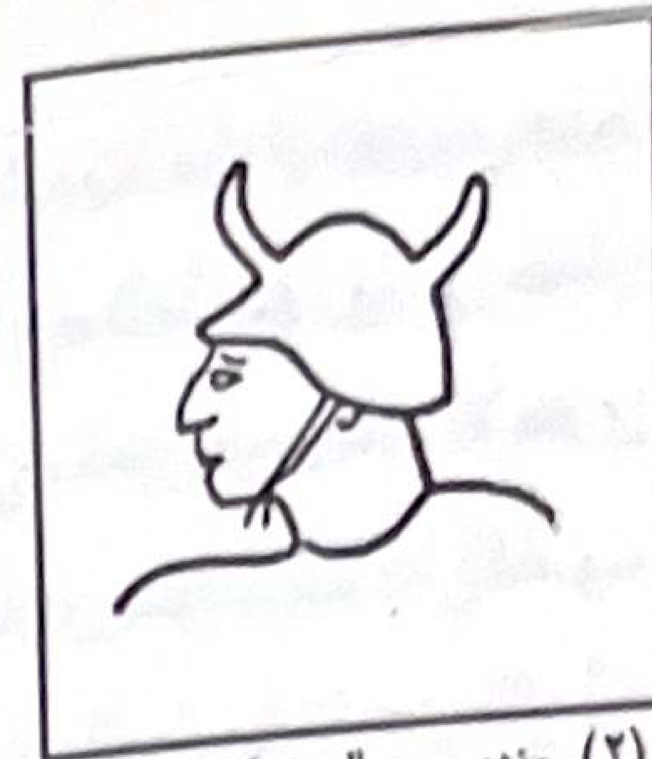
فى الفترة الواقعة ما بين حكم مرنبتاح(١٦١) ورمسيس الثالث، وبالتحديد، قبيل ارتقاء رمسيس الثالث العرش بفترة وجيزة، تفجرت الأزمة التى أودت بعدد كبير من بلاد الشرق الأدنى القديم. وبالتالى عانت مصر أيضاً، فى نهاية الأمر، من استتباعاتها. فلقد عرفنا، من خلال بعض القصاصات المتبقية من الرسائل الدبلوماسية التى كان يتبادلها حمورابى، آخر ملوك أوجاريت، أن قبرص، وجيتا، وكافة أنحاء ساحل المشرق كانوا يخشون دائماً خطر «الشيكالايو» [---]، الذين كانوا يقضون كل حياتهم فوق متن السفن». ومثلهم مثل الفايكنج أو النورماندين الذين ظهروا بعد ذلك، انبثق هؤلاء «السيكالا» كما تسميهم المصادر المصرية، بغتة من قلب البحر. وكانوا

يبحرون جماعياً فى أعداد كبيرة من السفن. ويهاجمون المدن الساحلية ويسلبونها وينهبونها. ثم يختفون فجأة مثلما ظهروا. ويحملون معهم غنائم فاخرة وثمينة؛ ليظهروا فى اليوم التالى على بعض السواحل الأخرى. وقبيل الكارثة النهائية بوقت وجيز، أرسل ملك خيتا المدعو سوبيلوليوما الثانى، حليف أوجاريت، بخطاب إلى حمورابى من أجل طلب بعض المعلومات عن تلك العشائر الغريبة الشأن. بل وأظهر رغبته الشديدة فى أن يقوم هو شخصياً باستجواب أحد ضباطه، الذى كان قد اعتقله هؤلاء القراصنة ثم أفرجوا عنه بعد أن حصلوا على فدية مادية كبيرة. ولم يختلف مضمون رسالة سفير أوجاريت إلى مليكه عن ذلك(١٦٢).

ولكن، بعد ذلك، بفترة وجيزة، تتابعت الأحداث فى أثر بعضها بعضاً. فلقد سارع ملك خاتى بتعبئة جيشه وتجهيز سلاحه البحرى؛ وكذلك قامت كل من أوجاريت وقبرص. وتوجهوا جميعاً، إلى ساحل لوكا، لمجابهة غزو برى وبحرى فى آن واحد، من ناحية الغرب. وعندئذ طلب ملك أوجاريت وهو فى حالة عجز يرثى لها العون من ملك قبرص قائلاً له : «هناك بعض السفن المعادية فى عرض البحر تقترب من أراضينا». ولكن ملك قبرص، كان عاجزاً هو الآخر فلم يملك سوى أن ينصحه، بأن يفعل مثله، وأن يقوى من تحصين مدنه. وهاجر سكان الجزيرة السهول والوديان، واندفعوا ليحتموا بداخل ما يشبه القرى الحامية، التى كانت قد شيدت فوق الجبال. بعد ذلك، بوقت وجيز، علمنا أن الشيكالا قد نزلوا على مقربة من أوجاريت، حيث ارتكبوا أعمال السلب والتخريب والتدمير فى كافة نواحيها. ثم دمرت البحرية الحربية الخاصة بأوجاريت تدميراً كاملاً. ثم علم حمورابى، بواسطة بعض مراسليه، أنه قد شوهد أسطول ضخم يتكون من عشرين سفينة معادية تمخر عباب البحر فى المنطقة الواقعة ما بين قبرص وصقلية، ويتجه ناحية المشرق. ثم ساد السكون التام. وتدل الشواهد الأثرية عن تدمير كامل ووحشى لأوجاريت(١٦٣). وفى نفس الفترة، تعرضت قبرص أيضاً لعمليات تخريب وتدمير رهيب. ولكن خيتا فقط هى التى استطاعت أن تصمد وتقاوم. بل وتصدت لبحرية الشيكالا، وحاولت أن تقاوم نزولهم إلى ساحل صقلية. وهنا أيضاً، وفجأة، صمتت المصادر ولم تذكر شيئاً. وبدورها دمرت العاصمة الحيثية. وانمحى اسم «خيتا» من التاريخ.



(١) جندى من المرتزقة الشرادنة.



(٢) جندى من المرتزقة السيكالا.



(٣) جندى من المرتزقة الفلسطينيين.

وهكذا، وصلنا إلى العام الثامن من حكم رمسيس الثالث. وانتصرت «شعوب البحر» انتصاراً كاملاً. وكانت مجموعة من سفنهم قد توجهت ناحية الشرق، ودمرت «قرقميش»، وغزت «أمورو»، وأقاموا بها أحد معسكراتهم. وبقيادة أميرهم، توجه جمع من المستوطنين لاجئين إلى مصر(١٦٤)، ونقلوا إليها هذه الأنباء. ولكن، فى نفس هذا الوقت، كان الغزاة البحريون قد اندفعوا من «أمورو»، إلى الجنوب، وعبروا حدود الممتلكات المصرية فى آسيا، التى كانت قد حددتها معاهدة العام الحادى والعشرين من حكم رمسيس الثانى. وفى نفس الحين، واتباعًا لنفس التكتيك الذى استطاعوا بواسطته، قبل ذلك، أن يقضوا على أوجاريت نهائيًا، شوهدت سفنهم وهى تجوب المنطقة القريبة من الدلتا، ولكنهم فى نفس تلك اللحظات كانوا ينزلون جيوشهم على ساحل فلسطين، فى المنطقة الواقعة ما بين «دير البلح» و «تل مور». وبالرغم من ذلك، استطاعت الحاميات المصرية القائمة هناك أن تقاومهم. ولكنهم، تمكنوا من اكتساح عسقلان، وأشدود، وبعض المدن الواقعة بالداخل. وهكذا استطاعوا أن يثبتوا ما يمكن أن يسمى برأس الجسر فى أرض فلسطين(١٦٥) المقبلة.

ولكن هذا الخطر الداهم الذى كان يهدد مصر، قد أنقذها منه ملكها بما يتمتع به من فطنة ودراية ومقدرة: «لقد أعددت جبهتى فى «جاهى» (فلسطين)، التى جهزت لمواجهتهم، بالقوات المحاربة المتأهبة لتلقى الأوامر، وبالأمراء (المحليين)، وبقادة المواقع وبسلاح عربات الماريانو. وحصنت منطقة مصب النيل لتصبح وكأنها جدار حصين، بواسطة السفن الحربية، والقادسات والسفن الحارسة [---]، وجميعها قد جهزت، من المقدمة إلى المؤخرة، بالجنود الشجعان المدججين بسلاحهم، بالإضافة

إلى فرق الهجوم التى اختير أفرادها من أكثر الجنود مقدرة ومهارة فى مصر. بل هم يعدون وكأنهم سباع تزأر فوق الجبال؛ وزودت أيضاً بمركبات [---] أعدت بأكثر الجنود إقداماً وجسارة يجيدون عملهم ويتقنونه، وبجياد يقظة، متأهبة للركض ووطء جنود البلاد الأجنبية (١٦٦) تحت حوافرها».

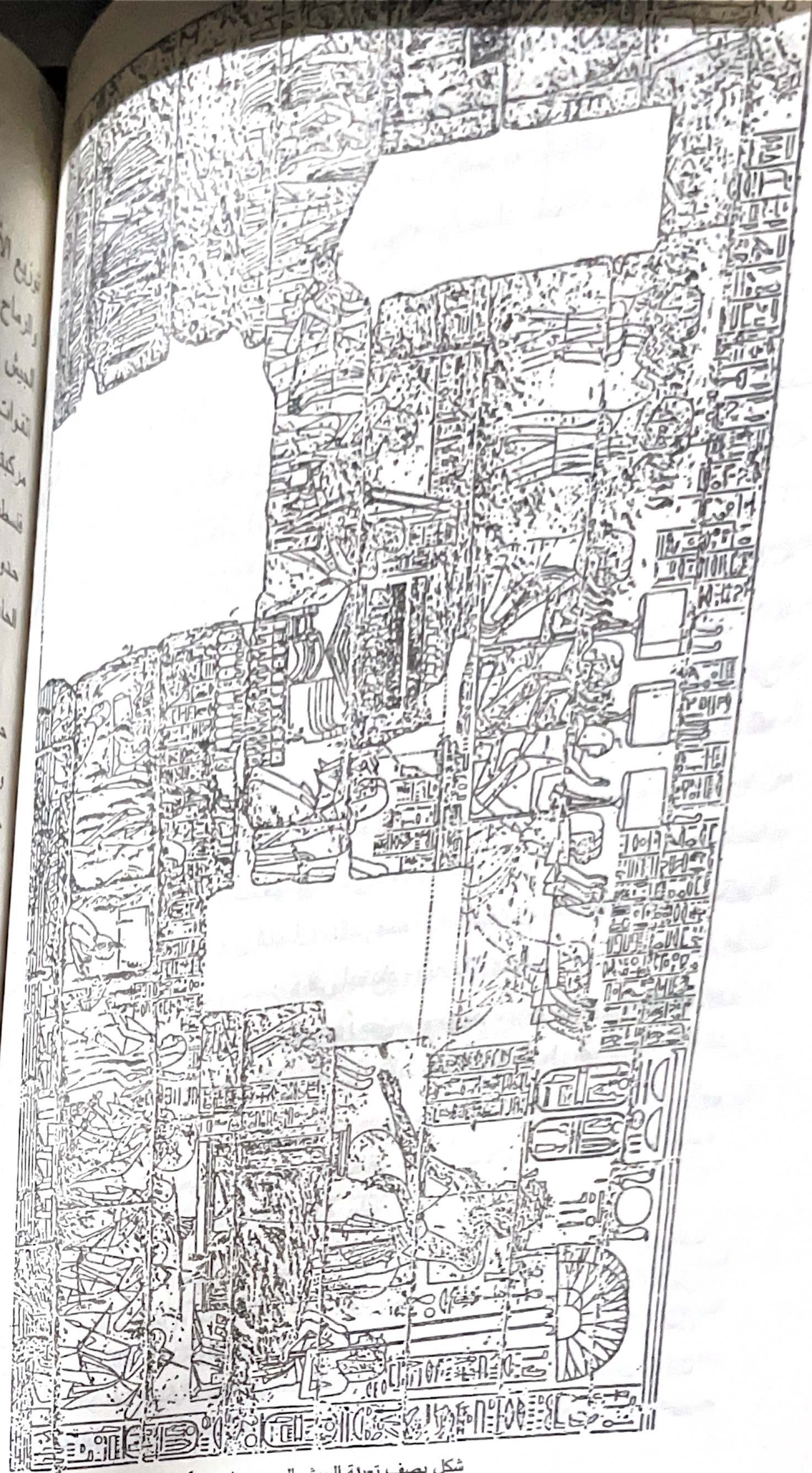
معركة رمسيس الثالث

جاء ذكر هذه المعركة، على جدران مدينة هابو، من خلال نص أدبى تحت عنوان : «النص العظيم بالعام الثامن»(١٦٧). ولقد أحيا ذكراها أيضاً، من خلال سلسلة من النقوش البارزة تتكون من ستة مناظر(١٦٨)، فوق الواجهة الشمالية للمعبد(١٦٩). ومن خلال هذه اللوحات، نجد أن اللوحة الأولى تمثل كبار موظفى الدولة وعلية القوم وقادة الجيش المصرى، وقد استدعاهم الفرعون. وتبدو كل مجموعة من قادة الجيش وهى حاملة للشارات الدالة على وحداتها، وهم ينتظرون جميعاً قدوم ملكهم فى بهو بقصره فى بر- رمسيس(١٧٠). وفجأة، بدأ نافخ البوق يعلن عن قدوم الملك وظهوره «بشرفة التجلى»، وقد وقف على جانبيه اثنان من حاملى المراوح الكبيرة. وركع الجميع أمام الملك، واستمعوا إليه فى ذهول ودهشة وهو يعلن بنفسه، الأنباء المأساوية التى وصلته لتوها من آسيا : «لقد جاء الأجانب من بلادهم الواقعة بجزر وسط البحر. وهم يتجهون نحو مصر ؛ فى اعتداد وثقة بقوتهم»(١٧١). ولكن سرعان ما انطلق هذا الجمع بالهتافات والتهليل تعبيراً عن ترحيبهم بأوامره التى أصدرها من أجل تعبئة الجيش. حيث قام على الفور الأمير وريث العرش المسئول المباشر - والقائد الأعلى للقوات المسلحة - بمصاحبة أركان حربه وحراسه، بنقل القرار الملكى إلى كبار ضباطه، من أجل تنفيذه. وفى نفس اللحظة، جلس أحد كتبة الجيش متربعاً أمامه على الأرض وانهمك فى كتابة ما كان يمليه عليه.

وعلى الفور، بدأت الأجهزة المختصة بتجهيز الوحدات المقاتلة. وتحت إشراف بعض الضباط المساعدين، بدت مجموعة الجنود المشاة وراكبو العربات، المكونة من بعض المرتزقة الشرادنة والنوبيين، وهم ينتظرون دورهم فى نظام بالغ من أجل الدخول إلى الترسانة الملكية. وبداخل هذه الترسانة، وتحت إشراف كتبة الجيش الذين يقومون بحساباتهم فى دقة متناهية لعد وحصر الأسلحة، بدأ بعض المختصين فى

توزيع الأسلحة على الجنود ؛ ومنها : الأقواس، والجعاب المليئة بالسهام، والسيوف، والرماح، والخوذات، والدروع، التى كانت تبدو مكدسة فى أكوام ضخمة خلفهم. وبدا الجيش على أهبة الاستعداد التام، وأصبح متأهباً لكى ينطلق إلى الجبهة من أجل دعم القوات المحاربة القائمة هناك، التى تحاول صد هجمات الغزاة. ووقف الملك فى مركبته ونقل الأمر إلى نافخ البوق لكى يعلن قراره بالتحرك. وبدأ الجيش يتحرك نحو فلسطين(١٧٢) واتخذ «طريق حورس» الذى كان يتضمن عند كل مرحلة، فيما بين حدود «سيلى» ومنطقة «غزة»، مراكز المياه محصنة تحصيناً قوياً وتهيمن عليها الحاميات المصرية.

بعد ذلك، تكشف النقوش البارزة بمدينة هابو عن منظرين يمثلان معركتين حربيتين برية وبحرية فى آن واحد. وخلالهما، جابه رمسيس الثالث شعوب البحر وهزمهم فى موقع كان العدو يحاول النزول به على الساحل. وحقيقة، لم يستطع أحد حتى الآن، أن يحدد تماماً الموقع الجغرافى لأى واحدة من هاتين المعركتين، ولكن، لا يستبعد أبداً، أن المعركة الثانية، على الأقل، قد قامت على ساحل فلسطين، بمنطقة غزة. فهناك، أوضحت لنا بعض الآثار، وفقاً لما ذكرنا(١٧٣) آنفًا، أن الغزاة القادمين من البحر قبل ذلك بفترة وجيزة، قد قاموا بأعمال نهب وتخريب وتدمير فادحة. وأما عن المعركة الأولى، فإن النقوش البارزة على جدران مدينة هابو، تبينها وكأنها قد وقعت بموقع تكثر به الهضاب؛ وحيث نجد سرباً من المركبات المعادية: عربات حربية، يركبها رجال مسلحون بالأسلوب المقدونى (دروع مستديرة، وسيوف مستطيلة مثلثة الشكل، وحراب، ودروع مفصلية). وتأتى فى أثرها عربات نقل ثقيلة تجرها فحول الجاموس؛ وقد حملت بنساء وأطفال المحاربين الغزاة ومعهم كل حاجياتهم وممتلكاتهم. وبالقطع، لم يكن من الممكن أن ينتقل مثل هذا الجمع بواسطة السفن، ليصل إلى الساحل. ولا بد أنه يمثل المقدمة الثقيلة بهذا الغزو؛ وقد جاءت من أمورو بالطريق البرى، فى نفس الوقت الذى كان فيه رمسيس الثالث يعد جيشه ويجهزه. ولذا، فربما، فى هذا الحال، أن تكون تلك الهضاب التى أبيدوا عندها هى هضاب شيفيلا، بسهل جودة، الذى كان يقع وقتئذ تحت سيطرة قوية من جانب المصريين(١٧٤)؛ وموقعه، فيما بين «لاكيش» و«جزر». ويدل التقدم السريع لغزو الأعداء أنهم لم يأتوا مطلقاً من ناحية الشمال.



شكل يصف تعبئة الجيش المصرى استعداداً للقتال

وعموماً، ومهما يكن الأمر، فقد صورت هذه المعركة، على جدران مدينة هابو، باعتبارها دماراً وهلاكًا للغزاة. وتم ذلك، بواسطة كمين أعد لهؤلاء الأعداء. فمن خلال أحد المنحنيات التى ربما قد توارى وراءها، ومعه سلاح مركباته، انقض رمسيس الثالث بغتة، وعلى حين غرة، من الخلف، على صف الغزاة السائر فى طريقه. ولهذا، فاجأهم المصريون وحاصروهم، ولم يستطع مشاتهم أو راكبو العربات الحربية من هؤلاء الأعداء أن يلموا صفوفهم من جديد لخوض القتال، خاصة أنهم كانوا متميزين بواسطة خوذاتهم غير التقليدية، باعتبارهم من «البلست». وغدت أرض الوادى كلها مغطاة بجثثهم التى قطعت أيديها اليمنى، فى حين أن الباقى منهم وقع أسيراً فى أيدى الجنود المصريين. وعلى ما يبدو، لم يكن ما تبقى منهم على قيد الحياة ليهتم بمواصلة القتال ولكن يرغب فى الاستسلام. وبذلك، كانوا يمثلون بإحدى أيديهم علامة الخضوع والاستسلام. ولم يغب ذلك عن ملاحظة الفنان المصرى، فالتقطه وسجل تفاصيله بكل دقة. وربما عند سماع صراخ النساء بعربات النقل الثقيلة، وهن يصحن رعبًا وهلعًا، ويلقين بأطفالهن من داخل العربات، لعلهم يستطيعون الفرار، بدا شىء من المقاومة من جديد من جانب الجنود الغزاة ؛ ولكنها سرعان ما قمعت وتلاشت تماماً بفضل هجمات الجنود الشرادنة(١٧٥) العتاة الشرسين الذين يعملون بالجيش المصرى.

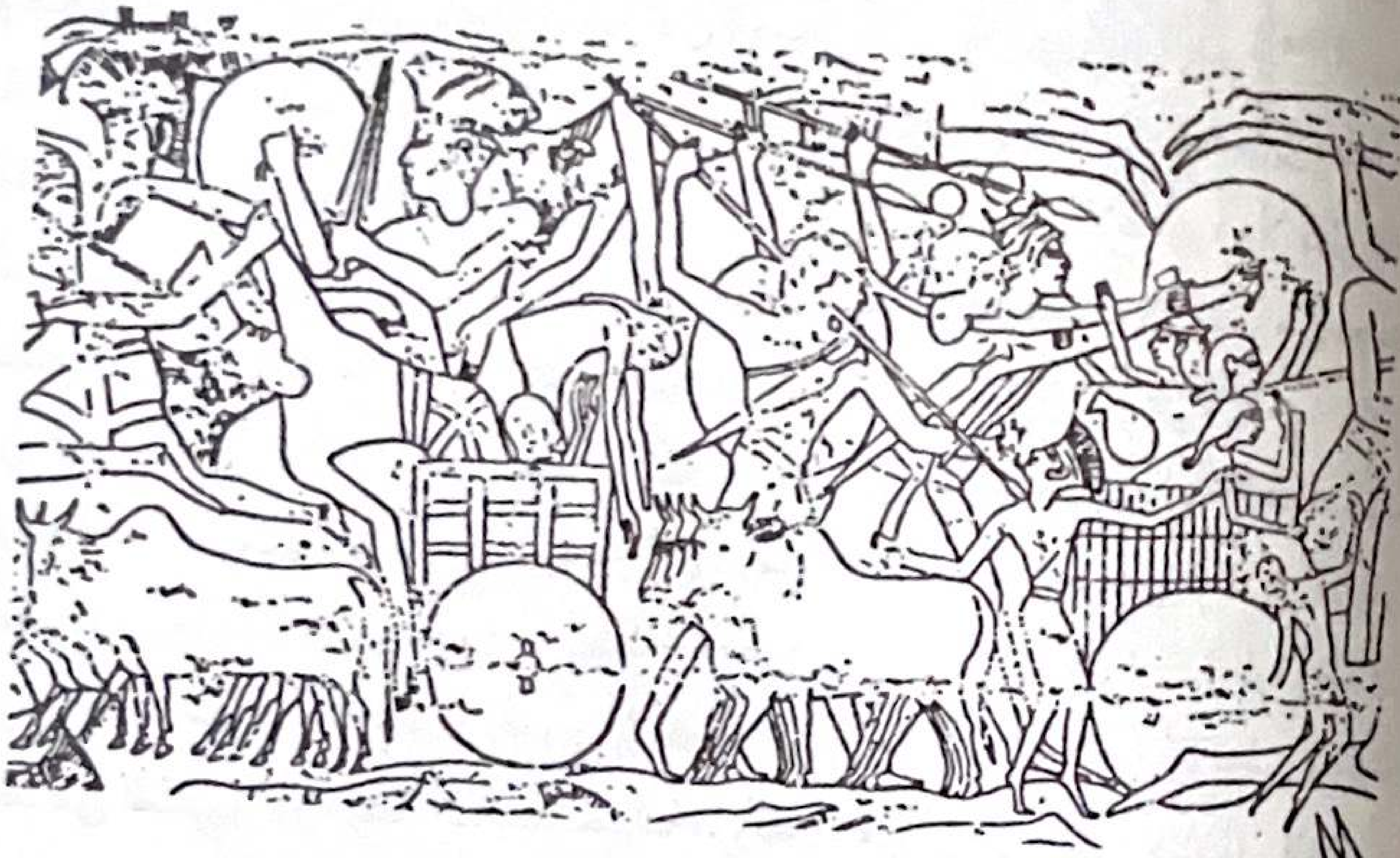
وعلى جدران مدينة هابو، منظر يمثل الملك أثناء رحلة صيد السباع، ذات المغزى الرمزى(١٧٦) الواضح. وبعدها مباشرة لوحة خالدة تمثل المعركة الثانية والتى تعتبر بالفعل فريدة من نوعها وغير مسبوقة فى نطاق من النقش البارز المصرى. وتبدو من خلالها، خمس سفن للأعداء، وقد طويت شراعها، ولا أثر بها لأى جداف، وبالتالى عاجزة تماماً عن أى حركة، وقد زينت مقدمتها بشكل طائر، وهى ترسو بجوار أحد السواحل ؛ ولا شك أن هدفها الأساسى كان إنزال الجنود القائمين فوق متنها. وفوق ثلاث من هذه السفن الخمس نجد جمعا من البلست، المميزين خاصة بواسطة خوذاتهم غير المألوفة. أما السفينتان الأخريان، فكانتا تحملان جنود الليكالا، المعروفين بواسطة خوذاتهم ذات قرنين ورباط من الجلد والتى تغطى تمامًا ظهر الرقبة. وبدا جميع



المعركة البرية



جنود العربات بالجيش المعادى (الفلسطينيون) وهم يستسلمون للجيش المصرى.



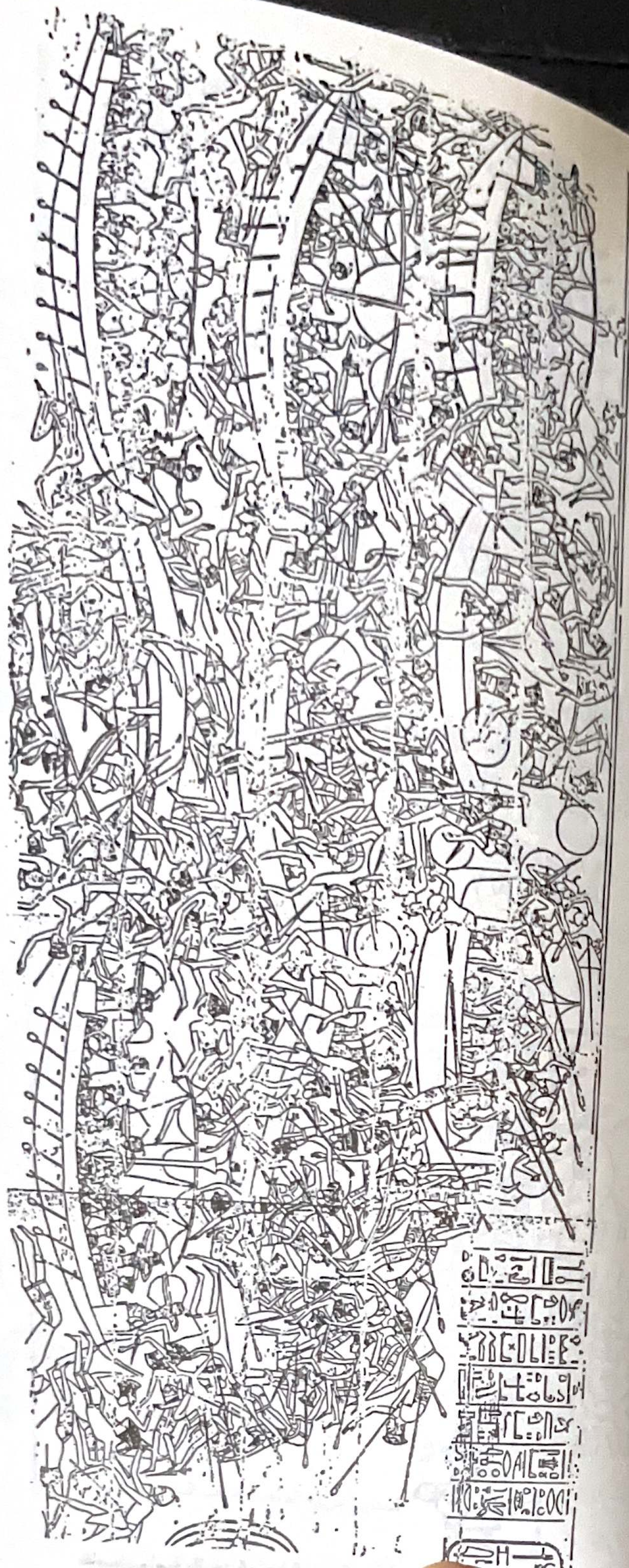
الجنود المصريون يقضون على راكبى العربات الأعداء.

هؤلاء الجند وقد دججوا بالسلاح المقدونى. ولكن بغتة وعلى حين غرة، ظهرت فى الأفق البعيد أربع سفن مصرية، يقودها جمع من الجدافين، وقد زينت مقدمتها بشكل يمثل رأس أسد، سرعان، ما أحاطت بسفن الأعداء، وحشرتها عند الشاطئ. وفى نفس الوقت، كان النبالون والرماة بالمقلاع على ظهر هذه السفن المصرية الأربع يمطرونهم بوابل من المقذوفات والنبال والسهام. وصدمت إحدى سفن الأعداء فترنحت وسرعان ما غرقت. وواحدة أخرى، حطم ساريها بسبب الصدمات، وانهار على طاقمها بأكمله. أما الجنود المصريون، فقد انقضوا على أعدائهم بالرماح والسهام وهم ما زالوا على مقدمة سفنهم. وها هى واحدة أخرى من سفن الأعداء تجنح بكل قسوة على الشاطئ وتلقى بكل من كانوا على ظهرها فوق الأرض. وفى نفس هذه اللحظة، قامت وحدات المشاة المصرية التى كانت متوارية خلف بعض الهضاب، بالاندفاع نحو الشاطئ. ونزل الملك من مركبته، بعد أن أوقفها سائقها ذو الخوذة الحربية والسوط بيده وهو يكبح جماح الجياد. وانضمت إلى الملك وحدة من النبالين، وأخذوا، والملك فى مقدمتهم، يمطرون بعض الأعداء الذين كانوا قد وصلوا إلى الأرض بوابل من السهام والنبال. ولقد تحدث الملك عن ذلك، فيما بعد قائلاً: «هؤلاء الذين أتوا من البحر، [ـــ]، استقبلوا على الشاطئ بسيل من الرماح والنبال. ولقد تم سحلهم [ـــ]، وذبحهم على ساحل البحر. وكوموا فوق بعضهم بعضاً. أما سفنهم وكل ما يملكونه فقد ابتلعه البحر[١٧٧]».

وبدا سطح المياه وقد غطته المئات من الجثث. وهناك بعض من ظلوا على قيد الحياة، سقطوا فى المياه، وتراءوا وهم يحاولون التشبث بمجاديف السفن المصرية، حتى لا يبتلعهم البحر. وأحياناً، كان الجنود المصريون يرفعون البعض منهم، بكل قسوة، من المياه، من أجل أن يكبلوهم بالقيود[١٧٨] ويأسروهم. أما من حاولوا السباحة حتى الشاطئ، فقد اقتادهم جند الفرعون وقيدوهم، ودفعوهم ناحية كتبة الجيش، من أجل تسجيلهم كأسرى حرب. وفى نفس الوقت، كان هؤلاء الكتبة يقومون بحصر الأيدى التى قطعت من جثث الأعداء الذين وقعوا صرعى خلال المعركة. وبعد ذلك كان هؤلاء الأسرى الأعداء يعرضون على فئة أخرى من كتبة الجيش، من أجل وسْمهم على أكتافهم باسم رمسيس الثالث بواسطة أسياخ من الحديد المحمى. بعد ذلك،

كان يتم احتجازهم فى فناء إحدى القلاع القريبة، أى «ميجدول رمسيس الثالث» (ربما
دير البلح ؟). وفى هذا الموقع، كان الفرعون بعد أن ينتهى من المعركة؛ ومن فوق
منصة بجانب جدران هذه القلعة، يقوم باستعراضهم، ويقتسم غنيمة النصر مع أمرائه
وقادته(١٧٩). وكالمعتاد، بعد ذلك، كان الملك يأمر، باقتياد هؤلاء الأسرى إلى موقع
ثالوث طيبة. وفى المنظر الأخير، يبدو آمون وهو يستقبل الفرعون فى معبده. ويعبر
عن رضائه عنه، لأن رغباته قد تحققت بواسطة هذا الفرعون، ويقدم له آلة القيثارة
الخاصة به علامة للنصر(١٨٠).

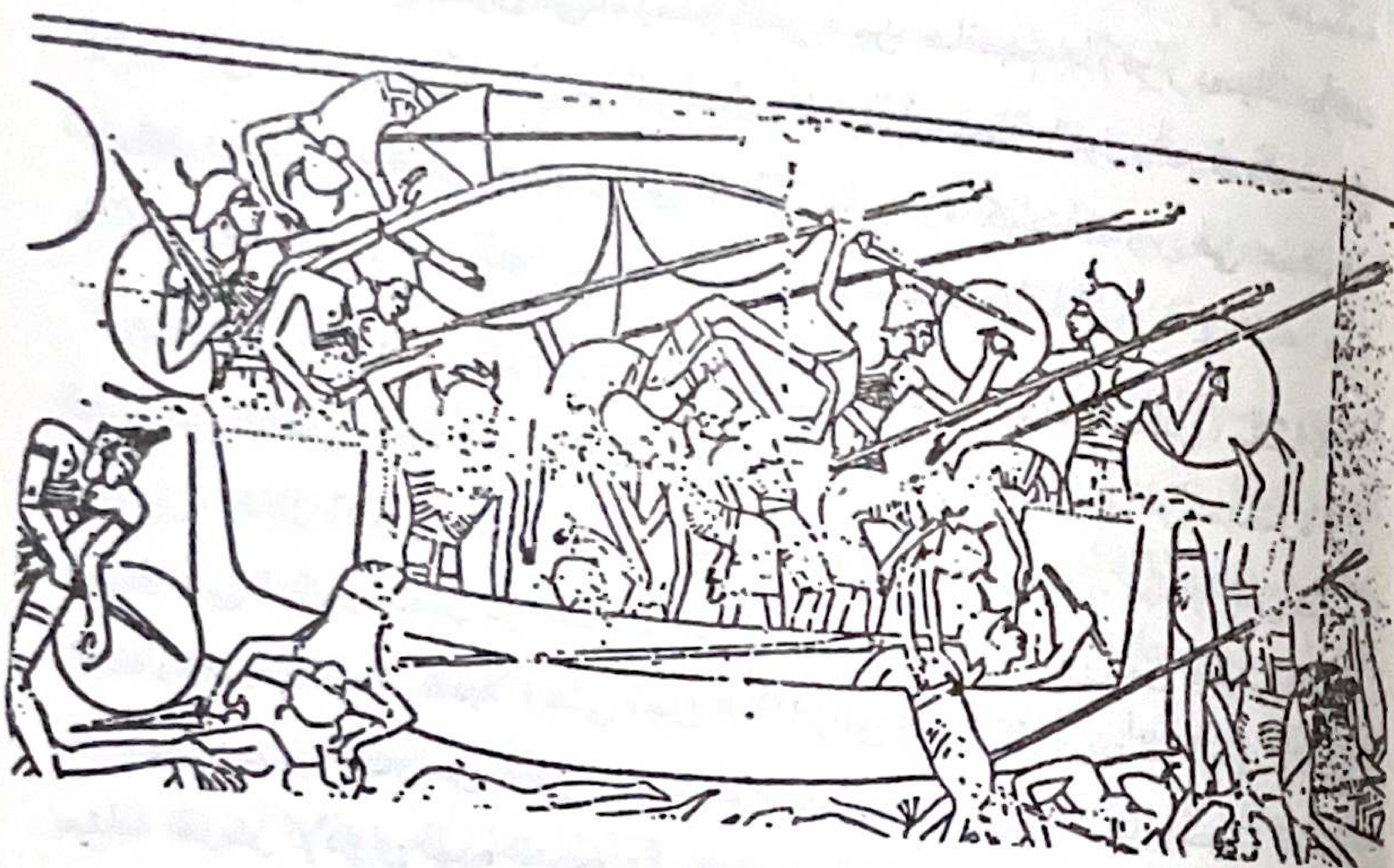
والجدير بالذكر، أن ذكرى هذه الموقعة، قد أشير إليها مرات عديدة خلال فترة
الحكم(١٨١). بل لقد أحييت ذكراها أيضاً، بعد انقضاء حوالى ربع قرن، من خلال
«بردية هاريس - ١»، حيث قال الملك: لقد قضيت على الدانيين القادمين من
جزرهم؛ وحولت السيكالا والبلست إلى مجرد رماد. وكذلك كان مصير الشرادنة [أى
الشكلوشا] والوشاشا القادمين من البحر. لقد أهلكوا معظمهم؛ ووقع الكثير منهم أسرى
بضربة واحدة، واقتيدوا إلى مصر؛ إنهم يماثلون فى كثرتهم حبات الرمال بشاطئ
البحر(١٨٢)». وبخلاف من كانوا من نصيب طيبة، فإن الملك قد منح أعداداً هائلة من
هؤلاء الأسرى لمختلف معابد مصر ليعملوا بها كعبيد: فى منف، وهليوبوليس، وبلاد
أخرى عديدة(١٨٣)، مثل قرية قوص، الواقعة فيما بين الأقصر وقفط، حيث توجد
لوحة ترجع إلى العام السادس عشر من الحكم، تخلد ذكرى هذه الهبة(١٨٤). ومع
ذلك، وكالمعتاد أيضاً، دخل عدد كبير من هؤلاء الأسرى فى الجيش المصرى: فها هو
الملك يقول: «لقد أودعتهم ببعض الحصون والقلاع، خاضعين لاسمى؛ ولا يقل عدد
الشباب منهم المؤهلين للخدمة العسكرية عن مئات الآلاف. وكرست من أجلهم
جميعاً، فى كل عام، ملابس ومؤناً غذائية من خزانتى ومخازن غلالى(١٨٥)». وليس
من الصعب، أن نتبين فعلاً بعض الآثار الدالة على تواجدهم بالمنطقة المحصنة
الواقعة عند مدخل الفيوم (فيما بعد - ١). ومن أجل خدمة الفرعون، الذى لم يكن
يأنف من وجود الأجانب بجواره، استطاع بعض أبناء شعوب البحر أن يشغلوا وظائف
مرموقة فى مصر. فمن المعروف أن شخصاً يدعى «بالوكا» الليشى، قد تولى وظيفة
«الساقى الملكى» ووظيفة «كاتب الخزانة»، ولكنه، فى أواخر حكم رمسيس الثالث،
اعتبر من المتواطئين فى «مؤامرة الحريم»(١٨٦).



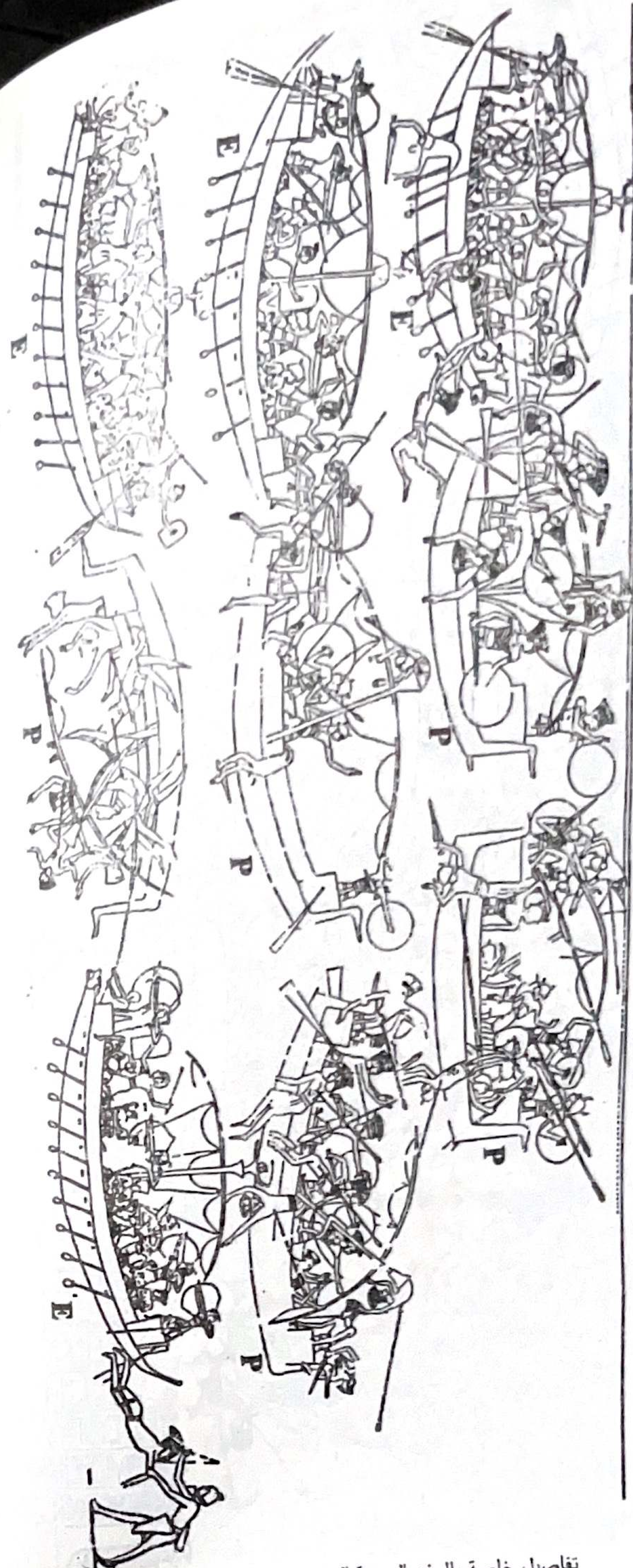
المعركة البحرية



السفن الحربية الخاصة بالشعب الفلسطيني.



السفن الحربية الخاصة بشعب السيكالا.



تفاصيل خاصة بالسفن الحربية المصرية، وبسفن «شعوب البحر»

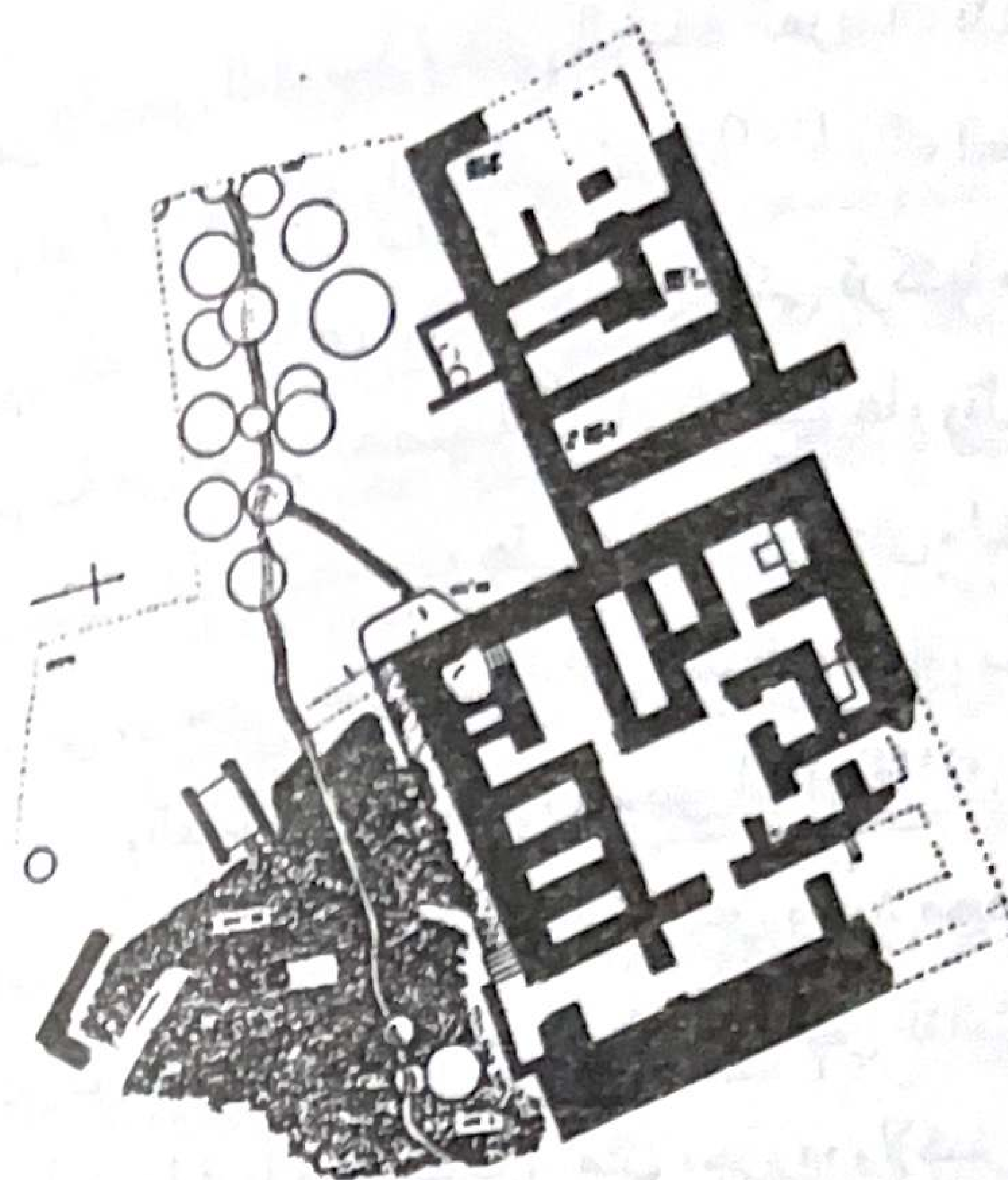
٥- معركة آسيوية

حقيقة إن انتصارات رمسيس الثالث قد عملت على حماية مصر من شعوب البحر، ولكنها، بالرغم من ذلك، لم تساعد على تمركزهم بفلسطين(١٨٧). فبداية من حكم رمسيس الثالث، استطاع «البلست»، أن يحتلوا بعض المدن على ساحل جنوب «يافا»؛ ومنها غزة، وعسقلان، وأشدود، وايركون. أما السيكالا، فقد أنشأوا مدينة ضخمة فى تل كاسيلى، شمال تل أبيب الحالية. واستطاعوا أن يفرضوا سيطرتهم على «دور»، جنوب «الكرمل»؛ ومن منطلقها تمكنوا، لفترة طويلة من أن يجوبوا البحار(١٨٨). أما الشرادنة، فقد استطاعوا، من ناحيتهم، أن ينشئوا ميناء على ساحل «أكر»؛ من أجل أنفسهم، لا من أجل مصر. ولا شك أن نتائج أعمال التنقيب، تجعلنا لا نقر حالياً تلك الآراء البالية التى ذكرت فى الماضى أن وجود هذه الشعوب فى تلك المواقع المتباينة، قد انبثق من «المستعمرات العسكرية» فى مصر الوسطى والتى كان رمسيس الثالث قد خصصها من أجلهم. ولم يفكر الملك فى طردهم من مواقعهم؛ ولكنه ركز اهتمامه على تقوية الوجود المصرى فى آسيا. واكتفى، من جانبهم، بالإقرار بسيادته (فقد احتفظ على الساحل بمركز «تل مور»، شمال «أشدود»). جملة القول، أنه قد قامت بين الطرفين، علاقات حسن الجوار وكفى: وعلى ما يبدو، كانت تمارس فى عسقلون، خلال فترة حكمه، بعض العبادات الخاصة «ببتاح إله منف»(١٨٩).

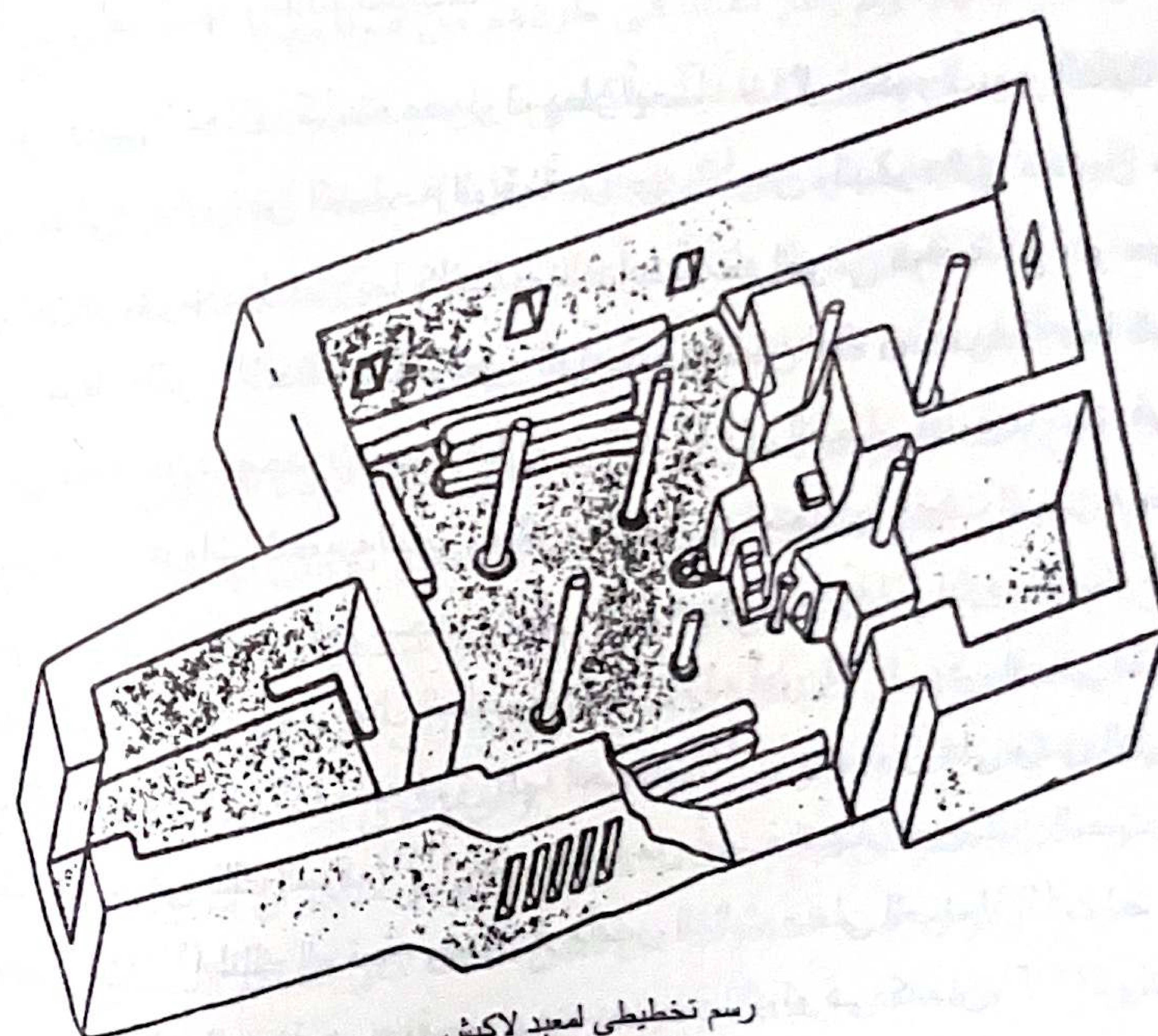
وبذا، ففى واقع الأمر، لم تعد مصر تسيطر على كافة أنحاء فلسطين، مثلما كان الحال فى الماضى. فقد أفصحت بعض الآثار، أن مصر لم تكن تهيمن مباشرة فى فلسطين، خلال الأسرة العشرين، إلا على منطقتين محدودتين. فبداية من نقطة معينة على الساحل شمال دير البلح يوجد «الإقليم الجنوبى»، ويتكون من جنوب قطاع غزة، وشمال النقب ثم شفيلا وحتى «جزر»(١٩٠) وأفق (شرق تل أبيب الحالية). وعلى بعد حوالى عشرة أمتار من البحر، جنوب شرق خان يونس، يبدو أن شاروحين، كانت بمثابة المركز الإدارى لهذه المجموعة من المدن. حيث كان الحاكم المصرى يمتلك فيها قصراً(١٩١) خاصاً به. وبذا، فاعتباراً لمراكزها فى: «تل جمح»، بأقصى الغرب، وفى تل ماسوس «شرق بئر سبع»، كانت مصر تهيمن بذلك على طريق تجارى عريق

القدم يبدأ من البحر الأبيض المتوسط وحتى الضفة الغربية. بل تستطيع أيضاً، أن تحصل ضريبة «العشر» من القوافل التى تسلك(١٩٢) ذاك الطريق. وفى شمال شاروحين، فيما بين القطاع الساحلى وجبال جودى، التى تركتها مصر للشاسو، كانت تحتل أيضاً، مجموعة من المدن الحصينة(١٩٣): تل سيرعا، وتل حيسى، ولاكيش، وبيت شمس. وجميعها كانت تتضمن، على غرار شاروحين، أبنية إدارية مصرية. فداخل البناء القائم فى تل سيرا، عثر على أوانى وشقفات تتعلق بحصد الغلال؛ ترجع إحداها إلى العام الثانى والعشرين من حكم رمسيس الثالث(١٩٤). وفى لاكيش، حيث عثر أيضاً على بعض الشقفات(١٩٥)، كشفت الآثار عن وجود معبد ذى أعمدة مصرية زينت أبوابه برقائق من البرونز، تحمل خراطيش لرمسيس الثالث(١٩٦). وضمن هذه المواقع، يلاحظ أن أكثرها قرباً من الساحل، مثل «جزر»، ولاكيش أو «تل سيرعا»، قد عانت من مظاهر التخريب والتدمير خلال غزو «شعوب البحر» لها. وقد عمل رمسيس الثالث على إصلاحها وإعادة تشييدها.

وفى أقصى الشمال، كانت مصر تسيطر أيضاً، خلال حكم رمسيس الثالث على «إقليم شمالى»، يتكون من المساحة الواقعة ما بين الأردن والبحر، التى تتضمن جزءاً كبيراً من «وادى يزريل» وربما كانت تمتلك أيضاً أحد الموانئ الواقعة فى «أبو حوام»، بجوار حيفا. ولكن يلاحظ أن الموقعين الرئيسيين ضمن هذه المجموعة، هما قلعتان قويتان حصينتان: «مجدو» «وبيت شان». وكانت هاتان القلعتان قد وقعتا تحت قبضة الشاسو خلال غزوات شعوب البحر. ولكن سرعان ما استعادتها القوات المصرية خلال حكم رمسيس الثالث. وفى مجدو، عثر على صندوق به أقلام نذرية مصنوع من العاج، محفور عليه رسم يمثل الملك وهو يتعبد الإله آمون(١٩٧). وفى أقصى الشرق، تقع قلعة بيت شان، الرابضة فوق تلها الحصين(١٩٨)، وتهيمن على وادى الأردن. ولقد عثر فى ذاك الموقع(١٩٩) على بقايا من أبنية كبار الموظفين المصريين المعاصرين(٢٠٠) لتلك الحقبة، وتمثال لرمسيس الثالث محلى الصنع(٢٠١). ولقد خلع اسم جديد على المدينة هو: «قصر رمسيس حقا إيونو فى كنعان»(٢٠٢). وكانت تتضمن معبداً، كرس من أجل بعض الآلهة المحلية، مثل «عنات»(٢٠٣).

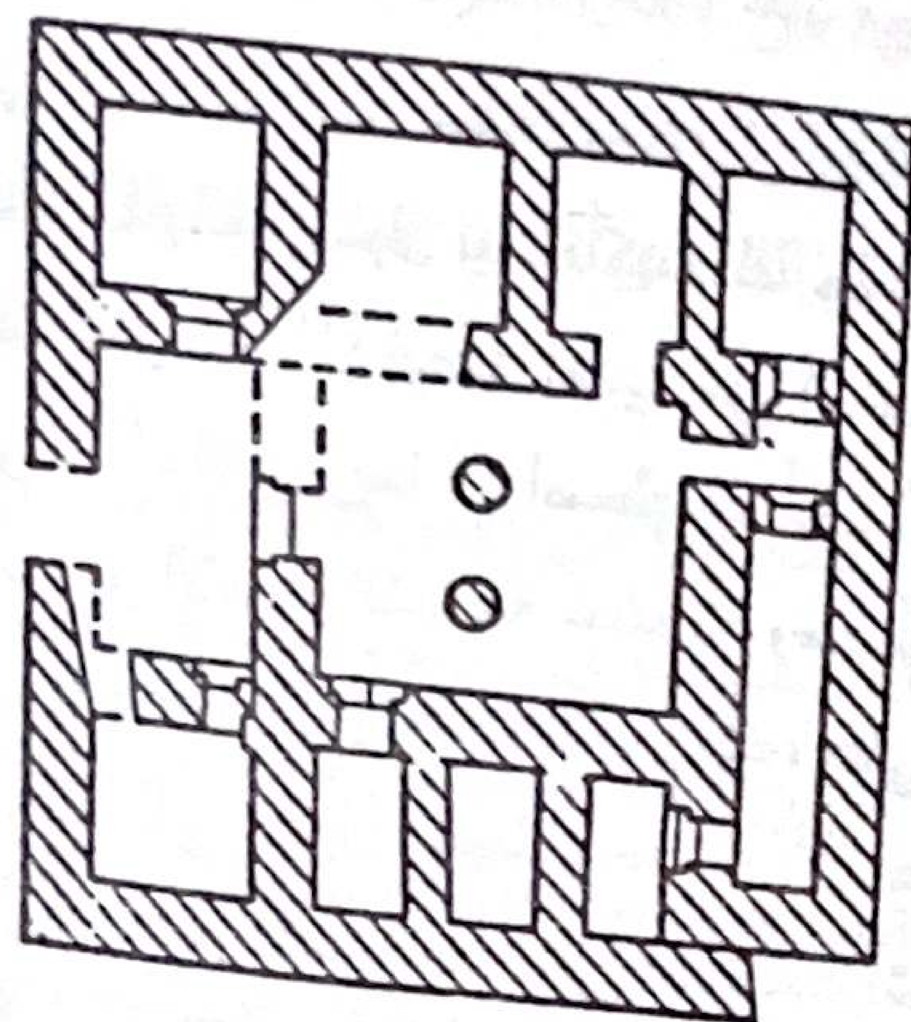


خريطة خاصة بمقر حاكم شاروحين المصرى.



رسم تخطيطى لمعبد لاكيش.

ويبدو أن الملك كان قد أقام به عبادة «آمون رمسيس الثالث»؛ ولذلك جعل المدينة خاضعة لنفوذ الكرنك (٢٠٤) . وعموماً، لقد خضعت مدن أخرى بفلسطين لمثل هذا القانون (٢٠٥) . ولهذا كانت ملزمة بأن تقدم كل عام تسعة عشر رأساً من الغنم والماشية لمعبد آمون الكبير (٢٠٦) . وفى نفس الوقت، كان يقوم أسطول مصرى، وفقاً لأوامر الفرعون، بنقل منتجات تلك المنطقة إلى مصر(٢٠٧) وليس من المستبعد أبداً، بالرغم من أن التنقيبات لم تثبت شيئاً يذكر بعد، أن رمسيس الثالث، قد أراد أن يقيم طريقاً للاتصال البرى، بين هذين «الإقليمين» بفلسطين. وبالتالى، عمل على احتلال بعض المراكز الواقعة فى المنطقة العريقة القدم المعروفة باسم «طريق ماريس» الذى يمتد من «أفيك» إلى «مجدو»، عن طريق سهل السامرى ووادى عرا.



خريطة لمقر الحاكم المصرى فى «بيت شان».

ها نحن قد أحطنا، إلى حد ما بمدى الوجود المصرى بفلسطين. ولكن ها هو سؤال مازال يطرح نفسه : ترى، هل كان رمسيس الثالث، خلال العام الثامن من حكمه، قد انتهز فرصة تعبئة جيوشه وقتئذ، لكى يتوغل شمالاً بحملاته العسكرية؟ عموماً، هناك مجموعتان من النقوش البارزة على جدران مدينة هابو(٢٠٨)، وبعض المناظر المنقوشة على جدران المعابد الثانوية التى كان قد أقامها الملك على ضفة طيبة الشرقية(٢٠٩)، تمثل، بالفعل بعض مراحل إحدى حملاته على سوريا. ويبين تسلسلها التاريخى أنها قد وقعت فى الفترة ما بين الحملة ضد «شعوب البحر» والحملة الليبية

الثانية بالعام الحادى عشر(٢١٠). ومع ذلك، فإن وقوع هذه الحملة ما زال حتى الآن موضع جدال: فالنقوش البارزة التى تمثلها تبدو وكأنها مجرد محاكاة لنقوش بارزة قديمة العهد(٢١١)؛ وبالإضافة لذلك، لم يأت ذكرها مباشرة، من خلال أى مصدر آخر من مصادر ذلك الحكم. ومن المناظر التى تمثلها، نرى الملك وهو يهاجم ويحاصر على التوالى، العديد من المدن المحصنة التى أوى إليها السوريون والحيثيون. وتبدو إحدى هذه المدن، وقد تراءى مظهرها مشابهاً تماماً، لتلك المناظر الممثلة بالنقوش البارزة الخاصة بالأسرة التاسعة عشرة، بالأقصر وبالرمسيوم(٢١٢) لمظهر مدينة دابور التى تقع على سواحل سوريا، فيما بين العاصى والبحر، شمال النهر الكبير. وقيل إن حاكمها هو «حاكم أمورو الفاسد(٢١٣)». ثم هناك مدينة أخرى، قد تطابقت بالمدينة المجاورة «تونيب خاتى(٢١٤)». ومدينة ثالثة، تتطابق بمدينة أرزاوا فى صقلية، أو ربما «أولازا»، الواقعة على ساحل «أمورو»، شمال «جبيل»، عند مصب النهر(٢١٥).

وعموماً، وبدون أدنى ريب، لا أحد مطلقاً يمكن أن يشك فى أن حروب رمسيس الثالث الأخرى قد وقعت(٢١٦) بالفعل. بل لقد تأكد ذلك حقيقة، بواسطة مصادر(٢١٧) عديدة أخرى. بل وخلدت ذكراها(٢١٨) أيضاً العديد من المناظر(٢١٩) التى نجدها على جدران معبد مدينة هابو(٢٢٠)، التى ربما قد اصطبغت أيضاً ببعض السمات الخاصة بالنقوش البارزة خلال عصر الأسرة التاسعة عشرة. ومهما يكن الأمر، بخصوص الجدل حول معركة سوريا هذه، فليس هناك أدنى شك، على الأقل، فى أن الملك قد أرسل خلال فترة حكمه حملة إلى جبرل، حيث وجدت(٢٢١) هناك بعض بقايا تماثيله. وحيث كان يحصل منها، وفقاً للتقاليد، على أخشاب أشجار الصنوبر من أجل الصوارى القائمة أمام الصرح الكبير بمدينة هابو(٢٢٢)، أو لبناء مراكب لآلهة مصر الرئيسية(٢٢٣)، أو سفن بحريته الحربية(٢٢٤).

٦ – المعركة الليبية الثانية

بمجرد نجاة مصر من خطر «شعوب البحر»، سرعان ما وجدت نفسها، خلال العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث، تجابه هجوماً ليبياً جديداً. حقيقة أن هذا الهجوم الليبى كان أقل ضخامة من الناحية العددية عما كان عليه خلال العام الخامس من الحكم (لم يقتل خلاله من الليبيين سوى ألفى جندى بدلاً من اثنى عشر ألفاً)؛ ولكنه مع ذلك، كان أحسن إعداداً وتجهيزاً. كما توافرت لدينا الكثير من المصادر

الخاصة به، التى تتميز بالغزارة والتفصيل الفائق. وتبدو هذه المصادر، فى هيئة ثلاثة نصوص مسهبة بمدينة هابو، أطلق عليها اسم «النص الكبير»(٢٢٥)، و«استهلال»(٢٢٦)، و«قصيدة العام الحادى عشر»(٢٢٧). ثم هناك أيضاً سلسلتان من النقوش البارزة بنفس المعبد(٢٢٨) (تتشابه إلى حد ما مع بعض النقوش البارزة الخاصة بسيتى الأول(٢٢٩) بالكرنك)؛ وكذلك توجد مناظر تكاد تكون مماثلة لتلك النقوش البارزة و النصوص الموجودة فوق جدران المعابد الثانوية التى أقامها رمسيس الثالث بالكرنك وفى ساحة معبد «موت»(٢٣٠)؛ ثم أخيراً بضعة سطور «ببردية هاريس(٢٣١) – ١».

ولقد استمرت هذه الحملة طوال ستة أشهر كاملة. فقد بدأت من النصف الثانى من رابع أشهر فصل «الشمو»(٢٣٢)، وانتهت فى اليوم الثامن من ثانى أشهر فصل «البرت»(٢٣٣). وبلغت ذروتها من خلال معركة ضخمة وقعت فى الثامن والعشرين من أول أشهر فصل «الآخت»(٢٣٤). وحقيقة أن الليبو كانوا بمثابة الأعداء الألداء الرئيسيين لمصر خلال العام الخامس ولكن المشواش، قد احتلوا هذه المكانة، خلال العام الحادى عشر من الحكم.

والجدير بالذكر أن اثنى عشر ألفاً من الليبو قد وقعوا صرعى خلال الهجوم الأول وأن أربعة آلاف منهم قد أصبحوا أسرى حرب، ويضاف إليهم أيضاً ستة آلاف قتيل خلال حروب مرنبتاح(٢٣٥) وبالتالى، يكونون قد أبيدوا تقريباً عن آخرهم، ولكن، يبدوا أن البعض منهم قد نسوا أو تناسوا تلك الدروس القاسية التى تلقوها، فانضموا إلى الماشواش فى العام الحادى عشر من الحكم. وبإيعاز من الليبو، قام الماشواش متجاهلين «نصائح آباء آبائهم» التى بينت أن مثل هذه الأعمال، هى التى تسببت دائماً فى هلاك شعبهم(٢٣٦)، بالاستعداد لمهاجمة مصر، من أجل احتلالها(٢٣٧) تماماً. وربما أن المصادر لم تؤكد كثيراً على ذلك، ولكن لا يستبعد أبداً أن بعض عناصر من الإيجيين، قد شاركوا أيضاً فى هذا الاتفاق: فلقد بينت النصوص والنقوش البارزة أن الماشواش، خلال العام الحادى عشر، ظهروا وهم مدججون بالسلاح المقدونى النمط. كما بينت مشاركة «شعوب البحر» مع الليبيين فى الهجوم على مصر خلال عهد مرنبتاح، عن علاقات وطيدة وتليدة سابقة لهذا التاريخ، فيما بين الليبيين واليونان قبل الهلينية. وربما قد لا تكون هناك صلة مباشرة بين هجرة «شعوب البحر» وبين

الاعتداء الليبي الذي وقع في العام الحادي عشر من حكم رمسيس الثالث ؛ ولكن لعل هذا الاعتداء الليبي، قد يكشف، بشكل ما، عن ديناميكية التوسع الإيجي.

وقرر الماشواس أن يتوجهوا إلى مصر ذات الطبيعة الساحرة الخلابة، لاحتلالها. وتوضح الكثير من المصادر المصرية القديمة، أن غزوهم هذا، كان يبدو دائماً في صورة هجرة، تتضمن الأطفال والنساء والمواشي. ولكنهم، على ما يبدو، أخذوا يتفكرون، ويحاولون أن يتذكروا الهزيمة النكراء التي مُني بها الليبو في العام الخامس من حكم رمسيس الثالث. وكان يحكمهم وقتئذ زعيم يدعى «مشر بن كعبر»[٢٣٨] وأخذوا يعدون عدة أكثر تنظيماً وترتيباً. وبذا، فقد قاموا، بمساعدة الليبو، بإقناع العديد من العشائر والقبائل الساحلية، مثل: السرتس، والأسبيتو، والقيقيشو، والشيتيبو، والحيس والبقنو[٢٣٩] من أجل المساهمة معهم في الحرب. بل واستطاعوا أيضاً، أن يحصلوا من الإيجيين على سلاح متطور وفعال. ويبدو أن المصريين، قد استولوا، بعد المعركة، على أكثر من ستمائة قوس، ومائتين وتسعة وثلاثين من الطراز المقدوني (لا يقل طول البعض منها عن مترين)، واثنين وتسعين مركبة حربية والعديد من الجياد[٢٤٠].

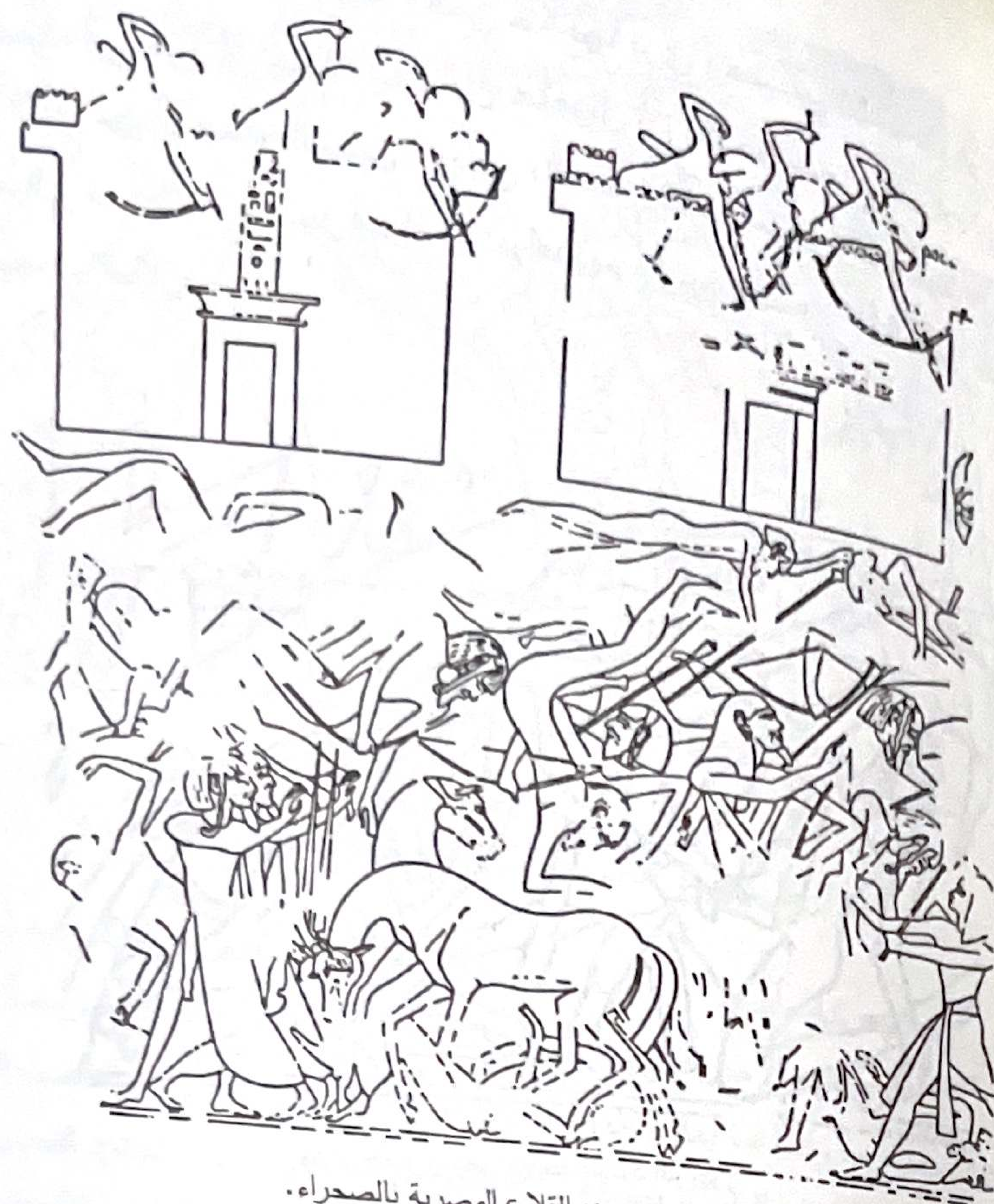
وبدأ الغزاة الماشواس وحلفاؤهم يتحركون من «قورنيه»، في أحد أشهر السنة التي تبدأ فيها حرارة الشمس في الارتفاع الشديد[٢٤١]. وحاولوا، بقدر استطاعتهم، تجنب المراكز العسكرية المصرية الواقعة على الساحل. وتمكنوا، قبل استكشاف وجودهم، من الانقضاض، بغتة وعلى حين غرة، على بلاد التحنو، فدمروها تدميراً. ولكن، نجد أن النصوص المصرية قد ذكرت إيماءة لهذه الواقعة، فقالت: إن آلهة قدماء المصريين قد يسرت لهم سبل هذا النجاح الخاطف[٢٤٢]، من أجل الوصول إلى هلاكهم المحقق. واندفعت جماعات من شعب التحنو هرباً من فتك هؤلاء الغزاة، وسرعان ما وصل البعض منهم إلى مصر، ليعلنوا أن الغزاة قادمون فوراً. وبالفعل، كانت جيوشهم قد اقتربت كثيراً من وادي النيل؛ ولكن، في هذا الوقت، كان رمسيس الثالث قد استطاع أن يعبئ جيشه تعبئة كاملة.

ولقد عرفنا، أن الليبيين، كانوا قد حاولوا غزو مصر، خلال العام الخامس من حكم مرنبتاح، والعام الخامس من حكم رمسيس الثالث. وهاهم، للمرة الثالثة، خلال نصف قرن تقريباً، يحاولون غزوها، عن طريق وادي النطرون. وتقول مصادرنا إن المعركة المقبلة قد تقع بمنطقة فيما بين قلعتين مصريتين لا تبعد الواحدة منهما عن الأخرى

إلا بحوالي ثمانية وأربعين كيلو متراً؛ وهما: «مدينة حوت شاي» («قصر الرمال»)، و«مدينة رمسيس حقا إيونو» التي تقع على «جبل أوبنا» («مدخل الأرض[٢٤٣]»). وهي تحدد الموقع الذي استطاع مرنبتاح في عهده، أن يطرد الغزاة[٢٤٤] عنده. وربما أن هذا «الجبل»، كان يحدد الطريق المؤدي، من الناحية الجنوبية الغربية، إلى مدخل «وادي النطرون». وقد يكون هذا هو نفس موقع «قارة الدهر» حيث كان ملوك الدولة الوسطى قد أقاموا أحد المراكز العسكرية[٢٤٥]. أما عن «قصر الرمال»، فكان بمثابة المدخل الشمالي الغربي لوادي النطرون.

هزيمة مشر

بدون أية مقدمات، هاهي النقوش البارزة على جدران مدينة هابو تضعنا في قلب المعركة. ويبدو أن رمسيس الثالث قد انطلق من «منف» لملاقاة جيوش الغزاة. ونراه وهو يقود جيوشه، وقد تبعته كتائب المشاة؛ وانقض وهو على رأس سلاح مركباته على جحافل الماشواس وأهال عليهم سيلاً من السهام، وكأنها «نجوم مذيلة»[٢٤٧]. وأخذ يطأ بعربته المنطلقة جميع من سقطوا تحت عجلاتها. أما في صفوف الأعداء، فيبدو الاضطراب والتبلبل واضحاً، بل إن بعض الجياد بدت وهي تهيم بدون أي هدف، بعد أن فكت من مركباتها. وزاد ذلك من شدة الاضطراب والفوضى في نطاق الجانب المعادي. وفي وسط صفوفهم، ظهر «مشر»، الزعيم الليبي، وقد غطى رأسه بشعر مستعار مصري النمط، وثبت في أعلاه ريشة نعام، وقد وضع لحية مستعارة شبيهة بلحية الفرعون، وهو واقف بعربته التي استثيرت جيادها واجتاحها الاضطراب والذعر. وبدا مدركاً تماماً فداحة الكارثة التي وقع فيها، وهو يرفع ذراعيه عالياً كدليل على بأسه وقنوطه. وأخذ من بقوا على قيد الحياة يولون الأدبار هرباً يميناً ويساراً في الصحراء، على مقربة من الحصون المصرية. وفي نفس اللحظة، كان جنود الحاميات، يمطرونهم بوابل من السهام والرماح، واتجهوا يركضون ركضاً إلى مدنهم للاختباء بها، أو حتى مستنقعات الدلتا[٢٤٨]. ووفقاً لما ذكره رجال «الإعلام» المصري القديم عنهم، أنهم ذكروا لمواطنيهم أنهم: عند مواجهتهم لرمسيس الثالث، لم يكونوا أكثر من بضعة فئران ضئيلة، ضلت طريقها بداخل عرين الأسد[٢٤٩]؛ بل مجرد طيور صغيرة سقطت في الشباك[٢٥٠]، أو طريدة حوصرت بداخل إحدى الأيكات[٢٥١]. وأن الملك قد حصدهم حصداً، وكدسهم كما تكدس السنابل يوم الحصاد[٢٥٢].



هزيمة الليبيين عند القلاع المصرية بالصحراء.

وبينما كان الرماة يجهزون على الأعداء(٢٥٣)، فيشتتون الليبيين فوق المرتفعات «وكأنهم ذرات قش(٢٤٥)»، حضر كعبر، أبو الزعيم المهزوم «من أجل استجداء السلام كما يستجديه أى كفيف. ووضع أسلحته فوق الأرض؛ وهكذا فعل أيضا جنوده. وأطلق صراخاً وصل إلى عنان السماء، من أجل أن يستعيد ابنه الملقى على الأرض وقد شلت ساقاه ويداه... والخالق فقط هو القادر على معرفة سريرته. حقيقة أن شعبه كان يأمل كثيراً من وراء شفاعته هذه، ولكنه سرعان ما أُسر، وأوسع ضرباً، وقيّد، وربطت ذراعه خلف ظهره كما يربط الطائر من جناحيه؛ ورمى به على وجهه فى قاع المركبة تحت قدمى الملك (٢٥٥)». ولا شك أن النقوش البارزة بمدينة هابو تتناول



منظر عام للمعركة.

خاصة تلك الواقعة المأساوية ؛ فمن خلالها يرى رمسيس الثالث، وهو [illegible] مركبته، فى حين أن جنوده يحاولون جاهدين أن يكبحوا جماح الجياد، [illegible] يقيد اثنين من الزعماء الليبيين، ويلقى بالبعض الآخر منهم أرضاً تحت قدميه يصعد إلى مركبته، وهو يجر أسراه من نواصيهم. ويرى أسده(٢٥٦) الخاص العزيز وهو يجوب المكان حوله.



مقاتل مصرى يصرع أحد الجنود الليبيين.



استسلام الزعيم الليبى.



الزعيم الليبى «مشر» بن «كعبر»
بعد أن أسره الجنود المصريون الذين يقتادونه أمام رمسيس الثالث

وفى ليلة المعركة، أقيمت منصة فى ساحة القتال حيث ظهر الملك وقد أحيط بأركان حربه، ومنهم الأمير الوريث للعرش ووزيرا الدولة. ويبدو الملك حريصاً على الاحتفال بنصره، وفقاً لما يمليه العرف، وذلك، باستعراض الأسرى والغنائم، الذين مثلوا من خلال النقوش البارزة بمدينة(٢٥٧) هابو. فهاهم، فى البداية الجنود المصريون وقد احضروا مقاطف مليئة بأيدى وأعضاء التذكير قطعت من جثث قتلى الأعداء. ثم يلقون بها فى هيئة أكداس أمام كتبة الجيش الذين يقومون بوسمها ببعض العلامات، ثم يحصونها. ويتبين من خلال هذا التعداد أن عدد القتلى لايقل عن (٢١٧٥) قتيلاً(٢٥٨). ثم ها هى بعد ذلك صفوف من الأسرى تتقدم تحت وابل من لسعات السياط، وهم يستجدون ويستعطفون. وفى مقدمتهم يبدو «مشر»، و«كعبر»، وقد كبلت أيديهما بالقيود. وعند مرور مشر أمام رمسيس الثالث، لم يتنازل بتوجيه كلامه إليه مباشرة، فطلب من ابنه، الأمير وريث العرش، أن ينقل إليه عبارات الإذلال قائلاً: «انظر، إذن، ها أنا قد دمرت صيتك وقضيت عليه إلى الأبد! ها قد توقف فمك عن التبجح والتباهى وأنت تتحدث عن مصر!(٢٥٩)». بعد ذلك، يمر صف من الجنود وهم

يقودون الجيـاد التى اغتنمت من الأعـداء، ثم جـمع من الأسرى وقد حملوا
المركبات الحربية فوق ظهورهم. وفى نفس الوقت، رصت، على الموائد أمام
أكداس من السيوف المقدونية المستطيلة الشكل الخاصة بالغزاة المهزومين. وعندما
رمسيس الثالث هذه العبارات إلى الأمير وريث العرش والوزيرين الذين هللوا
«انظروا لهذه العطايا والهبات التى لا تحصى ولا تعد التى قدمها آمون رع
الفرعـون». وأضاف الملك: «لقد أخضع لسلطتى زعيم الماشواس ومعه
ومركباته الحربية، وممتلكاته وقطعانه(٢٦٠)». فلقد استطاع الجيش المصرى
ما لا يقل عن (٢٠٥٢) ليبياً، منهم (١٢٠٠) جندى، أما الباقى فمن النساء والأطفال
الذين كانوا قد رافقوا عائلاتهم إلى القتال. ويضاف إليهم كافة أسلحة المهزومين
لا يقل عن (٤٢٧٢١) رأساً من الحيوانات، منها (١٣٠٩) ثيران، (١٨٤) جواداً
العد والإحصـاء تسلم رمسيس الثالث هذه الغنائم، بصفة رسمية بمخطوطة
أصلى(٢٦١).

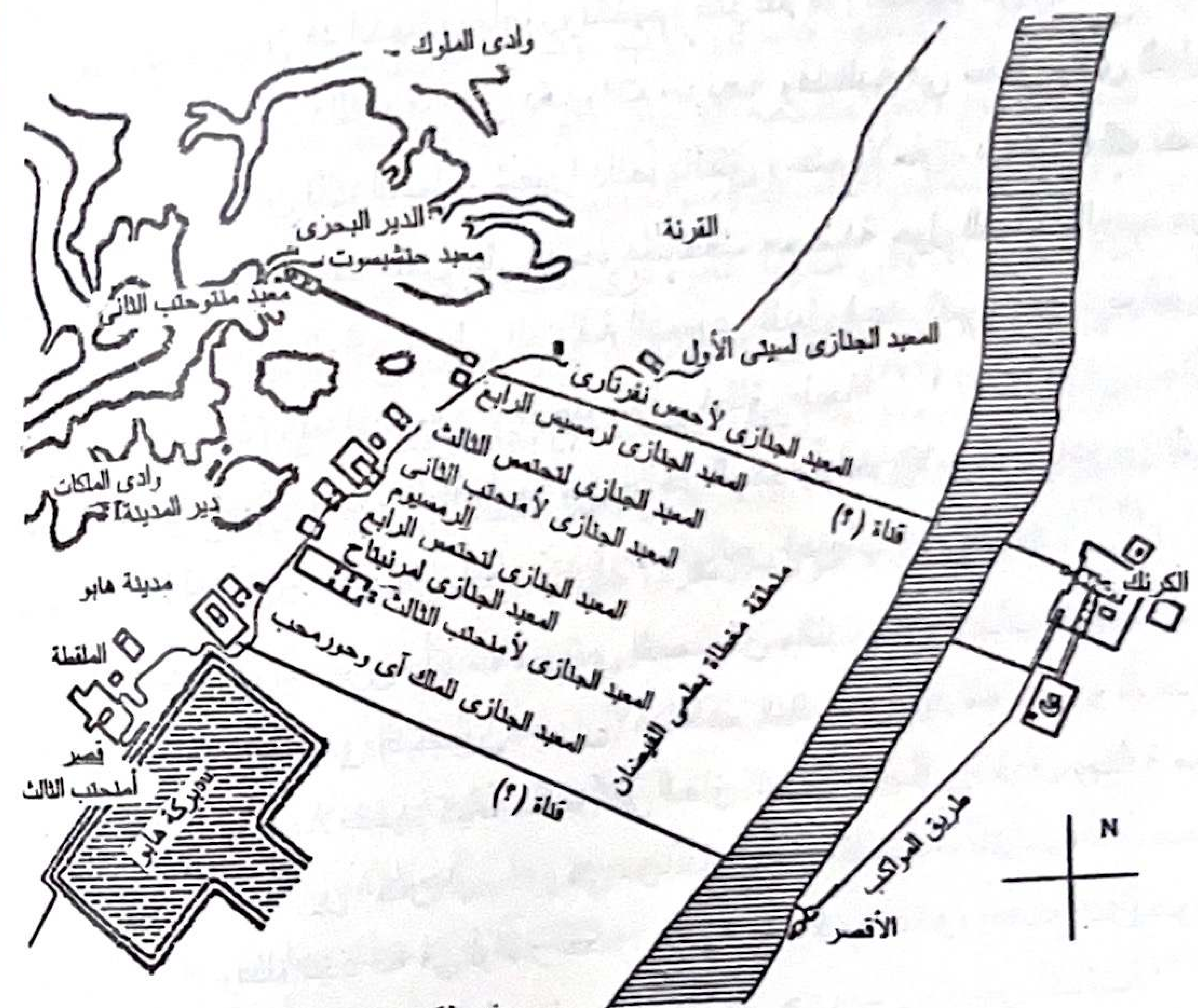
وها قد جاءت إذن لحظة الرجوع إلى مصر. و ها هو الملك يقول: «لقد اصطحبت معى كل من اعتقلتهم كأسرى حرب. وكانوا كثيرى العدد، وقيدوا ببعضهم بعضاً ك تقيـد الطيور، عند مقدمة الجيـاد. ولم تكن أعدادهم هم وأبناؤهم لتقل عن مئات الآلاف؛ ومعـهم أغنامـهم ومواشيـهم المتبـاينة الأنواع، يربو عـددها إلى مئات الآلاف(٢٦٢)». وفى مدينة هابو، يرى الملك، وقد استقبله، عند حدود مصر، كبار رجال الكهنة وهم يقدمون له باقات الزهور، ويدفعون أمام عربته بصفين من الأسرى حيث يقوم جنوده بضربهم بالسياط من أجل إرغامهم على العدو، أمام عربته فى خطوات إيقاعية(٢٦٣). وبمجرد أن وصل الملك إلى طيبة، ومثل أمام آمون، وفقاً لما تمليه التقاليد، قدم هؤلاء الأسرى كهبة من أجل أملاك هذا الإله(٢٦٤). ولكنه، فى نفس الوقت، احتفظ لنفسه بالبعض منهم، لأغراض عسكرية. وها هو يقول: «لقد أرسلت بأكثر جنودهم تميزا وكفاءة إلى بعض القلاع، وهم يحملون اسمى. والبعض الآخر أرسلته إلى بعض رؤساء الكتائب العسكرية، بعد أن وسموا بالحديد المحمى ليتحولوا بذلك إلى عبيد، وقد طبع اسمى على أجسادهم. واتخذت نساءهم وأطفالهم كعبيد أيضاً. وبعثت بمواشيهم إلى ممتلكات آمون، حيث صارت بمثابة قطيع مكرس

لخدمته إلى الأبد(٢٦٥)». وبالفعل، كان أحد هذه القطعان يحمل اسم «أوسر ماعت رع مرى آمون الذى أوقع الهزيمة بالماشواش». وألحق بالعمل من أجله (٩٧١) راعى غنم اختيروا من القبائل المهزومة(٢٦٦). ومن أجل ألا تنمحى أبداً ذكرى هذا النصر المبهر، ولكى يعبر الملك عن عرفانه وامتنانه لآمون، كواجب عليه، أمر بأن يقام فى مدينة هابو، فى موعده، فى الثامن والعشرين من أول أشهر فصل الآخت، احتفال سنوى تحت اسم: «الانتصار على الماشواش».

وعن الغزاة قال رمسيس الثالث أيضاً: «لقد قتلوا وسالت دماؤهم، وتحولوا إلى أكداس من الجثث. وبذا، فقد عملت على ألا يجوبوا بعد الآن منطقة الحدود المصرية(٢٦٨)». «لقد تلقوا درساً لن ينسوه على مدى ملايين الأجيال(٢٦٩)». ولكن، بالرغم مما أحرزه الملك من انتصارات عسكرية، وبالرغم من عبارات التفاخر من جانبه، فإن الليبيين كانوا دائماً أبداً يثيرون قلق مصر، سواء فى عهد رمسيس الثالث أو فى عهود خلفائه من الفراعنة الآخرين. ولا شك أن محاولات الغزو المنتظمة التى كان يقوم بها الليبيون قد انتهت تماماً. ولكنهم، بالرغم من تخليهم عن نمط «الحرب التقليدية»، أخذوا بعد ذلك يقومون بغزوات سريعة وقتالية فى نطاق وادى النيل. وبالتالى، سببوا لسكان تلك المنطقة شعوراً دائماً بالقلق وعدم الأمان. بل إن الملك نفسه كان يشعر بذلك. وبذا، فقد عمل على إنشاء مساحات محصنة حول المعابد بالعديد من مدن مصر الوسطى الواقعة على الضفة اليسرى للنيل (عند ثنى، وهرموبوليس، وأبيدوس، وأسيوط)، لمراقبة وردع التحنو. وفى نطاق طيبة(٢٧١) نفسها، كان رجال شرطة الجبانة، خلال الفترة الواقعة ما بين أواخر الحكم وأواخر الأسرة، يحضرون إلى دير المدينة، لمرات عديدة، من أجل تحذير عمالها من احتمال غزو الليبيين(٢٧٢).

ولكن، بعد مرور قرن بأكمله، تراءى الغموض واللبس الذى شاب انتصارات الملوك الرعامسة على الليبيين. بل إن أعدادهم كانت تتزايد مع مرور الوقت. واستطاعوا أن يكونوا لأنفسهم كياناً متميزاً فى نطاق الجيش المصرى نفسه. وبداية من نهاية الأسرة العشرين، كان لهم دور فى سياسة مصر الداخلية، يتناسب مع حجم قوتهم(٢٧٣). وبذا، نجد أنه فى أواخر حكم رمسيس الحادى عشر، أصبح حريحور، وربما كان ليبى الأصل استقر فى تل بسطة فى أثر حروب رمسيس الثالث(٢٧٤)،

بمثابة أقوى رجل فى نطاق منطقة طيبة، بل والمؤسس الأول لسلالة من كبار كهنة آمون. وهم الذين مارسوا السلطة الفعلية بها خلال عهد الأسرة الحادية والعشرين بأكمله. وفى نفس الوقت، نجد أن شخصاً يدعى سمندس، على ما يبدو، ابن حريحور أو أخاه الأصغر(٢٧٥)، وكان يعيش بمنطقة مصر السفلى، استطاع أن يخص نفسه بامتيازات مماثلة. وكان هدفه من وراء ذلك، هو تولى العرش بعد موت رمسيس الحادى عشر وتأسيس أسرة جديدة، ونفذ ما أراده. وواحد آخر، كان سليل أحد قادة التحنو ويدعى «بيوواوا». وكان يعيش خلال نفس تلك الفترة فى منطقة هرقليوبوليس «بالمكان المحصن» الواقع عند مدخل الفيوم. وربما كان هو نفسه الملك «شاشانق الأول مؤسس الأسرة الثانية والعشرين(٢٧٦). وبداية من هذا التاريخ، حاول العديد من الحكام المنحدرين من سلالة ليبية، والذين كانوا يهيمنون على بعض المقاطعات الشبه مستقلة، أن يتقاسموا فيما بينهم الجزء الأكبر من مصر. بل ربما أن جميع ملوك الأسرة الرابعة والعشرين وخلفائهم، وفراعنة «النهضة الصاوية» (الأسرة السادسة والعشرين) قد انحدروا هم أيضا من سلالة ليبية(٢٧٧).



خريطة مدينة طيبة.

الفصل الخامس

ازدهـــار جديــد

بفضل انتصارات رمسيس الثالث الحربية، استطاعت مصر أن تسترجع سلامها، فلم تكن تتراءى فى أفقها أية أخطار أخرى. أما الجيش، فبعد أن خاض حروباً عديدة، بدأ يستمتع بشىء من الراحة كان يستحقها. بل إن الجنود المرتزقة الأجانب، كانوا يعيشون فى سلام، مع أسرهم، بالمستعمرات التى كانت قد أعدت من أجلهم. وبعد انقضاء ثلاثين عاماً من الفوضى والاضطرابات، ساد الحق والقانون بأنحاء مصر. وها هو رمسيس الثالث يقول، فى هذا الصدد: «لقد أحسنت صنعاً إزاء الآلهة وتجاه البشر، ولم أحاول سلب حقوق أى إنسان». وتوافرت عناصر الأمن والنظام ثانياً بكافة أنحاء مصر: «لقد أحييت الدولة بأكملها. [...] وخففت عن الجميع ما كانوا يقاسونه. لقد أكسبتهم الثقة بالنفس وأنقذتهم من كل مدع يثقل عليهم بوطئه. وجعلت الجميع يعيشون فى رغد من العيش فى مصر. ولم يعد الليبيون أو اللصوص يجوبون أنحاء الريف. ولم تعد المرأة فريسة سائغة للرجال، لقد عملت على إتاحة الفرصة للمرأة المصرية بأن تذهب بكل حرية إلى أى مكان ترغبه، دون أن يضايقها أو يعترض طريقها أحد». فبالنسبة للفرعون، كان تمتع رعاياه برغد العيش والثراء بمثابة شغله الشاغل: «لقد جعلت مصر بأكملها تزدهر بالأشجار والزرع، لكى يستظل أفراد الشعب تحت ظلالها». جملة القول، لقد تركت مصر وراءها مظاهر البربرية، وبدأت عهد الحضارة(١).

وعندئذ، وجد رمسيس الثالث أنه يستطيع أن يكرس وقته من أجل تطوير الدولة أن يصلح من شئون القيادة، ويشيد معابد جديدة، وينظم إذا اقتضى الأمر المؤسسات القائمة، ويوزع غنائم حروبه عليها. جملة القول، أن يتبع سياسة الهيبة والنفوذ، التى كان ينتهجها الفراعنة العظماء، من أجل تمجيد وإجلال آلهتهم. ومع ذلك، فلكى تنفذ مثل هذه المشاريع تنفيذاً فعلياً، كان الأمر يستلزم وضع سياسة جديدة فى نطاق الدولة. ومن الملاحظ أن الاقتصاد، فى مصر القديمة، كان يخضع للسلطة الحاكمة. ولم تكن الأمور تسير فى إطاره سيراً حسناً إلا إذا كان الفرعون وإدارته يؤديان، كما يجب الدور الإدارى الواجب عليهما (الفصل الثانى –٤). ومن الملاحظ أن أى تغير فيمن يتولى العرش أو اضمحلال فى المؤسسة الملكية، كان يجر فى أعقابه نوعاً من التمرد والعصيان فى نطاق ممتلكات مصر الخارجية. وفى الإطار الداخلى للدولة، كان ذلك يعقبه الكثير من مظاهر الاختلاس والاستيلاء على أموال المؤسسات من جانب موظفيها أنفسهم، وأيضاً الاستحواذ غير الشرعى من جانب كبار موظفى المؤسسات الأكثر نفوذاً على المؤسسات الأقل قوة ومقدرة. بل ويؤدى ذلك أيضا، إلى تراخ وتكاسل واضح فى تنفيذ مهام الوظائف؛ وإلى تدهور مبانى هذه المؤسسات. وكمثال واضح على ذلك : كان رمسيس الثالث، قد أنشأ فى الدلتا بعض الأملاك الزراعية لإنتاج الغلال لمعبد خنوم فى «إلفنتين». وخصص من أجل نقل هذه الغلال مركباً خاصاً بطاقمه الخاص. وفى العام الثامن والعشرين من الحكم، توفى قبطان هذا المركب، وحل مكانه شخص يدعى «خنوم نخت» استطاع أن يؤدى وظيفته على أكمل وجه، حتى أواخر عهد رمسيس الثالث. ولكن، حالما تولى رمسيس الرابع العرش، قام كاهن يدعى «بن عنقت» بالتآمر مع بعض موظفى المؤسسة، واستقطب فى جانبه طاقم تلك المركب الناقلة. وبالتالى، أخذ يستولى بصفة منتظمة على كميات هائلة من الغلال التى كان مكلفاً بالإشراف على نقلها. وعندما تفجرت هذه الفضيحة، فى العام الخامس من حكم رمسيس الخامس، تبين أن ما تم الاستيلاء عليه من الغلال لم يكن ليقل عن خمسة آلاف زكيبة(٢).

ولا شك أن مثل هذه الواقعة، تبين أن أى فرعون، كان محقاً تماماً، فى استهلال حكمه بعملية تفتيش وتفقد لكافة مؤسسات مملكته. ومن المعروف أن مرنبتاح قد سار

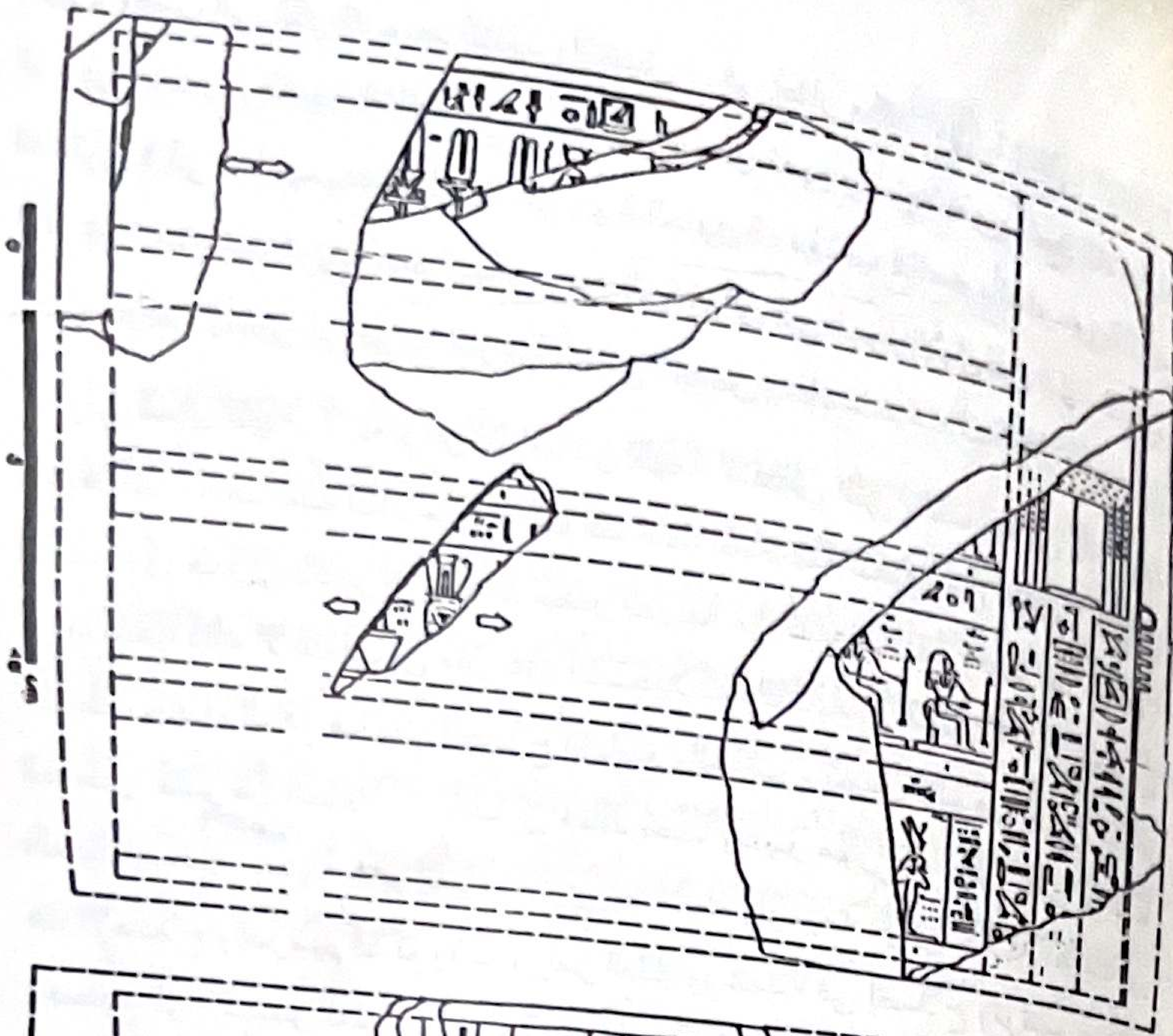
على نفس هذا النهج(٣) من بعد رمسيس الثانى الذى كان يتبعه أيضاً. ولم يكن مستغرباً أبداً، أن رمسيس الثالث، بعد فترة حكم أبيه الخاطفة، قد اتبع هو الآخر نفس الأسلوب.

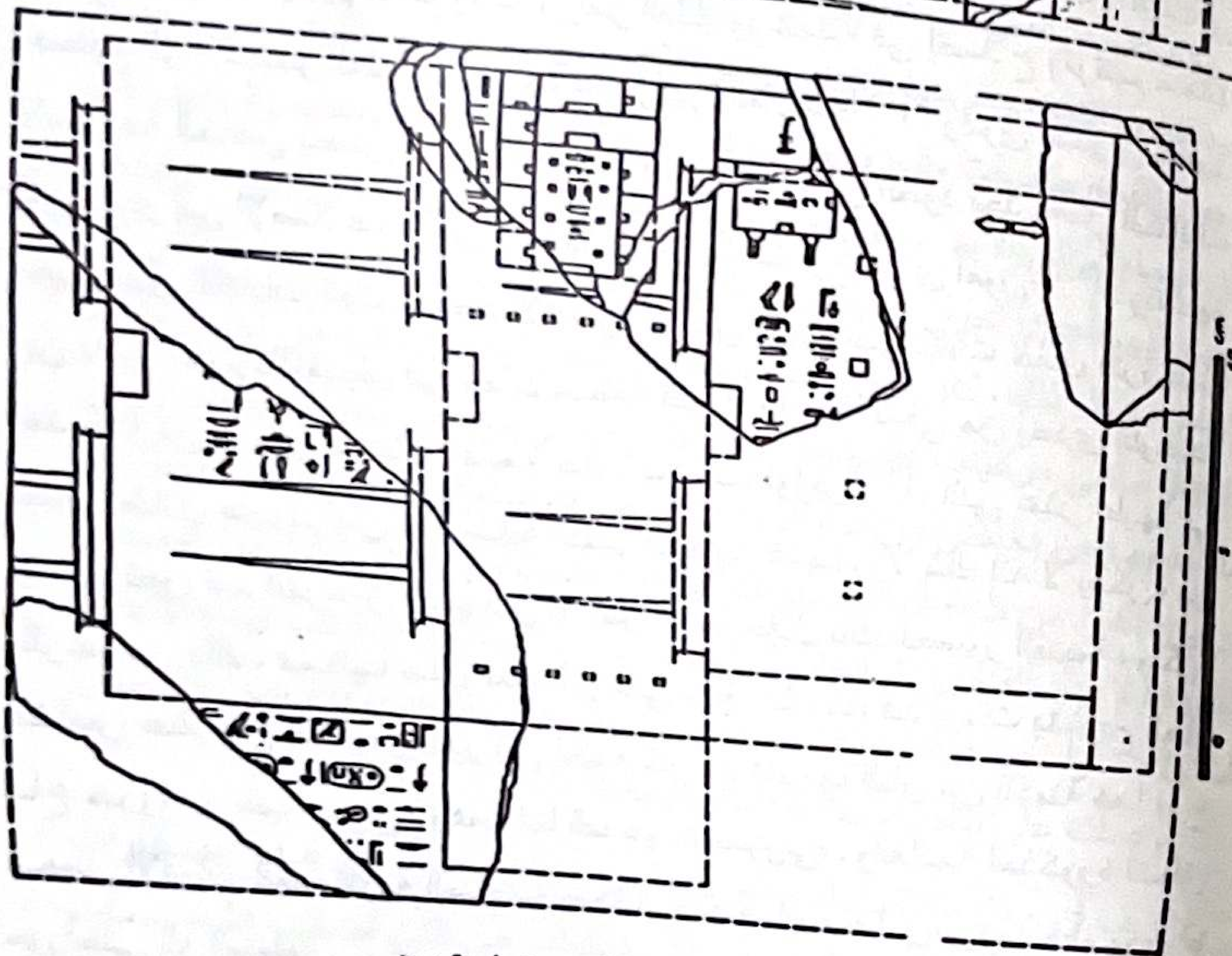
١- تفقد المعابد خلال العام الخامس

«لقد أمر جلالته بالقيام بعملية تفتيش وتفقد واسعة المدى، [... أمر بتنظيف جميع المعابد، من أجل آبائه، آلهة وإلهات مصر العليا و السفلى] بالمناطق الجنوبية والشمالية بمصر. وأمر بتفقد كنوزها، ومخازن غلالها، وقرابينها الإلهية. وأمر بإصلاح وترميم معابدهم، وأن يعاد بناء ما انهار منها [...]، وفقًا للأوامر الصادرة خلال العام الخامس من حكمه (فى اليوم الأول من أول أشهر فصل البرت(٤)) ولاشك أن عملية التفقد والتفتيش الواسعة المدى هذه، كانت تتضمن أيضاً: مراجعة حسابات المعابد، وأحوال أثاثها وأدواتها الشعائرية، بل وكذلك، إذا اقتضى الأمر، وضع أسس وقواعد سلوكية جديدة لكى يتبعها كهنتها؛ وأيضاً، وفى نهاية الأمر، أن تسن مراسيم وقوانين من أجل حمايتها من طغيان بعض المؤسسات الأخرى عليها، ولحماية «العاملين بها، وقطعانها»، وكافة ممتلكاتها(٥).

والجدير بالذكر، أن هذا القرار بالتفتيش قد اتخذ خلال العام الخامس من الحكم، فى اليوم الأول من أول أشهر فصل «البرت» (الفصل الثانى – ٣). ولكنه، بالرغم من ذلك، لم ينفذ إلا فى العام الخامس عشر، أى بعد مرور عشر سنوات كاملة. ففى الفترة الواقعة ما بين هذين التاريخين، كانت مصر تخوض العديد من الحروب، التى سبق ذكرها. وربما كان ذلك بمثابة المبرر الوحيد لمثل هذا التأخير فى التنفيذ. والأمر الذى لا شك فيه مطلقاً، أن المعارك الحربية التى كان يخوضها الملوك المصريون القدماء، كانت تختلف تماماً عن «حروبنا الحديثة الشاملة»، فقد كانت تعبأ من أجلها كل طاقات الدولة، وبالتالى، لم يكن من الممكن، عندئذ، التركيز على أعمال أخرى واسعة المدى. وبذا، فعندما ساد السلام مصر ثانياً، استطاع الملك أن يفكر فى تنفيذ قراره القديم.

«وصدر الأمر بأن يتوجه المندوبون المختصون إلى المناطق الجنوبية والشمالية بمصر(٦)». ومن منف إلى إلفنتين(٧) أوكلت إدارة هذه المهمة إلى شخص يدعى «بن باتو»، وهو «رئيس قسم المحفوظات بالخزانة الملكية». وعاونه فى مهمته هذه، موظف





لوحة تتضمن بعض القوائم - بمتحف تورين

آخر من نفس تلك المؤسسة ،ربما كان يدعى ،خونسو(٨)،. وشمل العمل بوجه
المنطقة الواقعة ما بين ،منف والفنتين،. وعلى ما يبدو، أن الوظيفة التى كان
هذا المدعو ،بن باتو،، هى التى بررت اختياره للقيام بهذه المهمة. خاصة أن
الماضى، كان قد بدأ طريقه الوظيفى بعمله ككاتب بسيط بالخزانة الملكية(٩)
فإن ،مكتب محفوظات مصر، بأكملها، كان يتبع الخزانة الملكية. وفى إطاره، كا
تحفظ الأصول الخاصة بكافة المراسيم المتعلقة بإنشاء جميع مؤسسات مصر، والأ
المتعلقة بالهبات التى تلقتها، وبالقواعد القانونية التى تحدد أرباحها، وقطعا
وممتلكاتها العقارية، أو ما تملكه من عبيد. وتحتفظ جميع المؤسسات المعنية بنس
لكافة هذه المستندات والوثائق الأصلية، فى إدارات محفوظاتها الخاصة بها. وكان
بعض النسخ، المنقوشة فوق لوحات ذهبية أو فضية أو نحاسية، توضع بداخل ناوو
الإله الحامى لمختلف تلك المؤسسات. وغالبًا كانت تنشر على الملأ، بواسطة بعض
اللوحات الحجرية أو بنقشها على جدران المعابد، وتعطى بعض البيانات عن الجزاءات
والعقوبات التى توقع على من ينتهكون القوانين والقواعد المعمول بها.

ولقد أحطنا علمًا بمختلف مراحل أعمال التفقد والتفتيش التى رأسها ،بن باتو،
بواسطة النصوص التى عمل على نقشها، على جدران مختلف النصب والمؤسسات
التى قام بتفقدها. وبذلك، فقد علمنا أنه قد بدأ مهمته من ،الفنتين،، الواقعة بأقصى
جنوب مصر، فى أول يوم من أول أشهر فصل ،الآخت،، خلال العام الخامس عشر من
حكم الملك. وهناك، أمر بتشييد لوحة تذكارية (١٠). وعلى ما يبدو، أنه كان يستعين
فى تنقلاته بسفينة خاصة بمهامه الرسمية. فأبحر بالنيل هو ومساعده، حيث وصل
إلى إدفو فى أول أيام الشهر التالى. وهناك، سجل عملية تفتيشه على أملاك حورس،
بواسطة بعض الكتابات التى نقشت على الواجهة الغربية للصرح الكبير الذى يطلق
عليه اسم صرح ،الرعامسة،. وهو قائم حاليًا بشرق الفناء الأول للمعبد البطلمى(١١).
وترك ،بن باتو، إدفو، ليصل إلى ،الكاب، مدينة الإلهة ،نخبت،، وللأسف، نحن لا
نعرف بالتحديد تاريخ(١٢) عملية تفقده بها. وربما قد تمت بعد إدفو بحوالى أسبوع.
ففى اليوم الثالث عشر من نفس ذاك الشهر، أثبت مروره على الطود، الواقعة جنوب
الأقصر. وأوضح ذلك بتأشيرة جديدة، وببعض الكتابات التذكارية(١٣) وبعد فترة

وجيزة وصل إلى الكرنك .وبعد التفقد والتفتيش، وفى إطار معبد آمون، وعلى الواجهة الشرقية للصرح الكبير الثالث(١٤)، أمر بأن يسجل نص يتشابه تقريباً مع الكتابات التذكارية فى الطود. وعند قاعدة الواجهة الجنوبية، نقشت قائمة بألقاب ووظائف الفرعون، تحمل تاريخ العام الخامس من الحكم، أى فى اليوم الأول من أول أشهر فصل البرت، وتشير إلى تاريخ القرار الأصلى الخاص بتفقد مختلف المعابد(١٥).

وفى شمال طيبة، لا نعلم أى أثر مباشر لمهمة التفتيش التى كلف بها بن تابو. ولا يستبعد أبداً أنه قد تمت أثناء مروره تلك الكتابات المتضمنة للعديد من ألقاب رمسيس الثالث فوق جدران الكثير من معابد مصر القريبة من تلك المنطقة (فيما بعد - ٥). وربما يثبت ذلك الاعتقاد، أن مثل هذه التسجيلات والكتابات، المنقوشة على جدران الكرنك، بالفناء الواقع ما بين الصرح التاسع والعاشر، تحمل بالفعل تاريخ العام الخامس عشر من الحكم(١٦). كما أن هناك نصًا (غير مؤرخ)، نقش على قاعدة «المعبد الصغير» بمدينة هابو إحياءً لذكرى إصلاحه وترميمه. ومن خلاله نعرف أن هذا الإصلاح والترميم قد تم وفقًا لأوامر الملك ورغبته فى إصلاح وترميم معابد «جميع آلهة مصر العليا» وتموينها بالقرابين اللازمة(١٧). وفوق جدران معبد الاستراحة الخاص ببعض ملوك الأسرة الثامنة عشرة، فى الطود نجد بعض الكتابات التى تشير إلى الإصلاحات التى قام بها «أوسر ماعت رع مرى آمون»(١٨). وتتشابه معها بعض الكتابات القائمة بمعبد الأقصر. أما عن البعثة التى كانت خلال فترة عمل «بن باتو»، تقوم بالتفتيش فى معابد منطقة الدلتا، فإن ما تبقى من إحدى اللوحات المنحوتة من حجر الشست؛ القائمة حاليا بمتحف تورين(٢٠)، التى عثر عليها فى بعض أطلال هليوبوليس هو بمثابة الدليل الوحيد عنها. ولا شك أنه لا يمكن، من خلالها تبين اسم الفرعون الذى كان قد نقش عليها خلال تلك العصور القديمة، ولكن، بالرغم من ذلك، فمثلها مثل المصادر التى سبق ذكرها، قد أرخت بتاريخ العام الخامس عشر من الحكم، وتشير إلى قائمة كان قد قام بها اثنان من الكهنة هما «رع ماع خرو»، و «نب موسى» وهما ابنا المدعو «أمنموؤبى». والقائمة المذكورة تتعلق ببعض الأدوات الشعائرية الخاصة بمعبد الإلهة «إيو سعا س» رفيقة آمون رع حورآختى إله المنطقة.

التشييد وإعادة التنظيم

وفى العام الخامس عشر من عهد رمسيس الثالث، ووفقاً لما بينته عمليات التفتيش والتفقد على مختلف معابد مصر، نفذت عمليات إصلاحها وترميمها بعد ذلك فى الأعوام التالية. ولقد تم ذلك من خلال برنامج بناء وإعادة تنظيم واسع المدى. بل ومازالت بعض الآثار المادية لهذا البرنامج الضخم باقية حتى يومنا هذا. وقد جاءت ذكرى إحيائه، فى أواخر عهده، «برديه هاريس -١». ومن خلال هذه الوثيقة، يوجه الملك حديثه لمختلف آلهة مصر، حيث يتبلور من خلال ذلك الجوهر الأساسى لبرنامجه الضخم: «لقد قمت بتنظيم ممتلكاتكم، وفقا لما أصدرته من مراسيم حفظت بمختلف مكاتب المحفوظات وهى تتعلق بالعاملين بها، وبأراضيها، وقطعانها ومراكبها(٢١). [....]. ولقد أعدت بناء وترميم معابدكم التى كانت قد أصبحت أطلالاً منذ أمد بعيد. وكرست من أجلكم العديد من القرابين بالإضافة إلى ما هو مكرس من قبل، لكى توضع أمامكم. وأمرت بصنع حلى لتماثيلكم بورش صناعة المصوغات، من الذهب الخالص، والفضة واللازورد والفيروز. وأصدرت أوامرى بإجراء حصر لما هو موجود فى خزائنكم، وأثريتها بالنفائس التى لا تحصى ولا تعد. وملأت مخازن غلالكم بالشعير والقمح بكميات وفيرة. وشيدت من أجلكم الكثير من النصب والمعابد، التى تحمل أسماءكم إلى الأبد. ونظمت أحوال جموع العبيد الذين يعملون فى معابدكم. فأضفت إليهم أعداداً أخرى. ولم أحاول الاستحواذ على أى من العاملين بمعابد أى إله. وبالرغم من كل ذلك، كان بعض ملوك العصور الغابرة يفعلون ذلك، من أجل اتخاذهم كجنود أو سائقى مركبات لجيوشهم. ولقد أصدرت مراسيم، من أجل تنظيمهم، وحتى يستفيد بها من يخلفنى من الملوك. ولقد أحضرت أمامكم، ومن أجلكم، أنماطاً من القرابين تتكون من كافة أنواع الخيرات الطيبة. وأقمت من أجلكم الكثير من المصانع الصغيرة [لإعداد القرابين]، الخاصة بالشعائر اليومية؛ وملأتها بمختلف أنواع الأغذية والمأكولات. وأمرت بصناعة أدوات لموائد قرابينكم، من الذهب، والفضة، والنحاس [...]. وعملت على بناء وتجهيز مراكبكم النيلية(٢٢).

ولا ريب أن مثل هذا البرنامج الضخم كان ينبثق أساسًا من عدة اعتبارات أيديولوجية(٢٣) معينة. ولا شك أن هذه الاعتبارات هى التى أضفت عليه سمات

التنظيم الذى تتراءى من خلاله. ففى عصر الرعامسة، وبعد عدة أجيال فى التأمل والتفكر، اعتقد الثيولوجيون المصريون أنهم قد توصلوا إلى تبين المبدأ الذى يسمح بحل مشكلة التعارض التى تتسم به عادة عقيدة الشرك؛ فيما بين ضرورة وحدانية الإله وبين تجليه فى صور وأشكال متعددة، يتوجه البشر إليها بعبادتهم اليومية (الفصل الثانى – ٢). ولقد تحددت، بكل وضوح المراحل التى أدت إلى بلورة هذا المبدأ، وهى: فى أواخر الدولة القديمة، كان الإله رع هو المتوج، بدون منازع فوق أعلى المراتب: فهو الشمس المؤلهة. وفى أوائل الأسرة الثامنة عشرة، اندمج رع بآمون، إله الملوك وملك الآلهة. وفى عصر العمارنة، ظهرت «الراديكالية الشمسية»، التى سرعان ما نبذت لما تمخضت عنه من مظاهر التعصب والاضطهاد. ونجد أن مفكرى الأسرة التاسعة عشرة قد اهتموا بما حققه هذا التطور من مكاسب وإيجابيات، وقد أضافوا إليه أيضًا ثمار فكر الأجداد الأوائل الذين عاشوا فى مصر الوسطى خلال عصر الدولة الوسطى. وكونوا بذلك أسلوبًا جديدًا استوعبت بداخله جميع الآلهة، باعتبار كل منها اقنومًا للإله الواحد فقط، العظيم الشأن والرفيع المرتبة؛ أى الخالق الأعظم. ولأسباب سياسية بحتة، ضم كل من آمون، ورع، وبتاح آلهة المدن الثلاث الرئيسية العريقة القدم: طيبة، وهليوبوليس، ومنف، فى هيئة «ثالوث». وكونوا بذلك ما يمكن أن يسمى بـ«ديانة الدولة». ولكنهم، فى واقع الأمر، كانوا يمثلون فى نطاقها ثلاثة مظاهر لهذا الإله الأوحد والأعظم. وبناء على ذلك، فقد حتم هذا المضمون، أن تعتبر جميع آلهة مصر، بمثابة تجليات؛ سواء الخاصة بكل مدينة من مدنها، أو تلك التى تتجسد فى هيئة بعض العناصر الكونية أو الطبيعية، أو المنبثقة من الأساطير الأولية للمجتمع المصرى (مثل إيزيس وأوزوريس وحورس)، وكذلك الملوك المؤلهون، والآلهة الأجنبية «المستوردة» من الخارج، وفقًا لاختلاف سماتها، وخصائصها العقائدية. ومن هذا المنطلق، كان جميع الملوك الرعامسة، يستطيعون، دون منازع، أن يعلنوا عن بنوتهم لأى من هؤلاء الآلهة. وبالتالى، حتمت الضرورة عليهم أن يعملوا بكل ما فى وسعهم من أجل تمجيد وإجلال جميع الآلهة بدون أى استثناء. وهكذا، نجد أن رمسيس الثالث، بعد عمليات التفقد والتفتيش لمعابدها، قرر أن يتبع، فى إنجازاته وأعماله الإنشائية، نفس الدرب الذى انتهجه أجداده العظام من قبله. ومضى قدمًا، بالفعل، فى هذا السبيل.

٢- طيبة

كان يطلق على طيبة باللغة المصرية القديمة اسم «واست»، مدينة آمون. وبها، كانت توجد مقار وزراء الجنوب. وخلال عصر الرعامسة، كان يحكمها أحد المحافظين، الذى يحمل لقب: «مدير المدينة، الوزير». ولكنه، كان يلقب أيضًا بلقب «الرئيس» و«رئيس التسعير»؛ أو بمعنى أوضح، «المسئول عن التموين وعن جمع المحاصيل». وعلى ما يبدو، أن اللقب الثانى، قد اختص به بعد حكم رمسيس الثالث، كبار كهنة آمون[٢٤]. وبخلاف هذه المهام، كان يتكفل أيضًا بالمسئوليات القضائية[٢٥]، ويتحتم عليه الإشراف على التنظيم التقنى الخاص بالاحتفالات الدينية الكبرى، التى كانت تقام فى نطاق طيبة[٢٦]. ومن هذا المنطلق، كان يعتبر، بمثابة «كاهن آمون»، بصفة فخرية فقط. وحتى العام التاسع عشر من حكم رمسيس الثالث، شغل هذه الوظيفة شخص يدعى «باسر»، كان جده يدعى «باك ان خونسو» نبى آمون الأول فى عهد رمسيس الثانى. وقد شيد «باسر» هذا لنفسه مقبرة فاخرة، جنوب مدينة هابو[٢٧]، لم يتبق منها سوى أطلال ضئيلة. ثم تبعه فى نفس هذه الوظيفة شخص آخر يدعى «بتاح ام حب»؛ قام بتقديم معونات من الغلال إلى عمال دير المدينة؛ الذين كانوا قد أضربوا عن العمل، فى العام التاسع والعشرين من الحكم (الفصل السادس – ٢). وكانت الضفة الغربية تخضع لسيطرته، بالرغم من وجود محافظ خاص بها يطلق عليه لقب «حاكم الغرب»[٢٨]. وفى الفترة الواقعة ما بين العام السادس عشر والعام السادس والعشرين[٢٩] شغل تلك الوظيفة من يدعى «باى». وأخيرًا، كان هناك من يحمل لقب «حاكم النهر»؛ ولا شك أنه كان القائم بالهيمنة على حركة المرور النهرى، فيما بين طيبة والضفتين[٣٠]. أما عن مختلف أجهزة «الإدارة المركزية»، وكما هو الحال فى بقية مدن مصر الرئيسية، فقد كانت لها مكاتب محلية[٣١] تمثلها هناك.

ولقد أمر رمسيس الثالث بتزيين هذه المدينة بالأشجار والمزروعات[٣٢]. ولم ينتظر قدوم العام الخامس عشر من حكمه، من أجل أن يجرى بها أعمالا إنشائية ضخمة. فنجد، أن معبد مدينة هابو، وهو بمثابة الإنجاز الإنشائى الرئيسى الذى تميز به حكمه، قد اختتم العمل فيه خلال العام الثانى عشر من الحكم (الفصل الثالث).

وربما كـان الدافع له هو الخلود على مـر الأجيـال أو التظاهر بالورع والتقوى نـ... آمون(٣٣)؛ فقد شيد بها العديد من المنشآت والمبانى الدينية الأخرى. ولقد عر... بوجودها من خلال بعض آثارها المتبقيـة، أو بواسطة الفصل الخاص بـ«طيبة»... إطار «بردية هاريس – ١»، أو عن طريق بعض المصادر الأخرى(٣٤). وبالنسبة لـ... فرعون من فراعنة الدولة الحديثة، كان هناك واجب إجبارى يتحتم القيام به: الـ... من أجل إله الكرنك، رب الملكية، «آمون رع ملك الآلهة». وعلى غرار معظم الفراعـ... الرعامسة الذين سبقوه، كان يجب عليه، المساهمة فى المهمة التى اعتبرت منذ عهـ... حتشبسوت خاصة، بمثابة عملية ضخمة لإضفاء سمة «المدنية الدينية» الواسعة النـ... على أنحاء مصر؛ وهى تمتد وفقًا لمحورين يتلاقيان فى الكرنك، بالفناء الفاصل ... بين الصرح الثالث والصرح الرابع. ويمتد أول هذين المحورين من الشرق إلى الغرب... وهو يتتبع، فوق الأرض، الدورة الظاهرية التى تقوم بها الشمس، أى الإله رع، الذى... يتماثل آمون به. ويجمع بذلك ما بين معبد الكرنك ومعبد حتشبسوت بالدير البحرى... ممثلاً، على التوالى، مكانى شروقها وغروبها. ويمتد المحور الثانى من الشمال إلى... الجنوب، ويجسده ممر الموكب المقدس بمعبد آمون؛ ثم بعد ذلك، وعلى مدى عد... كيلومترات، تجسده أيضاً سلسلة من الممرات التى تصطف على جانبيها تماثيل لأبى... الهول لها رأس كبش، لتجمع ما بين الكرنك ومعبد الأقصر. وهى بذلك، تكون ... يشبه «المسرح» الضخم من أجل المواكب المقدسة(٣٥).

القوة الاقتصادية والاجتماعية(٣٦)

لا شك أن ورع وتقوى الفراعنة تجاه إله طيبة، لم يكن ينحصر فى مجرد تشيـ... النصب والمعابد. ولكنه يمتد إلى اهتماماتهم بتطوير ومضاعفة خيراتها وإنتاجها... وكان معبد الكرنك، الذى اعتبر من أكثر أماكن مصر قداسة، بمثابة المركز الرئيسى... لأملاك آمون؛ أى القوة الاقتصادية الهائلة. بل إن مختلف تفرعاته كانت تتشعب إلى... كافة أنحاء مصر، وحتى إلى خارج حدودها. وكان يرأسه «النبى الأول لآمون»، الذ... كان يزهو أيضاً بلقب «مدير جميع كهنة آلهة طيبة»(٣٧). ولم يكن فقط مجرد «المدير... الاسمى لكافة معابد طيبة»، بل ومديراً أيضاً على كافة معابد مصر، التى تمارس فى

نطاقها شعائر آمون؛ وكذلك على كافة المنشآت المتضمنة لتماثيل رمسيس الثالث التى كان هذا الملك قد أقامها بالعديد من القرى لتجسيد سيادته. وكانت هذه المؤسسة، خلال فترة حكمه، تستوعب فى نطاقها، الخيرات والمنتجات الواردة من حوالى ست وخمسين مدينة من مدن مصر، ومن ضمنها بر رمسيس(٣٨) نفسها ونى آمون رع الواقعة غرب الدلتا، وكان يرأسها أمنمس ابن باويا، الذى شيد مدينة هابو(٣٩). ويضاف إلى ذلك، إنتاج حوالى تسع مدن بفلسطين والنوبة(٤٠). ومن أجل نقل المنتجات الخاصة بالمدن الفلسطينية إلى الكرنك، خصص الملك ما لا يقل عن (٨٣) سفينة بحرية مجهزة بأطقمها(٤١). وفى نفس الوقت، كانت تلك المؤسسة الضخمة تحصل على قدر كبير من إنتاج مناجم الذهب بالنوبة. فضمن الألقاب التى كان يحملها «نائب الملك فى كوش»، نجد لقب، «مدير مناطق الذهب الخاصة بآمون»(٤٢).

وكانت أملاك آمون تتضمن فى جنباتها عدداً هائلاً من العاملين. ولقد أضاف إليهم، رمسيس الثالث خلال فترة حكمه، ما لا يقل عن (٨٦٤٨٦) عاملاً، منهم (٦٢٦٢٦) من أجل مدينة هابو(٤٣). وبالإضافة لذلك، كانت تخضع لملكيتها أيضاً مساحات شاسعة من الأراضى فى كافة أنحاء مصر، وخاصة فى مصر الوسطى(٤٤). بل وكانت تستفيد(٤٥) أيضاً بجزء من الإنتاج الخاص ببعض المؤسسات الأخرى(٤٦). وهنا كذلك كان الملك ملزماً، بالمساهمة المحسوسة من أجل تطوير وتنمية هذه الثروة العقارية. وبذلك، فقد أضاف إليها ما لا يقل عن (٢٤٠٠) كم٢ من الأراضى الزراعية(٤٧). وكانت هذه الأراضى مقسمة إلى أملاك مستقلة، يحمل كل منها اسماً قائمًا بذاته؛ وتساهم أحياناً فى تموين بعض المؤسسات الأخرى، أو بعض فئات اجتماعية معينة. ويقوم بزراعتها أعداد كبيرة من الفلاحين المرتبطين بالمؤسسة(٤٨)، أو تؤجر بعض أجزائها لبعض الأفراد لزراعتها. وغالباً يهيمن على إدارتها «المديرون المنتدبون(٤٩)»، يعاونهم فى مهامهم أعداد من حراس المحاصيل والمساجين والمشرفين على المزارع(٥٠). ولهذا، ففى منتصف الأسرة العشرين، كان يوجد بالمنطقة الواقعة ما بين أخميم وهرموبوليس، بعض الأملاك الزراعية التى عرفت بأنها «أراضٍ زراعية تابعة لأملاك آمون رع سونتر الذى أسسها الملك أوسر ماعت رع مرى آمون. ويعمل بها أفراد من الشرادنة، من أجل الكتبة الملكيين فى الجيش»

(الفصل الرابع – ١) . وفى نفس المنطقة، كانت أملاك آمون تدير أيضًا إحدى المستوطنات الإصلاحية، هى «الحقول الزراعية التابعة لأملاك آمون رع سونتر، التى أنشأها الملك أوسر ماعت رع مرى آمون، ويعمل بها أعداد من المساجين الذين أدينوا بارتكاب بعض الجرائم (٥١)» .

ووفقًا لقرارات الملك، كانت الضرورة تحتم، أن تقدم هذه الأراضى، فى كل عام لأملاك آمون ما لا يقل عن مائة ألف زكيبة غلال؛ لإعداد الخبز والجعة(٥٢) . ومن أجل جمعها، أمر الملك ببناء أسطول من السفن تقوم بنقلها إلى الكرنك(٥٣) . وهناك كانت الغلال تخزن فى مخازن ضخمة مفتوحة السقف . ومن هذه المخازن، كانت تحضر إلى المخابز وإلى مصانع الجعة القائمة بالمعبد(٥٤) . وتبين بعض الكتابات فوق إحدى اللوحات، خلال حكم رمسيس الثالث، عن إقامة بعض المنشآت على هذا النمط؛ ولكن لم يتبق منها شىء حتى الآن(٥٥) . ولكننا علمنا بوجودها، من خلال النقوش البارزة بإحدى مقابر طيبة؛ التى انهارت تقريبًا فى الوقت الحالى . وبالنسبة «لمخازن الغلال» هذه، وفقًا لنفس التعبير المصرى القديم، فقد كانت تتضمن أعدادًا من العاملين المتخصصين، ومنهم : الكيالون ورؤساؤهم(٥٦) ، الذين كانوا يقومون خاصة، بواسطة مثقال من الفضة، بتقدير الغلال التى تقدم فى كل عام من جانب فلاحى المؤسسة(٥٧) . وكانت توجد بها أيضًا مقصورة صغيرة تؤدى فى إطارها الشعائر الدينية من أجل تمثال قائم بداخلها، يمثل أحد تجليات آمون، أو «آمون عاشفيت» («آمون عظيم المنزلة»)، ويتمتع بأملاكه الزراعية الخاصة به(٥٨) . ومع ذلك، فإن كل هذه الأراضى، بالرغم من اتساع مداها، لم تكن تنتج أساسًا سوى الغلال . ولذا، فقد خصص رمسيس الثالث أيضًا لممتلكات آمون، فى مصر العليا والسفلى، وبالواحات، حوالى خمسمائة حديقة وبستان(٥٩) ، تنتج عنب النبيذ والخضراوات، والزهور . بل ووفر لها أيضًا جهازًا كاملاً من السباخين، والبستانيين، وزراع الكروم(٦٠) . ويلاحظ أن بعض هؤلاء كانوا من قدامى أسرى الحرب(٦١) . وفى إطار المؤسسة، كانت توجد أيضًا أعداد كبيرة من مناحل عسل النحل(٦٢) .

أما بالنسبة لتموينها باللحوم، فكانت، قانونًا، تتلقى كل عام ما لا يقل عن (٨٤٧) رأس ماشية من مصر، و(١٩٠) من فلسطين(٦٣) . وبالإضافة لذلك، كانت

تمتلك قطعانًا كبيرة من المواشى والأغنام وأعدادًا هائلة من الدواجن والطيور، وخاصة، وفقًا لبعض المفاهيم المصرية القديمة، الكثير من البط(٦٤) . ولقد أضاف الملك إلى تلك القطعان الضخمة(٦٥) ما لا يقل عن (٤٢١٣٦٢) رأس غنم ومواشى، اكتسبت معظمها كغنائم حرب خلال الحملات الليبية(٦٦) . وقد قسمت هذه المزارع إلى العديد من قطاعات المواشى لكل منها رعاتها ومديروها(٦٧)؛ ويهيمن عليها «مدير قطعان المواشى»(٦٨) يعاونه فى مهمته الكثير من «المساعدين»، الذين ينتمون غالبًا، إلى أرقى عائلات طيبة(٦٩) . وتحت إدارتهم، كان يتدرج الكثير من العاملين، ومنهم : الرعاة والمشرفون على الإسطبلات(٧٠)، وحراس حظائر الماشية، والقائمون بوسم الحيوانات(٧١)، والحلابون، والجزارون، وتجار الكروش(٧٢) . ومن أجل تزويدها بالطيور البرية، خاصة المهاجرة، كانت المؤسسة تتعامل مع فئات من صائدى الطيور، القائمين فى الدلتا . وكان هؤلاء الصيادون يمدونها سنويًا بحوالى ثلاثمائة ألف طائر(٧٣) . وفى نفس الوقت كان الصيادون وصائدو الأسماك يمونونها بالقنائص والأسماك(٧٤) . أما بالنسبة لبقية متطلباتها، فكان يمدها بها الكثير من العاملين بالمناجم، وتجار الأحجار الثمينة، والملح والنطرون(٧٥) .

وكانت كل هذه الخيرات تصب فى الكرنك . وهناك تجمع وتخزن فى أماكن خاصة، وتجهز من أجل تقديمها كقرابين فى معابد طيبة – وأولها مدينة هابو(٧٦) – وكتموين لكهنتها وخدمها، وكغذاء خلال الاحتفالات الدينية الكبرى على غرار عيد الأوبت(٧٧)، وأعياد تتويج رمسيس الثالث(٧٨)، أو أعياد النيل فى «جبل السلسلة»(٧٩) . ولذا، فقد اضطر الملك، أن يشيد فى فناء معبد آمون، بخلاف مخزن الغلال الذى ذكرناه آنفًا، بعض المخازن الأخرى، وغرف التجهيز، والورش . وعين مديرين لها(٨٠)، يعاونهم فى عملهم أعداد كبيرة من العبيد، وأسرى الحرب من أبناء الأمراء الأجانب(٨١) . ولقد تضمنت أماكن الإعداد والتجهيز هذه، الكثير من المطابخ، والمخابز، ومخازن للمؤن مشيدة بالحجر حيث كان ينبت الشعير من أجل صناعة الجعة(٨٢)؛ وبعض مصانع الجعة، ومحال الجزارة، وأماكن لتربية الطيور والدواجن، حيث كان يتم تزقيق الطيور وتسمينها، وبعض الورش لتجهيز البخور(٨٣) المأخوذ خاصة من الأشجار التى كان رمسيس الثالث قد أمر بزراعتها فى حدائق الكرنك(٨٤) .

إدارة ممتلكات آمون

بداية من حكم رمسيس الثالث وقبيل نهايته تقريباً شغل منصب «نبى آمون الأول» شخص يدعى باك إن خونسو ابن أمنمؤبى، رئيس المجندين بممتلكات آمون. وكان باك إن خونسو هذا قد التحق بنفس هذه الوظيفة من قبل خلال حكم ست نخت[٨٥]. وعلى ما يبدو أنه كان من أسرة متواضعة إلى حد ما. وربما كان قد عين فى ذلك المنصب لاعتبارات سياسية ترتبط بتولى الأسرة العشرين الحكم. فقد كانت القوة الاقتصادية الهائلة التى تتمتع بها ممتلكات آمون، ورؤساؤها الذين يتوارثون مناصبهم بها، تثير قلق ومخاوف السلطة الحاكمة. وبهذا، كان الملوك يحرصون دائماً على أن يعينوا رؤساءها ضمن الأفراد المخلصين لهم والمتفانين فى خدمتهم. بل ولم يكونوا ليتوانوا لحظة واحدة، إذا اقتضى الأمر ذلك، عن إجراء عمليات إقالة واسعة النطاق ضمن كبار موظفيها (ينظر بعد ذلك). وتوفى «باك ان خونسو»، (فى تاريخ لم يحدد تماماً). واقتضت الضرورة أن يخلفه فى منصبه من يدعى «أوسر ماعت رع ان آخت» الذى استمر فى منصب كبير كهنة آمون حتى وفاة رمسيس الثالث[٨٦].

وفى العام الأول من حكم رمسيس الرابع، شغل هذه الوظيفة شخص يدعى رمسيس – نخت، ربما كان أخوه. واستمر بها حتى مجىء رمسيس التاسع. وبقى أفراد سلالته متشبثين بهذه الوظيفة حتى تولى رمسيس الحادى عشر الحكم. وعندئذ، تمكنت سلالة من يدعى حريحور من التربع على قمة المؤسسة بدلاً منهم[٨٧]. وبالقطع، ليس من الصعب أن نتبين سر هذا الحظ المواتى لتلك العائلة، التى لم تكن تنحدر من طيبة، واستطاعت، على مدى حوالى (٧٠) عاماً، أن تحتفظ فى نطاقها بمنصب «النبى الأول لآمون» الرفيع الشأن. فمن المعروف أن «أوسر ماعت رع ان آخت» و«رمسيس نخت» كانا ابنى «مرى باستت» رئيس مدينة هابو خلال حكم رمسيس الثالث. ولا شك أنه كان يدين بالولاء الفعلى لمليكه. بل لقد منح ولديه هذين الاسمين المركبين أساساً من اسم الملك («أوسر ماعت رع القوى») و(«رمسيس القوى») .بل هو ينتمى أيضاً إلى إحدى الفئات المنحدرة أساساً من تل بسطة التى ارتبطت بحدث تولى تلك الأسرة زمام الحكم (الفصل الأول – ١) . ولكن، حالما توفى رمسيس الثالث، لم تعد هذه السلالة لتستطيع الاحتفاظ بنفوذها لو أنها لم تسرع إلى

التحالف والارتباط ببعض عائلات طيبة ذات النفوذ القوى. وبذلك نجد أن ابنة رمسيس نخت وتدعى عات مرت قد زوجت من أمنمؤبى، ابن «النبى الثالث لآمون» ويدعى ثانفر. أما ابنه الأكبر، ويدعى أيضاً «مرى باستت»، فقد تزوج بمن تدعى تاى نجم، ابنة الكاهن الأكبر للإلهة نخبت فى «الكاب ستاو»، وهو فى نفس الوقت صهر الكاهن الأكبر «لحورس إدفو» «نب موسى»[٨٨].

وتقتضى تدرجات هذه الوظيفة الكبرى بالكرنك، أن يتلو النبى الأول، النبى الثانى، وفى أثره «النبى الثالث لآمون». ووفقاً للتقاليد ومبدأ الوراثة، يبدو أن «أوسر ماعت رع» و«رمسيس – نخت» قد شغلا، على التوالى، وظيفتى ثانى وثالث أنبياء آمون قبل أن يتوليا منصب النبى الأول. وبالنسبة لثانفر[٨٩]؛ فقد كان من الأعضاء البارزين فى نطاق المجتمع المحلى. وكان ينتمى إلى إحدى الأسر العريقة فى طيبة، ولكنها لاقت بعض العثرات لأسباب سياسية، قبل تولى رمسيس الثالث العرش بحوالى (١٦) عاماً. ويبدو أن الجد الأكبر لهذه العائلة العريقة كان «باك إن خونسو»[٩٠]، الذى تمكن من ارتقاء كافة تدرجات وظيفة الكهنوتية فى إطار ممتلكات آمون، ثم تولى منصب «النبى الأول لآمون» بداية من العام (٤٠) وحتى العام (٦٦) من حكم رمسيس الثانى. وعلى ما يبدو، لم يكن قد تبقى لـ «باك إن خونسو» أبناء على قيد الحياة، وبالتالى، خلفه[٩١] أخوه «روما روى» فى وظيفته الرفيعة هذه. ولكن «روما روى»، عندما توفى مرنبتاح، سارع إلى تعضيد ومساندة المغتصب «أمنمس»؛ وبذا، فعندما تولى سيتى الثانى العرش، سرعان ما أقاله وعين مكانه، على رأس ممتلكات آمون، أحد رجال سكرتاريته[٩٢] المقربين جداً. وكان لـ «باك ان خونسو» ابنة لا نعرف اسمها بالتحديد، أنجبت ثلاثة أبناء، فأضفى ذلك شيئاً من الازدهار والاستمرارية على تلك السلالة. وأول هؤلاء الأبناء، هو «باسر» الذى عين كحاكم لطيبة خلال عهد رمسيس الثالث، وله ابن يدعى جحوتى حتب شغل منصب النبى الأول لمونتو. ثم هناك أمنمس، الذى شغل هو أيضاً وظيفة حاكم طيبة خلال عهد الفرعون التالى. وأخيراً، هناك ابنة، تدعى نفرتارى، تزوجت من ثانفر. وكان هو نفسه ابناً لواحد من ثالث كهنة آمون خلال عهد رمسيس الثانى[٩٣]؛ وبالتالى، خلفه فيها، وبقى بها حتى أواخر عهد رمسيس الثالث؛ وربما كان يرأس أيضاً كهنة مدينة

هابو (الفصل الثالث – ٣). بل لقد شغل إخوته وأبناؤه العديدون، مختلف المناصب الهامة فى إطار ممتلكات آمون فى طيبة. وخلال العام السابع والعشرين من حكم رمسيس الثالث، عين ابنه المدعو أمنموبى كنبى أول للإلهة «موت»، ثم بعد ذلك، وخلال حكم رمسيس الخامس أصبح النبى الثانى للإله آمون(٩٤). واستطاع أمنموبى هذا، من خلال زواجه، على التوالى، بكل من تاميت، وعات مرت أن يرتبط بأسرة النبى الأول للإله أنوريس رب ثنى «ساعاست»، ثم بأسرة النبى الأول لآمون، «رمسيس نخت».

وخلال عهد رمسيس التاسع، وقبيل أن ينتهى تألق وازدهار هذه السلالة، كان ابنه الأكبر ما يزال يحتفظ بوظيفة النبى الثانى لآمون. أما حفيده، فكان ما يزال يشغل منصب النبى الأول للإلهة «موت».

وضمن المناصب الكبرى فى نطاق ممتلكات آمون، كانت هناك أيضًا وظيفة «النبى الرابع لآمون». وكانت لا تعدو أن تكون سوى خطوة أولى، من أجل الأبناء، لكى يتمرسوا ويتأهلوا، قبيل أن يشغلوا، بالوراثة، وظائف آبائهم الكبرى. وخلال عهد رمسيس الثالث، كان يشغلها أحد أبناء ثانفر ويدعى أمنحتب، بل وضم إليها لقبًا آخر: «كبير كهنة كاموت اف»، أحد تجليات آمون المعبودة فى نطاق معبد صغير يقع على الطريق الموصل ما بين الكرنك وبين ممتلكات موت (٩٥).

وتحت رئاسة أنبياء آمون الأربعة، كان يوجد بالكرنك، وأيضا ببقية معابد مصر عدد كبير من الكهنة. فمنهم الأنبياء (حم نتر)، والكهنة الربانيون (إيت – نتر)، والكهنة العاديون (الوعب)(٩٦). ولا شك أن جميع هذه الألقاب، كان يزهو بها رؤساء ممتلكات آمون، والمديرون المدنيون بطيبة، وأفراد عائلاتهم. ولكن كان هناك أيضًا «الشعائريون»، «وكتاب المعبد»، «والميقاتيون»، أو «رجال علم الفلك»، من أجل تحديد تواريخ الأعياد بالتقويم القمرى (٩٧). وكان الكهنة الحائزون على مثل هذه الوظائف، يحظون بمساكن خاصة تقع على شمال النهر المقدس بمعبد آمون. أما الحلاقون، ومصففو الشعر، فكانوا يقومون بمهمة العمل على نظافتهم الجسدية وتطهيرهم (٩٨).

وبجانب رجال الدين، يوجد «منظم حفلات آمون»، وكما يدل عليه الاسم، تنحصر وظيفته فى العمل على توفير التنظيم الفنى بالمراسم الدينية الكبرى فى نطاق المجتمع

المحلى بتلك المنطقة. وحمل هذا اللقب بصفة خاصة الممثلون المحليون للملك، مثل الوزير «حورى»، أو الحاكم «باسر» (٩٩). وهناك أيضًا، بجوار الكهنة، زوجاتهم وبناتهم، وكذلك توجد زوجات وبنات رجال الإدارة بطيبة؛ وكن إذا لزم الأمر، يساهمن أحيانًا فى أداء الطقوس الدينية، ويشعن البهجة والحيوية فى نطاقها بوجودهن الأنثوى وبغنائهن. ولذا، كن يحملن عادة هذا اللقب الفخرى: «مغنيات آمون»(١٠٠). وبالرغم من إنهن لم يكن يمثلن أى كهنوتية نسائية، إلا أنه كان يشاع عنهن أنهن بمثابة «حريم» آمون. أما الشخصيات البارزة منهن، اللاتى كن يشرفن على أداء بقية زميلاتهن بالحفلات والمراسم الدينية، فكان يخلع عليهن لقب «رئيسات حريم آمون(١٠١)». وهناك سيدات أخريات، كن يحملن، وفقًا لمستوى وظيفة أزواجهن، ألقابًا مماثلة تتفق مع أداء بعض الشعائر الأخرى فى طيبة: «مغنيات» أو «رئيسات حريم مونتو» أو «موت»، أو أى آلهة أخرى (الفصل الثالث – ثم فيما بعد). وبجوار هؤلاء النساء، توجد فئات أخرى من المغنين والموسيقيين والراقصين المحترفين يعملون بالمعبد (١٠٢).

وكان الأنبياء الأربعة الأوائل يكونون ما يشبه القمة السياسية بممتلكات آمون. ومن منطلق هذا اللقب، كانوا يهيمنون على جهاز إدارى واسع المدى، قد لا يختلف فى ضخامته وأهميته عن ذلك الخاص بالدولة بأكملها. ومثله، كان يقسم إلى عدة إدارات وظيفية. فعلى سبيل المثال، كانت توجد به «إدارة القطعان»؛ التى سبق أن تحدثنا آنفًا عن بعض رؤسائها. ومثلما هو الحال فى نطاق الإدارة الملكية، كانت «إدارة الخزانة» هى الأكثر أهمية ضمن الإدارات جميعًا، ويرأسها «مدير الخزانة». وقد شغل هذه الوظيفة، خلال إحدى فترات الحكم، شخص يدعى أمنمس ابن باويا، الذى شيد مدينة هابو (١٠٣). وكان يعاونه فى وظيفته هذه «مساعد (١٠٤)» له، والعديد من الكتبة. وفى المناطق التى تخضع لنفوذه، القائمة بشمال الكرنك بساحة مونتو، كانت تحفظ المنتجات النفيسة النادرة؛ التى كانت «الخزانة الملكية» ترسلها مباشرةً إلى المعابد. ومن هذه المواد، نجد المرُّ والصبر اللذين كانت إحدى الحملات قد أحضرت كميات كبيرة منها من بلاد بونت النائية (١٠٥).

ويتبع هذه «الخزانة» أيضًا «مكتب المحفوظات»، حيث كانت تحفظ كافة المستندات والوثائق المكتوبة – وخاصة القضائية – المتعلقة بكافة شئون ممتلكات

آمون(١٠٦). وضمن هذه المستندات والوثائق، توجد بعض العقود الخاصة بهبات فردية. فهناك، على سبيل المثال، العقد الخاص «بأمنمس» بن «باويا»، الذى تعهد من خلاله بتوريث ثروته للمؤسسة، بشرط أن تقوم بتمويل شعائره الجنازية (١٠٧). وعلى قمة هذه الإدارة نجد «رئيس موظفى المحفوظات». وبداية من عهد رمسيس الثالث، وحتى أواخر الأسرة، اعتبرت هذه الإدارة الفائقة الأهمية، بمثابة معقل لسلالة شخص يدعى «ايام سيبا». وكان قبل الحكم، يشغل وظيفة «مساعد رئيس الخزانة»، ومجرد موظف محفوظات فى ممتلكات آمون. بل إن ابنه المدعو خع إم أوبى، كان قد بدأ تدرجه الوظيفى، هو أيضًا كموظف بـ«المحفوظات»؛ ولكنه، خلال العام الثانى من حكم رمسيس الثالث، سرعان ما وصل إلى منصب رئاسة هذه الإدارة. وفى نفس تلك الحقبة، تولى هو، وسلالته من بعده، مهمة إدارة الممتلكات الخاصة بأحد تماثيل الملك بمعبد المدامود؛ شمال الكرنك (١٠٨).

ومن المؤكد أن أعمال إقامة وتشييد، وصيانة وإصلاح العديد من معابد طيبة، ومحالها، وورشها، وتماثيلها، والأدوات الخاصة بالشعائر، كانت تحتم أيضًا، بجوار كل ما ذكر آنفًا من وظائف، وجود وظيفة أخرى هى وظيفة «مدير أشغال ممتلكات آمون». والأمر المثير للدهشة، أن من كان يشغل هذه الوظيفة عند بداية حكم رمسيس الثالث، كان المدعو «أمنمس» بن «باويا»؛ وهو نفسه كما سبق أن رأينا، كان هو المكلف ببناء مدينة هابو. ولا شك أن ذلك يبين مدى أهمية تلك الوظيفة المذكورة. وكان أصحاب هذه الوظيفة، أيضًا، على غرار شاغلى وظائف الأنبياء الأوائل لآمون، يتبادلونها أبًا عن جد عن طريق الوراثة. وربما نحن لا نعرف العديد من الأشخاص، خلال حكم رمسيس الثالث، الذين كانوا يحملون لقب «مدير أشغال ممتلكات آمون»، بخلاف أمنمس. ولكن،على ما يبدو، أن هذا اللقب قد حمله أيضًا «النبى الأول لآمون» «رمسيس نخت»، بداية من فترة الحكم التالية (١٠٩).

ومن منطلق مسؤولياته، كان «مدير أشغال ممتلكات آمون»، يبسط نفوذه على جهاز ضخم من العاملين. الذين كانوا موزعين فى هيئة مجموعات متخصصة، يرأس كل مجموعة منها مشرف خاص. وبالنسبة لأعمال البناء، كان لديه مجموعات من الحمالين، والنحاتين، والقائمين بعمليات الهدم، والحجارين، «والمكلفين بجر

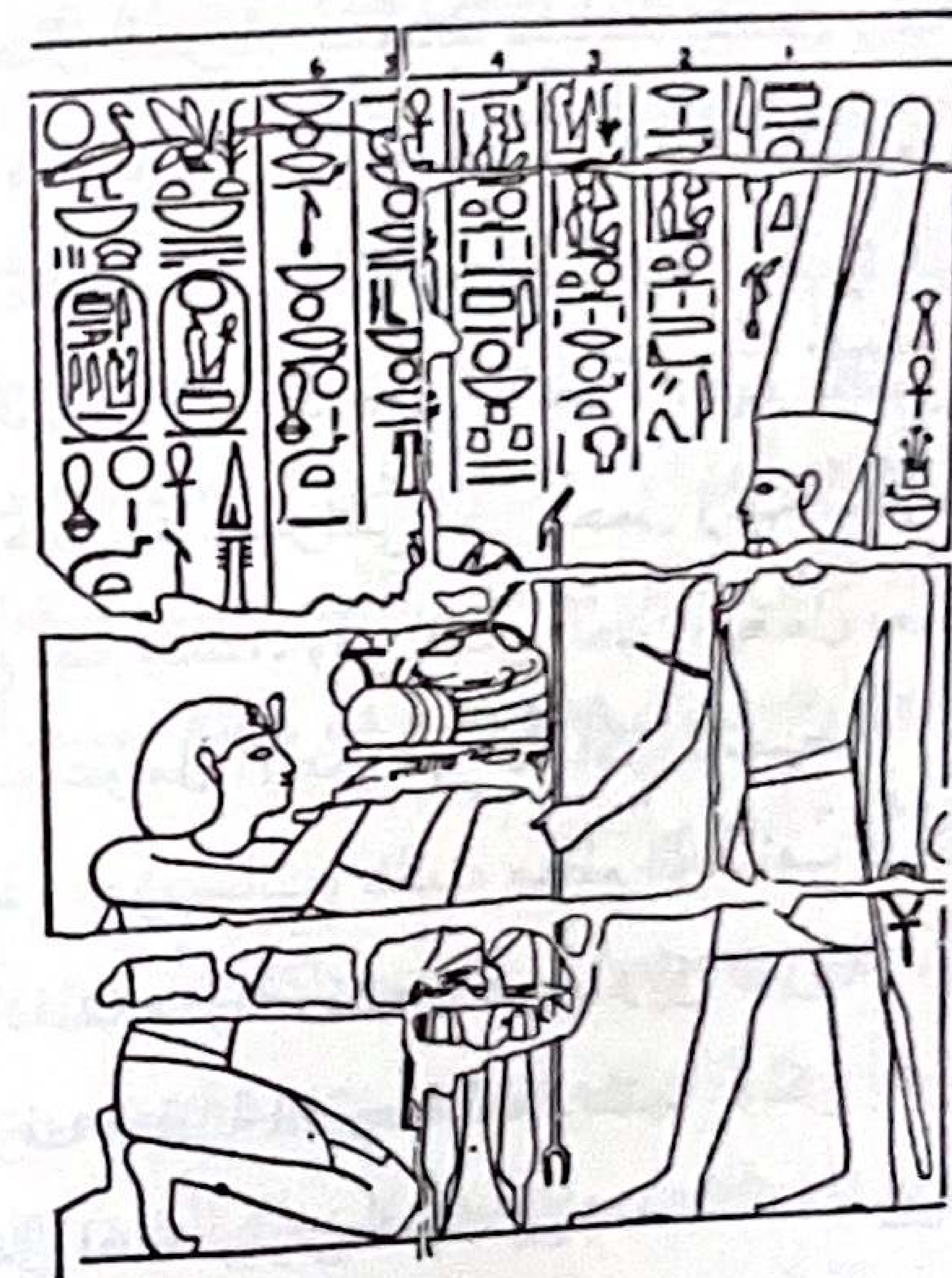
الأحجار»، والبناءين، والعاملين فى أشغال الجص، والرسامين، ونقاشى النصوص(١١٠). ويضاف إلى كل هؤلاء : نحاتو التماثيل؛ الذين كانوا يشاركون فى بعثات، إحضار الحجارة اللازمة لصناعة التماثيل(١١١) (بوادى الحمامات على سبيل المثال). ولكن ممتلكات آمون كانت تتضمن أيضًا الكثير من الصناع المتخصصين فى أعمال متعدّدة ومتباينة : صناع الصوارى ذات الرايات التى تزين قمم بوابات الصروح الضخمة، وصناع السفن أو المراكب المقدسة، والحدادين، وصناع الصنادل، وصناع الأحذية، وصناع المركبات الحربية، وصناع الحبال، وصناع السلاسل، والفخرانية(١١٢). وأخيرًا، ومن أجل صناعة أو زخرفة الأدوات الخاصة بإقامة الشعائر، كان يوجد أيضًا الصياغ، ونحاتو الأحجار النفيسة، والخزافون، وصانعو القلائد، واللآلئ والمراوح، والنساجون(١١٣). وخلال عهد رمسيس الثالث أو أحد خلفائه، كان هذا الفرع من المصنوعات بممتلكات آمون يخضع لإدارة «رئيس الصياغ» المدعو «جحوتى ام حب» ابن«أمون خعو» الذى كان يشغل وظيفة «رئيس الصناع» بمدينة هابو(١١٤).

وأخيرًا، ولعلنا لا نطيل فى هذا الصدد، يجدر ذكر «النبى الأول لآمون» الذى كانت لديه قوة من رجال الشرطة يقودها ضابط يحمل رتبة «قائد جيش ممتلكات آمون»(١١٥). ويتكون هذا الجيش من مختلف فئات الحرس؛ يكلف البعض منهم بحراسة ومراقبة الميناء الخاص بالبضائع الضخمة الوفيرة التى تنهمر فى كل وقت على المحال الواقعة بالكرنك؛ أما البعض الآخر، فإنهم يكلفون بمنع التجمعات عند منافذ هذا المكان. فى حين يقوم شرطى آخر يحمل رتبة «حارس البوابة» بمنع دخول الأفراد غير المصرح لهم بذلك. وفى نفس الحين، يعمل بعض رجال الشرطة أى «المجاو» على استتباب عوامل الأمن فى الأماكن المحيطة(١١٦). وعمومًا، كما هو سائد فى نطاق مثل هذه المؤسسات، كانت معظم الوظائف فى نطاق ممتلكات آمون، من أرفعها شأنًا إلى أدناها منزلة، تنتقل عن طريق الوراثة. وكان ذلك يتم لضمان تناقل الثقافات والمعارف التقنية اللازمة لممارستها. ولكن بالرغم من ذلك، نجد فى إطارها أيضًا من يحمل لقب «رئيس المجندين بممتلكات آمون»، (ومنهم الكثير من الأجانب)؛ وقد حمل هذا اللقب أمنموبى، و«النبى الأول لآمون» المدعو باك إن

خونسو(١١٧)؛ وحمله أيضًا أمنمس ابن باويا قبل أن يصبح «مدير الأشغال(١١٨) ويبين ذلك، أن الضرورة كانت تحتم فى بعض الأحيان، الالتجاء إلى تجنيد وتوظيف أشخاص من فئات خارجية.

الشعائر

سواء فى الكرنك، أو فى كافة معابد مصر، كانت تقام كل يوم بعض الشعائر الدينية الغامضة المركبة، يساهم فى أدائها عدد كبير من الكهنة وخدمة المعابد. وقد أشارت بعض النصوص إلى أن هذه الشعائر، كانت تنقسم أساسًا، إلى أربعين مرحلة ولقد مثلت هذه المراحل جميعها، خلال عهد سيتى الأول، على الجزء الشمالى للجدار الشرقى بقاعة الأساطين الكبرى فى معبد آمون (١١٩). وفى عهد رمسيس الثالث، نجد منظرًا مختصرًا لها بمدينة هابو بالصف العلوى على الجدار الشمالى بالفناء الأول(١٢٠). وأما عن المواد والعناصر التى كانت تكرس من أجلها، فقد ذكرت من خلال «تقويم الأعياد» بالمعبد (١٢١).



إحدى مراحل الشعائر الإلهية اليومية

من الوجهة النظرية، يعتبر الملك هو الممثل الوحيد لأداء الطقوس. وفى كل صباح بخالقه رع، وعند بزوغ الفجر، يقوم الكاهن الشعائرى الذى يؤدى دور الملك بالانتداب، بكسر الختم الذى وضع فى الليلة الماضية على باب الناووس المتضمن لتمثال الإله، ويسحب مزلاج أقفاله، ويفتحه على مصراعيه. وأمام نظرات الإله التى رفع عنها حجابها، يقوم بوضع موقد جمر معدنى ملىء بالفحم والخشب المتوهج، فوق إحدى الدعامات الصغيرة. ثم يلقى فوقه ببعض البخور والدهون. ثم يبدأ فى التهوية على النيران من أجل تأجيج اشتعالها. ويبدأ فى شى بعض اللحوم عليها. ثم يقدم هذا اللحم للإله. وبعد ذلك، يريق بعض الجعة، أمام تمثال الإله إكرامًا له. ويقدم له، على التوالى، قليل من الخبز، وكمية من الفطائر، وقدر من الجعة، والنبيذ واللبن. وفى نفس الوقت، كان بعض الكهنة المكلفين بحمل القرابين، وحمل المقاعد واللبن(١٢٢) يحضرون إلى الناووس، كميات ضخمة من القرابين، التى جلبوها من مخازن المعبد.

وكدست هذه المنتجات كلها أمام الإله. وكانت قبل ذلك بقليل، قد مرت بمرحلة تطهير مركبة ومعقدة تتضمن بعض عمليات الغسل وإزالة الدنس؛ وانتهت بإراقة بعض المياه فوقها، والتى كانت قد أخذت من وعائين موضوعين فوق إحدى الدعامات. وفى نهاية هذه الشعيرة، يركع الكاهن على ركبتيه وهو يقوم بتحية الإله ويقدم له جرة مليئة بالماء. وبعد ذلك، يبدأ فى إراقة كمية من الجعة إكرامًا له، بالإضافة إلى تبخيره للقرابين بواسطة بعض البخور والصبر. وأخذ وهو يمد يده نحوه، يرتل القائمة القانونية الخاصة بها. وبعد عملية أخرى لإراقة الخمر والتبخير من جديد، أخذ الكاهن يدعو الإله إلى تناول القرابين. وفى هذه اللحظة بالذات تبلغ الشعيرة ذروتها. إنها اللحظة التى تأتى فيها «با» آمون، من السماء التى تستقر فيها عادة، من أجل أن تسكن فى كيان التمثال وتتغذى بالقرابين. والآن، لم يتبق بعد ذلك، سوى إنهاء الشعيرة. وعمل الكاهن على إعادة إقفال أبواب الناووس وتشميعها؛ ثم قام برش وكنس الأرض وهو ينسحب خارجًا، ثم بدأ فى عملية إراقة النبيذ، وتبخير نهائية.

وبعد انتهاء هذه المراحل، الخاصة بالشعيرة الإلهية نفسها، بدأت بعض المراسم الإضافية، التى يربط، من خلالها، ما بين الإله، وبين «الملوك الأجداد». واقتطع جزءًا من القرابين الموضوعة على المائدة الخاصة بها والتى كانت قد كرست من أجل آمون.

وتم وضعها فوق هيكل خاص، كان يقع، فى الكرنك، خلف المعبد، بداخل المقصورة الصغيرة المسماة بـ «غرفة الأجداد»، قريباً من مدخل «قاعة الاحتفالات» (الآخ منو) الخاصة بتحتمس الثالث. وكانت الجدران الداخلية لهذه الحجرة قد زخرفت بصور الفراعنة الذين حكموا مصر منذ أقدم العصور. وبداخلها، أعيدت نفس الطقوس التى وصفناها آنفًا، ولكن أضيفت إليها ثلاثة مناظر خاصة، تعمل على تأكيد مضمون الأبدية فى نطاق الشعيرة : إنارة إحدى الشعلات ثم إطفاؤها، رمزًا إلى تتابع الأيام والليالى؛ ثم قيام الكاهن وهو راكع على ركبتيه، وقد رفع يديه فوق القرابين، بترتيل صيغة يعنى مضمونها تكريس هذه القرابين للوجود الأبدى لتماثيل الآلهة فى معابدها. ولا شك، أن كافة هذه المنتجات، كانت بكل تأكيد توزع على الهياكل الخاصة بالمقاصير الثانوية بالمعبد وعلى الهياكل الخاصة بتماثيل الملوك العظماء القدامى.

وبواسطة ثلاثة مراسيم أصدرها الملك، على التوالى، فى العام السادس من حكمه والعام السابع، والعام السادس عشر؛ ومن خلال نسخة منها نقشت فوق الجدار الخارجى الشرقى لمعبده الثانوى، عمل رمسيس الثالث على زيادة حجم المنتجات والمواد اللازمة، من أجل هذه الشعيرة الإلهية، فى الكرنك[١٢٣]. ولقد نص المرسوم الأول على تقديم قربان يومى، من معبده الجنازى، فوق مائدتين صغيرتين مصنوعتين من الذهب والفضة، توضعان أمام ناووس آمون. والغريب فى الأمر أن قائمة أكثر قدمًا عن «تقويم الأعياد» بمدينة هابو، لم تشر إلا لوجود مائدة واحدة ونصف القرابين المذكورة[١٢٤]. أما عن المرسوم الثانى، فقد نص على تقديم قربان يومى يتكون من (٣١) رغيف خبز، من مدينة هابو، وبحيث يوضع بداخل السلة المثبتة بكتف أحد تماثيل الملك وهو راكع، وقد وضع فوق حامل مجاور للمائدتين المذكورتين آنفًا. وأخيراً ينص المرسوم الأخير، الذى يؤرخ باليوم الأول من ثانى أشهر فصل الشمو بالعام السادس عشر من حكم الملك – (أى تالٍ للقائمة الخاصة بالعام ١٥) – ينص على أن يقدم قربان يومى لتمثال آمون بالكرنك أكثر أهمية وضخامة، لم يكن ليقل عن ألف رغيف يوميًا، بحيث يوضع على مائدة القرابين الكبرى المصنوعة من الذهب والفضة «ور جفاو، المفعمة بالمؤن»، التى كان الملك قد أمر بعملها فى بداية حكمه؛ والتى توجد على جانبيها المائدتان الصغيرتان وتمثال الملك

المشار إليه من خلال المرسوم السابق. وجميع المواد اللازمة لتلك الشعيرة، سواء من الحبوب، أو الحيوانات، أو الخضراوات، أو باقات الورود، أو العسل، أو البخور.. إلخ، كانت الضرورة تحتم أن تقدمها مخازن الغلال، والبساتين، والقطعان، أو خزانة مدينة هابو أيضاً. وبخلاف هذه الشعيرة اليومية، كان هناك العديد من الأعياد فى إطار التقويم الدينى بطيبة. وسوف نرى أن رمسيس الثالث، قد أضفى عليها بريقًا متألقًا خاصاً (ينظر فيما بعد).

الأعمال بالكرنك

خلال عهد رمسيس الثالث، لم يكن قد شيد بعد صرح الدخول الكبير إلى معبد الكرنك، ولا الجدران التى تحدد الفناء الأول، ولا الجوسق التى ما زالت بعض آثاره متبقية حتى الآن فى ذاك الفناء. والصرح الكبير التالى هو فقط الذى يكون واجهته الغربية. وانطلاقاً من جوانب هذا الصرح تمتد حول هذا المكان ووحداته الاقتصادية، مساحة محاطة بسور من الطين اللبن، كان الملك قد أمر بتشييده. وقد أحيت هذه المناسبة من خلال إحدى اللوحات التذكارية. وكان يحدها من الشمال، بشمال الفناء الذى يفصل ما بين الصرح الثالث والرابع، باب حجرى بديع الصنع، يمكن من خلاله الدخول إلى ساحة معبد مونتو[١٢٥].

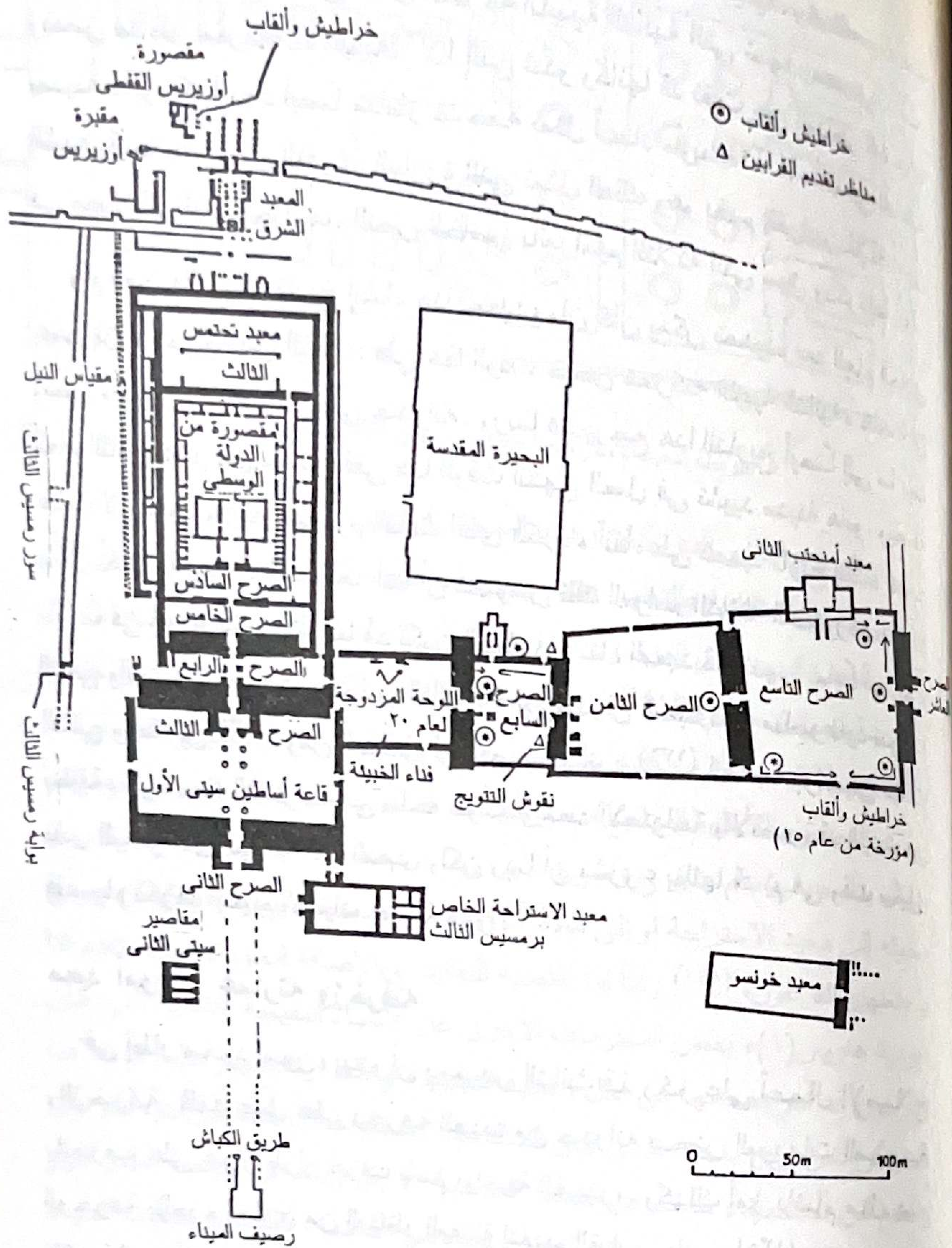
وأمام الصرح الكبير الثانى، عند محور المعبد، يقع الممر الذى اصطفت على جانبيه تماثيل لأبى الهول على هيئة رأس كبش. وعلى غرار مدينة هابو، كان هذا الممر يؤدى، بدايةً من الباب الرئيسى للمعبد، إلى منصة تشرف على بحيرة مستطيلة الشكل متفرعة من النيل. وفى نطاق هذا الممر كانت تتم مواكب الطواف تعبداً فى آمون. ولم يكن متضمناً إلا مقصورة استراحة ذات هيكل، أقامها سيتى الأول، بالناحية الشمالية للمعبد، قبل ذلك بحوالى قرن.

معبد الاستراحة بالكرنك[١٢٦]

وأمام تلك المقصورة، على الناحية الجنوبية للممر، قرر رمسيس الثالث تشييد معبد استراحة، «على غرار أفق السماء»[١٢٧]، بل وشيد مثيلا له يتطابق معه تطابقاً تاماً فى فناء «موت». وكان هذا المعبد يخضع لإدارة ممتلكات آمون، أطلق عليه اسم «برت رمسيس حقا ايونو فى ممتلكات آمون». وكمثل معبد سيتى الثانى، كان الغرض منه،

هو أن يستقبل بصفة مؤقتة، خلال مواكب الطواف بضفة طيبة اليمنى (خاصة فى أعياد أوبت)، المراكب التى تحمل تماثيل آمون، وموت، وخونسو. ويمكننا أن نشا بعض المناظر المبسطة لهذا المعبد، وقد نقشت على واجهتى الصرح الثانى بعض آمون، فى هيئة ناووس كبير يتضمن تلك المراكب، وأمامه شكل لرمسيس الثالث و يدخل من باب المعبد(١٢٨). ولقد كرست من أجله بعض الممتلكات التى تتضمن مساحات من الأراضى، وما يزيد عن ألفى عامل، وعدد مماثل لهم من الرعاة، من أجل العناية بقطيع من الغنم والمواشى، حدد مكانه على طول ضفة «البحر الكبير» أو الفرع الأوسط للنيل بالدلتا. ولقد تضمنت ممتلكاته هذه العديد من البساتين من أجل توفير الفواكه والخضراوات اللازمة للقرابين اليومية الواجب تقديمها لآمون(١٢٩).

وعموماً لا يختلف الشكل المعمارى وزخرفة المعبد عن بقية نصب ومعابد رمسيس الثالث(١٣٠). فعلى جوانب الصرح الكبير الذى يتقدمه تمثالان عملاقان للملك، نشاهد النقوش البارزة التقليدية التى تمثله وهو يقضى على الأسرى أمام آمون رع. وقد بد أسفلها بعض القوائم الطبوغرافية (رسم ووصف الأماكن وأحوالها الطبيعية) الخاصة بالبلاد المعادية لمصر، منذ أمد بعيد. ومن خلال بابه الرئيسى، نجد أنفسنا فى فنا مكشوف محاط بأروقة ذات أعمدة أوزيرية، كسيت جدرانها، من الناحية اليمنى، بأشكال تمثل أعياد الإله «مين»؛ ومن الناحية اليسرى بأشكال تصوّر الاحتفال السنو بذكرى تتويج الملك. وفى نهاية الفناء، يتراءى رواق ثالث، ذو منحدر محورى. وعلى جدرانه، نقشت بعض الكتابات المزدوجة لحديث الملك إلى آلهة ثالوث طيبة. ومن خلاله، يذكر المآثر والإنجازات التى قام بها من أجلهم(١٣١). وبعد هذا الرواق، يمكن الدخول إلى قاعة صغيرة ذات أعمدة، تتراءى على ركائز بابها، نقوش بارزة، تمثل الملك على اليسار، وهو يكرس المعبد من أجل آمون؛ ثم، على اليمين، وهو يحذر كل إنسان من الدخول إلا بعد أن يتطهر أربع مرات. وفى نهاية هذه القاعة ذات الأعمدة، توجد ثلاث حجرات خاصة بالاستخدامات الشعائرية، وبعدها مباشرة نجد المقاصير الثلاث التى تحفظ بداخلها مراكب آمون، وموت، وخونسو؛ وقد أطلق على المقصورة اليمنى اسم «معبد خونسو»، وعلى المقصورة اليسرى اسم «معبد موت(١٣٢)».



الكرنك أيام رمسيس الثالث (المحور الشمالى الجنوبى) (نقلا عن بول بارجيه)

حوض التطهير
رواق ذو أساطين
نقوش تمجيد لرمسيس الثالث
قاعة الأساطين الكبرى
معبد استراحة لرمسيس الثالث
خراطيش وألقاب
(مع الاحتفاء بذكرى
التفتيش على المعابد)
معبد مكتل
خراطيش وألقاب
مناظر تقديم القرابين ∆
الآخ منو

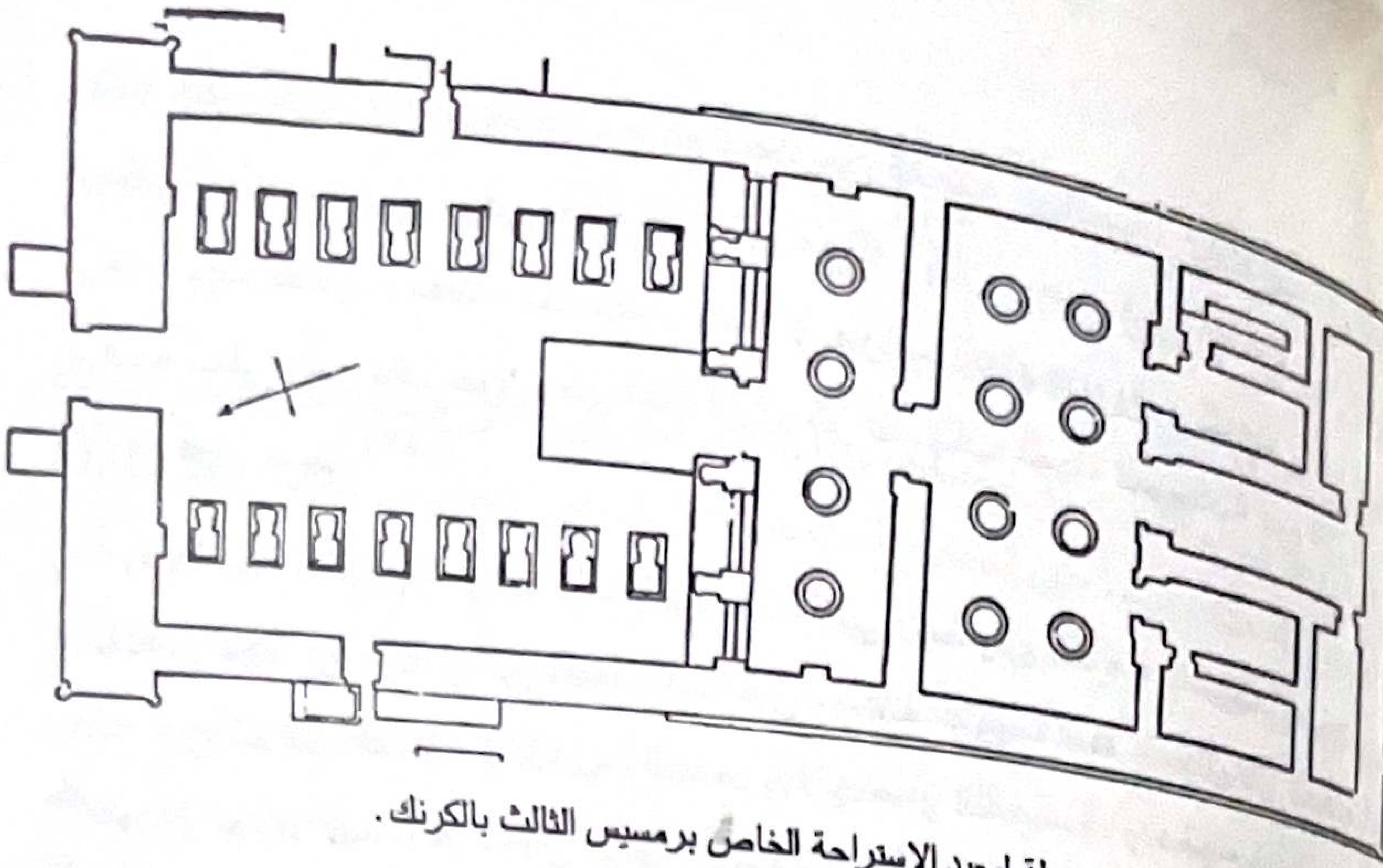
الكرنك ... الثالث (المحور الشرقى ...)

وفوق الجدران الخارجية للمعبد، نرى المناظر الدينية التقليدية، وكذلك، بالناحية القريبة، بعض المناظر التى تمثل المعركة الليبية الثانية التى شنها رمسيس الثالث وبعض مناظر لمعركته الآسيوية(١٣٣) التى تبدو وكأنها قد نقلت عن المناظر الموجودة بمدينة هابو. كما نجد أيضاً مناظر ضخمة تمثل أعياد «أوبت»(١٣٤). أما فى الناحية الشرقية، فنجد بعض النقوش البارزة التى تمثل الملك وهو يقدم القرابين للإله آمون فى معبد الكرنك، وبجوارها، النص الخاص بالمراسيم الثلاثة التى سبق وذكرناها آنفا.

ولم يعين بالتحديد تاريخ إنشاء هذا المعبد، وإن كان يمكن تحديده بعد العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث. ففى هذا الوقت خاض معركته الليبية الثانية، خاصة أن بعض مناظرها قد مثلت على جدرانه. وربما قد يرجع هذا التاريخ أيضاً إلى ما بعد العام الثانى عشر من حكمه، ففى هذا الوقت انتهى العمل فى تشييد مدينة هابو. وبصفة عامة لا يساعد تاريخ المرسوم الثالث الذى ذكرناه آنفا،على تحديد تاريخ إنشاء المعبد بشكل أكثر تأكيدا. فلا يستبعد أبداً أن نصوص تلك المراسم الثلاثة المذكورة عاليا قد نقشت فى تاريخ لاحق. وربما قد يكون العمل فى بناء المعبد قد انتهى تماماً فى العام الثانى والعشرين من حكم رمسيس الثالث. فعلى جدران المعبد نجد مناظر لعيد تتويجه الثانى والعشرين(١٣٥). ومن المحتمل أن النصب الأخرى(١٣٦) الخاصة برمسيس الثالث بطيبة، سواء معبد الاستراحة فى ساحة موت أو معبد الاستراحة بالأقصر، قد شيدت فى نفس الوقت الذى شيد فيه هذا المعبد. ولكن ربما أن مشروع بنائها قد تم فى وقت سابق، فقد جاء ذكرها «بتقويم الأعياد» بمدينة هابو(١٣٧).

معبد آمون : عمارته وزخرفته

فى إطار معبد آمون، يبدو أن رمسيس الثالث قد ركز على أعمال الإصلاح والزخرفة. فلقد عمل على زخرفة العديد من جدرانه ببعض المربعات المطعمة بالخزف على غرار طراز عرف باسم «واجهة القصر». وكذلك أمر بإتمام مثل هذه الزخرفة بالجزء العلوى من المناظر الممثلة لتقديم القرابين باسمه(١٣٨). وعمل على نقش قائمة ألقابه وخراطيشه على معظم جدران الممرات. وكذلك الأمر بالنسبة لواجهات وفتحات العديد من الأبواب : بالمداخل الشمالية والجنوبية لقاعة الأساطين؛ أو جوانب صرح معبد أوزوريس، شرق هذا المعبد(١٣٩).



خريطة لمعبد الاستراحة الخاص برمسيس الثالث بالكرنك.

أمام الصرح الثانى الذى كان يحدد المدخل الرئيسى للكرنك، أمر رمسيس الثالث بتشييد مقصورة خاصة بالتطهر عند محور باب معبد الاستراحة، لم يتبق منها الآن سوى حوض كبير من المرمر، عثر عليه فى العام ١٩٦٩، بنفس مكانه الأصلى بأرضية «جوسق طهرقا»(١٤٠). ويبدو هذا الحوض الكبير وقد ثبت بداخل حفرة بالأرض، ولا تبدو سوى حافته على نفس مستوى الأرض. [تم تنظيف الفناء حاليا، ويظهر الحوض بالكامل (المراجع)]. ويبدو أنه، خلال حقبة رمسيس الثالث، كان قائماً بداخل بناء صغير، لم يتبق منه شىء الآن. وبداخل هذا البناء الصغير، كان الملك قبل دخوله إلى معبد الاستراحة أو إلى معبد آمون، يمر بمراسم تطهير أو ما يمكن أن يسمى بـ «تطهير الفرعون» (١٤١) وفقاً لما تقتضيه التقاليد. وبالإضافة لمعلوماتنا هذه، تقدم لنا «بردية هاريس(١)» بعض المعلومات الأخرى عن الأشياء النفيسة النادرة، التى كان الفرعون قد أمر بصنعها من أجل «عملية التطهير» أو طقوس التطهير هذه. فبخلاف الحوض المرمرى نفسه، الذى كان الملك يقف بداخله خلال هذه المراسم، أمر بأن يُصنع من أجله، إناء ضخم من الفضة الخالصة، لا يقل وزنه عن خمسة عشر كيلو جراما له حواف من الذهب الخالص، وغطاء من الفضة. كانت توضع به المياه الخاصة بالتطهير من أجل استعمالها. وخلاف ذلك، هناك أربعة أوان أقل حجماً، ومصنوعة أيضاً من الفضة الخالصة والذهب؛ لكى يقوم كهنة أربعة متماثلون بآلهة الجهات الأصلية الأربع، بملئها بالمياه المطهرة تسكب على جسد الفرعون. ثم

هناك أيضاً إبريق ضخم متسع، صنع أيضاً من الفضة الخالصة، ثبتت على قو السفلى شبكة معدنية. وفى حالة عدم استعماله، كان يوضع فوق دعامة لها أربع أرجل، ويتم تغطيته بغطاء لحمايته. وخلال مراسم التطهير، يقوم كاهنان آخران برفعه أعلى رأس الفرعون، من أجل أن يركز انسياب المياه المنسكبة من الأوانى الأربع فوق جسده(١٤٢).

وبالناحية الشرقية من بناء التطهير هذا، أمر رمسيس الثالث بتشييد عمودين ضخمين مكسوان برقائق من الذهب الخالص، يستند عليهما سقف مائل إلى حد ما، صنع من الخشب المغلف بالذهب والمطعم بالأحجار النفيسة. وحقيقة أن هذين العمودين لم يعد لهما وجود الآن، ولكن النصوص تتحدث عنهما قائلة بأنهما قد نصبا فوق دعامات مغلفة برقائق من الفضة(١٤٣) الخالصة؛ وهى فقط التى تبقت. وربما، أنها، مثل حوض التطهير الخاص بالفرعون قد عثر عليها أيضاً فى عام ١٩٦٩، ولكن بعد أن أعيد استعمالها من أجل تغليف الباب الجنوبى «لجوسق طهرقا»؛ وكانت قد صنعت من المرمر. وقد وضعت حالياً بالركن الشمالى الشرقى بالفناء الأول(١٤٤).

وعند المحور الرئيسى لمعبد آمون، وبخلاف الكتابات والنقوش البارزة التى ذكرناها آنفاً، عمل رمسيس الثالث أيضاً، على زخرفة الفناء المستطيل الذى كان يقع ما بين الصرح الثالث والرابع؛ ويحدد نهاية ممر الطواف من الناحية الجنوبية. وقد أقام لوحة عند الواجهة الغربية للصرح الرابع؛ ونقش عليها بعض النصوص التى انتحل لنفسه من خلالها بعض الصفات الحربية المقتبسة من النقوش البارزة الخاصة بحروب سيتى الأول(١٤٥). بل وأمر أن تنقش مجموعة ألقابه فوق قاعدة الجدار العرضى الذى كان يعمل على تحديد المدخل الشمالى للفناء، ولإقفاله بواسطة بوابة خشبية(١٤٦). وعلى الواجهة الغربية للصرح الثالث، وعلى كلا جانبى بابه المحورى، أمر بنقش نقوش بارزة تمثله وهو يقدم القرابين لآمون، وموت، وخونسو، ومونتو(١٤٧). وقد زينت أفاريز هذه المناظر برقائق من الخزف المزخرف. وأخيراً، وعلى جانبى الصرح، وفى أثر تلك المناظر، أمر الملك بنقش صفين من الكتابات التى تعدد مختلف ألقابه ووظائفه. ويؤرخ السطر الأعلى منها، الواقع بالجانب الجنوبى الشرقى بتاريخ أول يوم من أول أشهر فصل «البرت»، بالعام الخامس من الحكم(١٤٨)،

أى فى الوقت الذى كان الفرعون قد قرر فيه القيام بالتفتيش العام على كافة معابد مصر. وعلى الجانب الشمالى، نجد سطراً ثالثاً يخلد من خلاله تنفيذ هذا المشروع، بعد مرور حوالى عشر سنوات (فيما بعد – ١).

وبعد الفناء الذى سبق وصفه، وبالناحية الشرقية، أى بالفناء الذى يمتد جنوب محور المعبد، فيما بين الصرح الخامس والرابع، أمر رمسيس الثالث بنقش قائمة بألقابه ووظائفه، فوق الجدار الجنوبى(١٤٩). بل وعمل أيضاً على نقش خراطيشه على القاعدة الداخلية للأعمدة التى تحدد، من الناحية الشمالية أحد ممرات الطواف المؤدى إلى طريق مستطيل الشكل يسمح بالوصول إلى «الآخ منو» الخاص بتحتمس الثالث(١٥٠). وفى نفس هذا الفناء، مثل الملك أيضاً، فوق جداره الشمالى، وهو يقدم لآمون الإلهة ماعت بمصاحبة أحمس نفرتارى الأم المؤلهة لمؤسس الأسرة الثامنة عشرة. وفى وقت لاحق، تم طمس رأس آمون بكل دقة وعناية، ليحل مكانه رأس آخر مصنوع من الخزف. أما عن جسده، فقد غطى بنقاب ثبتت أطرافه فى الجدار بواسطة بعض الأوتاد(١٥١).

وعند الجانب الآخر من محور المعبد، جنوب شرق الصرح السادس، نشاهد أيضاً نقوشاً تمثل خراطيش الملك فوق أعمدة القاعة المؤدية إلى الممر المكشوف السقف القائم خلف المعبد، والذى يتضمن بعض المحال. وأخيراً، وفى نطاق «الآخ منو»، وبالإضافة إلى خراطيشه، قام رمسيس الثالث بنقش مناظر بارزة أخرى تمثله فوق جدران القاعة الخاصة بطقوس الشمس المشرقة(١٥٢).

وعلى مستوى المحور الخاص بالطواف الجنوبى الشرقى بالكرنك، أمر رمسيس الثالث بنقش قائمة بألقابه، فى اتجاه الشمال، بالممرات المحورية، وأمام الصرح العاشر والتاسع والثامن(١٥٣)؛ بل وأمر بنقشها فوق قاعدة الجدران الداخلية للممر الذى يفصل الأسطون التاسع عن العاشر(١٥٤). وقام أيضاً بتزيين هذا الفناء من الداخل بمسلتين صغيرتين، لم تتبق منهما الآن سوى واحدة(١٥٥). وعلى مقربة واضحة من المعبد، بالفناء الواقع ما بين الصرحين السابع والثامن، يلاحظ تعدد وكثرة النقوش الخاصة بألقابه وأسمائه فوق الجدار الشرقى. بل ويضاف إليها أيضاً مجموعة من المناظر الممثلة لتقديم القرابين خلال فترة حكمه(١٥٦). وفى نفس هذا المكان، نجد أن خراطيشه قد نقشت أيضاً فوق قاعدة مسلة كان قد أقامها تحتمس الثالث (لا أثر لها

الآن). بل ونقشت كذلك فوق أحد أجزاء تمثال عملاق يمثل تحتمس الثالث. ولا شك أننا قد عرفنا أيضاً أن الواجهة الشمالية بأكملها بالجانب الغربى للصرح الثامن(١٥٧) قد زخرفت بنقوش بارزة تمثل أهم مراحل مراسم تتويجه(١٥٨) (الفصل الثانى - ١). وأخيراً، وفى «فناء الخبيئة»، فيما بين الصرح السابع والمعبد، نجد لوحة مزدوجة ترجع إلى العام العشرين من حكمه، قد نقشت فوق الجدار الشرقى، إحياءً لذكرى تقديماته لآلهة مصر، واهتمامه بإجراءات التفتيش(١٥٩) على معابدها. وبالنسبة «لخبيئة التماثيل» التى سمى الفناء باسمها، فقد عثر بها، فى أوائل هذا القرن، على تمثالين لحاملى شارات الفرعون، وعلى تمثالين للنبى الأول لآمون، المدعو باك إن خونسو، خلال فترة حكمه، وتمثال لمن يدعى آمون مس بن باويا «رئيس الأعمال» بممتلكات آمون فى بداية فترة حكمه(١٦٠).

حقيقة أن إنجازات رمسيس الثالث المعمارية فى معبد الكرنك تبدو متواضعة إلى حد ما، ولكن، لا شك أن أحدها، يتسم بالحداثة وغير مسبوق. فعلى الواجهة الخارجية الشمالية لقاعة الأساطين، غرب الباب الذى يقسمها إلى قسمين متساويين، نجد أن سيتى الأول كان قد مثل من خلال بعض النقوش البارزة، وهو يقوم، خلال فترة حكمه، بعرض صفوف من الأسرى الحيثيين، أمام ثالوث طيبة الممثل بداخل ناووس الكرنك. ولكن، خلال عهد رمسيس الثالث، تم إحاطة النقش البارز الممثل للناووس، بعد أن نقشت أسفله ستة خراطيش للملك، بواسطة بعض الركائز الخشبية وثبت فى أعلاه سقف خشبى مائل إلى حد ما. وما زالت بعض كمراته المثبتة بالحائط، تبين إلى درجة ما عن وجودها. وبمثل هذه الوسيلة، حوّل ذاك المنظر الشعائرى لصالح عامة الشعب، الذين لا يمكنهم الدخول إلى المعبد، ومع ذلك يريدون أن يعبروا عن ورعهم وتدينهم للآلهة المقيمين به(١٦١). ولقد سبق أن وصفنا مكاناً مماثلاً فى مدينة هابو فيما قبل (الفصل الثالث - ٢). ولقد زود هذا المكان بباب خاص به يستطيع العامة أن يدخلوا إليه من خلاله. ويقع هذا الباب فيما بين نهاية الواجهة الشمالية للصرح الثانى ونهاية جدار الفناء المؤدى إليه.

معبد آمون : أدوات الطقوس

وفقاً لما وصفناه، قد يتراءى أن إنجازات رمسيس الثالث بالكرنك - بخلاف معبد

الاستراحة - تبدو متواضعة وغير متناسبة مع عظمته وعلو شأنه. وربما لا يعتبر ذلك رأياً صائباً تماماً. فلقد عمل على وضع أعداد كبيرة به من قطع الأثاث الشعائرى المصنوعة من مواد نفيسة ونادرة. ولكن، مما يؤسف له، أن هذا الكم من الأثاث الشعائرى الفخم قد اختفى أثره منذ أمد بعيد. ولقد أمر هذا الفرعون بإقامة بعض التماثيل الطقسية لأجل آلهة المعبد. ولحماية تمثال آمون نفسه، أمر بإقامة ناووس أحادى الحجر، من الجرانيت الوردى، له باب من الذهب الخالص. أما عن تمثال آمون، فقد زينه برداء صدر وقلائد مصنوعة من الذهب والأحجار النفيسة. وجهز أمام هذا الناووس مائدة قرابين تعرف باسم الـ «ور جفا و»، أى «المفعمة بالمؤن»، استخدم فى صناعتها ما لا يقل عن ثلاثة قناطير من الذهب والفضة الخالصة. وعلى جانبى نفس هذه المائدة، ومن أجل مراسم إراقة النبيذ والجعة، وضعت خزانتان عليهما أوانٍ من الخشب المطعم بالذهب والمرصع بالأحجار النفيسة، ووضعت فوقهما أيضاً بعض الأباريق المصنوعة من الذهب والفضة. وأضيف إلى كل ذلك تمثال من الذهب يمثل الملك، وهو راكع على ركبتيه، فى وضع مقدم القرابين. وكان الهدف من هذا التمثال هو تمثيل الملك بشكل دائم، خلال المراسم الشعائرية(١٦٢). ووضع بجانب هذا التمثال «مخطوطان» من الذهب والفضة، ولوحتان صغيرتان فضيتان، وأربع لوحات أخرى من النحاس، وكأنها ألواح للكتابة نقشت فوقها بعض التراتيل والصلوات الموجهة إلى الإله آمون. بل وتضمنت أيضاً المراسم الخاصة بتأسيس مختلف المعابد (وبصفة خاصة مدينة هابو)، التى أقيمت من أجل هذا الإله خلال فترة الحكم. وتبدو إحدى هذه اللوحات، التى قام الملك بنقشها بمناسبة العيد الثانى العشرين لتتويجه، وقد مثلت على جدران معبد الاستراحة الخاص به، وهى تتضمن بعض التراتيل التى يعبر من خلالها عن ورعه لآمون، ويتحدث عن مختلف الإنجازات التى أتمها من أجل هذا الإله(١٦٣). ولقد بلغ وزن إحدى هذه «اللوحات» ما لا يقل عن (٥,٥) كجم من الفضة الخالصة؛ وكان رمسيس الثالث قد كرسها لمعبد بتاح فى منف. ويبلغ طولها حوالى (٩٧) سم، وعرضها (٦٥) سم(١٦٤).

ومن أجل مواكب الطواف الخاص بعيد «أوبت»، أمر رمسيس الثالث أيضاً، بأن تصنع من الخشب اللبنانى المرصع بالذهب، مركب تماثل الـ «أوسرحات»، أى

المركب النيلية الخاصة بآمون، زينت مقدمتها ومؤخرتها بشكل يمثل رأس كبش، ولم يكن طول هذا المركب ليقل عن خمسة وستين متراً غلفت بطانتها برقائق ذهبية حتى مستوى سطح الماء. ولإقامة الإله، جهزت بها مقصورة صغيرة من الذهب والفضة الخالصة، رصعت بالأحجار النفيسة. وأضيف إلى كل ذلك عدد من تماثيل الآلهة الأخرى، وخزانة ومائدة القرابين. ولقد كرس الملك من أجل إتمام كل هذه الأعمال، ما يعادل ثروة طائلة: ما لا يقل عن أربعة أطنان ونصف من الذهب، وأربعة قناطير من الفضة الخالصة، و(١٨٢) كجم من النحاس الأسود، و(٣٣٠) كجم من اللازورد، وضعف هذه الكمية من حجر الفيروز. ولحماية خشب المركب(١٦٥)، استعان بحوالى ثلاثمائة كيلو من القار. وفى نفس الوقت، عمل الفرعون على إصلاح وترميم المراكب المماثلة الخاصة بالإلهة موت وابنها خونسو(١٦٦). وأمر الفرعون أيضاً بعمل «الدعامة المبجلة» الخاصة بآمون؛ وهى إحدى تجليات هذا الإله فى هيئة وتد يعتليه رأس كبش، ومثل أيضاً من خلال تمثالين يمسكان بذاك الشعار. وأمر الفرعون أيضاً بتنفيذ نموذج آخر من هذا الشكل، وأسبغ عليه منحة قيمة، لتزينه، عبارة عن حلقة من الذهب لا يقل وزنها عن (٧٠٠) جرام(١٦٧).

شمال الكرنك

شمال معبد آمون، وبداخل ساحة خاصة، ينتصب منذ الأسرة الثامنة عشرة، معبد للإله مونتو(١٦٨). وخلال عهد رمسيس الثالث ورمسيس الرابع، كان يهيمن على ممتلكات هذا المعبد، «نبى أول» يدعى «تورو»(١٦٩) بن «أوسرحات»، وكانت زوجته تشغل وظيفة «رئيسة حريم الإله». والجدير بالذكر أن مونتو كان الإله العريق القدم لطيبة، ولكن خلال الدولة الحديثة، انتزع منه آمون هذه المكانة. وكان مونتو يتسم بشخصية قتالية فعلية، وبالتالى استطاع رويداً، رويداً، اكتساب مكانة ووظيفة إله الحرب بكل معنى الكلمة. وربما أن هذه الصفة التى كان يتمتع بها الإله مونتو قد أثارت انتباه وإعجاب رمسيس الثالث، ولكن ليس هناك ما يدل على أنه قد قام بأى إنجازات بمعبد هذا الإله. كما أن الحالة المتردية التى وصل إليها هذا المعبد حالياً، وانهياره الفائق الحد، لا تسمح لنا بأن نتبين أية كتابات باسم رمسيس الثالث.

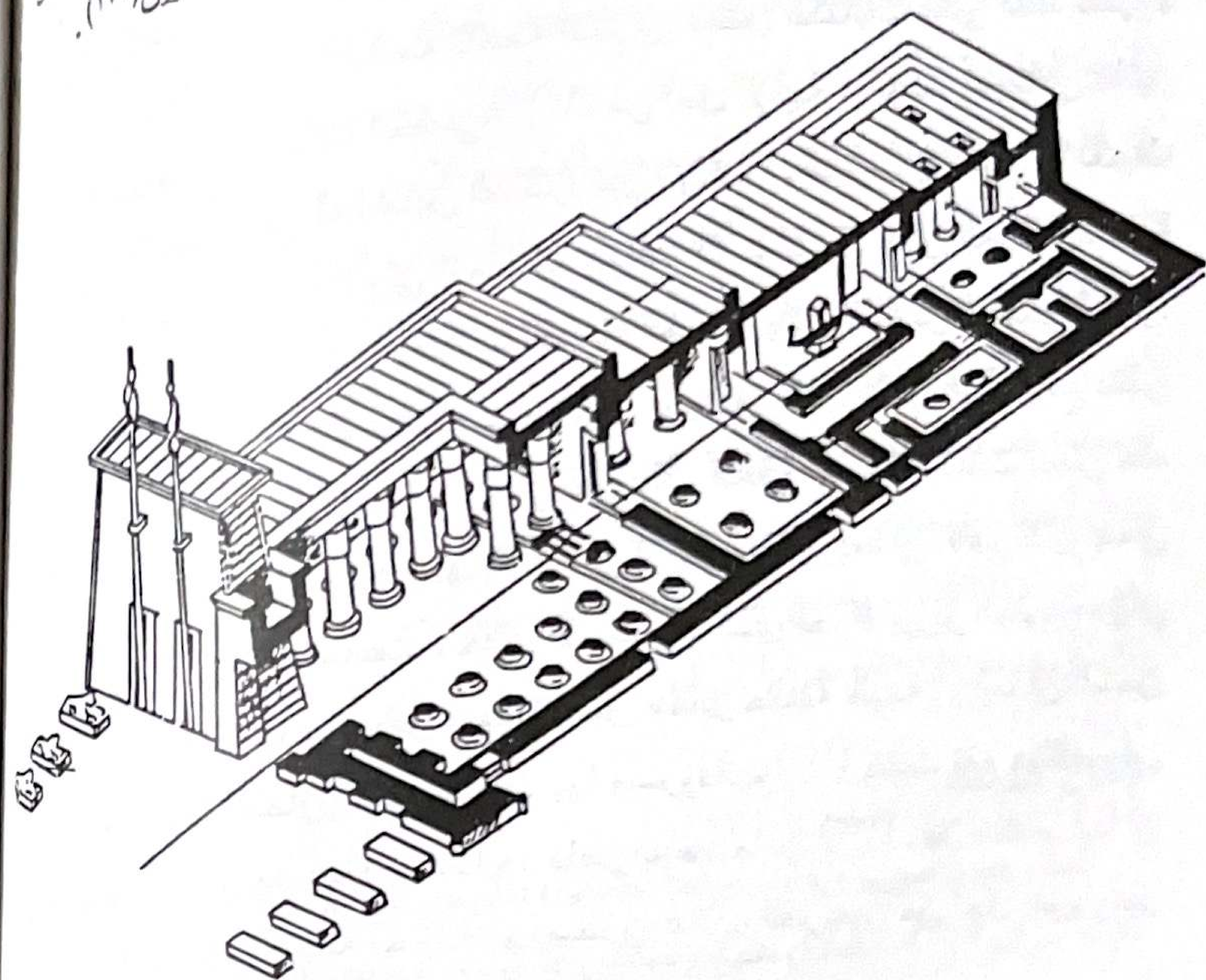
وبالناحية الخلفية لمعبد مونتو، أقيم معبد صغير من أجل الإلهة ماعت، «ابنة

رع». وكان قد شيد خلال الأسرة الثامنة عشرة. ومدخله بالناحية الجنوبية. ووفقاً لما أمر به رمسيس الثالث، قام الوزير «تو» فى العام الثانى والعشرين من الحكم، ببعض الإصلاحات به. ومن هذا المنطلق، قام بنقش خراطيش الفرعون فوق ركائز أبواب الحجرتين الصغيرتين المجاورتين للمعبد من الجهة الغربية. والجدير بالذكر، أنه قد نقش على جدران الغرفة الواقعة ناحية الشرق، بعض الكتابات التى تخلد تشييد «محطة الطواف»، و«الخزانة العظمى»(١٧٠)، من أجل الإلهة ماعت. وربما أن هاتين العبارتين تشيران إلى الغرفتين المذكورتين؛ ولكننا، بالرغم من ذلك، لا نعرف بالتحديد، معنى العبارة الأولى: (محطة طواف ؟). ولكن لا بد أن العبارة الثانية تعنى «المخزن» الذى تحفظ به الأدوات النفيسة الخاصة بأداء الشعائر. وتجدر الإشارة هنا إلى أنه بداية من الأسرة الثامنة عشرة كان يوجد فى شمال الكرنك، مجمع بنائى ضخم، يقوم بمهمة «الخزانة»(١٧١) على قطاعات فائقة المدى؛ وكانت بعض هذه القطاعات ما زالت قائمة حتى نهاية عصر الرعامسة. فربما أن الأمر كان يتعلق «بخزانة مونتو» و«بمعبد ماعت»، خلال الاستجواب الذى أجراه «وزير الجنوب»، إبان حكم رمسيس التاسع، لمن سلبوا ونهبوا بعض مقابر جبانة طيبة. وربما أن السجن الذى سجنوا به، والمخازن التى حفظت بها مسروقاتهم(١٧٢) كانت تقع هناك. وفى نفس الحقبة كان يوجد «مخزن غلال»، خاص بمعبد ماعت(١٧٣). فلا يستبعد أبداً أن هذين المكانين كانا بمثابة «خزانة» و«مخزن غلال» الفرعون من أجل تموين دير المدينة (الفصل الثالث - ٤؛ والسادس - ٢).

معبد خونسو

أقام رمسيس الثالث معبد خونسو، بجنوب غرب معبد آمون. وأطلق على هذا المعبد اسم: «بيت رمسيس حقا إيونو بممتلكات خونسو»(١٧٤). وخصص من أجله ممتلكات خاصة، يعمل فى نطاقها ما لا يقل عن خمسمائة فرد؛ بالإضافة إلى عدد كبير من الأسرى الآسيويين والنوبيين. وتبدو خريطة هذا المعبد أكثر تطوراً وتفصيلاً من معابد الاستراحة بالكرنك أو بفناء معبد موت (ينظر لاحقاً). وعلى ما يُعتقد، أن هذا المعبد قد شيد بعدها. بل وربما كان بمثابة آخر الإنجازات المعمارية التى أقامها الملك. وحقيقة أنه قد شيد ونظم خلال فترة حكمه(١٧٥)؛ ولكن على ما يبدو أن الوقت

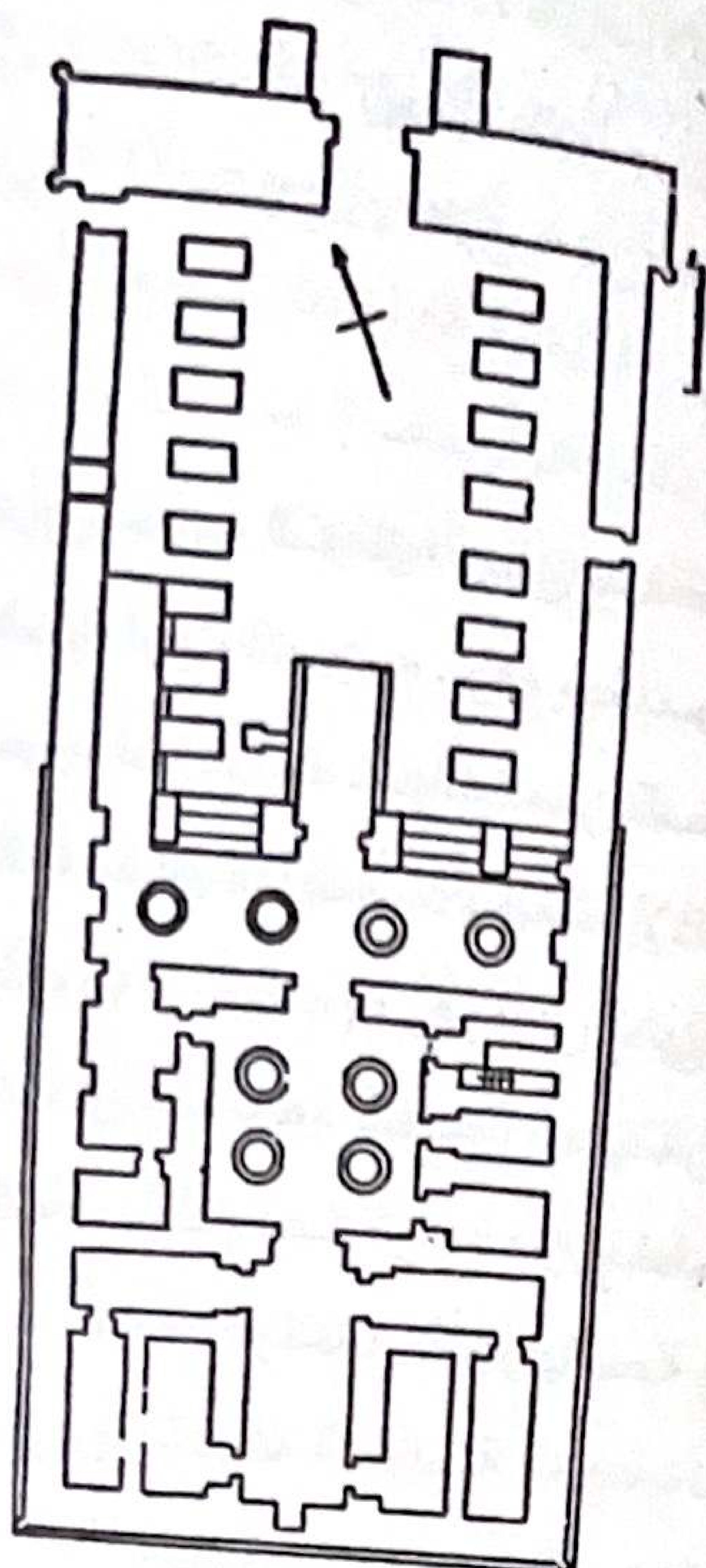
لم يسمح لهذا الفرعون إلا بزخرفة قاعة واحدة منه(١٧٦) . أما بقية جدرانه، فقد قام رمسيس الرابع بمهمة زخرفتها. ثم أُكمل هذا العمل بعد ذلك، على التوالى، بفضل رمسيس الحادى عشر والكاهن الأكبر حريحور، فى أواخر الأسرة العشرين(١٧٧).



معبد خونسو بالكرنك.

معبد موت

جنوب معبد آمون، وعلى بعد حوالى (٢٠٠) متر من الصرح العاشر، يقع معبد موت(١٧٨) بفنائه الخاص. ويحيط بمعبد موت - «زوجة» آمون - من جهات ثلاث، بحيرة الـ «إشيرو»، أى البحيرة المقدسة ذات الشكل الفريد. وخلال حكم رمسيس الثالث، يمكننا ذكر بعض من عملوا فى نطاقه : رئيس المعبد، ونبى آمون، ورئيسة الحريم، ومغنية المعبد(١٧٩) . وفى العام السابع والعشرين من حكم هذا الفرعون، عين أمنموبى، ابن ثالث أنبياء آمون المدعو ثانفر، فى وظيفة الكاهن الأكبر، بأمر الملك والأمير رمسيس، أى رمسيس الرابع المقبل، خلال إحدى زياراتهما لطيبة.



خريطة لمعبد الاستراحة الخاص برمسيس الثالث بفناء معبد «موت» بالكرنك

بالناحية الغربية من المعبد، كان «ست نخت» قد شيد أو اغتصب لنفسه مقصورة صغيرة (الفصل الأول – ٣) . وهناك، أمر رمسيس الثالث «باسر» حاكم طيبة وقتئذ، بأن ينصب له تمثال(١٨٠)، فى نفس هذا المكان، حيث أقام لنفسه معبد استراحة. والجدير بالذكر أن هذا المعبد الاستراحة كان يتطابق، من ناحية تخطيطه ومساحاته، مع معبد الاستراحة فى الكرنك(١٨١) . وربما أنه قد تم تشييده فى نفس وقت تشييد شبيهه بالكرنك. وبالرغم من أنه قد أصبح تقريباً مجرد أطلال، فإن آثاره تبين أنه هو الآخر، قد زخرف بنفس المناظر الحربية، المقتبسة من مدينة هابو(١٨٢) . ولقد أطلق عليه هو أيضاً اسم «بيت أوسر ماعت مرى آمون فى ممتلكات آمون» . وبالتالى، كان يستخدم مثله، من أجل الاحتفالات بعيد أوبت. وكان يعمل فى إطاره ما لا يقل عن

ألف فرد. وألحقت به حدائق وبساتين مترامية الأطراف؛ بالإضافة إلى قطيع ضخم من المواشى عند الفرع الأوسط للدلتا، كان يهيمن عليها وزير الجنوب. وجميعها كان تقوم يومياً بإمداد مدينة هابو(١٨٣) بالمنتجات اللازمة من أجل القرابين.

منشآته بالأقصر

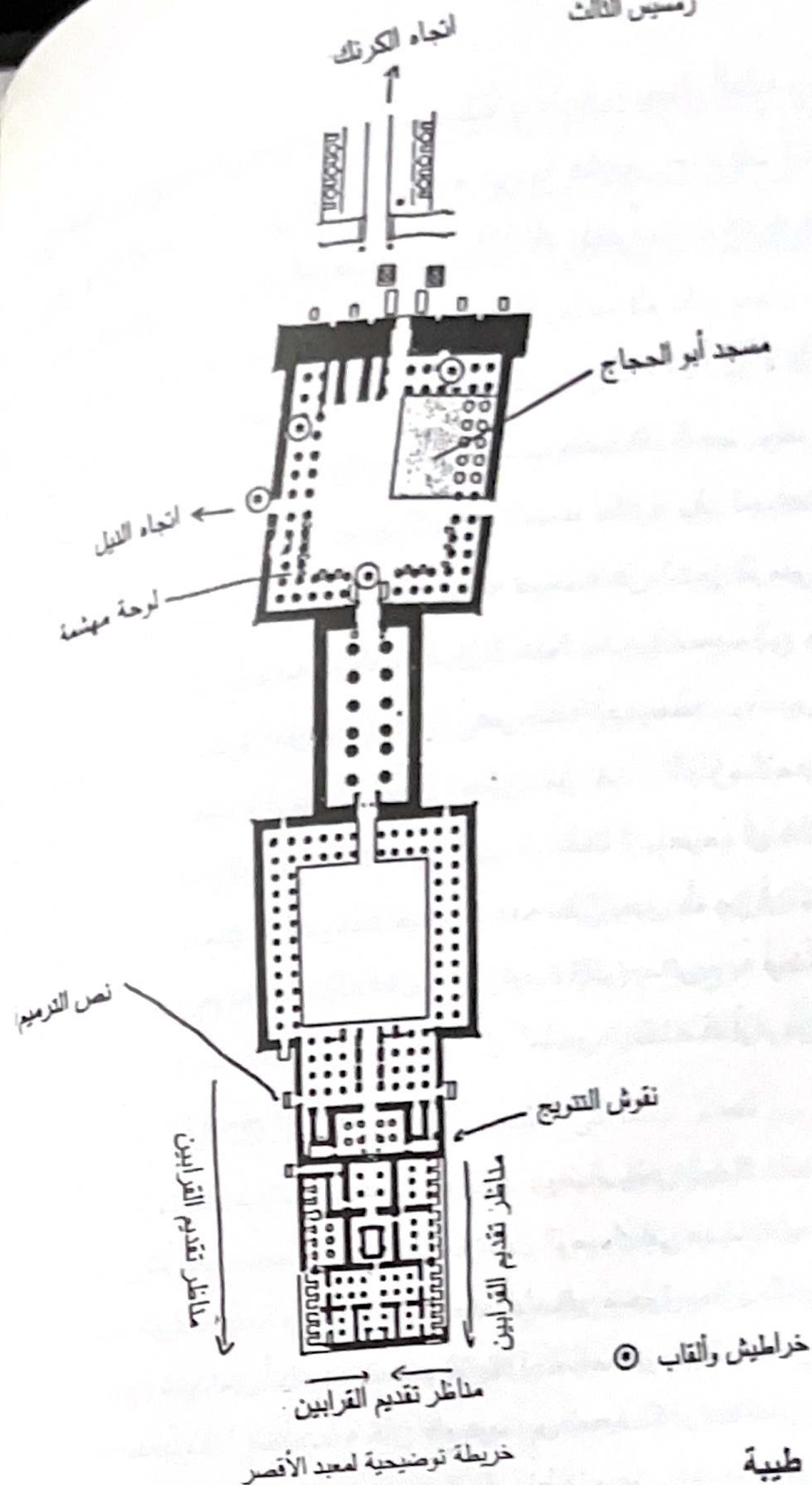
على بعد حوالى كيلومترين جنوب الكرنك، وعلى ضفة النيل، يقع المعبد الكبير الذى كان يعرف قديماً باسم «أوبت الجنوب». وهو ما يعرف الآن باسم «معبد الأقصر»؛ وكان يتخذ كمقصورة لعبادة أحد تجليات آمون المحلية، وهو «آمون أوبت». وخلال عهد رمسيس الثالث، كان هذا المعبد يخضع لإدارة «النبى الأول لآمون أوبت»، ويدعى أمنمؤبى («آمون فى أوبت»)؛ وهو ابن «النبى الأول لآمون»، ويدعى باك إن خونسو(١٨٤) – ولا شك أن هذا المعبد يتضمن العديد من الأدلة والإثباتات عن أوجه نشاط رمسيس الثالث. وبذلك، نجد أن الجدران الداخلية لفنائه الأول، قد زخرفت بقوائم مسهبة لألقابه وأسمائه؛ وكذلك الأمر بالنسبة لفتحات كافة الأبواب المؤدية إليه. وبصفة خاصة، وفوق واجهته الخارجية الغربية، تشاهد مجموعتان من الخراطيش الخاصة بالفرعون(١٨٥). وسوف نرى بعد ذلك مدى أهمية تلك التفاصيل.

ويرجع الفضل أيضاً إلى رمسيس الثالث فى وجود تلك الأفاريز الهندسية المنقوشة وفقاً للنمط المعروف باسم: «واجهة القصر»؛ وهى قائمة بالفناء الثانى للمعبد، أسفل الحواجز المحيطة بالناووس. وخلاف ذلك، وعند مستوى هذا الناووس، نجد أن الواجهة الخارجية لجدران المعبد، غرباً، جنوباً وشرقاً، قد تم زخرفتها، وفقاً لأوامر الملك، بمشاهد تمثل تقديم بعض القرابين باسمه. ويضاف إليها، فى الناحية الشرقية، بعض المشاهد الخاصة بمراسم تتويجه(١٨٦). ولقد أطلق على هذه «الزخارف» اسم «ترميم النصب التى شيدها أوسر ماعت رع مرى آمون فى ممتلكات أبيه آمون». ولا شك أن إنجازها يرتبط حتماً بأعمال التفتيش والتفقد والإصلاح التى قام بها «بن باتو»، «رئيس الأرشيف»، فى معابد مصر العليا(١٨٧).

وفى الأقصر، أمر رمسيس الثالث بتنفيذ بعض الأعمال الأكثر أهمية. فقد عثر،

على سبيل المثال، على تمثال ضخم، لا يتسم مطلقاً بالجمال، يحمل ألقابه وأسماءه، بشمال شرق بوابة المعبد(١٨٨). و وفقاً لما ذكرته «بردية هاريس -١»، فقد أنشأ هناك أيضاً، «معبد رمسيس حقا إيونو المفعم بالسرور»(١٨٩). ولقد أسندت إدارته إلى نبى آمون الأول وقتئذ. وعلى ما يبدو، أنه لم يكن فسيح الأرجاء، فلم يكن يعمل به سوى خمسين فرداً فقط. ومع ذلك فقد أضيف إليهم ما لا يقل عن (٢٧٩) أسيراً، كان الملك قد خصصهم للعناية بالقطيع الذى كان قد كرسه لاحتياجات هذا المعبد. ولقد أسندت عملية الإشراف على هذا القطيع إلى «مدير القطيع»، المدعو «كاى». وقد استطعنا أن نلم بالهدف من وراء إقامة ذلك المعبد، من خلال لوحة ضخمة من الحجر الرملى، كانت قد نصبت به إحياء لذكرى تأسيسه. ولكنها، انهارت فيما بعد، وانقسمت إلى جزءين. وتمت الاستعانة بأجزائها «مرة أخرى»، من أجل دعم خلفية أحد تماثيل رمسيس الثانى (العملاقة)، بالمعبد الكبير، فى فنائه الأول. ولكن، من خلال الجزء الأسفل لهذه اللوحة الذى ما زال واضح المعالم(١٩٠) حتى الآن، استطعنا أن نعرف أن هذا المعبد الصغير، المشيد من الحجر الرملى، قد حدد موقعه على يمين «آمون أوبت»، لكى يكون بمثابة مكان يستريح به هذا الإله، كل عشرة أيام؛ ولكى يستريح به أيضاً «آمون الكرنك» خلال احتفالات عيد أوبت». ويتراءى، أن رمسيس الثالث، قد أراد من خلال بنائه لهذين المعبدين أن يدمج اسمه بكل منهما.

وربما أن عيد أوبت كانت تتم فيه قصة طويلة لا نهائية. ولكن الطواف العشارى، الذى يقوم به آمون الأقصر، حيث يعبر النيل من أجل الوصول إلى مدينة هابو ثم إلى باقى معابد ضفة طيبة الغربية، يعتبر بمثابة استحداث غير مسبوق خلال ذلك العهد. ونظراً للهدف الذى شيد من أجله هذا المعبد الاستراحة الصغير، وبالرغم من أنه لم يتبق منه أى أثر حالياً، فلا يستبعد أنه كان يقع فيما بين المعبد الكبير بالأقصر والنيل؛ وبمزيد من الدقة، على جانب طريق متسع يقع فى نطاق محور الباب الغربى للفناء الأول، الذى كان يصل ما بين المعبد وأحد الموانئ المطلة على النيل. ومن هذا الميناء، كان «آمون أوبت»، يبحر كل عشرة أيام متجهاً إلى مدينة هابو. وبه أيضاً، كانت ترسو مركب أوسرحات آمون، فى كل عام، خلال أعياد أوبت.



خريطة توضيحية لمعبد الأقصر

غرب طيبة

ربما تكون القائمة الخاصة بإنجازات رمسيس الثالث فى طيبة غير مكتملة تماماً، لو أننا أهملنا ذكر بعض الإصلاحات التى أمر بإتمامها، بالضفة الغربية للنيل، فى نطاق المعابد الجنازية الخاصة بأجداده العظام(١٩١). فهذا ما تم بالفعل فى الرمسيوم؛ وهو النموذج المثالى الذى نقلت عنه مدينة هابو، ومقر للإدارة المحلية. وهناك، ما

زالت قواعد بعض الأعمدة بالفناء المركزى، تحتفظ بذكرى بعض أسمائه(١٩٢) وألقابه. وبالإضافة لذلك، وفى إطار المعبد الجنازى الخاص بسيتى الأول فى «القرنة»، تشاهد بعض ألقابه، ناحية الفناء، والتى ترجع إلى العام السادس(١٩٣) من حكمه. وفى نفس الموقع، توجد أيضًا بعض الخراطيش(١٩٤) الخاصة به؛ ويبين كل ذلك عن أعمال واسعة النطاق تمت فى هذا المكان. ومع ذلك، فعلى نفس هذه الضفة، كانت توجد العديد من المعابد الجنازية الملكية الأخرى؛ ولقد استمرت تعمل بكل طاقاتها، بعد مرور أجيال عديدة من تاريخ إنشائها. بل ولقد استمر معظمها يعمل حتى أواخر تلك الأسرة. وهكذا، ففى الدير البحرى، نجد معبد حتشبسوت، حيث توجد مقصورة منحور، وبجوارها مقصورة تحتمس الثالث. وإليهما كان يفد الكثير من الحجاج. وهناك أيضاً، كان العديد من علية القوم يضعون تماثيلهم(١٩٥). وعند مدخل الوادى، يتراءى معبد «منست»، الخاص بأحمس نفرتارى المؤلهة، أم أمنحتب الأول من أوائل الأسرة الثامنة عشرة(١٩٦). وبداخل الوادى نفسه، كان يوجد أيضًا، المعبد الجنازى(١٩٧) الخاص بأمنحتب الثالث، «ملك الشمس» بالأسرة الثامنة عشرة؛ حيث لا يبين عن موقعه(١٩٨) فى الوقت الحاضر، سوى تمثالى ممنون العملاقين. بل وهناك أيضاً، المعابد الخاصة بتحتمس الثانى(١٩٩) ومرنبتاح(٢٠٠)، وتحتمس الثالث. ثم هناك كذلك، بناء معبد حورمحب، المجاور لمدينة هابو، حيث استطاع عمال «دير المدينة»، فى نهاية فترة حكمه، أن يحصلوا على بعض مقادير من الغلال كجزء من رواتبهم(٢٠١). وربما كان رمسيس الثالث قد أمر بإجراء بعض التصليحات والترميمات فى عدد من هذه المعابد. ولكن، مما يؤسف له، أننا لا نملك أية أدلة مباشرة على ذلك. ولا شك أن ذلك يرجع إلى تحول أغلبية هذه المعابد إلى ما يشبه الأطلال حالياً.

الأعياد والاحتفالات بطيبة

لقد علمنا فيما سبق (الفصل الثالث – ٢)، أن رمسيس الثالث، قد قام بنقش «تقويم» ضخم عن «الأعياد»، التى كانت تقام بالمعبد فى مدينة هابو. وهذا التقويم يتطابق مع نظيره بالرمسيوم. ولكنه، مع ذلك، يتضمن بعض التغييرات، التى تتفق مع سمات وخصائص فترة حكمه. بل ويضم أيضاً قائمة بالقرابين التى كانت تقدم به. وبفضله،

استطعنا أن نعرف أن السنة الدينية، التى كانت تقام خلالها،فى كل شهر «أعياد السماء» التى تحددها مختلف مراحل القمر(٢٠٢) ، كانت تبدأ فى السادس والعشرين بأول أشهر فصل «الشمو»، بإحياء ذكرى تتويج الملك(٢٠٣) . وكان الاحتفال بالتتويج يتم بداخل المعبد، فى نفس هذا التاريخ. وفى العام الثانى والعشرين من الحكم، أضاف الملك إليه أربعة عشر يوماً إضافية يشملها السرور والابتهاج، على ضفة طيبة الشرقية. وكان هذا العيد يتسم بوفرة وغزارة ما يقدم فيه من قرابين؛ وبهذا، كان يسمى : «أوسر ماعت رع مرى آمون يقيم العيد فى طيبة من أجل آمون»(٢٠٤) . ولكن، فى آخر أيامه، كان يقام به موكب تطوافى مهيب، مثل على جدران معبد الاستراحة بالكرنك(٢٠٥) . ومن خلاله، نستطيع أن نشاهد الملك وهو يستقبل المراكب الخاصة بثالوث طيبة، وبأمونت (الصورة المؤنثة لآمون)، وبصورته هو شخصياً القادمة من مدينة هابو. ويشاهد الملك أيضاً وهو يقوم بمراسم إراقة النبيذ والتبخير، ثم يتلو أمامها بعض الصلوات لآمون رع، المنقوشة فوق لوحة فضية، مضيفاً إليها ملخصاً عن الأعمال التى أنجزها من أجل ممتلكات هذا الإله.

ويبدو أن عودة مركب الملك إلى ضفة طيبة الغربية، فى الرابع عشر من ثانى أشهر الشمو كانت تتطابق مع قدوم «العيد السعيد بالوادى»، المرتبط أساساً ببداية ظهور القمر فى ذاك الشهر(٢٠٦) . وكانت مظاهر هذا العيد تقام بالوادى وبالدير البحرى. وهو يعتبر عيداً للأموات. وخلاله كان سكان طيبة يتوجهون لزيارة موتاهم، ويحضرون لهم القرابين، ويتناولون غذاءهم «معهم» بمقصورات المقابر. وبهذه المناسبة، كانت المراكب الخاصة بثالوث طيبة وبأمونت، التى كانت قد مثلت جميعها بعيد تتويج الملك، تقوم بزيارة معبد حتشبسوت ثم مدينة هابو، وتبقى هناك يومان كاملان. ولا ريب أن الملك كان يساهم فى هذه الاحتفالات عند تواجده فى طيبة(٢٠٧) .

ويشير «تقويم» مدينة هابو : فى اليوم السادس عشر من ثالث أشهر فصل الشمو، إلى أنه كانت تقام بالمعبد «احتفالات خاصة بانتصارات رمسيس الثالث على الأعداء» . ولكن لسوء الحظ لم يحدد بالضبط اسم هؤلاء الأعداء. ولقد ذكر تاريخ انتصاره بمعركته الثانية ضد الليبيين(٢٠٨) (ينظر لاحقاً) . ومع ذلك، وبما أن «تقويم» مدينة هابو قد اقتبس من وثيقة مشابهة له بالرمسيوم، فلا يستبعد أبداً أن الأمر كان

يتعلق أساساً بتاريخ «معركة قادش»، التى علمنا أنها قد وقعت فى اليوم التاسع من ثانى أشهر فصل الشمو خلال العام الخامس من حكم رمسيس الثانى(٢٠٩) . عموماً، ومهما كان الأمر، فإننا نجد أن «تقويم» مدينة هابو يقودنا مباشرة بعد ذلك إلى اليوم الأول من أول أشهر فصل «الآخت» . فخلاله كان يتم الاحتفال بظهور النجمة سوتس، وهو التاريخ الرسمى لبداية السنة المدنية(٢١٠) . وفى اليوم السابع عشر والثامن عشر من نفس الشهر، كان يتم الاحتفال بعيد تقليدى عريق خاص بالموتى. يسمى بعيد «الأواج»(٢١١) . وفى اليوم التاسع عشر منه، يتلوه عيد الإله تحوت(٢١٢) . ثم، فى الثانى والعشرين من هذا الشهر يقام الاحتفال بـ «العيد الكبير لخروج أوزيريس»(٢١٣) .

عيد الأوبت

أما الشهران التاليان، فقد كانا يتضمنان بأكملهما الاحتفال بـ«عيد أوبت الكبير»(٢١٤) الذى يبدأ عشية اليوم الثامن عشر من الشهر الثانى لفصل «الآخت» . ذلك الشهر المسمى بؤونه (الذى يعنى شهر الأوبت) و الذى لا زال يحتفظ به فى التقويم القبطى كذكرى للاحتفال. وهذا العيد مدته ٢٤ يوماً تبدأ من ١٩ من هذا الشهر وحتى اليوم ١٢ من الشهر التالى له (٢١٥) . ويلاحظ أن فترة الاحتفال به فى طيبة، كانت تزيد بثلاثة أيام عما هى عليه فى مدينة هابو(٢١٦) . وخلال عهد الرعامسة، كان عيد الأوبت بمثابة أكبر الأعياد بمصر، والسبب الأساسى لقدوم الملك إلى طيبة، حيث كان يقوم، خلال إقامته بها، بالعديد من الترقيات الوظيفية (الفصل السادس – ١) . وكان رمسيس الثالث يغدق على هذا العيد كماً هائلاً من القرابين(٢١٧)؛ ومع ذلك، فلم تمثل احتفالاته على جدران مدينة هابو إلا من خلال منظرين اثنين فقط، يمثلان، على التوالى، لحظة خروج الملك من قصره من أجل المشاركة فى هذا العيد(٢١٨)، ثم لحظة رجوعه إلى قصره. ولكن، بالكرنك، وعلى الواجهة الخارجية للجدار الغربى بمعبد – الاستراحة الخاص برمسيس الثالث، ويشاهد منظر للموكب النيلى الفخم المهيب الذى يعتبر بمثابة لحظة الذروة(٢١٩) فى نطاق هذا العيد الكبير. فعلى سطح النيل، الذى اصطفت على ضفته جموع حاشدة من المصريين، وبداية من القناة التى تربط ما بين معبد آمون والنهر، كان يشاهد فى البداية أسطول من السفن وهى تجر المركب الملكية «مرى مين»، والتى بدورها، كانت تسحب مركب أوسر حات آمون، التى

كانت قد رممت وجددت بأمر الفرعون. وبمساعدة شدة رياح الشمال، وبقوة دفع تجديف الجنود الذين انضم الملك إليهم من أجل إظهار ورعه وتدينه، أخذ هذا الموكب العظيم ينساب فوق مياه النهر، وقد انضمت إليه المراكب الخاصة بـ«موت»، و«خونسو» التي كانت تسحب هي الأخرى بواسطة بعض السفن. وبعد فترة وجيزة، رسا هذا الموكب المهيب، حيث كانت الملكة وفرقة من المغنيات في استقباله على الرصيف. وفي الأقصر، وبعد فترة راحة، وفي معبد الاستراحة الذي كان رمسيس الثالث قد شيده فيما بين المعبد الكبير والنهر، حضر آمون من أجل تحية سميه بالأقصر، ثم قام، بعد ذلك، بزيارة المعابد الجنائزية الملكية على الضفة اليسرى.

عيد سوكر

في اليوم الأول من رابع أشهر فصل «الآخت»، كانت مدينة هابو تحتفل بأحد أعياد حتحور(٢٢٠). وفي العشرين من نفس الشهر، يقام الاحتفال بـ«عيد تطهير التاسوع»(٢٢١). وفي الفترة الواقعة ما بين (٢١) و(٣٠) منه، يتم احتفال على قدر أكبر من الأهمية، خاص بالإله «بتاح – سوكر – أوزيريس(٢٢٢)»، الذي كان يبجل بصفة خاصة في نطاق المعابد الجنائزية الملكية. ولقد حذا رمسيس الثالث نفس حذو رمسيس الثاني، فأقام في مدينة هابو مقصورة من أجل هذا الإله، حيث كان يؤدي فروض عبادته من خلال «طقوس عيد قصر بتاح»(٢٢٣). وضمن الأعياد التي كان يتم إحياؤها بداخل المعبد، مثّل هذا العيد بأدق وأوفى تفاصيله(٢٢٤). وفي مناسبته، كان عمال دير المدينة يحظون بيوم عطلة، ويحصلون على قدر من المواد الغذائية(٢٢٥). كما يعتبر هذا العيد من أكثر الأعياد حظوة بقدر هائل من القرابين. وكما هو الحال في معظم أعياد مصر القديمة، كانت تمتزج في طقوس هذا العيد، الكثير من العناصر الرمزية المتباينة المصادر، والتي اقترنت ببعضها بعضاً من خلال العديد من القرون. ولقد كان هذا العيد يرمز إلى نهاية موسم الفيضان؛ ولا شك أنه كان تجسيداً وإحياءً لتجدد الطبيعة. وتتضمن شعائر هذا العيد الأسرار الأساسية الخاصة بحياة أوزيريس السفلية؛ وبذلك، فهو يعلن عن عودة هذا الإله إلى الحياة، بل ويشير أيضاً، إلى انتقال إرثه إلى ابنه حورس المتماثل بالملك القائم على العرش. ويتضمن هذا العيد كذلك بعض العناصر الشخصية، فهو يماثل تتويج الملك بالفجر الجديد

وبشروق الشمس. وأخيراً، فهو يدمج أوزيريس بسوكر، إله منف الذي تتراءى في احتفالاته الرموز الخاصة بالإله «نفرتم» بن «بتاح»، وبهذا فهو يخصص مكانة هامة لديانة هذا الإله.

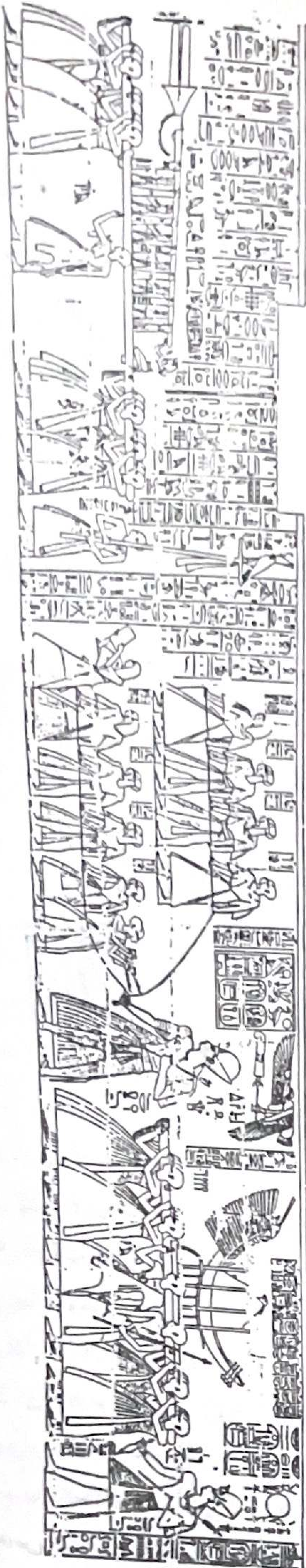
وكان هذا العيد الخاص بالإله سوكر يستمر طوال عشرة أيام(٢٢٦)؛ ويتم الاحتفال به في الكرنك(٢٢٧) أيضاً. ويلاحظ أنه ينقسم إلى ثلاث مراحل متباينة: مرحلة الإعداد والتجهيز ومدتها خمسة أيام، تبدأ من الحادي والعشرين إلى الخامس والعشرين من رابع أشهر «الآخت»، ثم مرحلة العيد بكل معنى الكلمة، وتبدأ من السادس والعشرين بنفس الشهر؛ ثم أخيراً مرحلة الإنهاء، وتستمر أربعة أيام، من اليوم السابع والعشرين إلى الثلاثين من الشهر. وخلال الأيام الخمسة الأوائل، كان يتم نوع من «التحنيط» و«الدفن» الرمزي لسوكر أوزيريس. وفي اليوم الحادي والعشرين، ومن أجل أن يتم دخول ضوء الشمس إليها تكشف الفتحة التي أحدثت بسقف الغرفة التي كان قد وضع بها، قبل ذلك بعدة أيام، نموذجاً يمثل الإله سوكر مليئاً بالحبوب التي كانت تروى لغرض إنباتها. وفي اليوم التالي، يتم حفر «مقبرة» من أجله، وفي اليوم الثالث والعشرين، يحنط خلال الليل بمصاحبة بعض التراتيل الجنائزية التي يتم إنشادها بدون توقف. وأخيراً، يتم دفنه. و في الكرنك، وفي نفس هذا التاريخ، وأثناء الليل، وعبر مياه النهر المقدس، يقوم أحد المواكب الكهنوتية بمحاكاة عبور هذا الإله لنهر النيل متجهاً نحو مقبرته بغرب طيبة. وأخيراً، وفي اليوم الخامس والعشرين، يتم الاحتفال بـ«تأليهه». وفي هذا اليوم، يضع أفراد الشعب حول أعناقهم عقوداً من البصل، رمزاً للخصوبة أو التطهر الداخلي. وفي المساء، يقومون بإحضار حزم من البصل إلى مقابر أمواتهم. وهناك، يبقون ساهرين في انتظار بعث الإله.

ويعتبر اليوم السادس والعشرون من رابع أشهر «الآخت»، حيث يحتفل بهذا البعث بمثابة لحظة الذروة لهذه الاحتفالات. وعند بزوغ الفجر في مدينة هابو، يدخل الملك إلى معبد سوكر ليكرس من أجله بعض القرابين. ومن خلال الظلال الطفيفة، تتراءى له في البداية المقصورة المشيدة بالخشب المطعم بالذهب؛ وبها، يرى المركب «حنو» الخاصة بالإله، ذات الطابع الخاص، وقد وضعت فوق دعامة، وأحاطت بها الأدوات الخاصة بشعائر هذا الإله. وهنا، يبدأ في عملية تبخير المركب، وهو يرتل «صلوات سوكر»، ويعدد التجليات الأربعة والأربعين لسوكر المقدسة في أنحاء مصر. ويتوغل

الملك فى طريقه بهذا المكان، فيجد أمامه بعد ذلك، التماثيل الثلاثة للآلهة الثانوية الخاصة بمنف، فيقوم بتبخيرها هى الأخرى. وأخيراً، وفى نهاية المقصورة، ويدخل ناووس خشبى آخر مطعم بالذهب، حيث تمثل بضعة تماثيل لبعض الآلهة الثانوية الأخرى، يعثر فى نهاية الأمر على تمثال الإله، فتقدّم له مائدة مليئة بالقرابين(٢٢٨).

وبعد انتهاء هذه الشعيرة، كان يقام موكب مهيب للإله سوكر فى «مركبة حنو» «من أجل الطواف بالجدران»، ومعناه العريق القدم «من أجل الطواف بجدران منف». وكانت هذه الشعيرة الجليلة تنقسم إلى ثلاث مراحل متتالية. فى البداية كان يظهر كاهنان يرتديان معطفين طويلين، وهما ينشدان ويضبطان الإيقاع بالتصفيق بأيديهما. وفى نفس الوقت، يقوم اثنان من زملائهما، بإحراق بعض البخور، ويرشان الأرض بالماء؛ وهما بذلك، يعملان مسبقاً على تطهير المكان الذى سوف يسلكه الإله. بعد ذلك، وبعد أن يمر الكاهنان الأخيران وهما يحملان شكلاً من العلامات الهيروغليفية التى تعنى «مئات الآلاف من السنين»، يتراءى موكب المراكب الخاصة بالإلهات الخمس: حتحور، وواجت، وشسمت، وباستت، وسخمت. وتبدو كل واحدة من هذه المراكب وقد حملها أربعة من الكهنة الأنبياء. ويتبعهم كاهن إضافى يحمل شعار نفرتم إله منف، وهو عبارة عن فرع من البردى به زهرة متفتحة ثبتت بها ريشتان عاليتان تماثلان ريشتى آمون. وفى نهاية الموكب، يبدو أحد الكهنة وهو يحمل فوق كتفيه سلة تحتوى على خمسة طيور، ويتبعه الكاهن المكلف بتنظيم هذا الجزء من المراسم(٢٢٩).

وبعد لحظات وجيزة، يظهر صف كبير يتكون من أكثر من أربعين كاهناً «وعب» يتقدمون الملك الذى ارتدى شعارات ملكه. ففى المقدمة، تشاهد مجموعة مكونة من ستة كهنة، وهم يتقدمون ببطء، ويعلنون عن قدوم الإله، ويسجدون تارة ثم يقومون تارة أخرى، وفى أثرهم يتقدم صفان مكونان من عشرين كاهناً «وعب»، وهم ينشدون، والبعض منهم يعزف على المزمار، وهم يلوحون بشعارات مختلف الآلهة، ويحرقون بعض البخور أو يحملون القرابين. ويلاحظ، ضمن هذا الموكب، وجود «كاتب القرابين الإلهية بالمعبد»، وقد أمسك بأدوات الكتابة بيده، ويتبعه مساعده الذى يحمل فوق كتفه صندوقاً من أوراق البردى حيث تحفظ الأصول الخاصة بقوائم




عيد الإله سوكر.

القرابين التى كرست خلال هذا الاحتفال. وفى نهاية الموكب، نجد اثنين من حملة المراوح الكبيرة وأربعة من حملة الشعارات وهم يتقدمون الملك، الذى يتبعه عدد من الضباط وكبار القوم. وفى نفس الحين، يقوم أحد الكهنة، بتبخير الحية الحامية التى تزين تاج الفرعون(٢٣٠).



اطلاق الطيور فى عيد الإله مين

ولكن سرعان ما يظهر الموكب الآخر. فها هو يتقدم وقد انطلقت من خلاله بعض التراتيل التى تقول «حب.. حب.. إيتى»، أى «ابتهج، ابتهج يا فرعون!». يقوم بإنشادها أحد الكهنة الشعائريين، ويرددها وراءه، فى هيئة كورس، جميع المشاركين. وفى مقدمة هذا الموكب، نرى فى البداية ثمانية عشر كاهناً نبياً، يحملون تمثالاً يمثل الإله نفرتم، كان قد استخرج من مقصورته بمدينة هابو(٢٣١). وبمصاحبة تلك المجموعة نجد الكاهن «سم»، ويبدو فى أثرها أحد الكهنة وهو حامل لتمثال للإله حورس المتوج. وبعد مرور هذه المجموعة، يتراءى جمع آخر مكون من ستة عشر فرداً، يتضمن بعض ندماء الملك، وعدداً من أبنائه، ومجموعة من الكهنة. ثم يتقدم هذا الجمع وهو ينشد بعض التراتيل وقد انتظم على هيئة صفين، يسبقهما أحد الكهنة الشعائريين. بل

إن أفراد هذا الجمع كانوا يأتون ببعض الحركات التى تنم على أنهم يقومون بسحب أحد الحبال، وفى نفس الوقت، كان الملك وقد تقدمه رسولان يقومان بتبخيره، يبدو وكأنه يمسك بنهاية الحبل المذكور الذى يفترض أنه قد ثبت بمركب الإله سوكر(٢٣٢). وأخيراً، وبعد فترة انتظار وجيزة، يتراءى الكاهن «سم»، وقد ارتدى جلد الفهد فوق ملابسه كشعار لوظيفته، وتصاحبه مجموعة مكونة من ستة عشر كاهناً وهم يحملون، فوق محفة خشبية المركب «حنو» المتضمنة لتمثال سوكر. ويبدو الملك هنا، وهو سائر فى نهاية الموكب، فى خضوع وخشوع واضح، وكأنه أحد المرافقين البسطاء فى صحبة الإله، يقوم «بترسم خطاه»(٢٣٣). وبعد الانتهاء من هذا الموكب، ربما كانت المركب «حنو» تقوم بزيارات لمختلف الجبانات، حيث تقدم القرابين للموتى، ثم تعود ثانياً إلى مقصورتها فى المساء.

وفى الفترة الواقعة ما بين اليوم السابع والعشرين واليوم الأخير من رابع أشهر «الآخت»، كانت تقام المرحلة الأخيرة من هذا العيد(٢٣٤). ففى اليوم السابع والعشرين، يتم الاحتفال بـ«دهن التاسوع» بالزيت المقدس إحياء لذكرى بعث سوكر باليوم السابق. وفى اليوم التالى، يجهز «البنبن»، وهو، على ما يبدو، خبز فى هيئة مسلة، يمثل الربوة الأولية، التى انبثق منها رع، فى لحظة خلق العالم، من الخواء. وفى اليوم التاسع والعشرين يقام أحد المراسم، الذى لم نتوصل بعد إلى معرفة اسمه. وأخيراً، وفى اليوم الأخير من الشهر، أى اليوم الثلاثين، يتم إقامة العمود «جد»، وهو شكل من الخشب رمز الإله أوزيريس. وفى بداية الأمر، يبدو هذا الشكل وهو منبطح على الأرض. بعد ذلك، ومن خلال بعض المراسم الكبرى، يتم رفعه بربطه بعدة حبال، ويقوم الملك ومعه بعض الكهنة بشدها، ولا شك أن هذه الشعيرة الواضحة الرمزية تعبر خاصة عن بعث أوزيريس بالعالم الآخر السفلى الخاص بالموتى. ومن أجل تمثيل إخفاء مكان «مقبرته» عن أعين أعدائه، يتم وطء هذا المكان بالأقدام؛ كما تمثل عملية غرس الحبوب فى الأرض الذى يعبر إنباتها عن بعث هذا الإله. وتنتهى هذه المراسم، بقيادة قطيع من الثيران والحمير أربع مرات حول المعبد، وفى نفس الوقت يعرض الراقصون رقصاتهم، ويقدم الرعايا قرابينهم، ويستعرض البعض الآخر ألعابهم الإيقاعية؛ ويتبارى جميع هؤلاء من خلال معارك وهمية.

وفى اليوم الأول من الشهر التالى، أى أول فصل «البرت»، يتم الاحتفال بعيد «نحب كاو»(٢٣٥). وهذا العيد يعتبر بمثابة التسلسل المنطقى لعيد «سوكر - أوزيريس»، حيث يحتفل بتتويج ابنه حورس، على عرش مصر، والذى يتطابق به كل فرعون يعتلى العرش. ولعلنا نتذكر أن رمسيس الثالث كان قد ارتقى العرش قبل هذا الموعد بسبعة أشهر، فى العام الأول من حكمه، وانتظر قدوم هذا العيد لكى يحتفل بتتويجه. ولا شك أن ذلك يدل على مدى الأهمية التى كان يوليها لهذه المناسبة (الفصل الثانى - ١). وفى اليوم السادس من نفس هذا الشهر، يحتفل بإحياء ذكرى اكتشاف الكتابات الخاصة بألقابه وأسمائه وقد دونت على ثمار شجرة(٢٣٦) «الإيشد»، بمعبد بتاح بمنف. وفى اليوم الثانى والعشرين من نفس الشهر، يجرى احتفال بـ«عيد الربتين»، إيزيس ونفتيس، رفيقتى أوزيريس(٢٣٧) التقليديتين. وفى التاسع والعشرين منه، تقام المراسم الخاصة «بزراعة الصفصافة»، ومصدرها الأساسى هليوبوليس (لاحقًا - ٣)(٢٣٨). والجدير بالذكر، أنه فى العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثالث، غطيت بالجص قائمة القرابين الخاصة بعيد نحب كاو، من أجل أن تنقش مكانها ثلاث قوائم جديدة أخرى، تسجل من خلالها القرابين التى خصصت لثالوث طيبة، فى اليوم الثامن والعشرين من نفس ذاك الشهر. وتم ذلك بمناسبة احتفال آخر، اعتبر أكثر أهمية، ألا وهو :إحياء ذكرى انتصار الملك على الماشواش، فى معركته الليبية الثانية(٢٣٩).

ووفقاً لما يتضمنه تقويم مدينة هابو من معلومات، فإن الثلاثة أشهر الأخيرة من فصل «البرت»، لم يكن يحتفل خلالها فى المعبد، إلا ببضعة أعياد ضئيلة الأهمية. ففى الشهر الثانى، من ذاك الفصل، يحتفل، فى أول أيامه، بعيد «إبحار أنوبيس(٢٤٠)». وبداية من اليوم التاسع والعشرين من نفس هذا الشهر وحتى أول الشهر الذى يليه، يجرى الاحتفال «بعيد رفع السماء من أجل آمون(٢٤١)». ويليه عيد آخر، خلال الشهر الثالث، هو «عيد الدخول إلى السماء من أجل آمون»، ويقام أيضًا، بداية من اليوم التاسع والعشرين من ذاك الشهر وحتى الشهر الذى يليه(٢٤٢). وفى اليوم السادس من الشهر الرابع بفصل «البرت»، تقام بعض المراسم الخاصة بعيد «مضغ البصل من أجل باستت(٢٤٣)». وأخيراً، وفى يوم ظهور القمر الجديد، يتم الاحتفال بعيد جديد خاص بسوكر وربما قد يقل فى أهميته عن عيده الذى سبق أن ذكرناه ووصفناه آنفا(٢٤٤).

عيد الإله مين

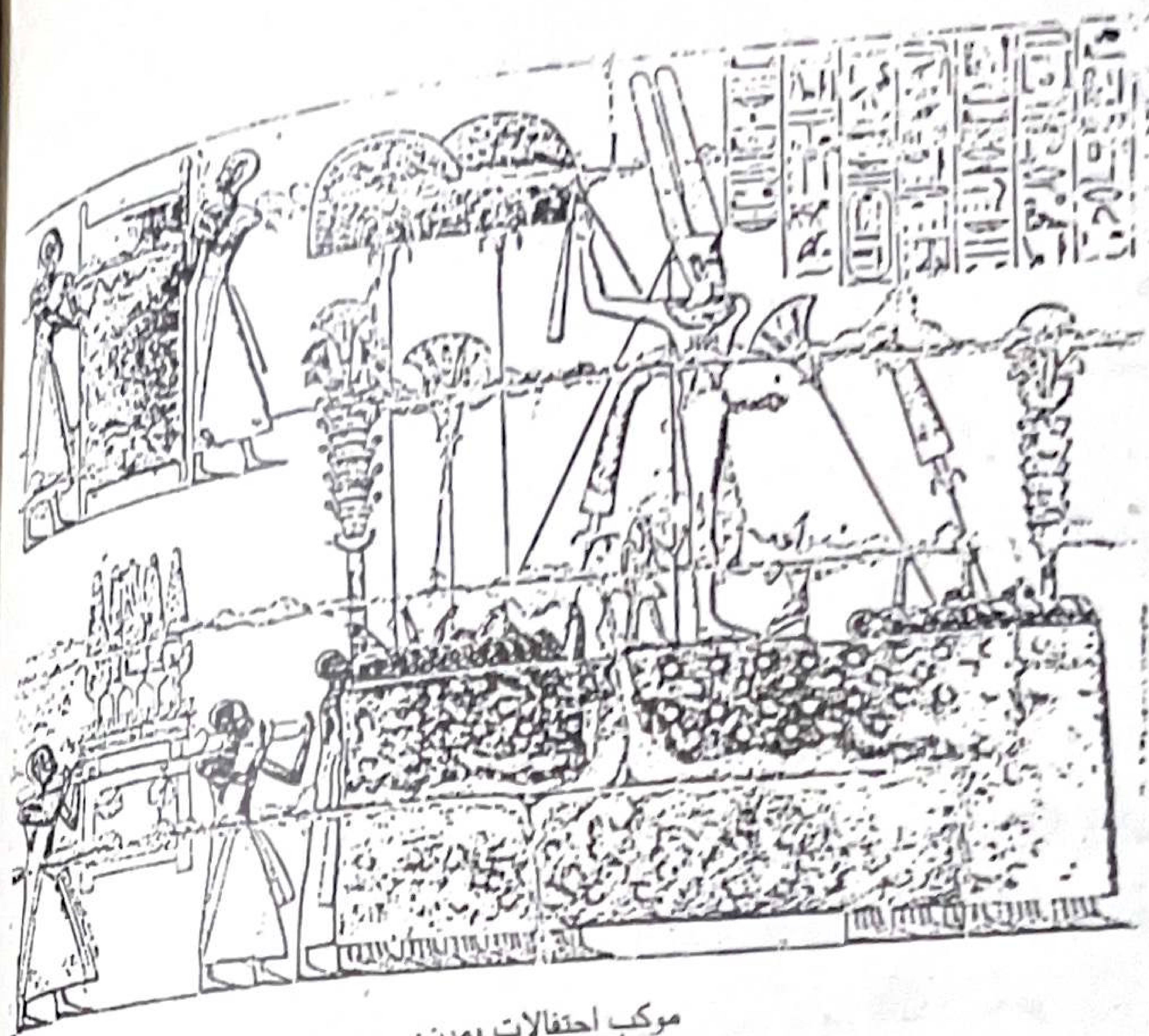
ها قد وصلنا إذن إلى الشهر الأول بفصل «الشمو»، أى فصل الحصاد. الذى يوافق أول أيامه أحد أعياد الربه رننوت، التى تجسد الرخاء (٢٤٥). وفى اليوم العاشر منه تجرى الاحتفالات الخاصة بعيد «كسوة أنوبيس»(٢٤٦) الذى لا يبدو أنه على قدر كبير من الأهمية. وفى اليوم الذى يليه، أى اليوم الحادى عشر، تقام أضخم الاحتفالات التى عرفتها طيبة. إنه عيد الإله «مين». وهو أصلاً من «قفط». ولكنه، من خلال تسلسل لا نهائى من التقاليد، مثل بآمون(٢٤٧). وكان يتم إحياؤه فى مدينة هابو حيث نقشت بعض المناظر(٢٤٨). بل ومثل أيضاً بالكرنك، حيث تشاهد بعض مناظره بمعبد الاستراحة الخاص برمسيس الثالث(٢٤٩). والاسم الذى كان يعرف به هذا العيد هو «خروج مين نحو الدرج». وعلى ما يبدو، أنه كان، قبل ذلك، بمثابة إحدى الشعائر الزراعية. فمن خلاله، كان الملك يكرس لأحد آلهة الخصوبة، عناصر الحصاد، ويتلقى فى مقابل ذلك عوامل تأكيد سلطته ونفوذه ودوام ازدهار شعبه. ومع ذلك، فعلى غرار المراسم الأخرى التى تتسم مثله بقدر كبير من الأهمية، اصطبغ هذا العيد، على مر الأجيال بمؤثرات للأسطورة الأوزيرية وبالديانة الشمسية. فمن خلاله، يجد الإله «مين» نفسه، إبان بعض مراحل هذا العيد، يماثل بأوزيريس التى تشير عملية بعثه ثانيًا للحياة، إلى تجدد الطبيعة، ويماثل بحورس أيضًا، الذى ترتبط مناسبة تتويجه مع شروق الشمس.

وفى مدينة هابو، يستهل عيد «مين» هذا من خلال موكب ضخم ومهيب. ففى صبيحة يوم الاحتفال، يخرج الملك من قصره، وقد حمله الأمراء وكبار القوم فوق محفة فاخرة متوجهاً نحو المعبد. ويتقدمه جمع من الكهنة وكبار الضباط، يتبعهم بعض أفراد الحاشية والجنود الذين زينوا شعورهم بريشة مزدوجة تحية للإله، باعتبارها من شعاراته. وعند دخوله إلى المعبد، يستقبل الملك بإنشاد وموسيقى الفرق الموسيقية وبرقصات مجموعة من الراقصين يسمون بـ«زنوج بونت». وعلى ما يبدو أن هذا الاسم يتضمن فى طياته الأصل الجغرافى الأساسى للإله «مين» إله «قفط»، التى

توبى، عبر «وادى الحمامات»، إلى البحر الأحمر، ومنه يمكن الإبحار إلى بلاد بونت (انظر لاحقا – ٦) . ويدخل الملك إلى داخل مقصورة الإله، ليقدم له بعض القرابين. ووسط مظاهر الأبهة والفخامة يصطحب تمثاله إلى خارج المقصورة . وفى مقدمة هذا الموكب، يبدأ استعراض لتماثيل ملوك مصر، يتقدمها تمثال الفرعون القائم على العرش، ثم يليه، بالتوالى، التماثيل الخاصة بكل جد من أجداده السابقين؛ وقد حملها بعض الكهنة. وربما، أن هذه المشاهد قد اقتبست من مثيلاتها فى الرمسيوم، حيث يتراءى تمثال رمسيس الثانى، ومن بعده التماثيل الخاصة بآبائه وأجداده على التوالى: سيتى الأول، ورمسيس الأول، ثم تمثال حور محب، وأمنحتب الثالث، وتحتمس الرابع، وأمنحتب الثانى، وتحتمس الثالث، وتحتمس الثانى، وتحتمس الأول، وأمنحتب الأول، وأحمس الأول، وتماثيل الأسرة الثامنة عشرة؛ (أما حتشبسوت؛ وأخناتون وخلفاؤه المباشرون الذين كانوا قد استبعدوا عن قصد من ذاكرة التاريخ، فلم يمثلوا فى هذا الموكب) . ثم جاء بعد ذلك، تمثال منتوحتب الثانى بالأسرة الحادية عشرة، ومينا. أما فى مدينة هابو، فيتراءى فى المقدمة تمثال رمسيس الثالث، ومن بعده، على التوالى، تماثيل ست نخت، وسيتى الثانى، ومرنبتاح ورمسيس الثانى، دون أن يمثل ملوك أواخر الأسرة التاسعة عشرة. ثم بعد ذلك، يشاهد، الواحد فى إثر الآخر، تماثيل سيتى الأول، ورمسيس الأول، وحور محب، وأمنحتب الثالث(٢٥٠) . وفى أثر حاملى هذه التماثيل، نجد مجموعة من حاملى الشعارات، وهم ينشدون بعض التراتيل الدينية؛ ثم، من بعدهم، يتراءى عدد من الأمراء (فى الكرنك، يلاحظ أنهم قد مثلوا مع ذكر أسمائهم بالتحديد : رمسيس قائد الجيش، وآمون حرخبش أف الثانى، قائد كتيبة العربات الحربية، ثم، على التوالى، رمسيس الرابع ورمسيس السادس) . وأخيراً، نجد الفرعون وقد سبقه ثور أبيض. ويمثل هذا الحيوان أحد تجليات «آمون مين»، فى هيئة تعرف باسم «كاموت إف»، أو «ثور أمه»؛ وكان له، كما سبق أن علمنا، معبده الخاص بالكرنك، بجوار ساحة موت. وتقول إحدى العقائد المركبة إنه بمثابة رمز ومعنى لانتقال الوظيفة الملكية، باعتبارها إحدى صفات إله يجدد نفسه بنفسه بصفة دورية ودائمة؛ ومبدأ أبدياً، يتجسد من خلال الملوك المتتالين، منذ بداية تاريخهم، بدون أى تمييز بين واحد وآخر(٢٥١) . وهذا يبرر وجود تماثيلهم فى ذلك الاحتفال.

وفى أثر الملك والأمراء، يتراءى تمثال الإله، وقد صحبه عدد كبير من الكهنة يروحون له بالمراوح الضخمة ويلوحون ببعض باقات الزهور. وبدا تمثال الإله وقد زين بالمجوهرات، واعتلى رأسه التاج ذو الريشتين الخاص بآمون، وهو رافع إحدى ذراعيه إلى الوراء، وقد استقر فوق محفة مغطاة بملاءة فاخرة حمراء اللون، زركشت بأشكال زهور معدنية، وتتدلى جوانبها حتى الأرض. وبذلك، لم يكن يظهر شئ تقريباً من الكهنة الأربعة والعشرين الذين كانوا يحملونها. وبعد ذلك، يبدو بعض الكهنة وقد حملوا قطع الأثاث الشعائرى الخاص بالتمثال تتضمن حاجزاً مصنوعاً من البوص؛ ثم نجد منظراً يمثل إحدى الحدائق، المزروع بها نبات الخس. وعلى ما يبدو، أن شكل نبات الخس، كان يمثل خصوبة هذا الإله الجنسية. وكذلك، فقد كرس أساساً من أجله.

وأخيراً، يصل الموكب إلى الدرج الذى يربط ما بين سطح مدينة هابو، عند مقدمة المعبد وبين فنائها الثانى. ثم يوضع تمثال الإله فوق هذا الدرج، أسفل إحدى المظلات. وفى نفس الحين، كان المغنون والمغنيات، وضمنهم الملكة وبعض «زنوج بونت»، ينشدون بعض التراتيل الدينية، أى «إيحب مين»، تحت قيادة أحد الكهنة الشعائريين. وأمام المعبد، وفى حضور الثور الأبيض والتماثيل الملكية وقد وضعت على الأرض، بدأ الملك، وقد أحاطت به الملكة والمغنيات جميعاً، فى إنشاد نفس التراتيل سبع مرات. ثم يتقدم منه أحد حجاب القصر الملكى، ليقدم له منجلاً من النحاس الأسود المطعم بالذهب وحزمة من سنابل القمح. وبأسلوب استعراضى واضح، يقوم الملك، بتوجيه ضربة قوية ومحكمة على حزمة سنابل القمح؛ ويأخذ بعض السنابل ويقربها من وجه الإله، قبل أن يضعها أرضاً أمامه. وفى نفس الحين، كانت تتم الأضحية بالثور الأبيض. وانتهت هذه الشعيرة التى لا شك مطلقاً فى أنها تتضمن فى طياتها مضموناً زراعياً مؤكداً. ولكنها، بالرغم من ذلك، وخلال عصر الرعامسة، كانت تفسر باعتبارها شعيرة أوزيرية : فإن الملك وهو يوجه ضربة قوية ومحكمة إلى سنابل القمح، فكأنه يطيح بأعداء أوزوريس، وفى نفس الوقت، فإن «مين» الذى يمثل أوزوريس، يتحول إلى حورس. بعد ذلك، يقوم الفرعون بالدوران حول مكان الإله



موكب احتفالات «مين»

القائم تحت المظلة. وفى نفس الحين، يظهر كاهنان يمسكان بذيل ثور. ويضعان أمام تمثال الإله، وهما يبعدان نظريهما عن وجهه إجلالاً وتوقيراً، شعارين ثبتت بكل منهما ريشة مزدوجة ترمز إلى «أرواح الشرق»، أى المردة الذين يحيون مشرق الشمس، الذى يرتبط به ظهورهذا الإله «مين». ومن خلال المضمون الأوزيرى لهذه الشعيرة، تعتبر أشعة الشمس بمثابة السعير الذى يحترق فيه أعداؤه. وأخيراً، وبإشارة من الكاهن الشعائرى، يقوم بعض الكهنة بإطلاق أربعة طيور تحمل أسماء «أبناء حورس» (إمستى، وحابى ودواموت إف، وقبح سنو إف) ،لكى يعلنوا آلهة الجهات الأصلية الأربع بتأكيد وتدعيم سلطة الفرعون. وهنا، كان يتحتم على الملك أن يقوم بمصاحبة الإله مرة أخرى إلى مقصورته، من أجل أن يؤدى ثانياً مهمة تكريس بعض القرابين له. وبانتهاء هذا الاحتفال، يختتم العام الدينى فى مدينة هابو، فى أول أشهر فصل الشمو، أى قبيل الاحتفالات بتتويج رمسيس الثالث مباشرة، من خلال عيد يستمر طوال أربعة أيام من أجل آمون وتاسوعه[٢٥٢].

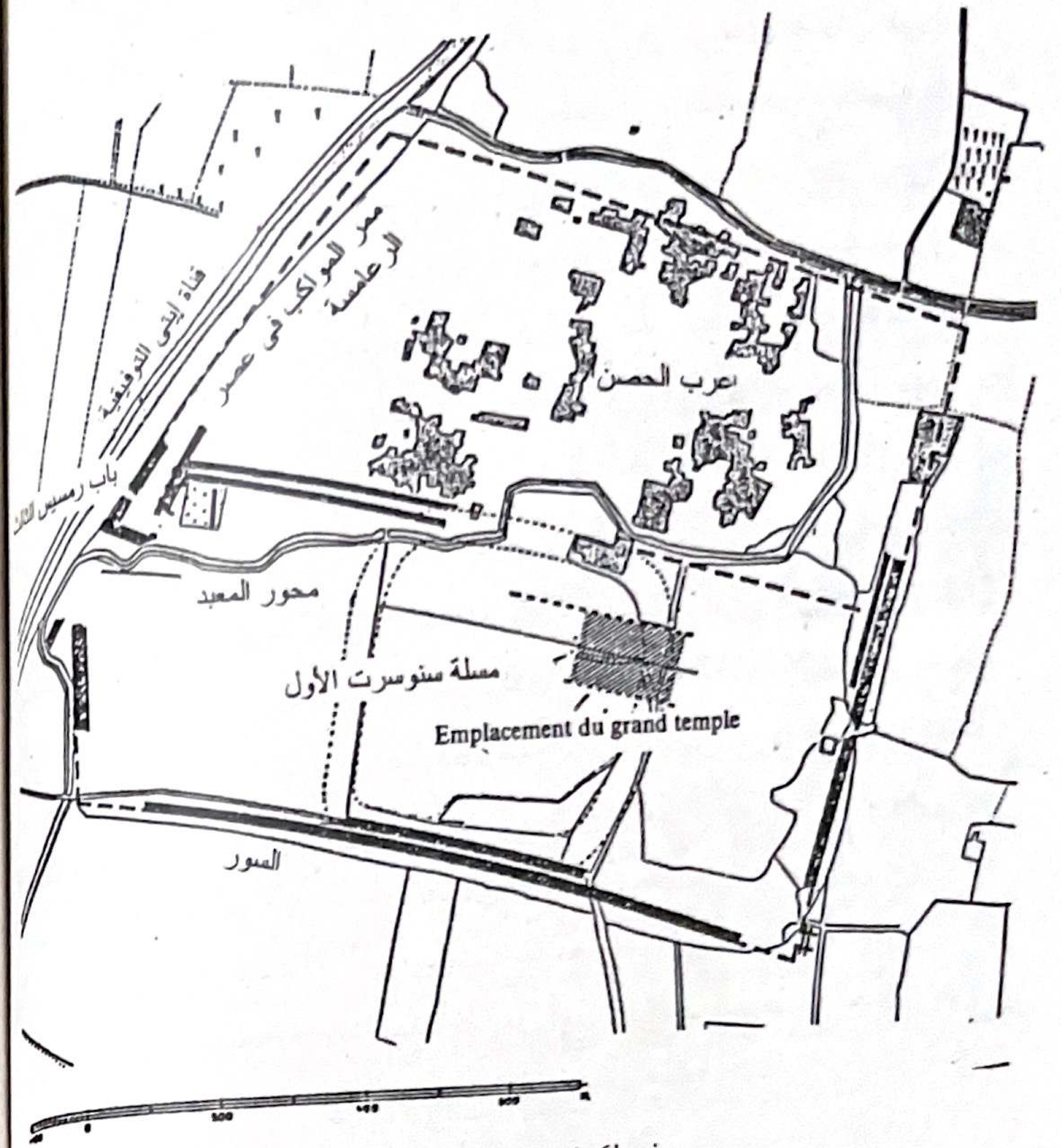
٣- هليوبوليس

كانت هليوبوليس تقع فى شمال شرق القاهرة الحالية، فى الموقع الذى تحتله «المطرية»، «وعرب الحصن» حالياً. ومعناها بالمصرية القديمة: «إيونو». واعتبرت هى وطيبة ومنف بمثابة المدن الثلاث المقدسة، أى: المركز الذى تمارس فى نطاقه عبادة إله الشمس رع، والذى أصبح، من خلال عصر الرعامسة بصفة خاصة «آتوم - رع - حور آختى»، وفقاً لمضمون تطور دينى عقائدى ربط فيما بينه وبين بعض التجليات الأخرى للشمس المؤلهة. وكانت هليوبوليس، تستوعب، فى عهد رمسيس الثالث، العديد من المعابد؛ لم يتبق منها سوى بعض آثار ضئيلة[٢٥٣]. ففى البداية، كان يوجد المعبد الضخم الخاص بالإله رع، والذى اختفى وجوده تماماً (فيما عدا المسلة الرائعة الخاصة بسنوسرت الأول، التى ما زالت قائمة به حتى الآن). وكان هذا المعبد لا يقل فى ضخامته، خلال ذاك العصر عن معبد آمون بالكرنك. ثم هناك أيضاً، معبد «زوجة» الإله، وهى «إيوسعاس نبت حتبت»، الذى كان قد أسس خلال الدولة الوسطى بأمر من سنوسرت الأول؛ وبقيت الخريطة الخاصة بتصميمه حتى الآن (ينظر لاحقاً -١). كما يوجد «جوسق آتوم الجميزة» و«مقصورة شجرة الصفصاف»؛ والاثنان قائمان فى فناء معبد رع المترامى الأطراف[٢٥٤]. وفى نفس الموقع، كانت توجد أيضاً بضعة معابد عريقة القدم: مقصورة ترجع إلى عهد الملك «زوسر»، من الأسرة الثالثة[٢٥٥]، ومعبد باسم «حتحور فى منطقة نفوذ آتوم[٢٥٦]». بل وجدت كذلك بضعة معابد استراحة من أجل المواكب الخاصة بمختلف هؤلاء الآلهة؛ وكانت قد شيدت، على التوالى، خلال عصور ملكية متتالية؛ وتجمع البعض منها من الناحية الشمالية - الغربية لذاك الموقع، على جانبى ممر تطوافى[٢٥٧]. وضمنها، كانت توجد ثلاثة معابد خاصة برمسيس الثانى، بقيت كما هى حتى عهد رمسيس الخامس. ثم هناك أيضاً «قصر رمسيس مرى آمون فى منطقة نفوذ رع»، «وقصر رمسيس مرى آمون المحبوب مثل رع»، «وبيت رمسيس الثانى الذى يقيم أعياد سد فى منطقة نفوذ رع[٢٥٨]». ويضاف إلى كل ذلك معبد خاص بمرنبتاح، ويسمى «بقصر مرنبتاح فى ممتلكات رع»؛ وخلال عهد رمسيس الثالث، كان يديره كاهن يدعى «حوى[٢٥٩]». ولقد تبقت بضعة آثار من هذا المعبد حتى وقتنا

المالى(٢٦٠). و امتد العمر بالكاهن «حوى» هذا، حتى عهد رمسيس الخامس. وكانت بعض أراضيه وحقوله تمون مدينة هابو بالغلال والحبوب(٢٦١).

وعلى غرار بقية مدن مصر، لا شك أن هليوبوليس قد عانت هى أيضاً من الوضع السياسى المتدهور الذى كان سائدا فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة. وبهذا، كانت الضرورة تستدعى، أن تجرى فى أنحائها عمليات النظافة، ورفع الحطام والأطلال(٢٦٢)، ومعالجة بحيراتها المقدسة العديدة، التى كانت قد تحولت إلى مجرد مقالب لإلقاء النفايات والقمامة(٢٦٣). ولكن، كان الأمر يحتم أيضاً، إعادة تنظيم «ممتلكات رع»، بسن بعض القوانين واللوائح (وضع النص الذى يتضمنها فوق منضدة من الفضة لا يقل وزنها عن (٣٦) كيلو جراما، قائمة بداخل ناووس الإله(٢٦٤)). كما تطلبت الضرورة أيضاً، اتخاذ الإجراءات اللازمة من أجل إعدادها بمختلف المؤن اللازمة. و لتنفيذ ذلك، أمر رمسيس الثالث، بتشكيل مجموعة خاصة لخدمة هذه الممتلكات، وأطلق عليها اسم «مؤسسة الشباب الطاهرة(٢٦٥)». ولم يكن عدد أعضائها ليقل عن خمسة آلاف فرد(٢٦٦)، موزعين فى كل مكان. وفضلاً عن ذلك، خصص الفرعون لها مساحة من الأراضى لا تقل عن (٤٤١) كم، معظمها فى منطقة مصر الوسطى(٢٦٧)؛ تنتج حوالى (٣٥٤٠٧) زكائب غلال كل عام(٢٦٨). وفى موعد جمع هذه الغلال، كان الملك يكرس لنقلها ثلاث سفن ضخمة بأطقمها اللازمة(٢٦٩). بل وأمر أيضاً، بتشييد المستودع الكبير الذى يستوعبها، والمصانع الخاصة حيث يقوم عبيد المؤسسة، بتحويل هذه الغلال إلى خبز وجعة(٢٧٠).

وبفضل رمسيس الثالث، ألحقت بالمعبد الكثير من الحدائق، والبساتين، وحدائق الزيتون(٢٧١). وخصصت من أجله، مجموعات من جامعى عسل النحل، وحاملى المباخر. ووهبت له الخيرات التى تدرها حوالى (١٠٣) مقاطعة بمصر(٢٧٣). وأضاف الفرعون إلى عدد قطعانه حوالى (٤٥٥٤٤) رأسًا من الغنم، قسم جزء منها إلى قطيعين(٢٧٤). وشيدت به إسطبلات للجياد(٢٧٥)، وأبراج حمام من أجل الطيور المهاجرة(٢٧٦). وفى نفس الوقت، خصصت مجموعة من الصيادين للقيام بصيد بعض حيوانات الصحارى(٢٧٧) واهتم الملك أيضاً، بتنظيم وحماية شئون القطيع المقدس فى هذه الأملاك(٢٧٨) من خلال بعض المراسيم واللوائح. وكون مجموعات



خريطة هليوبوليس (نقلا عن ريكه).

من الحرس، تقوم بمهمة مراقبة الطريق المؤدى إلى المعبد، وضفاف وميناء «إتى»، حيث تقع حقول «الشعير الطاهر» المخصص كقرابين(٢٧٩) للآلهة. ومن أهم إنجازاته المثيرة حقًا للإعجاب، هو ذاك الميزان العملاق الخاص بوزن المنتجات، التى [illegible] إلى نطاق «خزانة ممتلكات رع».

ومن خلال «بردية هاريس -١» نتبين أن هذا الميزان كان بمثابة شيء رائع، استعين من أجل صناعته، بما لا يقل عن قنطار كامل من الذهب الخالص، وحوالى قنطارين من الفضة وستة كيلو جرامات من النحاس الأسود. ويبدو هذا الميزان وقد انتصب فوق قائمة مكسوة بالمرمر، وثبت فوق دعامة قوية. واعتلى قمته تمثال من الذهب الخالص، للإله تحوت على هيئة قرد، رب الرياضيات والمحاسبة. ولم يكن ارتفاعه ليقل عن (٢,١٠) متر. وأمام هذا الميزان، نصب هيكل من أجل أداء صلاة خاصة للإله الذى يتبوأ قمته؛ والذى يعمل وجوده فى هذا المكان، على توافر الدقة والنزاهة فى عمليات الوزن الذى يستعمل من أجلها هذا الميزان(٢٨٠).

وخلال النصف الثانى من حكم رمسيس الثالث، تولى وظيفة «الرئيس الأعلى» لكافة هذه الأملاك، كبير كهنة رع بهليوبوليس، أو «رئيس المديرين»، أحد أبناء الفرعون، الأمير مرى أتوم. وبذلك، فهو يحمل نفس اسم ابن رمسيس الثانى الذى كان قد شغل نفس الوظيفة(٢٨١) قبل ذلك بحوالى نصف قرن. بل واستمر الأمير مرى أتوم يدير أملاك رع حتى فترة حكم رمسيس الخامس(٢٨٢)، وربما أيضًا حتى عهد رمسيس السابع، أى بعد وفاة أبيه، بحوالى عشرين عامًا(٢٨٣). وتحت رئاسته، ولمساعدته، كان هناك «المساعد الأكبر»؛ وكان يحمل أيضًا، اسم مرى أتوم. وتتراءى حاليًا، فى هليوبوليس، بعض آثار مقبرته. وكان يقوم بمساعدة مرى أتوم «الرئيس الأعلى» فى مهامه وأعماله،ويشرف، بصفة خاصة على القطعان الخاصة بتلك المؤسسة(٢٨٤). وخلاف هاتين الشخصيتين، وبعض الأفراد الذين يحملون لقب «الإداريين المنتدبين»، الذين كانوا يقومون بمهمة زراعة بعض أراضى تلك المؤسسة(٢٨٥)، فإننا لم نتمكن، بسبب انهيار معالم هذا الموقع، من معرفة أسماء وشخصيات موظفين آخرين به، خلال حكم رمسيس الثالث. وربما قد تعرفنا ببعض كهنته : ابنى شخص يدعى أمنموبى، هما «رع ماع خرو»، و «نب موسى»، وكانا

يشرفان، غالبًا، على مؤسسة هليوبوليس، خلال العام الخامس من حكم رمسيس الثالث(٢٨٦). وعلى غرار نفس ما كان يحدث، بالمؤسسات الأخرى بمصر، كانت زوجات هؤلاء الكهنة وزوجات كبار الموظفين، يساهمن أحيانًا فى أداء المراسم «كمغنيات» للإله المحلى(٢٨٧).

وأخيرًا، استتب النظام والانضباط والإصلاح فى أملاك رع فى هليوبوليس. وهناك، كان رمسيس الثالث يملك مقرًا ملكيًا عرف باسم «بيت أوسر ماعت رع مرى أمون الذى يضفى التألق على هليوبوليس(٢٨٨)». وعندئذٍ، فكر فى القيام ببعض الأعمال والإصلاحات بالمعبد الضخم الخاص بهذا الإله. واستهل ذلك، بسن قانون جديد من أجل رجال الدين(٢٨٩) القائمين فى نطاقه. وعمل على إعادة استزراع الغابة المقدسة المحيطة بالمعبد(٢٩٠). وأمر بإصلاح وتجديد الأثاث الخاص بتقديم قرابين الآلهة(٢٩١)، وبصناعة مجموعة من الحلى والمجوهرات من أجل تزيين تمثال الإله(٢٩٢)، و بتشييد ناووس جديد من الجرانيت(٢٩٣)، لحماية الإله. و أمر الفرعون أيضًا ببناء وتجديد مقصورتين صغيرتين، أشار إليهما من خلال «بردية هاريس(٢٩٤)». ولكن، لا شك أن الإنجاز الرئيسى المعمارى الهام،خلال فترة حكمه، فى نطاق هليوبوليس، هو تشييده لمعبد من حجر الصوان والحجر الجيرى، من أجل الطقوس الجنازية المحلية الخاصة به، وسمى «بقصر رمسيس حقا إيونو فى أملاك رع». ولم يتبق منه سوى أثر ضئيل يبين عن تكريسه وإهدائه(٢٩٥). وأسبغ الملك على هذا المعبد الجديد المؤن والممتلكات والهبات اللازمة لممارسة نشاطاته. وكرس له ما لا يقل عن (١٥٠٠) فرد(٢٩٦) للعمل فى إطاره. وكانت الإدارة الخاصة بهذا المعبد تقوم بالإشراف أيضًا على جمع من الأفراد الذين كان قد كرسهم رمسيس الثالث لخدمة أملاك رع(٢٩٧). وسمى باسم «قصر ملايين السنين الخاص برمسيس حقا إيونو فى أملاك رع بشمال هليوبوليس(٢٩٨)». والحق بخدمته مستوطنى «الناتو»، بشمال المدينة؛ والذين اطلق عليهم اسم «القائمين بالعمل بقصر ملايين السنين الخاص برمسيس أيونو بأملاك رع بشمال هليوبوليس» وربما كان موقعه بالركن الجنوبى الغربى للجزء الشمالى من ساحة المدينة، حيث شيد باب من الحجر، يسبقه طريق من الكباش (٢٩٩) يؤدى إلى قناة «إيتى».

وفى هليوبوليس أيضاً، ومن خلال ما ذكر فى «بردية هاريس -١»، يقول رمسيس الثالث انه قد أصلح ودعم معبداً من أجل إله ثانوى، هو «حورس - خنتى - بروي...» وأقام حوله غابة مقدسة(٣٠٠) . ومع ذلك، فإن بعض الآثار المتبقية، قد بينت لنا أن أباه ست نخت هو الذى أنجز هذا العمل. فإن إنشاء هذا المعبد يرجع، بأقل تقدير، إلى عصر الأسرة الثامنة عشرة، خلال عهد أمنحتب الثانى. وبعد ذلك، قام مرنبتاح بإصلاحه وترميمه؛ وبقى هذا المعبد يمارس نشاطه حتى العصر البطلمى(٣٠١).

وحقيقة إننا لا نعرف موقعه بالتحديد، ولكن تبقت منه حتى الآن بعض الأعمدة البردية الشكل وإحدى العوارض. ولا يبدو أنه قد دمر تماماً إلا حوالى القرن الثالث عشر بعد الميلاد»، حيث تمت الاستعانة ببعض أعمدته لبناء العديد من النصب والصروح الإسلامية بالقاهرة. وأحد هذه الأعمدة وصل خلال العام الماضى إلى «المتحف البريطانى» بلندن. والبعض الآخر منها تم نقله إلى «تل اليهودية»، حيث عثر عليها هناك فى عام ١٩٣٣ . أما عن العارضة المذكورة، فقد كان عالم المصريات «جريفث» قد عثر عليها فى أوائل هذا القرن بمكان يقع ما بين القاهرة وهليوبوليس، ولكن مما يؤسف له أنه لم يعثر(٣٠٢) عليها ثانياً حتى الآن.

وأخيراً، ففى ألماظة، بجنوب شرق هليوبوليس (شرق القاهرة الحالية)، قام الملك بتشييد معبد صغير، عند حافة الصحراء، يتضمن مجموعة من التماثيل تمثله وهو جالس فوق العرش بمصاحبة الإلهة حتحور، ربة محاجر حجر الصوان «بالجبل الأحمر» القريبة من هذا المكان. وعلى ما يبدو، أن هذا المعبد الصغير، كان يقع عند بداية الطريق المؤدى من منطقة القاهرة الحالية إلى خليج السويس. وبذا، كان يتيح فرصة لأفراد القوافل، قبل سلوك هذا الطريق، أن يبتهلوا من أجل الحصول على حماية ورعاية الملك والإلهة من لدغات العقارب والأفاعى السامة التى قد تهاجمهم فى هذا الدرب. ولذا، نجد أن مجموعة من التماثيل هذه، قد نقشت بأكملها بصيغ وعبارات سحرية ضد لدغات الأفاعى والعقارب(٣٠٣) .

أعياد فيضان النيل

وبخلاف كل هذه الإنجازات، أصدر رمسيس الثالث أوامره، فى العام التاسع من حكمه ،بأن تخصص أموال وهبات سنوية ضخمة من أجل إحياء الأعياد الكبرى

الخاصة بهليوبوليس(٣٠٤) . وكان من قبل، قد خصص أموالاً وهبات قيمة لهدف إحياء أعياد «حابى»، أى فيضان النيل. وكانت هذه الأعياد تقام بمختلف أنحاء المنطقة فى أول الشهر الأول بفصل «الآخت»(٣٠٥). بل ولقد أمر أيضاً، ببناء مجموعة جديدة من المراكب خاصة بالآلهة المحلية مثل «إيوسعاس» و«سبا»، التى كانت تساهم فى(٣٠٦) هذه الأعياد. وكانت تلك الاحتفالات، تعتبر بمثابة فرصة عظيمة للبهجة والسرور. وتتضمن فى نطاقها : تكريس القرابين التى يتم توزيعها، بعد ذلك، على أفراد الشعب بثلاث مناطق بهليوبوليس : فى «شقبحو» أو «بحيرة إراقة الخمر»، وهى على ما يعتقد، النهر المقدس بجوار معبد رع(٣٠٧) ؛ وفى «بيت حابى» (بر حابى) أبو الآلهة، عند المكان المعرف حالياً باسم «أثر النبى»، جنوب «مصر القديمة» الحالية؛ وهذا المكان كان يحدد أساساً، الحدود ما بين مصر العليا والسفلى(٣٠٨) ؛ وأخيراً، فى معبد أنوبيس إله التفتيش، جنوب معبد حابى؛ بجوار محاجر الحجر الجيرى العريقة القدم «بطرة»(٣٠٩).

إذن، فقد كانت هذه المواقع تحدد المحطات الرئيسية الثلاث لذاك العيد. و خلاله، ومن أجل هدف لم نحط به علماً، وإبان عهد رمسيس الثالث فى كل عام، كان يتم صناعة ما لا يقل عن عشرة آلاف تمثال لحابى و لزوجته «رننوتت» ربة الرخاء(٣١٠) . ولصناعة هذه التماثيل، كان يستعان بالمعادن النفيسة النادرة؛ وكانت تزين بالكسوة والقلائد الثمينة. وعند اقتراب موعد الفيضان، الذى يعتقد بصفة عامة أنه ينبثق من الانسيابات المتدفقة من جسد أوزيريس الذى قتله «ست»، أو يظن بصفة خاصة، فى إطار منطقة مصر العليا، أنه يسيل من جزء من جسمه الممزق الذى حفظ بداخل كهف مزود بمقياس لتحديد ارتفاع المياه فى «بيت حابى». وهناك يتم تجهيز المراكب الخاصة بالآلهة التى سبق وذكرناها آنفاً، وهما «سبا» و «أيوسعاس». ثم يبدأ الإعداد لعملية تمثيل ضخمة لتلك الأسطورة المقدسة : محاولة الإلهة أيوسعاس المتماثلة بإيزيس البحث والعثور على ذلك الجزء من جسد زوجها أوزوريس المتماثل بالإله «سبا». وفى يوم العيد، الذى ذكرت النصوص القديمة، أن «كتب الفيضان» أى طقوس الاحتفال تفتح خلاله، يتم حمل مركب الإله سبا، الذى كان رمسيس الثالث قد أمر بصنعها فوق أكتاف الكهنة، ويسيرون بها فى موكب مهيب على «طريق سبا»،

بداية من هليوبوليس وحتى «خرعحا»، أى منطقة مصر القديمة الحالية، ليصلوا بعد ذلك إلى معبد أنوبيس «بطره» الذى ذكر آنفاً.

وكما هو الحال غالباً فى نطاق مصر القديمة، لم يكن الأمر يتطلب سوى بعض التلاعب بالألفاظ من أجل اقتباس الأسطورة الأوزيرية، ولمساهمة الإلهة المذكورة آنفاً بتلك المراسم. وبهذا، فقد تم اصطحاب تمثال «سبا» فى موكبه الفخم، إلى طره، وهناك أقيمت له طقوس تمثل عملية التحنيط مثل أوزيريس. وبعد أن لحق به تمثال أيوسعاس، تم نقله إلى «بيت حابى»، من أجل تمثيل عملية «الدفن». وهنا، وعندما يبدأ الفيضان معبراً عن بعث هذا الإله من جديد، يبلغ هذا الاحتفال لحظة ذروته. وعندئذ، يتم وضع تمثالى سبا وأيوسعاس فى مركبين «ببيت حابى» لتنساب بهما على مجرى النيل وحتى مصب «قناة إيتى» التى كانت قد أقفلت بسد. وأمام أفراد الشعب وكبار القوم، تندفع المركب الخاصة بالآلهة، والتى يقودها بعض الملاحين، وتصدم السد الذى يقفل «قناة إتى»، والذى على ما يعتقد كان يمثل العائق النهائى الذى كان قد وضعه «ست» فى طريق أوزيريس. وعند ارتطام المركب بالسد، بالإضافة إلى قوة دفع مياه النيل، سرعان ما يسقط هذا السد؛ وتندفع المياه بقوة لتملأ «القناة إتى»، من أجل أن يعم الفيضان فى كافة الأراضى المحيطة. وعندئذٍ، وبعد أن قام سبا وأيوسعاس بمهمتهما، رجعا أدراجهما ثانياً عبر مجرى النيل، ولم ينسيا زيارة الأماكن المقدسة الواقعة على ضفتيه.

٤- منف (٣١١)

كانت منف تخضع لإدارة من يطلق عليه لقب «العضو المنتدب بمنف». وخلال العام (٢٤) من حكم[٣١٢] رمسيس الثالث، تولى إدارتها من يدعى حورى. واعتبرت منف بمثابة المقر الوزارى لمنطقة الشمال؛ بل وأصبحت أيضاً، المدينة المقدسة الثالثة فى إطار مصر كلها. وكان الملك[٣١٣] وحاشيته ينتقلون إليها فى كثير من الأحيان. وبذا، فقد كانت تتضمن «حريماً»، يمتلك أراضى[٣١٤] خاصة به، وكان يهيمن عليه من يدعى «جحوتى إم حب»[٣١٥]، وكان يضم فى نطاقه العديد من المختصين بشئون الزخرفة[٣١٦]. وربما كان هذا الحريم يقع بجوار القصر الذى شيده مرنبتاح قبل ذلك بحوالى مائة عام فى شرق المعبد الكبير الخاص بالإله بتاح. وفى إطار هذا

المعبد المجاور لذاك القصر والذى كان يسمى بـ «قصر مرنبتاح فى منطقة نفوذ بتاح»، وكرست من أجله مساحات شاسعة من الأراضى[٣١٧]، كما سبق أن ذكرنا، أقام رمسيس الثالث فى العام الرابع والعشرين من حكمه مراسم خاصة بتمثال يحمل اسمه (الفصل الثانى -٣).

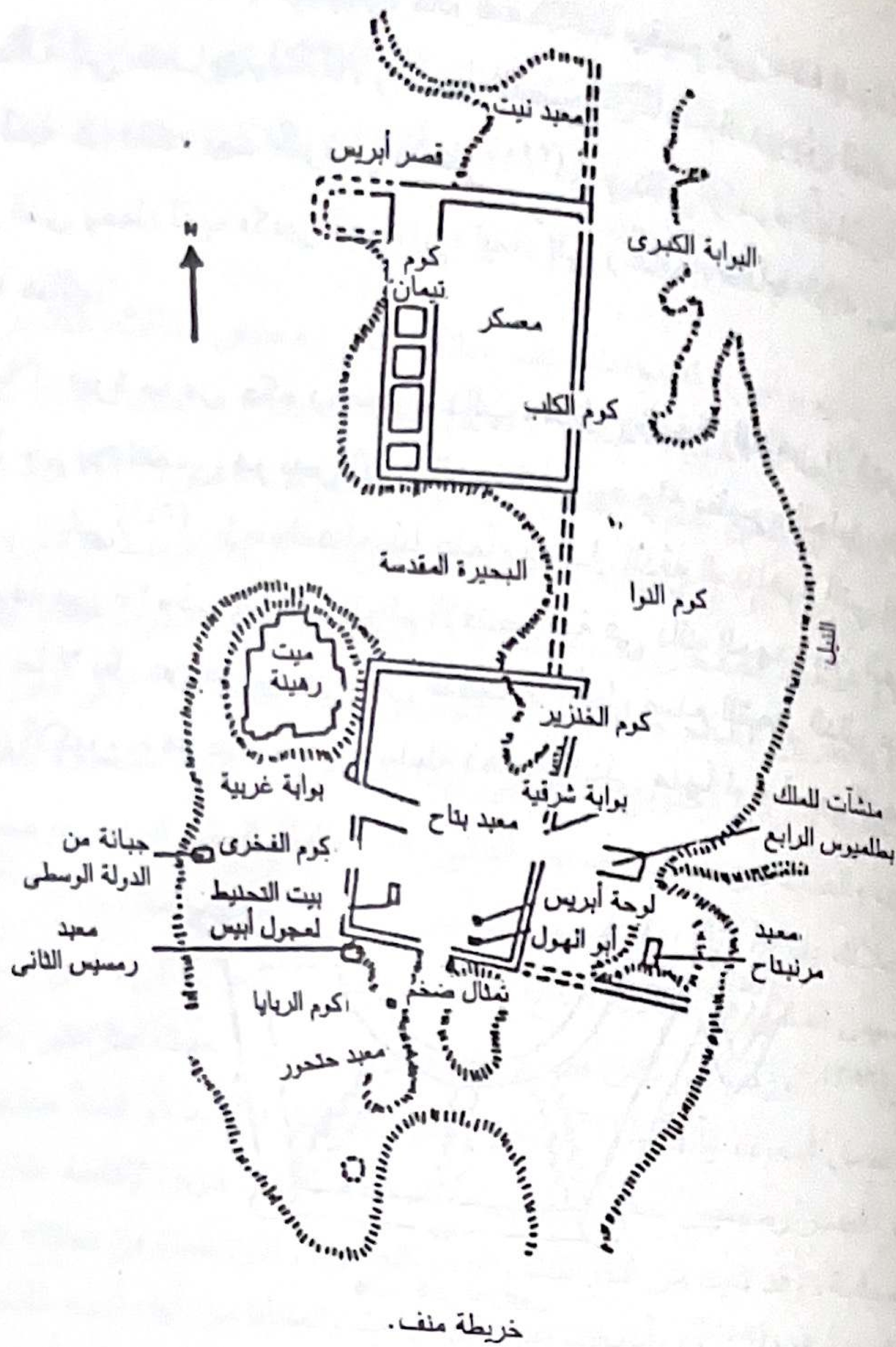
إن منف هى مدينة الإله بتاح، وبصفة تقليدية، كانت تقام بها الاحتفالات باليوبيل الملكى، أو العيد «سد». وتقع منف ما بين نهر النيل، شرقاً، وبين قناة تسمى حالياً «ببحر الليبيانى». وتبدو المدينة فى هيئة بيضاوية الشكل مسطحة، تبدأ من الشمال. ويوجد فى وسطها الفناء الضخم الخاص بمعبد بتاح الكبير، ومدخله الرئيسى بالناحية الغربية. وفى نفس الاتجاه، وعند الجرف الليبى، على بعد عدة كيلو مترات، تقع جبانة سقارة، التى كانت تشرف عليها وقتئذٍ، وحالياً أيضاً، أهرام ملوك الدولة القديمة. وهناك كذلك، كانت توجد جبانة خاصة من أجل بعض أفراد حاشية الفرعون. (الفصل الثانى، ٤).

ومثلما فعل من أجل هليوبوليس، عمل رمسيس الثالث على تنظيف منف وإعادة ترميم وإصلاح معابدها[٣١٨]. واستهل هذا الإصلاح و الترميم بمعبد بتاح نفسه. ولذا، فقد أمر الفرعون، بأن تستزرع المساحة المحيطة بهذا المعبد، من أجل مقتضيات الشعائر ومتطلباتها، بأشجار البخور والمر والصبر[٣١٩]. أما الباب الرئيسى لهذا المعبد، فقد أمر الملك بأن يزخرف بألقابه وأسمائه، بعد أن أجريت به عدة إصلاحات وترميمات[٣٢٠]. ونفس هذا الباب هو الذى كان ست نخت، خلال فترة حكمه، قد أمر بأن يشيد قبله باب أمامى من حجر الصوان (الفصل الأول -٣). ولكن هذا المعبد الذى تحول الآن إلى ما يشبه الأطلال، والذى لم تتبق منه سوى قواعد البوابة والقاعة المعمدة، لا يسمح لنا بأن نتبين عما إذا كانت توجد به كتابات أخرى باسم الفرعون، أم لا. عموماً لقد أمر رمسيس الثالث أيضاً، أن يشيد به ناووس جديد من الجرانيت لكى توضع بداخله التماثيل الخاصة بالثالوث المحلى : بتاح، وسخمت، ونفرتم[٣٢١]. بل وأمر بتزيين تمثال بتاح بالمجوهرات النادرة[٣٢٢]، ووضع قطع جديدة من الأثاث الشعائرى[٣٢٣]، منها مركب محمولة[٣٢٤]، مثلما فعل فى الكرنك وهليوبوليس. وأقام الفرعون فى هيكل المعبد، ثلاث «لوحات»، منها،

اثنتان من النحاس، نقشت عليهما نسخ من الصلوات والمراسيم الخاصة بالتنظيم والإصلاح الذى كان قد أمر به.

والجدير بالذكر أن «اللوحة» الثالثة، قد صنعت من الذهب الخالص، ولم يكن طولها ليقل عن متر كامل. وبلغ وزنها (١٦) كيلو جراماً(٣٢٥) ذهباً. وعلى نفس نهج رمسيس الثانى ومرنبتاح(٣٢٦)، بهذا المعبد، أقام رمسيس الثالث مراسم عبادة خاصة من أجل تمثال للإله بتاح كرس لاسمه هو، ويحمل اسم «بتاح رمسيس حقا إيونو الذى استقر فى أملاك بتاح». وعين كاهناً يدعى بتاح مس للإشراف على ممارسة الطقوس بذاك المعبد(٣٢٧). ولم يكن هذا المعبد الصغير ليتضمن أكثر من سبعة أفراد للعمل فى نطاقه.

وعلى غرار كافة المؤسسات الأخرى بمصر، كانت الضرورة تستلزم أن توفر لمنف الكميات اللازمة من التموين من أجل الأملاك والمعبد. بل واستدعى الأمر أيضاً، أن يكرس من أجلها عدد ضخم من العاملين فى الأراضى الشاسعة، ومن رعاة قطعان الماشية والأغنام(٣٢٨). ومع ذلك، فمن الملاحظ، أن الهبات والعطايا التى أسبغها الملك على أملاك منف كانت تقل بكثير، عما كان يغدقه على الكرنك وهليوبوليس: فإن مكانة بتاح ومنزلته لا يمكن أن تقارن بمكانة ومرتبة الإله آمون. ولا شك أن معاناة مدينة آمون، كانت أقل بكثير مما قاسته مدينة رع بسبب الأحداث التى سبقت قدوم الأسرة العشرين. وهكذا، نجد أن مجموع العاملين الذين ألحقهم الملك بأملاك بتاح لم يكن ليزيد على ثلاثة آلاف فرد، منهم ألفان من الأسرى الآسيويين والنوبيين(٣٢٩)، أما معبد بتاح نفسه، فلم يخصص من أجله سوى ثمانمائة وواحد وأربعين عاملاً(٣٣٠). ولم تخصص من أجل المعبد سوى مساحة من الأراضى لا تتعدى ثمانية وعشرين كيلومتراً(٣٣١)، (لم تقل المساحة التى كرست لآمون عن ألفين وأربعمائة كيلومتر). وبلغ الإنتاج السنوى لهذه المساحة ما لا يقل على ثلاثين ألف زكيبة غلال(٣٣٢). واستزرعت من أجله خمس حدائق وبساتين(٣٣٣). وأضيف إلى كل ذلك، قطيع من المواشى والأغنام(٣٣٤) يتضمن حوالى عشرة آلاف حيوان. وخصصت له أيضاً، سفينتان لنقل البضائع(٣٣٥). ومن أجله أيضاً، كرست الخيرات التى تدرها إحدى المستعمرات الصغيرة المكونة من حوالى أربعين فرداً، كان الملك قد

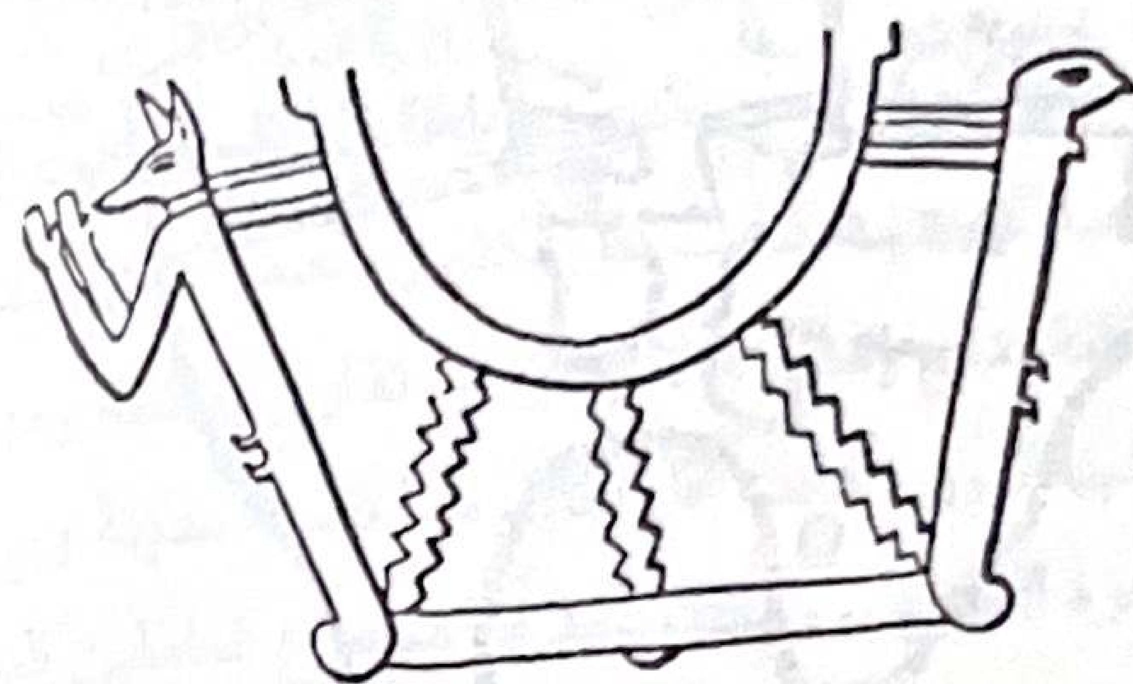


خريطة منف.

أسسها، وأطلق عليها اسم «بيت أوسر ماعت رع مرى آمون»، على الضفة الغربية لنهر الغرب»؛ وعين لإدارتها «مشرفاً» يدعى «بن نستى تاوى»، كان قد استهل عمله الوظيفى من قبل فى مدينة هابو (الفصل الثالث – ٣). وعلى غرار نفس ما يتم فى بقية مدن مصر أقيمت أيضاً هناك بعض المستودعات الضخمة لخزن الغلال، وبعض الإسطبلات، وأبراج الحمام، ومصانع من أجل إعداد وتحضير القرابين الإلهية. بل وأضيف إلى كل ذلك أعداد كبيرة من جامعى عسل النحل والبخور(٣٣٦).

وبشكل تقليدى معتاد، كانت إدارة هذه الممتلكات تنقسم إلى عدة إدارات متفرعة؛ بالإضافة إلى «الخزينة»(٣٣٧)، و«مدير القطيع(٣٣٨)»، والمديرين المنتدبين(٣٣٩). وعلى قمة كل ذلك، نجد «الرئيس الأعلى(٣٤٠)»؛ ويتلقى أوامره مباشرةً من الكاهن الأكبر الذى يحمل لقب «كبير الحرفيين» إيماءً إلى رعاية وحماية الإله بتاح للأنشطة الحرفية هناك.

وخلال فترة ما من حكم رمسيس الثالث، شغل وظيفة «الكاهن الأكبر» هذه ابنه المدعو خع إم واست. وهو نفس الاسم الذى كان يحمله نظيره الجليل خلال حكم رمسيس الثانى(٣٤١). بل، ولقد أحطنا علماً، بفضل الدقة المتناهية التى اتسمت بها «بردية هاريس -١» فى سردها للقوائم الاقتصادية فى ذاك العهد، بأن الفرعون قد استعان بما لا يقل عن مائتى جرام من الذهب من أجل صنع الشعار الدال على وظيفة «الكاهن الأكبر». وهو عبارة عن: سلسلة ذهبية تتدلى منها لوحة من الذهب تغطى



قلادة كبير الحرفيين

أعلى الصدر والكتفين. وفى نهايتها عند الكتفين، ثبت شكلان يمثلان رأس بن آوى، بهما ذراعان يرفعانهما فى حركة تعبد وابتهال(٣٤٢). وبخلاف العاملين بالإدارتين بأملاك بتاح، كان «كبير الحرفيين» أى «الكاهن الأكبر» يهيمن أيضاً على عدد كبير من الكهنة: منهم الكهنة العاديون الشعائريون(٣٤٣)، والأنبياء وكهنة الوعب(٣٤٤)، وسيدات المجتمع الراقى بالمنطقة اللاتى يعملن كمغنيات للإله بتاح أو للإلهة «حتحور نبت نهت» ابنة الإله؛ والتى شيد من أجلها معبد خاص يقع فى جنوب معبد بتاح(٣٤٥).

وجدير بالذكر هنا، أن رمسيس الثالث كان قد أقام فى منف مؤسسة لها سمة خاصة؛ وفر حمايتها من خلال مرسوم استثنائى(٣٤٦) خاص بها: «مؤسسة النساء الماهرة»، من أجل تأهيل وتدريب المغنيات المحترفات، اللاتى يستعان بهن فى مصر(٣٤٧)، بل وخارجها أيضاً(٣٤٨).

ومثلها مثل هليوبوليس، تضمنت منف خلال حكم رمسيس الثالث، الكثير من المعابد، سواء القديمة أو الحديثة العهد: «معبد أملاك بتاح - تحوت القائم تحت الجميزة»؛ وكان يهيمن عليه الكاهن الأكبر المدعو بتاح مس(٣٤٩)؛ «ومعبد أوزوريس، إله روزى تاو» (الجبانة المجاورة لسقارة(٣٥٠))؛ ومعبد «لآمون نفر خنت(٣٥١)»؛ و«معبد لحتحورنبت نهت» «ربة الجميزة»، وقد ذكرت آنفاً، والذى كشفت آثاره بالطريق القائم جنوب الباب الجنوبى بفناء بتاح(٣٥٢). وفى نفس هذا المكان، وبالتحديد بالركن الجنوبى - الغربى لهذا الفناء، توجد أيضاً مقصورة خاصة بسيتى الأول، والعديد من معابد رمسيس الثانى، أى: «المقر العظيم الخاص برمسيس الثانى فى أملاك بتاح(٣٥٣)»، و«قصر رمسيس الثانى، المحبوب مثل بتاح(٣٥٤)»، و«قصر رمسيس الثانى فى أملاك بتاح(٣٥٥)»، و«قصر رمسيس الثانى، الذى يتجلى فى عيد سد(٣٥٦)». وربما فى نفس هذا الركن الجنوبى الغربى، حيث عثر على بعض الآثار التى تحمل أسماءه وألقابه(٣٥٧)، كان رمسيس الثالث، قد شيد هو أيضاً معبدين، أولهما هو، «قصر رمسيس حقا إيونو فى أملاك بتاح»، الذى كرس لإقامة طقوسه الجنازية المحلية، وقد شيد من الجرانيت والحجر الجيرى، وكان يعمل فى نطاقه ما لا يقل عن ستمائة فرد(٣٥٨)، وأسبغت عليه كل الهبات والعطايا من أجل أوجه نشاطه. ومن ضمن ما منح له: قطيع ضخم من المواشى والأغنام، يقوم على خدمته أكثر من ألف عامل، تحت ادارة «قائد القطيع» المدعو «حوى». ولا يستبعد أبداً أن «حوى» هذا هو نفسه «بن حوى بن» وتعنى (هذا الحقير «حوى»)، أحد المتورطين فى «مؤامرة الحريم» (الفصل السادس -٣).

وعلى غرار المعبد المماثل لهذا المعبد بهليوبوليس كان «قائد القطيع» «حوى» يرأس أيضاً العاملين بمعبد بتاح(٣٥٩). وبالمقارنة بمعبد بتاح، نجد أن «المعبد» الثانى الخاص برمسيس الثالث فى منف، أى «بيت رمسيس حقا إيونو فى أملاك بتاح»، والذى كان

ديره شخص آخر يدعى «حوى» أيضاً، كان يبدو وكأنه مقصورة متواضعة، ولربما أنه لم يكن يعدو أن يكون سوى معبد – استراحة؛ خاصة أنه لم يكن يعمل به سوى ستة عشر فردا فقط. وخلاف كل هذه الإنجازات، عمل الفرعون أيضاً للاحتفال بيوبيله الملكى، على إصلاح وترميم المنشآت والأبنية التى كانت تستخدم فى إحياء تلك المناسبة مثل : «قصور احتفالات الحب سد»[٣٦١]. بل وقد اتخذ الفرعون أيضاً بعض الإجراءات الإدارية لصالح الثور آبيس، أى «الصورة الحية» للإله بتاح. وكان، عند موته، يتم دفنه فى سقارة، بداخل «المقابر السفلية» بالسرابيوم، التى كان رمسيس الثانى قد أمر بإعدادها لهذا الغرض. وبداخل هذه المقابر الخاصة بالثور آبيس كان كبار القوم يضعون بعض اللوحات الصغيرة[٣٦٢] وقد أقام الملك بعض الأعمال الإنشائية بأحد جوانب فناء بتاح، بل وأضاف إليها، بعض الأبنية الخاصة بعمليات تحنيط الثور آبيس[٣٦٣]. وأمر الفرعون أيضاً بتكوين وتنظيم القطيع المقدس الخاص بالثور آبيس، بعد أن كانت حيواناته موزعة فى عدة أمكنة. وأصدر مرسوماً خاصاً به من أجل حمايته ورعايته؛ لكى توضح تماماً الحدود[٣٦٤] الخاصة بحقول ومزارع هذا القطيع المقدس.

بالإضافة إلى العيد «سد» الذى كان يقام فى منف، إحياء للذكرى الثلاثين لتتويج رمسيس الثالث (الفصل السادس –٣)، كانت هناك العديد من المواكب والاحتفالات السنوية، المفعمة بالمؤن والعطايا، فى إطار أوجه الأنشطة الدينية، بهذه المنطقة[٣٦٥]. فهناك على سبيل المثال، ذاك الموكب البحرى الفخم الجليل، حيث كان بتاح يحضر من أجل زيارة ابنته «حتحور نبت نهت»، فى معبدها، بجنوب منف. ومن أجل هذا الغرض، كان الملك قد أمر بإصلاح وترميم القارب الخاص بهذا الإله، و الذى لم يكن طوله ليقل عن (١٣٠) ذراعا مثله مثل «أوسرحات» الخاص بآمون، المزخرف والمطعم بكم هائل من الذهب الخالص والأحجار الكريمة؛ والذى حليت مقدمته بتمثالين على هيئة الصقر، يمثلان الإلهين شو وتفنوت[٣٦٦]. وعلى ما يبدو، أن هذا الموكب الفخم، كان فى منف وهليوبوليس أيضاً، بمثابة ذروة الأعياد التى تحتفل بقدوم فيضان النيل. ولا شك أن تلك الأعياد كانت تبلور إحدى التجليات الخاصة للإله بتاح : مثل، «بتاح – نون – الأعظم» الذى يجسد طبقات المياه الجوفية[٣٦٧].

وفى العام التاسع والعشرين من حكمه، أى قبيل موعد يوبيله بعام، قرر رمسيس الثالث أن يضفى بريقاً وتألقاً خاصاً على هذا العيد، فقرر، بداية من ذاك العام، فى مناسبة إحيائه، أن تكرس كميات ضخمة من القرابين، يلقى بجزء منها فى مياه النيل مثل : العديد من التماثيل الممثلة لحابى «ولزوجته»[٣٦٨]. فهل تراه، كان يهدف، من وراء ذلك، ومن خلال احتفالات العيد «سد»، إلى التمتع بحماية ورعاية هؤلاء الآلهة ؟

٥- المدن الثانوية بمصر[٣٦٩]

لا شك أن إنجازات رمسيس الثالث لم تنحصر فقط فى نطاق المدن الكبرى بمصر. وها هى «بردية هاريس –١»، تشير، فى هذا الصدد، إلى إنجازات إنشائية ضخمة، وإجراءات لإعادة التنظيم والإصلاح، ومنح من أجل العاملين، وتوفير قطعان المواشى والأدوات النادرة الثمينة، من أجل معابد سبع وعشرين مدينة أخرى فى نطاق مصر. ولقد كشفت العديد من التنقيبات، عن آثار لإنجازاته وأوجه نشاطه فى الكثير من المواقع، التى لم تذكرها «بردية هاريس – ١».

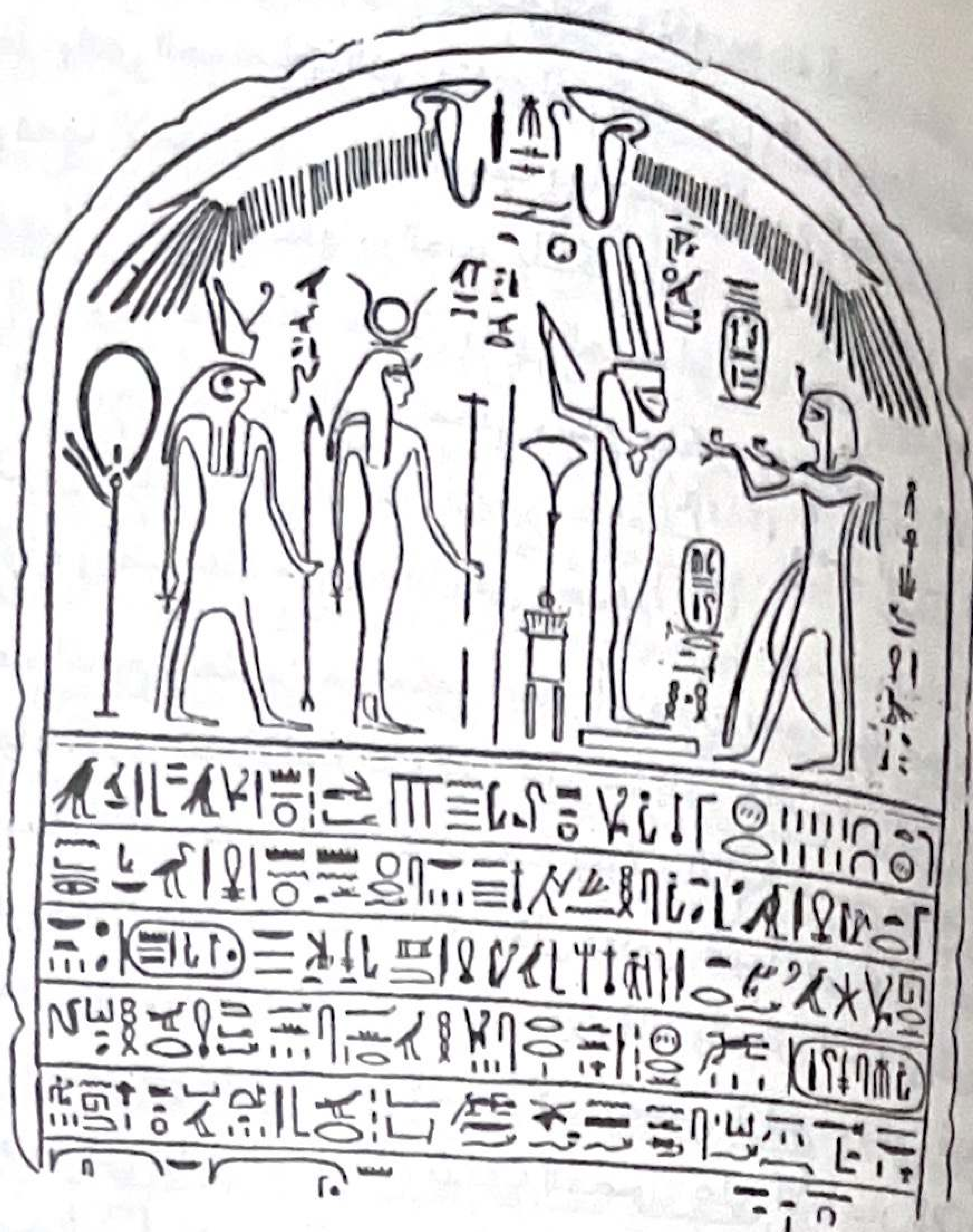
مصر العليا

تقع مدينة «الفنتين» عند سفح الجبل الذى يحمل نفس الاسم حيث توجد محاجر الجرانيت، وحيث كان يبعث بالمجرمين ليقوموا بالأعمال الشاقة[٣٧٠]. وبالمصرية القديمة، تسمى مدينة الفنتين : «آبو». وتتجمع هذه المدينة فوق جزيرة قرب الشلال الأول للنيل، حول معابد الإله الكبش – خنوم ورفيقتيه «ساتت» و«عنقت». وهى تعد بمثابة حامية ومركز تجارى. وتقع فى شرقها منطقة «سونو»، المعروفة حالياً باسم أسوان. وهى تبين الحدود الجنوبية لمصر، التى تشرف عليها قلعة «سنموت»، المقامة فوق جزيرة «برجة»، أمام «فيلة» قرب الشلال. وهناك، كان «ست نخت» قد أقام لوحة ضخمة تبين انتصاراته الكاملة على أعدائه (الفصل الأول – ٣). وهناك أيضاً، كان «بن باتو»، قد بدأ، فى العام الـ (١٥) من الحكم عمليات التفتيش والتفقد فى معابد مصر العليا (لاحقاً – ١).

ولقد أنجز رمسيس الثالث بعض الأعمال فى معبد خنوم؛ ولكنها على ما يبدو، كانت ضئيلة ومتواضعة؛ وبذا لم يشار إليها فى «بردية هاريس ١ –». ولكنه كرس من

أجلها أراضى زراعية فى الدلتا؛ بالإضافة إلى سفينة بطاقمها (فى بداية هذا الفصل). وعند الواجهة الشمالية للمنصة البطلمية الرومانية التى تشرف على النهر، تتراءى بعض الكتل المتبقية من بعض الأفاريز، تحمل أسماءه وألقابه(٣٧١). وكان من المعتاد، أن تنقش أسماء وألقاب الفرعون فى كافة الأماكن التى يقوم فيها بإصلاحات وترميمات. فهناك بعض خراطيش الملك على قاعدة الواجهة الشمالية وبالباب المشيد من الجرانيت الذى يرجع إلى عهد تحتمس الثالث؛ وكان يؤدى إلى مقصورة «ساتت»، بالساحة المسورة بجدران من الطوب اللبن، والتى تفصل ما بين مقدمة الفناء وبين المعبد(٣٧٢).

وبداية من الفنتين وحتى طيبة، تتراءى العديد من الإيماءات عن أوجه نشاط رمسيس الثالث فى العديد من المواقع. فعلى ما يبدو، أنه قد أقام مقصورة فى كوم أمبو، لم يتبق منها سوى بعض الآثار الضئيلة التى تدل على إهدائها(٣٧٣). وبجوار محاجر «جبل السلسلة»، حيث كان يحصل على الحجر الرملى لبناء مدينة هابو، أمر الملك بأن تنقش بعض النصوص على جدران المعبد المحفور فى الجبل الخاص بحور محب. بالإضافة إلى لوحة إهداء للنيل؛ وأمر بأن تقام الأعياد بمناسبة فيضان هذا النهر (الفصل الثالث – ١). وفى إدفو، حيث كان «بن باتو» قد ترك إيماءً لبعض تفقداته وتفتيشاته، نصبت إحدى اللوحات على الجانب الجنوبى لصرح معبد الدولة الحديثة، شرق المعبد البطلمى، إحياء لذكرى وصية لصالح الملك، أوصت بها أحد التجليات المحلية للإله آمون(٣٧٤). وهناك، خلال حكم رمسيس الثالث، يمكننا ذكر النبى الأول لحورس ويدعى أمنمس(٣٧٥) – ربما كان ابن النبى الأول الذى عرف باسم «نب موسى». وهناك أيضاً كاهن يدعى «بارع حتب»، الذى قام، فى العام الثالث والعشرين من الحكم، بالحج إلى الدير البحرى(٣٧٦). وفى «الكاب» أيضاً، تتراءى إيماءة أخرى من «بن باتو» عن بعض أوجه نشاطه، عبارة عن: قائمة ببعض الإصلاحات والترميمات التى كان رمسيس الثالث قد أمر بإجرائها فى معبد نخبت الكبير. وتعتبر مقبرة الكاهن الأكبر «ستاو»، صهر النبى الأول بإدفو المدعو نب موسى، من المقابر الشهيرة، فهى تتضمن نقوشاً بارزة، تمثل نقل تمثال الربة نخبت، فى العام (٢٩) من الحكم، لكى يشترك فى يوبيل الملك (الفصل السادس – ١).



لوحة رمسيس الثالث فى قفط.

وأخيراً، وفى الطود التى تقع قبل طيبة جنوباً، أمر رمسيس الثالث، بعد عمليات التفتيش التى قام بها «بن باتو»، بإصلاح وترميم الاستراحة الخاصة بمركب(٣٧٧) الأسرة الثامنة عشرة.

وفى جنوب طيبة، بكوم أمبو، على الضفة الغربية للنيل(٣٧٨)، عمل رمسيس الثالث على إصلاح وترميم معبد الإله ست، الذى كان يديره الكاهن الأكبر المدعو أوسر حات(٣٧٩). وهناك، شيد معبداً، عرف باسم «بيت رمسيس حقا إيونو فى أملاك ست رب أمبوس». وكرس من أجل هذا المعبد ما يزيد على مائة فرد للعمل فى نطاقه (أغلبهم من أسرى الحرب). بل وخصص له أيضاً، لأجل إمداده بالمواد الغذائية، قطيعاً ضخماً بالدلتا، ومساحات شاسعة من الأراضى لزراعة الحبوب فى مصر العليا والسفلى. وفى قوص، على الضفة الأخرى للنيل، وهب، فى العام السادس عشر من حكمه، عدداً من الأسرى من أجل الإله المحلى، وهو حورس القديم(٣٨٠) غالباً.

في أقصى الشمال، على الضفة الشرقية للنيل، تقع مدينة قفط. وهي بموقعها هذا تحدد مدخل وادي الحمامات الذي يؤدي إلى المحاجر وإلى ساحل البحر الأحمر. وبسبب موقعها الاستراتيجي هذا، أقيمت بها خلال الأسرة العشرين، قلعة حصينة لمراقبة المرور(٣٨١) في محيطها. والجدير بالذكر، أن الحملة التي كان رمسيس الثالث قد أرسلها إلى بونت، قد سلكت طريق وادي الحمامات هذا عند رجوعها إلى مصر (لاحقًا، ٦). ومن أجل الثالوث المحلي، الذي يتكون من الآلهة مين، وحورس وإيزيس، كرس الملك ما لا يقل عن أربعين عاملاً(٣٨٢) وأمر أيضًا بعمل بعض النقوش البارزة ووضع عدد من التماثيل في معبدهم(٣٨٣).

وفي العام التاسع والعشرين من حكمه أصدر أمره بأن تقام، أمام صرح هذا المعبد، لوحة لإحياء ذكرى تلك الإنجازات، التي على ما يبدو كانت قد تمت بمناسبة أحد الأعياد المحلية(٣٨٤). وكانت الأملاك الخاصة بهؤلاء الآلهة تتضمن بعض المساحات الزراعية في منطقة مصر الوسطى(٣٨٥). وكان يهيمن عليها، في أواخر حكم رمسيس الثالث، شخص يدعى أوسر ماعت رع نخت، ابن قائد بالجيش اسمه أوسر ماعت رع سنب، بل واستمر في إدارتها حتى فترة حكم رمسيس الرابع؛ وقام وقتئذ، بقيادة حملات هامة إلى «وادي الحمامات»، بهدف الحصول على الأحجار اللازمة لإنشاء بعض النصب(٣٨٦). وفي منطقة مصر العليا، منح الملك اثنى عشر عاملاً لأملاك حتحور التي كان سنوسرت الأول قد أنشأها خلال الأسرة الثانية عشرة في «حوت-سخم»، المعروفة حاليًا باسم «حو»، والتي تقع على بعد (٥٠) كيلومترًا من قفط(٣٨٧).

مصر الوسطى

تمتد مصر الوسطى، بداية من «حو» وحتى أطراف منف. وهي منطقة مترامية الأطراف لا تتضمن أي إدارة رسمية في نطاقها. ولكنها، كانت تعتبر بمثابة منطقة قائمة بذاتها. وفي إطارها، تقع أبيدوس، أحد الأماكن المقدسة. وكذلك توجد بها بعض المدن الكبرى الهامة، مثل أخميم، وأسيوط، وهرموبوليس (الأشمونين).

وأخيرًا، وإذا توغلنا أكثر من ذلك، نجد واحة الفيوم، بعيدًا إلى حد ما عن الوادي. ويلاحظ، أن تلك المجموعة من المدن، كانت غير خاضعة لنفوذ طيبة أو منف. بل إن كلاً منها كانت تمارس العبادات الخاصة بإلهها الرئيسي، وتحظى بسماتها الخاصة الذاتية. ومع ذلك، فقد كانت هناك هوية جماعية مشتركة توجد فيما بينها جميعًا. ولا

شك أن المبرر الأساسي لتلك المشاعر والهوية المشتركة، كان : الموقع الجغرافي والنزعة الزراعية المتعمقة. فها هنا وادٍ مترامي الأطراف، قد لا يقل مداه عن ثلاثين كيلومتراً من الشرق إلى الغرب؛ ومن الممكن أن يوصف بأنه «مستودع غلال» بكل ما تدل عليه الكلمة من معنى. كما أن كافة المؤسسات بكل من تلك المناطق كانت تمتلك مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية. ولا شك أن همزة الوصل التي كانت تجمع ما بين مختلف تلك المناطق، هو أحد فروع النيل : «بحر يوسف» الحالي. وهو يتفرع من النيل عند ديروط، بشمال أسيوط. ويمتد حتى الهضبة الليبية بالفيوم. ولا ريب أن سكان كل هذه المنطقة كانوا يعيشون في خوف وهلع دائم من الغزوات الليبية الخاطفة. وبهذا، ولدرء هذا الخطر، أقيمت، على الضفة الغربية للنيل، عند حدود الفيوم، عدة قلاع حصينة، والعديد من المستوطنات العسكرية. بل وشيدت خلال عهد رمسيس الثالث، بعض الساحات الدفاعية حول معابد : أبيدوس، وثني، وأسيوط، والأشمونين.

أبيدوس وثني

تعد أبيدوس أهم وأكبر مدينة، في نطاق منطقة مصر الوسطى. إنها مدينة أوزوريس المقدسة، التي تتجمع أنحاؤها وجوانبها حول معبد هذا الإله، «بكوم السلطان». ولا شك أن كل مصري بداية من الفرعون وحتى أبسط المواطنين، كان يرغب في أن يشيد بجواره معبدًا أو مقصورة أو حتى أن يقيم لوحة بسيطة. إن المصريين يأملون بذلك، في أنهم، بعد وفاتهم، سوف يشاركون إلى الأبد، في المراسم السرية الغامضة، التي تحيي كل عام، في الشهر الرابع من فصل الآخت، بالمكان الذي يقع ما بين «مقبرة أوزوريس، ومعبده»، - أي بالجبانة العريقة القدم المعروفة باسم «أم العقاب»، ذكرى موت وبعث هذا الإله.

وخلال عهد رمسيس الثالث كان هذا المعبد يقع تحت إدارة وهيمنة الكاهن الأكبر المدعو حوري، الذي ورّث وظيفته، من بعده، إلى ابنه جحوتي مس(٣٨٨). وفي نطاق هذا المعبد كانت تمارس عبادة إيزيس وحورس. كما حظي هو أيضًا بقدر فائق من اهتمام رمسيس الثالث وعنايته(٣٨٩). فلقد أمر الملك بأن تقام حول هذا المعبد ساحة محصنة منيعة مثل التي أقيمت في مدينة هابو. وعمل غلى أن تتم في أنحائه عدة إصلاحات وترميمات. وكرس له الكثير من الخدم والعاملين، بالإضافة إلى مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية، (فخلال عهد رمسيس الخامس، كان هذا المعبد يحصل

خريطة أبيدوس (العرابة المدفونة)

على كميات ضخمة من الغلال من بعض الأملاك التابعة لمدينة هابو(٣٩٠) فى مصر الوسطى) . كما كرس رمسيس الثالث له تمثالاً يمثله وهو يقدم بعض القرابين. وكذلك، وهبه عدداً كبيراً من الأثاث الشعائرى. بل وصنع من أجله أيضاً نسخة جديدة من القارب المقدس، المعروف باسم «نشمت»، للاستعانة به خلال المواكب الخاصة بالآلهة. وفى إطار نفس الموقع عمل الفرعون أيضًا، على إصلاح وترميم بعض النصب والمعابد الخاصة بأجداده العظام. وهناك، ترك بعض الخراطيش التى تحمل اسمه على جدران صروح وأبواب المعابد الخاصة بسيتى الأول ورمسيس الثانى(٣٩١). وأخيراً، وفى المكان الذى يقع ما بين هذه المعابد وبين معبد أوزوريس، شيد رمسيس الثالث مقصورة لعبادة أبيه ست نخت وأمه «مر إن إست» (الفصل الأول – ٣). وهناك، أقام أيضاً معبده الجنازى الخاص : «قصر رمسيس حقًا إيونو فى أملاك أوزوريس، رب أبيدوس». وكرس له ما لا يقل عن سبعمائة عامل. وللأسف، لم تتبق من معظم هذه الإنجازات أية آثار.

خريطة مصر الوسطى

على بعد عدة كيلومترات من شمال أبيدوس، وعلى مقربة من جرجا أو البربرة، تقع مدينة ثنى. إنها مدينة الإله «أنوريس شو». وكانت تعتبر، منذ بداية التاريخ المصرى القديم، بمثابة منبت الفراعنة الأوائل. وفى إطار هذا الموقع أيضاً لم يكن من الصعب مطلقاً الإحساس بثقل نفوذ طيبة القوى. وبهذا، لوحظ، أن بعض كبار موظفى «أملاك آمون» قد لجأوا إلى الارتباط ببعض العائلات المحلية الكبرى فى هذا المكان. وهكذا، نجد أن إحدى السيدات تدعى تاميت، أى «القطة»، ابنة الكاهن الأكبر المحلى ويدعى سا إست من زوجته تاونش، أى «الذئبة»، وهى رئيسة حريم أنوريس، قد أصبحت زوجة لأمنمؤبى، ابن ثالث أنبياء آمون المدعو تانفر والذى أصبح بعد ذلك النبى الأول «للإلهة موت»(٣٩٢). ولقد وهب رمسيس الثالث لأملاك أنوريس، ما لا يقل عن مائة وستين عاملاً. وأمر بأن تشيد حولها، من أجل حمايتها من الغزوات الليبية، ساحة محصنة منيعة، شبيهة بالتى أقيمت فى أبيدوس، ومدينة هابو. بل وكرس لها الكثير من القرابين والخيرات والمنح. وأقام هناك أيضاً، معبداً صغيراً من الحجر الجيرى، هو: «قصر رمسيس حقاً إيونو الذى يصدر الأحكام، فى ممتلكات أنوريس». وخصص له، حوالى خمسمائة عامل وخادم. وربما يدل اسم هذا الصرح، الذى لم يتبق منه أى أثر، على أنه كان يتضمن تمثالاً للملك يمثله وهو يصدر بعض الأحكام المنبثقة من الوحى(٣٩٣). ووفقاً لما تذكره «بردية ويلبور» تبين: أن تلك الأملاك تحظى أيضاً ببعض الأراضى الزراعية فى مصر الوسطى؛ بل وكانت تتلقى كذلك بعضاً من منتجات مدينة هابو(٣٩٤).

أخميم وأسيوط

بمحاذاة نهر النيل، وبعد مدينة «ثنى»، تقع قرية نشيت (المنشية)، حيث كان يوجد معبد للإله سوبك الذى، كرس رمسيس الثالث لخدمته والعناية به حوالى اثنين وعشرين فرداً(٣٩٥). وفى نفس هذا المكان، كانت تقع ضواحى «إبو الجنوبية»، أى «أخميم» الحالية. وكانت تعد بمثابة العاصمة الإقليمية للجزء الجنوبى من مصر الوسطى، والتى ما زال اسمها يتضمن حتى الآن عبادة الإله «مين». ولقد كرس الملك ثمانية وثلاثين خادماً من أجل الإله «مين» والإله حورس والإلهة إيزيس باعتبارهم الثالوث المحلى المقدس. وأقام هناك معبداً باسم: «قصر رمسيس حقا إيونو فى

ممتلكات» مين «رب «إبو»». ووهبه ما لا يقل عن مئتى عامل وخادم. وعرفاناً منه بما أداه له من خدمات جليلة أثناء حروبه، عين الملك لإدارة هذا المعبد قائداً متقاعداً، يدعى إين إس حفنو؛ بل وأوكل إليه أيضاً بمهمة إدارة إحدى المؤسسات الملكية فى أسيوط(٣٩٦). ولقد استخرجت الأحجار اللازمة من أجل تشييد هذا المعبد، الذى لم يتبق منه شىء الآن، من بعض المحاجر الواقعة فى النواحى النائية بالمدينة على ضفة النيل الشرقية. وعلى بعد حوالى ثلاثين كيلومتراً شمالاً، على مقربة من قرية «الخازندارية»، عند الجرف المطل على النيل بهذا الموقع، أقام الملك لوحة ضخمة من الحجر الصوان (سبعة أمتار طولاً وعشرة أمتار عرضاً)(٣٩٧). ونقش عليها الفرعون واقفاً بين ست وحورس نمتى، وآلهة المدينة المجاورة لـ «ثبو» (قرية قاو الكبير حالياً)، حيث كرس من أجلهم حوالى ثمانية وثلاثين خادماً وعاملاً(٣٩٨). وعلى جانبى هذه اللوحة العملاقة نجد خرطوشين كبيرين. ولا تختلف هذه اللوحة عن تلك التى كان الملك قد أمر بنقشها قريباً من «جبل السلسلة»، عندما بعث بحملة لجلب الأحجار لتشييد مدينة هابو (الفصل الثالث – ١). بل إنها تتشابه أيضاً باللوحة التى أمر بإقامتها، بعد ذلك، على مقربة من بعض المحاجر الأخرى فى منطقة مصر الوسطى (ينظر لاحقًا). ومن منطلق هذه اللوحة العملاقة، سميت إحدى القرى المجاورة لها باسم «حوتريباأوج»، أى «القصر القائم بجوار اللوحة». وعند أطراف هذه القرية كانت تقع العديد من الممتلكات الزراعية، المتضمنة فى «أملاك آمون»، وكان قد أنشأها كل من ست نخت ورمسيس الثالث. وفى إطارها، كانت قد أُقيمت إحدى المستعمرات الإصلاحية وبعض المزارع التى يقوم الأسرى الشرادنة بفلاحتها وزراعتها، لسد احتياجات كتيبة الجيش(٣٩٩).

لقد وفرت محاجر الخازندارية الأحجار اللازمة من أجل بناء معبد رمسيس الثالث بأخميم. بل وقدمت أيضاً، خلال فترة حكمه، أحجارها لبناء معبدين آخرين فى أسيوط. ولقد كرس الملك كذلك سبعة عشر عاملاً وخادماً للمعبد المحلى الخاص بالإله «خنوم»، بإحدى الضواحى القريبة المعروفة باسم «شاسى حتب» الواقعة جنوب أسيوط. والجدير بالذكر أن «خنوم»، قد اعتبر خلال العصور الرومانية اليونانية الخالق للحيوانات(٤٠٠). ومما يثير العجب حقاً، أن إحدى المقابر الواقعة فى «دير رفعة»، وهى

جبانة هذه المنطقة، والخاصة بأحد كبار موظفى الدولة، ويدعى «خنوم معا»، وترجع إلى الدولة الوسطى، قد زينت جدرانها بمناظر تمثل تقديم القرابين باسم الملك. بل ولقد حولت هذه المقبرة إلى مقصورة من اجل الإله تحوت(٤٠١).

ومثلما هى عليه الآن، كانت أسيوط(٤٠٢) تعتبر بمثابة أكبر مدن مصر العليا. وفى نطاقها، عمل رمسيس الثالث على إصلاح وتجديد المركب التطوافى الخاصة بإله تلك المنطقة «أوبواووت»، «رب مصر العليا الذى يهيمن على القطرين». وأقام فى نفس الموقع مصنعًا لتحضير وتجهيز القرابين المقدسة. بل وأجرى بعض الإصلاحات والترميمات بمعبد هذا الإله. ومثلما فعل فى كل من أبيدوس وثنى، شيد حوله ساحة مماثلة لساحة مدينة هابو. والجدير بالذكر أن إحدى فقرات (بردية هاريس – ١) قد ذكرت أن الملك قد كرس «أعداداً لا تحصى ولا تعد» من الخدم، من أجل نفس هذا المعبد. ومع ذلك، فإن القوائم الاقتصادية الخاصة بهذه الوثيقة لم يسجل بها سوى «أربعة» أفراد فقط للعمل فى نطاقه. وبذا، نجد أن هذا المعبد، بالرغم من أهمية مكانة أسيوط لم يحظ إلا بعدد ضئيل جداً من العاملين الذين كان الملك يقدمهم للمعابد. ولكن الفرعون، بالرغم من ذلك، قد كرس حوالى (١٥٧) و (١٢٢) من العبيد للمعبدين الصغيرين اللذين أقامهما هناك وهما «قصر رمسيس حقا إيونو فى أملاك أوبواووت» الذى كان يقع تحت إشراف القائد المتقاعد المدعو «إين إس حفنو»، الذى سبق أن عرفنا أنه كان يدير أيضاً أحد معابد أخميم؛ ثم هناك أيضاً «قصر رمسيس حقا إيونو الذى يتجلى خلال عيد سد فى أملاك أوبواووت» والذى كان يديره قائد متقاعد آخر يدعى «جحوتى إم حب». وربما يشير اسم المعبد الثانى إلى ذكرى إنشائه بمناسبة اليوبيل الملكى (الفصل السادس – ١).

وفى نطاق مصر الوسطى نجد أن أوجه الأنشطة الإنشائية الخاصة برمسيس الثالث قد تثير بعض العجب والدهشة من ناحية الأماكن التى تتم بها. وبذلك، نرى أن الملك قد عمل على أن تنقش خراطيشه على مقصورة «معبد النهر» بالجهة المعروفة حالياً باسم «الحاج قنديل»، الواقعة جنوب تل العمارنة، عاصمة أخناتون القديمة، أى بشمال أسيوط، على الضفة الشرقية للنيل، أمام ديروط، بالموقع الذى يتفرع فيه بحر يوسف من نهر النيل. حقيقة أن ذلك المعبد كان لا يتسم مطلقاً بالسمات المطلوبة من أجل

ممارسة عبادة «آتون»، ولكنه لم يتوقف مطلقاً عن الخدمة الأساسية المعتادة التى كان قد أنشئ من أجلها، خلال فترة حكم أخناتون «صاحب البدعة الدينية»، من الأسرة الثامنة عشرة. بل واستمر أيضاً فى أدائه حتى العصر الصاوى(٤٠٣).

من هرموبوليس إلى محاجر السريرية

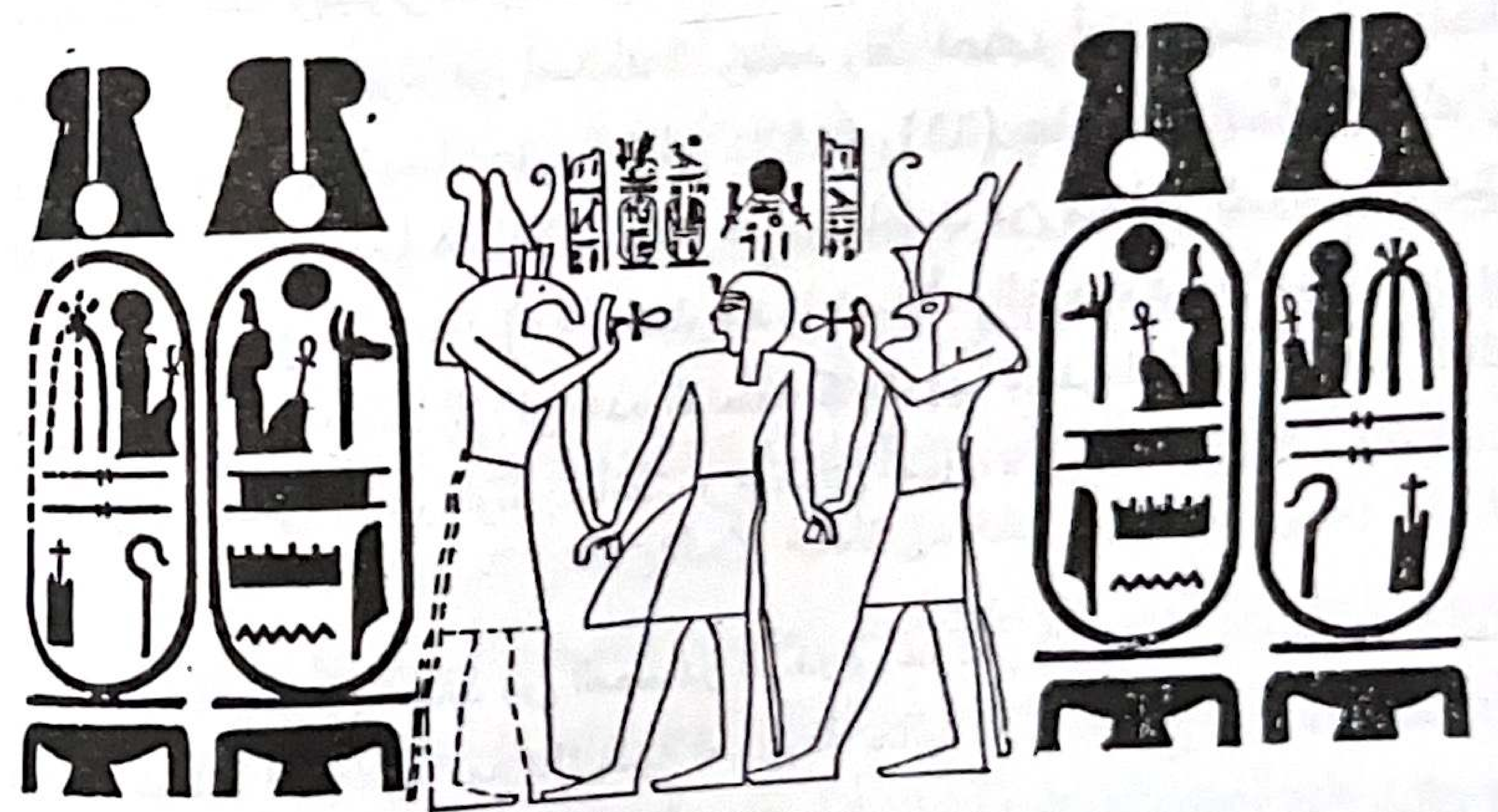
على بعد حوالى خمسة عشر كيلومتراً شمالاً، وعلى الضفة الأخرى للنيل، تقع «خمنو»، المعروفة حاليًا باسم «الأشمونين(٤٠٤)، مدينة الإلة تحوت؛ والتى كان الرومانيون يطلقون عليها اسم : هرموبوليس. ومثلها مثل العديد من المدن الأخرى بمصر الوسطى، كانت بالرغم من قداستها الواضحة، تعانى من الهجمات الليبية الخاطفة.

ولذلك، فقد عمل رمسيس الثالث على إحاطة معبدها، مثلما فعل بمعابد ثنى، وأبيدوس وأسيوط، بساحة حصينة تتشابه بساحة مدينة هابو المحصنة. وتشير إحدى اللوحات التى عثر عليها فى هذا الموقع، إلى هذا الإنشاء(٤٠٥). ومن أجل الإله، وإقامة شعائره، كرس الملك الكثير من القرابين، وأنشأ العديد من المصانع الصغيرة، وأحيا المزيد من الأعياد، وقدم ما لا يقل عن خمسمائة عامل وخادم لأملاكه. وخلاف ذلك، كانت بعض الأراضى التابعة لمدينة هابو، تقوم بإمداد هذا المعبد بما يلزمه من مؤن وضروريات؛ بل واستمر ذلك حتى عهد رمسيس الخامس(٤٠٦). وبالإضافة لذلك، وبجوار معبد تحوت، شيد الملك معبدين صغيرين هما : «قصر وبيت رمسيس حقا أيونو فى أملاك تحوت». ولقد اعتبر أولهما بمثابة استراحة. وكرس من أجل كل منهما، على التوالى : (٨٩) و(٦٦) عاملاً وخادماً. ولا شك أن الأحجار التى شيدت بها هذه الإنشاءات قد استخلصت من محاجر السريرية (ينظر لاحقًا)، التى تقع على بعد (٥٠) كيلو مترا شمالاً. والغريب فى الأمر أن «بردية هاريس –١ لم تشر مطلقًا إلى أن هذه المنطقة كانت بها مستوطنة زراعية أمر الملك بتأسيسها، وتسمى : «ناى أوسر ماعت رع مرى آمون»، أى «التابعين لأوسر ماعت رع مرى آمون».

وعلى ما يبدو أن العديد من المصادر الأخرى قد ذكرت ذلك. وبالتحديد، كانت هذه المستوطنة الزراعية تقع بالناحية المعروفة حاليًا باسم «الشيخ عبادة» (أنطونيو بوليس)، بمواجهة هرموبوليس،على الضفة الشرقية لنهر النيل. وهناك، كان الملك قد عمل على نقش خراطيشه فوق جدران أحد المعابد الثانوية الخاصة بالإله تحوت، التى

ترجع إلى عهد رمسيس الثانى(٤٠٧) . وهنا، تجدر الإشارة أيضاً إلى «مرى باستت»، المشرف العام على مدينة هابو والجد الأكبر لسلالة كبيرة ممن حملوا لقب «النبى الأول للإله آمون»: كان، فى بداية حياته الوظيفية قد شغل منصب حاكم هذه المنطقة، حيث أقام مقبرة خاصة له. وبهذا، نجد، أنه ضمن ما كان يحمله من ألقاب عديدة، قد حمل أيضاً لقب : «مدير عام الكهنة التابعين لجميع آلهة «أونت» (اسم إقليم هرموبوليس) . وتقليداً كان حكام هذه المنطقة يزهون ويتفاخرون(٤٠٨) بهذا اللقب.

وعند أطراف هرموبوليس، ومن أجل معابد بعض القرى الثانوية، الواقعة ما بين النيل وبحر يوسف، قدم رمسيس الثالث بعض المنح والهبات. وبهذا، فقد منح لمعبد خنوم، رب حوت ورت(٤٠٩)، حوالى ثلاثين عاملاً وخادماً؛ كما كرس ما لا يقل عن أربعين عاملاً لمعبد آمون إيوروج(٤١٠) (النهالة حالياً) . ووهب أكثر من ثلاثين عاملاً لمعبد تحوت رب با وجى(٤١١) (طهناشا حالياً ؟)؛ ثم قدم أيضاً، ما لا يقل عن ثمانية وثلاثين خادماً لمعبد «سوبك» رب «أناشا» المعروفة حالياً باسم نزلة العمودين(٤١٢) . ولقد حظى الإله «سوبك» بأهمية كبرى فى هذه المنطقة، وبالتالى، كرست له مساحات شاسعة من الأملاك الزراعية، خصصها من أجله، على التوالى، كل من ست نخت ورمسيس الثالث(٤١٣) . بل ومثل سوبك أيضاً فوق لوحتين من الحجر الصوان، أقامهما الملك فى موقعين متجاورين، على الضفة الشرقية للنيل.



لوحة حجرية «بالخازندارية».

بجانب إحدى الهضاب الصحراوية التى تبدو قمتها على شكل رأس ضخم لأبى الهول، تقع أولى مناطق هذا الموقع؛ إنها «طهنا»، التى تتضمن معبداً، لأحد تجليات آمون التى يتطابق اسمها بالسمات الجغرافية الواضحة لهذا المكان : «آمون، الأسد فوق القمة». ولقد كرس رمسيس الثالث من أجله حوالى أربعة وأربعين عاملاً، وأتم به بعض الإصلاحات، حيث يتراءى تمثال باسمه ممثلاً لأبى الهول(٤١٤) .وفى الناحية الجنوبية من هذا المكان، أقيمت لوحة من الحجر الصوان، أحيطت من كلا جانبيها بأشكال لخراطيشه. ولقد حفرت هذه اللوحة على ارتفاع حوالى أربعين متراً من جانب الجرف المشرف على الوادى. وهى تمثل الملك واقفاً فيما بين آمون الإله المحلى وسوبك(٤١٥) رب أناشا. ولا شك أن تلك اللوحة تتماثل مع مثيلتها القائمة فى «جبل السلسلة» وفى «الخازندارية» ولذا، ربما ترتبط هى أيضاً بعمليات استخلاص الحجارة، خلال فترة الحكم، من المحاجر الواقعة فى أطراف هذا المكان.

وقد تبدو هذه المحاجر ضئيلة الشأن، ولا تتسم إلا بأهمية محلية بحتة، ولكن، لا شك أن محاجر «البابين» الواقعة بجوار السريرية، على بعد حوالى عشرة كيلو مترات شمالاً، كانت تختلف عنها تماماً. فهى لا تقل فى اتساع مداها عن محاجر «جبل السلسلة»، وتعمل مثلها بدون توقف. ولقد استمد اسمها، «البابين» من اللغة العربية؛ فإن مدخلها يبدو وكأنه بابان مزدوجان. وفى النتوء الصخرى الذى يمثل قاعدة هذا المدخل، كان مرنبتاح قد أمر بحفر معبد صغير «سبيوس» فى الصخر، يتكون من قاعة مستطيلة بسيطة المظهر ذات سقف مقوس(٤١٦) . وفى داخلها، تبدو ثلاثة تماثيل ضخمة نحتت فى نفس الكتلة الصخرية، تمثل هذا الملك بين حتحور ربة عاخوى (اسم هذه المنطقة)، وبين إله دمرت ملامحه، ربما كان حرى شف رب هرقليوبوليس. ولقد مثل هذان الإلهان أيضاً من خلال مناظر تقديم القرابين التى تزين جدران هذا «المعبد الكهف»، بمصاحبة «أنوريس – ش»و رب ثنى، «وأوزيريس» رب أبيدوس، وآمون رب طيبة، وأنوبيس رب حرداى، «وبتاح الذى حقق النصر ضد الليبيين»، إيماء إلى المعركة التى كان قد شنها مرنبتاح على الليبيين، فى العام الرابع من حكمه (الفصل الرابع – ٢) . وقد لا يوجد أى مبرر دينى لتمثيل كل هؤلاء الآلهة معاً فى هذا المكان، ولكن لا ريب أن السبب الوحيد لذلك، هو معرفة الأماكن

التى استعملت بها أحجار هذا الموقع، خلال حكم مرنبتاح. وعلى ما يبدو أن رمسيس الثالث لم يقدم أية هبات أو منح لهذا المعبد، الذى كان ما يزال يعمل خلال فترة حكمه(٤١٧). ولكنه أمر بنحت تمثال له، على واجهته الخارجية، مواجهة للنيل، حيث يبدو ماثلاً بين حتحور وأخوى وسوبك أناشا، فوق لوحة من الحجر الصوان شبيهة بلوحات «جبل السلسلة»، و«الخازندارية»، و«طهنا»(٤١٨). وربما استعان الملك ببعض المحاجر المجاورة لهذا المكان من أجل إنشاء معابده فى هرموبوليس وفى أسيوط.

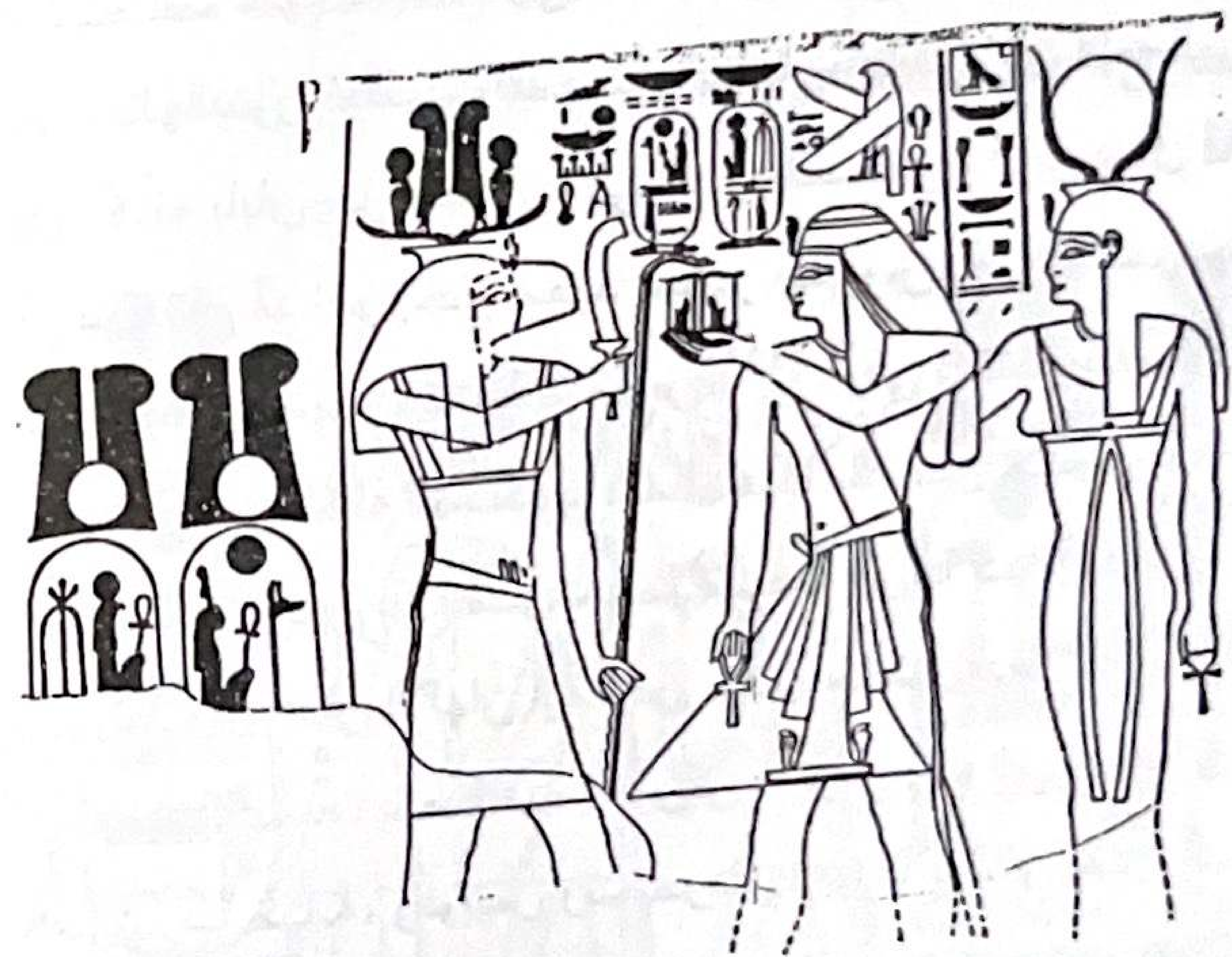
حرادى إلى ضواحى منف

على بعد حوالى (٢٠) كيلو متراً جنوبياً، بجوار «الشيخ الفضل»، وأمام «بنى مزار»، على الضفة الشرقية للنيل، تقع مدينة حرادى. إنها بمثابة مركز لعبادة الإله أنوبيس، حيث كرس رمسيس الثالث من أجل معبده هناك ما لا يقل عن ثمانية وسبعين عاملاً وخادماً(٤١٩)؛ وفى نفس الوقت، خصص بها بعض الأراضى الزراعية «لعبادة تمثال لأبيه ست نخت فى «من عنخ»، عند أطراف «سمالوط»، فى مواجهة السريرية (الفصل الأول -٣). وفى نفس الحين، وبالناحية الأخرى من الوادى، على الضفة الغربية لبحر يوسف، فيما بين البهنسا وهرقليوبوليس، كرس الملك حوالى مائة عامل وخادم لمعبد الإله ست سبرمرو.

والجدير بالذكر، أن نفس هذا المعبد، كان يحظى، خلال عهد رمسيس الخامس، ببعض المنتجات التى كانت تقدمها أحد أملاك مدينة هابو(٤٢٠). وفى أقصى الشمال، وعلى مقربة من الفيوم، كانت تقع بعد ذلك مدينة أخرى كبرى، هى: «حوت نن نسو»، التى تعرف حالياً باسم أهناسيا (هرقليوبوليس)؛ وكانت تعتبر كعاصمة لمصر خلال عصر الانتقال الأول، وحيث انبثقت منها العائلة الملكية بالأسرة الثانية والعشرين. إنها مدينة الإله «حرى شف، ملك القطرين». وكانت تعتبر، بشكل ما بمثابة المركز الإدارى «للمنطقة العسكرية» التى كانت تقوم بحماية هذا الجزء من أراضى وادى النيل من خطر الهجوم الليبى. ولم يقدم رمسيس الثالث للمعبد المحلى بهذه المدينة سوى مائة عامل(٤٢١). ولعلنا نذكر، أنه كان قد أقام تمثالاً له بالمعبد الخاص بالقلعة القريبة من «مرمى شا إف»، وعهد بإدارة أملاكه المقدسة(٤٢٢) لقائد



لوحة حجرية بطهنا



لوحة حجرية «باليابين»

المرتزقة المدعو «آمون خعو» الذى كان يرأس هذه القلعة (الفصل الثانى -٣؛ الفصل الرابع- ١) . ولقد أقر بوجود هذه المنشاة، حتى عصر رمسيس الخامس، من خلال «بردية ويلبور» . ونتبين أيضاً وجود، العديد من أماكن العبادات الأخرى بهذه المنطقة.

فى شمال هرقليوبوليس، ينحرف بحر يوسف ناحية الشمال الغربى، ثم يتجه فى هيئة مضيق طبيعى ليصل إلى الفيوم. وعند مدخل هذا المضيق، وعلى ضفته الجنوبية، حيث كان ملوك الأسرة الثانية عشرة قد أقاموا هاويسا من أجل تنظيم سير السفن، نجد أن ملوك الأسرة الثامنة عشرة قد شيدوا، فى «كوم مدينة غراب»، مقراً أطلق عليه اسم «مر-ور»، أى «القنال الكبير». ومن نفس هذا الاسم اشتق الاسم الرومانى «موريس» الذى أطلق على نهر الفيوم. وكان ذاك المقر يقع فى مواجهة هرم ومدينة سنوسرت الثانى فى اللاهون التى يتراءى من خلالها اسم آخر عريق القدم هو: لاهونى، أى «مدخل البحيرة». وعلى ما يبدو أن ذاك المقر قد استخدم حتى عهد الأسرة العشرين. ولقد أقيم به حريم من أجل الملكات، وكذلك (٤٢٣) مرفأ ملكى، للملوك. وعلى مسافة غير بعيدة من هذا الموقع، يبدو أن رمسيس الثالث قد أنشأ مجمعاً ملكياً يحمل اسمه، وهو «بيت أوسر ماعت مرى آمون(٤٢٤)».

وفى نطاق الفيوم نفسها، وهب رمسيس الثالث أعداداً كبيرة من العمال والخدم. فلقد كرس حوالى مائة وخمسين عاملاً لأملاك الإله الرئيسى بتلك المنطقة، وهو الإله التمساح «سوبك رب شدت» (كركوديلوبوليس) . ومازلت بعض آثار هذا الموقع قائمة حتى الآن فى «كيمان فارس» التى تقع جنوب مدينة الفيوم(٢٤٥) . وقدم أيضاً حوالى أربعين خادماً وعاملاً من أجل معبد ست «رب سو» وهو المكان المفترض أن هذا الإله قاتل أوزيريس قد ولد به؛ ولكن لم يحدد موقعه تحديداً دقيقاً(٤٢٦) . ثم منح لمعبد «آمون رع القائم بداخل المنطقة»، ما لا يقل عن ستين عاملاً؛ ولم يحدد بالضبط حتى الآن موقع هذا المعبد(٤٢٧) . وأمر الملك أيضاً أن ينقش باسمه منظر يمثل تقديم القرابين بمعبد الدولة الوسطى فى «مدينة ماضى»، بالطرف الجنوبى من الواحة(٤٢٨) .

وأخيراً، وفى نطاق أحد المواقع ما بين الفيوم والدلتا، وهب رمسيس الثالث ما لا يقل عن مائة عامل وخادم لأملاك حتحور ربة «أطفيح»، بالضفة الشرقية للنيل(٤٢٩) . كما قدم حوالى عشرين عاملاً لمعبد «موت» فى مدينة «عبوى نترو»، التى تقع

جنوب الجيزة(٤٣٠) . وبجوار هذه المدينة، كان الملك قد أنشأ من أجل بتاح، فى العام السادس من حكمه، ضيعة زراعية لا تقل مساحتها عن مائة أرورا(٤٣١) .

مصر السفلى

خلال الأسرة العشرين، وفى منطقة الدلتا، كان النيل يتفرع إلى ثلاثة أفرع رئيسية، هى : «مياه رع»، وهو الفرع الذى كانت تقع عليه كل من تل بسطه (بوباستس) وبى- رمسيس؛ ثم هناك أيضاً «النهر الكبير» الذى يتفرع من الفرع الأول فى منطقة أتريب، ويتجه نحو البحر الأبيض المتوسط ليربطه ببحيرة البرلس؛ وأخيراً، كان ثالث هذه الأفرع هو «نهر الغرب» وهو الفرع الكانوبى الذى يصب بالبحر ما بين بحيرات «إدكو» و «مريوط» . وعلى ضفاف الفرع الأول والثانى، أقيمت المراعى اللازمة من أجل قطعان مختلف مؤسسات طيبة التى كان قد أنشأها رمسيس الثالث؛ وأهمها مدينة هابو(٤٣٢) . وعلى ضفة الفرع الثالث، حيث كان «أمنمس» ابن «باويا»، قد أقام المعبد الجنازى للملك(٤٣٣)، وشيدت إحدى المدن حيث كانت توجد العديد من مزارع الكروم، التى تقدم منتجاتها للمعبد، وأيضاً «بيت أوسر ماعت رع مرى آمون على الضفة الغربية لنهر الغرب» .

والجدير بالذكر، أن رمسيس الثالث قد أقام عدة مقار له فى بى رمسيس وتل اليهودية (الفصل الثانى – ٣)، وأيضاً فى منطقة تل المقدام، حيث عثر على إحدى ركائز الأبواب الخاصة ببيت أحد رجال الدين أو بأحد الإداريين(٤٣٤) المحليين خلال فترة حكمه. ومع ذلك، فإن أوجه نشاط هذا الفرعون قد تركزت خاصة فى موقعين محددين : تل بسطة وأتريب. ففى تل بسطة(٤٣٥)، ومن أجل الربه باستت وسخمت، كرس الملك فى نطاق المعبد المحلى، بعض التماثيل التى تمثله؛ بالإضافة إلى إهدائه ما لا يقل عن (١٦٩) عاملاً وخادماً من أجل هذا المعبد، وكذلك قطيعاً ضخماً من المواشى والأغنام لا يقل عدد القائمين بخدمته عن (١٥٠٠) خادم.

ولعلنا نعلم أيضاً، أنه خلال حكم ست نخت ثم رمسيس الثالث، كانت تل بسطة تحظى بأهمية سياسية كبيرة. بل إن عدداً كبيراً من علية القوم وكبار موظفى الدولة قد نشأوا بها مثل نائبى الملك فى كوش حورى ابن كاماع وابنه حورى، الذى دفن

بها؛ واثنين من المتواطئين فى «مؤامرة الحريم»: الشعائرى «القومى» كبير الكهنة المحليين إيروى، وباى إرى «مدير الخزانة الملكية» الذى كان قد شارك فى تشييد معبد مدينة هابو؛ وكذلك المشرف بمدينة هابو المدعو مرى باستت، وهو جد لسلالة رفيعة من كبار كهنة طيبة.

والجدير بالذكر أن تل بسطة تعتبر، من الوجهة التاريخية بمثابة مسقط رأس حريحور النبى الأول لآمون، الذى كان فى واقع الأمر، الحاكم الفعلى لمصر العليا فى أواخر الأسرة العشرين. ومنها أيضاً، انحدر «سمندس» أحد أقربائه، الذى أسس الأسرة الحادية والعشرين. وأخيراً، وإبان عصر الانتقال الثالث، اعتبرت تل بسطه كمقر رسمى للأسرات الليبية الحاكمة.

ولا شك أن ملوك الأسرات الليبية، مثلهم كمثل حريحور وسمندس، قد انحدروا جميعاً من سلالة الأسرى الليبيين الذين كان رمسيس الثالث، بعد حروبه، قد عمل على إقامتهم بها واتخذهم كجند مرتزقة. (الفصل الرابع، ٦).

تحتل مدينة أتريب المعروفة حالياً باسم «بنها»(٤٣٦) موقعاً استراتيجياً هاماً فى وسط الدلتا. ومعنى اسمها باللغة المصرية القديمة: «قصر الوسط». ولا شك أن هذه المدينة قد عانت وقاست كثيراً من القلاقل والاضطرابات التى وقعت قبيل مجىء الأسرة العشرين؛ بخلاف المدن الأخرى الكبرى فى مصر الوسطى. ولذا، نجد أن رمسيس الثالث لم يكتف بأن يكرس للمعبد الرئيسى بهذه المدينة قرابين إلهية جديدة، وأن يهب لها من أملاكه قطيعاً ضخماً من المواشى والأغنام، بالإضافة إلى حوالى مائة عامل وخادم، وعدد كبير من أسرى الحرب، وكميات ضخمة من المنتجات القيمة. فهل تراه كان يكن ورعاً وتقديساً خاصاً لإلهها الرئيسى الصقر حورس خنتى شيتى؟!...

عموماً، لقد أمر بإصلاح وترميم هذا المعبد وتزيينه بنقوش بارزة جديدة. بل وعمل على حماية أملاكه من خلال إجراءات خاصة، لتصبح بمنأى عن تعديات المؤسسات الأخرى عليها، حيث كان ذلك من الأمور السائدة فى أواخر الأسرة التاسعة عشرة. وبأمر ملكى، استعاد كهنته استقلاليتهم الإدارية الكاملة. وضمن هؤلاء الكهنة يمكننا أن نذكر الكاهن المدعو حور محب(٤٣٧). أما ذاك المعبد فلم يتبق منه أية آثار.

وكان العاملون به، خلال فترة ما، قد وزعوا على مختلف المؤسسات الأخرى، فأعيد تجميعهم وإعادتهم إليه من جديد؛(٤٣٨) وكرسوا من أجل خدمته فقط.

٦ - ثلاث حملات

من أجل سد احتياجات شعائر وطقوس المصريين، وحرفهم اليدوية، وأعمالهم المعمارية، فإنهم كانوا يضطرون إلى الحصول من البلاد الأجنبية، على عدد كبير من المواد التى لا تنتج فى مصر، أو التى تنتج بها بكميات ضئيلة، مثل: أخشاب الأرز من لبنان، والنحاس وأحجار الفيروز من آسيا وسيناء، والمر والصبر من شرق أفريقيا. وفى إطار مصر القديمة، لم يكن يعرف بعد ما يسمى حالياً «بالتجارة الحرة». فإن بنية المجتمع المصرى لم تكن تسمح بمثل تلك الممارسة. وبذا، فمن أجل الحصول على مثل هذه المنتجات، كان الفراعنة يعملون على تنظيم وإرسال الحملات إلى تلك البلاد المنتجة لها، لجلبها إلى مصر.

وفى الفترة التى أعقبت المعارك الحربية، استطاع رمسيس الثالث، بمثل هذه الوسيلة أن يحصل على ما يحتاجه من أخشاب. وإبان العام العشرين من حكمه، عاود إرسال الحملات من أجل ذلك مرة أخرى (٤٣٩).

حملة بونت(٤٤٠)

على ما يبدو أن الفراعنة كانوا مولعين بالمنتجات التى قد نسميها نحن حالياً «بالمستوردة». وكان البعض من هذه المنتجات يستورد من النوبة أو من بعض البلاد الأخرى، التى ترتبط مع مصر بعلاقات اقتصادية وثيقة. ولكن، هناك مواد أخرى، كتلك التى كانت تستعمل بكميات ضخمة من أجل الطقوس، مثل المر والصبر، ويتم الحصول عليها من بلاد تكاد تكون شبه - خيالية، ألا وهى «بلاد بونت». وهى تقع على سواحل البحر الأحمر، ولكنها تبعد بمسافات شاسعة عن مصر، ناحية الجنوب. وإبان العصور المزدهرة المتألقة من تاريخهم، كان الملوك الفراعنة يبعثون إلى بلاد بونت بحملات ضخمة. وأوضح مثال على ذلك هى الحملة التى كانت قد أرسلتها الملكة حتشبسوت فى عصر الأسرة الثامنة عشرة، والتى أحيت ذكراها بكل مظاهر العظمة وبأدق التفاصيل فوق جدران معبدها الجنازى بالدير البحرى.

وكإضافة لأمجاده وإنجازاته العظيمة، أمر رمسيس الثالث فى حوالى العام العشرين من حكمه، بتجهيز العديد من السفن؛ وحشدها بأعداد ضخمة من الملاحين والجنود. وشحنت هذه السفن بكميات هائلة من المنتجات المصرية، سواء من أجل تموين هذه الأطقم الضخمة من الملاحين العاملين بها، أو للمقايضة بها، مع مواطنى «بلاد بونت»، عند الوصول إليها، للحصول على منتجاتهم المرغوبة. وعلى ما يبدو أن السفن المصرية قد أقلعت من أحد سواحل السويس، فى الفترة الواقعة ما بين شهرى يونيه وسبتمبر، أى فى الفترة التى تكون فيها الرياح مواتية فى البحر الأحمر. وأبحرت هذه السفن من ناحية الشمال متجهة إلى الجنوب. واستمرت الرحلة فى سلام وأمان عبر مياه «بحر مو قد الكبير» (البحر الأحمر). ووصلت إلى غايتها، بدون أية أخطار أو عراقيل بعد سفر استمر، على ما يبدو، حوالى ستة أسابيع (٤٤١). ومن خلال دراسة حديثة لخط سير هذه الرحلة، يتبين أن غايتها النهائية كانت منطقة «سواكن» على ساحل السودان الحالية فلقد استطاعت الأبحاث الحديثة أن تحدد مكان بلاد بونت، فى نفس أراضى السودان، فى موقع ما بين النيل غرباً والبحر الأحمر شرقاً، بمنطقة تقع فيما بين بربر شمالاً وروزيير جنوباً(٤٤٢).

وعلى غرار السفن الرومانية، كانت السفن المصرية، تجهز، وفقاً «للأسلوب القديم»، بشراع مستطيل الشكل لا يساعد على السير فى مواجهة الريح الشديدة. وبهذا، فإن الحملة إذا كانت قد وصلت إلى بونت فى بداية شهر يوليه فمما لا شك فيه أنها لم تكن لتستطيع العودة قبل شهر أكتوبر. ففى هذا الشهر، تبدأ الرياح الشمالية بالبحر الأحمر فى الاعتدال؛ وبالتالى، تسمح لمثل تلك السفن المجهزة بذاك الأسلوب، بالاتجاه من الجنوب إلى الشمال. وهكذا، كان أمام مبعوثى رمسيس الثالث إلى «بلاد بونت» فترة لا تقل عن شهرين كاملين من أجل إتمام عملياتهم التجارية مع سكان هذه البلاد، وأيضًا، للحصول على المنتجات التى يرغبونها : المر والصبر، والبخور، واللبان العربى والصمغ، بالإضافة إلى بعض المنتجات الزراعية النادرة. وبالفعل، فقد أحضر من هناك حوالى مائة نوع من الحبوب الزراعية، وخمسة عشر شتلة من أشجار المر والصبر(٤٤٣) من أجل استزراعها بمصر. ولقد استعين ببعض هذه الأصناف النادرة خلال فترة الحكم، لتزيين «المعبد» الخاص ببتاح فى منف (لاحقاً -٤). ويقول علماء

النبات الحاليون : إن المناخ بمصر يختلف تمامًا عما هو عليه فى «بلاد بونت»، وبالتالى، فإن مثل هذا المشروع لم يلق النجاح الكامل المرتقب.

والجدير بالذكر هنا، أن الأيدلوجية المصرية كانت تنظر للعلاقات الدبلوماسية أو الاقتصادية مع الدول الأجنبية، باعتبارها بعض مظاهر الولاء والإخلاص من جانب هذه الدول إزاء الملكية المصرية القائمة. ومن هذا المنطلق، كانت تقام الاحتفالات الكبرى أسفل «شرفة التجليات» بمختلف قصور الفرعون. وهناك، كان يمر أمامه مختلف أعضاء الوفود الأجنبية، وهم محملون بمنتجات بلادهم، ويخرون ساجدين أمامه تبجيلاً ورهبة. بل ويمثلون عملية تقديم الهدايا إليه، وكأنها «إتاوة» أو «جزية»، ويحاولون من خلالها كسب رضائه ورحمته. ولذا، نجد أن مبعوثى رمسيس الثالث، عند مغادرتهم بونت قد اصطحبوا معهم فوق سفنهم وفداً من أبناء الأمراء المحليين بهذه البلاد من أجل أن يمثلوا فى مثل هذه المشاهد.

وفى طريق العودة، أبحرت السفن المصرية حتى منطقة القصير فقط، على سواحل البحر الأحمر المصرية. والجدير بالذكر، أنه على شمال ذاك الموقع، بمنطقة تعرف باسم مرسى جواسيس، كان قد أقيم، منذ عهد الدولة الوسطى، ميناء مصرى يعرف باسم ساوو. وتوقفت عنده سفن هذه الحملة(٤٤٤)، وأفرغت من حمولتها. وبعد ذلك، حملت تلك البضائع فوق ظهور الحمير ومجموعة كبيرة من العتالين والحمالين، وأرسلت إلى «قفط»، حيث تم تحميل البضائع الواردة من «بونت» فوق بعض السفن النهرية، التى اندفعت بمساعدة التيار الجارف حتى وصلت فى وقت وجيز إلى بر – رمسيس. وهناك، قام أبناء أمراء بونت الوافدون مع الحملة بتقديم تلك الهدايا النادرة إلى الفرعون. وبالقطع، لم يكن من المستطاع إرجاع هؤلاء الأبناء إلى وطنهم البعيد المدى؛ وبالتالى؛ ظلوا طوال حياتهم بمصر. فعمل البعض منهم كخدم للإله آمون وألحق البعض الآخر بالحرس الملكى(٤٤٥).

الحملة إلى تيمناع (٤٤٦)

على بعد حوالى (٣٠) كيلو متراً شمال «إيلات»، وفى نطاق موقع المدينة العريقة القدم «إيدوم»، وعند المنحدر الغربى لجبل «العرابة»، يقع منخفض صحراوى لا يقل

محيطه عن خمسة كيلو مترات، تحيط به صخور شديدة الانحدار وتتسم بالوعورة الفائقة. وهناك، عند إحدى الهضاب ذات الجوانب العمودية، التى عرفت لذلك، وبسبب بعض الإيماءات بالتوراة، باسم «أعمدة سليمان» «يقع جبل عتاقة،(٤٤٧) المعروف حالياً باسم «تيمناع». ويبدو أن الجبال والصخور المحيطة بهذا الموقع، تمتلئ بمناجم النحاس التى كانت تستغل منذ القرن الرابع قبل الميلاد. وكانت القبائل والعشائر المقيمة به وقتئذٍ تستغله إلى أقصى مدى. بل ولقد قدمت «لسليمان» كميات هائلة من هذا المعدن، استعملت فى بناء معبد القدس وفى صناعة أثاثه الشعائرى(٤٤٨)، وفقاً لما ذكرته التوراة.

ولقد علم المصريون بوجود معدن النحاس فى تيمناع Timna منذ بداية الأسرة التاسعة عشرة. ولا شك أن هذا المعدن كان يعتبر ذا أهمية قصوى لهم، خاصة أن أراضى مصر لم تكن تتضمن الكثير من مناجم النحاس؛ وفى ذات الحين، كان جزء كبير من أساليبها الفنية وصناعتها اليدوية يعتمد على استعماله. ومن هذا المنطلق، اهتموا باستغلال مناجمه بصفة مستمرة ومنتظمة، بداية من حكم رمسيس الثانى على وجه الخصوص. وربما أن الحملة العسكرية التى قادها هذا الفرعون و ابنه الأكبر آمون خبش، حوالى العام السابع من حكمه ضد مدينة «إيدوم»، حيث تقع «تيمناع»، وضد مدينة مؤاب(٤٤٩)، فى أقصى الشرق، كانت تهدف، ضمن أهدافها العديدة، إلى قمع هذه المنطقة و السيطرة عليها، من أجل سهولة عملية استغلال مناجم النحاس بها.

وبمساعدة الأهالى المحليين بتلك المنطقة، استطاع خبراء ورجال المناجم المصريون أن يعملوا، على مدى سنوات عديدة، فى استخراج معدن النحاس من تيمناع. وبهذا، فقد قاموا بحفر سلسلة من السراديب العميقة الضخمة بداخل الصخور التى تحيط بذاك الموقع. وتم أيضاً تجهيز ساحات شاسعة، أقيمت بها العديد من المبانى الحجرية بجوار موقع الحفر، لإقامة ومعيشة العاملين به. وتضمنت هذه المساحات الهائلة، مخازن ضخمة لتخزين وتنقية معدن النحاس من الشوائب، حيث كان يحول هناك إلى سبائك بسيطة، قبل إرساله إلى مصر. وفى نطاق تلك المعسكرات الشاسعة المدى، أقيمت بعض المعابد الصغيرة من أجل المواطنين الأصليين بهذا المكان لكى يتمكنوا من عبادة آلهتهم. أما المصريون، فقد أقاموا، من

ناحيتهم عند سفح، «أعمدة سليمان»، معبداً صغيراً للإلهة حتحور، راعية رجال المناجم المصريين فى الأراضى الأجنبية.

ويبدو أن الفوضى والقلاقل التى اتسمت بها أواخر الأسرة التاسعة عشرة قد عملت على بطء سير تلك الأعمال. ومع ذلك، فلم تتوقف عمليات التنقيب عن النحاس هذه توقفاً تاماً (الفصل الرابع ٤). وبالرغم من ذلك، فقد ظهرت لمصر الضرورة الملحة للحصول على معدن النحاس الفائق الأهمية. وبذا، نرى أن ملوكها قد عاودوا التفكير فى استعادة عمليات التنقيب على أوسع مدى. وهكذا، نجد أن رمسيس الثالث، بعد أن حرر مصر من تهديدات ومخاطر الغزوات الخارجية من خلال معاركه الحربية التى استمرت طوال عشر سنوات كاملة، وبعد أن عمل على تنظيم وإصلاح أحوالها، وفى أثر البعثة التجارية الناجحة إلى «بلاد بونت»، قرر فى أواخر العام العشرين من حكمه، تجهيز حملة ضخمة للتوجه إلى تيمناع حيث مناجم النحاس الغزيرة.

ولا ريب أن حملة الردع العسكرية التى قام بها هذا الملك ضد بدو سعرو فى إيدوم(٤٥٠)، والقلعة التى عمل على تشييدها فى بلدة «عين» على «طريق حورس»، من أجل حماية أحد مواقع المياه(٤٥١) هناك، قد اعتبرا بمثابة تمهيد ومقدمة لاستهلال عمليات استخراج النحاس. وهكذا، ومثلما تم فى عهد رمسيس الثانى فى العام السابع من حكمه، تمكنت مصر من السيطرة على تلك المنطقة لتتخذها كنقطة انطلاق لحملاتها المكلفة بهذا العمل.

ومن أهم مميزات تلك الحملة أنها كانت تتسم بالسمة البرية والبحرية فى آنٍ واحد. فلقد بعث رمسيس الثالث بجزء من قواته، بداية من بر رمسيس، عبر سيناء ومعه قطيع ضخم من الحمير. وفى نفس الوقت، قام جزء آخر منها، بالإبحار من السويس؛ وانطلقت سفنه حتى التقت بالجزء الأول عند سواحل خليج العقبة وربما لا نستطيع أن نحدد بالضبط، الطريق الذى سلكه الجزء الأول من هذه الحملة. فهل تراه سلك الطريق الذى يربط ما بين السويس وإيلات مباشرةً، بعد عبوره صحراء سيناء القاحلة؟ أم تراه قد اتخذ الطريق الذى يبدأ من بر رمسيس، ويمتد على ساحل البحر الأبيض المتوسط، حتى يصل إلى العريش؛ ذاك الطريق العريق القدم المصرى

العسكرى المؤدى إلى فلسطين، ومنه، يمتد إلى إيلات من خلال وادى العريش، «ودرب الغزة»؟

فمما لا شك فيه، أن الطريق الثانى، الذى يبدو أكثر طولاً، تتوافر به المزايا، مثل: كثرة مواقع المياه الصالحة للشرب، وهيمنة الإدارة المصرية هيمنة قوية على جزئه الأول، بفضل القلاع الحصينة الواقعة فى مختلف مراحله؛ وبالتالى، فقد ساعد أفراد حملة الفرعون هذه على أن يتقدموا حتى العريش وهم آمنون. وربما أن موقع المياه الحصين الذى كان قد أقامه رمسيس الثالث وأشرنا إليه آنفاً، كان يقع بهذا المكان أو فى إحد جوانبه المباشرة. ولا يستبعد أبداً أن تلك الحملات كانت تتخذه كنقطة تجمع قبل انطلاقها نحو الجنوب عبر طريق «درب الغزة». وبالموقع المعروف باسم "Naha Roded"، على بعد حوالى عشرة كيلو مترات شمال غرب «إيلات»، شمال «رأس النقب»، عثر على خرطوشين لرمسيس الثالث وقد نقشا على جدار أحد مواقع المياه يبينان مدى تقدم تلك الحملات(٤٥٢).

وربما قد نتساءل عن سبب الاستعانة بالسفن فى إطار هذه الحملة. لا شك أن ذلك يرجع إلى الرغبة فى الاستعانة بوسائل نقل أكثر سرعة وسهولة من القوافل البرية المعتادة، لكى تنقل إلى مصر كميات ضخمة من النحاس الذى تم استخراجه من مناجم تيمناع. ونظراً لأن خليج العقبة لم يكن يتضمن موانى طبيعية، فمن المعتقد أن مبعوثى رمسيس الثالث قد رسوا بالجزيرة المرجانية المعروفة باسم «جزيرة فرعون» التى تنبثق من بين الأمواج على بعد حوالى (٥٠) مترا من الساحل الجنوبى «بطابا». وربما أن بعض الأساطيل البحرية الأخرى قد رست عندها، فى حقبات أكثر حداثة، وفى أحوال مشابهة. وقد أقامت بها بعض تلك الحملات قصراً كبيراً،عمل صلاح الدين بعد ذلك على إصلاحه وترميمه. وهناك بعض آثاره الدالة على ذلك.

ولا شك أن حملة رمسيس الثالث إلى «تيمناع» قد لاقت النجاح المرغوب لها. وتكررت عمليات استخراج النحاس أكثر من مرة. بل لقد استمرت فى عهد مختلف الفراعنة من بعده، حتى نهاية عهد رمسيس الخامس. ومن خلال «بردية هاريس(١)»، تسرد تفاصيل رجوعها إلى «بر رمسيس»، ومشاهد تقديم سبائك النحاس للفرعون، وقد



بعض النقوش والكتابات الخاصة برمسيس إم بر رع بتيمناع.

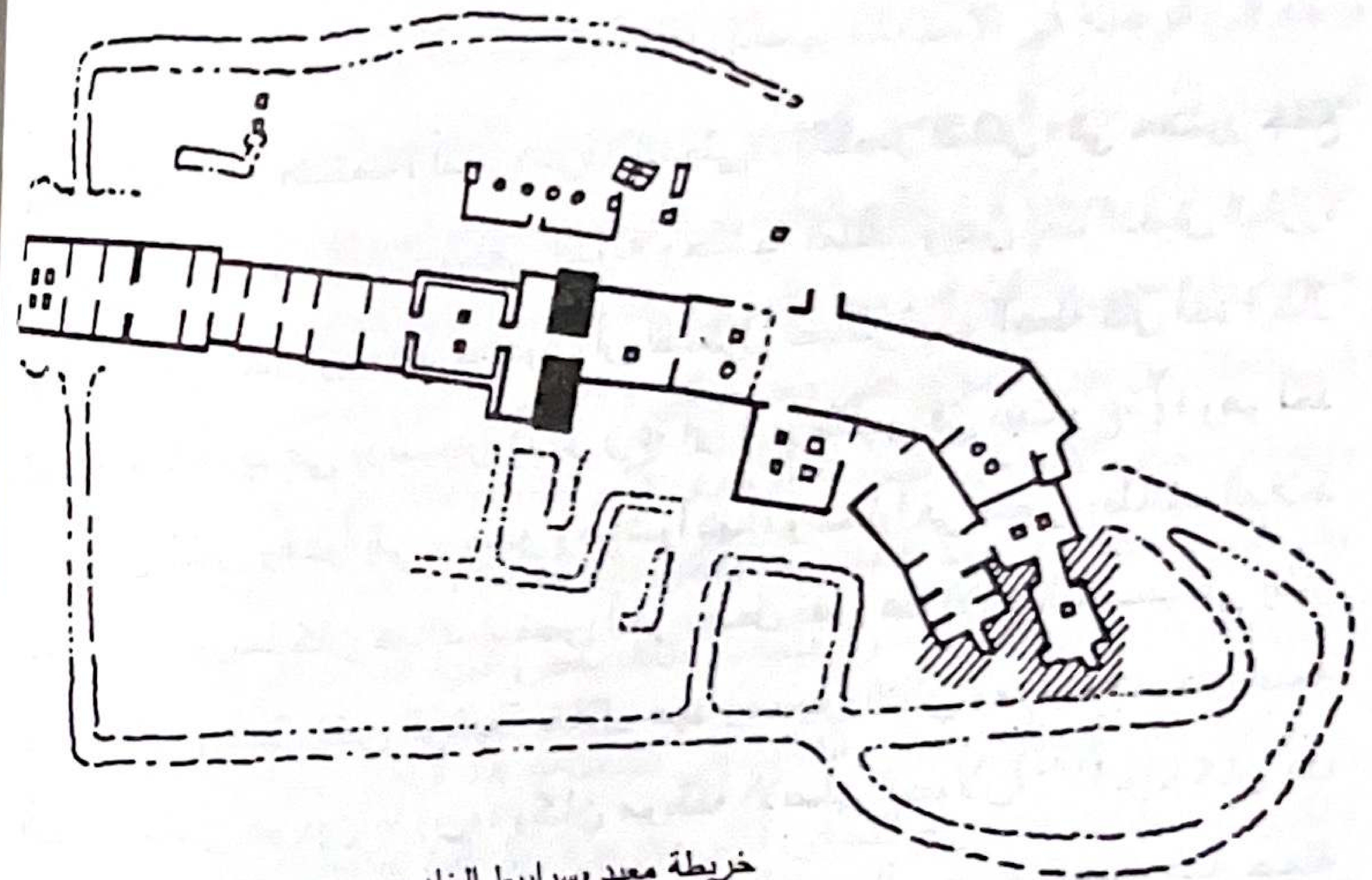
وضعت فوق ألواح ضخمة، أمام «شرفة التجلى»، بالقصر الملكى، فى حضور جمع هائل من علية القوم وكبار موظفى الدولة وحاشية الملك. ويبين إحد النقوش البارزة فى تيمناع، فوق جدران معبد حتحور، أن المسئول المباشر لهذه الحملة كان أحد رجال الحاشية الملكية ويدعى «رمسيس إم بر رع» أى («رمسيس فى بيت رع»)؛ وهو أحد الآسيويين الذين وفدوا إلى مصر وعاشوا بها، وعملوا فى بعض وظائف البلاط الملكى(٤٥٣). وربما كان هناك شخص آخر يحمل نفس هذا الاسم المكتسب فى إطار البلاط الملكى ويشغل نفس الوظيفة خلال عهد رمسيس الثانى ومرنبتاح، وكان اسمه الأصلى السامى هو «بن – زن»؛ وكان موطنه الأصلى الجولان(٤٥٤). وإذا كان هذا الأمر مؤكداً بصفة قاطعة، فلا شك أنه يوجه الضوء إلى ما تمخضت عنه حملة رمسيس الثالث إلى تيمناع من استتباعات. فمما لا شك فيه مطلقاً أن الإنسان الوحيد

القادر على قيادة مثل هذه الحملة، هو الملم تماماً بهذه البلاد، والذى يجيد لغة أهلها إجادة تامة. أى أحد مواطنيها.

حملة سيناء[٤٥٥]

على بعد حوالى عشرة كيلو مترات من شرق الميناء الحديث المعروف باسم «أبو زنيمة»، وعلى الساحل الشرقى لخليج السويس، بين الجبال الواقعة بالجانب الجنوبى لسيناء، قام المصريون منذ الدولة القديمة، باستغلال مناجم الفيروز، وهو من الأحجار شبه الكريمة التى كانوا يستعينون بكميات هائلة منها فى صناعة الحلى، وزخرفة الأثاث أو تزيين التماثيل الإلهية. وهناك، وفى موقعين رئيسيين، هما «وادى المغارة» و«سرابيط الخادم»، تركوا وراءهم العديد من الآثار الدالة عليهم وعلى أوجه نشاطهم.

والجدير بالذكر، أن الموقع الثانى قد تم استغلاله على أوسع مدى. وكانت الحملات المتعاقبة تفد إليه الواحدة بعد الأخرى على فترات غير متباعدة. وفوق جدران معبد



خريطة معبد «سرابيط الخادم»



لوحة للملك رمسيس الثالث فى «سرابيط الخادم»

صغير أقيم هناك خلال الدولة الوسطى؛ بجوار المناجم التى كانوا ينقبون بداخلها عن الفيروز، كان رؤساء تلك الحملات، يتركون وراءهم، كذكرى لأعمالهم وأوجه نشاطهم بها، بعض النقوش أو اللوحات التى تكاثرت على مر الأجيال. ولقد كرس ذاك المعبد، فى آن واحد للإلهة حتحور «ربة الفيروز» وللإله سوبد «رب الشرق». وكان أساساً، يبدو فى هيئة مقصورتين متلاصقتين حفرتا بداخل أكمة طبيعية، من أجل عبادة هذين الإلهين؛ ثم ألحقت بهما بعد ذلك بعض الأروقة والممرات المكشوفة السقف.

ولقد عاش هذا المعبد فترة ازدهاره وتألقه خلال الأسرة الثامنة عشرة بصفة خاصة: فقد ألحقت به وقتئذ، العديد من الممرات الإضافية، وبوابة ضخمة. وخلال الأسرة التاسعة عشرة، أنشئ به فناء خارجى فى عهد سيتى الأول[٤٥٦]. وعلى مقربة

منه، تشاهد تلال من نفايات وبقايا المعادن. ويعد ذلك دليلاً واضحاً على قيام بعض العمليات الخاصة بالتكرير والمعالجة لهذا المنتج فى هذا الموقع، قبل إرساله إلى مصر. وتجدر الإشارة إلى أنه يقع فى إطار طبيعى فائق الروعة، يكاد لا يتخيله عقل من لم يقم بزيارة موقعه هذا.

ولعلنا نعلم، أن «ست نخت»، خلال فترة حكمه القصيرة الأمد، كان قد أرسل بمجموعة من عمال المناجم إلى ذاك الموقع؛ وكان يرأسهم اثنان من كبار موظفيه، هما: سيتى وأمنموبى(٤٥٧). وتبين «بردية هاريس (١)»، بالإضافة إلى إحدى لوحات المعبد المذكور آنفًا، والتى ترجع إلى العام الثالث والعشرين من عهد رمسيس الثالث(٤٥٨)، أن الابن قد سار على نفس نهج أبيه. ومن الموقع الذى توجد به مدينة القاهرة الحالية، حيث كان الملك قد أنشأ معبداً صغيراً من أجل أفراد القوافل المارة بالصحراء، تحركت إحدى الحملات التى كان يرأسها بعض رجال الحاشية الملكية وبعض موظفى الدولة، وقد حملت بالكثير من الهدايا لتقديمها للإلهة حتحور، واتجهت فى طريقها إلى «سرابيط الخادم». ومن منطقة وادى النيل، وصلت إلى صحراء السويس، ثم تابعت طريقها حتى ساحل سيناء. وعند عودتها، حملت بكميات ضخمة من منتجات تلك المناجم، وقدمتها إلى الفرعون رمسيس الثالث، وقد حفظت بعناية بداخل زكائب جلدية كبيرة. ولا شك مطلقًا أن الملك كان يبدى ارتياحه ورضاءه الفائق عن هذا الإنجاز. وتجدر الإشارة هنا إلى ذكر اسم أحد رؤساء بعض هذه الحملات وهو «سبك حتب» من رجال الحاشية الملكية فى عهد رمسيس الرابع، فقد ترك فى العام الثالث من حكم هذا الملك، بمعبد حتحور فى ذاك الوقت، لوحة تذكارية تبين أنه قد أنجز أربع بعثات إلى ذاك المكان(٤٥٩).

الفصل السادس

نهـــاية الحكـــم

لا شك أنها صورة مثالية نموذجية تلك التى تقدمها نصوص وآثار مصر القديمة عن الفرعون: إنه الملك المطلق النفوذ، الذى يعلو فوق مرتبة البشر، سليل وخليفة رب الأرباب خالق الكون كله... فهل كان البشر، بعد كل ذلك، يستطيعون مناقشة أوامره أو الجدال فيها؟... إنهم جميعاً، كبار القوم أو صغارهم، يشعرون إزاءه بالرهبة المشوبة بالورع والتبجيل. ويهرعون إلى تلقى نصائحه. ويستمعون إلى عباراته وقد خروا ساجدين أمامه. ولا ينطقون إلا بذكر روعته وكمال قراراته. وهم بذلك، يعلمون علم اليقين أن ولاءهم الفائق وطاعتهم المطلقة له هى السبيل الوحيد لضمان نجاحهم الاجتماعى وتوفيقهم.

ومع ذلك هاهى بعض المصادر التاريخية، تبين أن هناك وجها آخر لهذه الحقيقة. فمن خلالها، نجد أن ملوك عصر العمارنة أو فراعنة أواخر الأسرة التاسعة عشرة، قد صوروا فى هيئة أشخاص عاجزين أو حكام مستبدين. فهذا ما كان يصفهم به غالباً معظم خلفائهم. حقيقة أن الضرورة كانت تحتم أن ينحدر كل فرعون من سلالة متتابعة تنبثق أساساً من رب الأرباب؛ ولكن، فى واقع الأمر أن هذا النظام المثالى قد أخل به: رمسيس الثالث الذى كان ابن مؤسس أسرة لم يكن يحق لها، شرعاً، تولى العرش. وأخيراً، فقد تعرضت عهود ملكية لاضطرابات وقلاقل عديدة، وللكثير من حركات المعارضة، التى كان البعض منها يهدف إلى القضاء على حياة الفرعون

نفسه أو تغيير مجرى خلافته. وبذلك، نجد أن أمنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة، قد قتله بعض المتآمرين من رجال حاشيته، الذين كانوا يعارضون ارتقاء ابنه سنوسرت الأول للعرش.

ولا ريب أن السنوات الأخيرة من حكم رمسيس الثالث قد اتسمت ببعض الأحداث التى تبلور الطبيعة الغامضة لتلك العلاقات القائمة بين الشعب وبين السلطة الملكية. حقيقة أن أوائل العام الثلاثين من حكمه قد كرست من أجل احتفالات ضخمة ومهيبة بمدينة منف إحياء لذكرى يوبيله الملكى؛ ولكن، مما لا شك فيه مطلقاً، أن الأشهر السابقة لتلك المناسبة، قد شابتها، بمنطقة دير المدينة، سلسلة من الإضرابات، التى كانت قد تمخضت عن قصور وعجز إدارتها. أما الأيام الأخيرة من عهده، فقد سادها القلق والاضطرابات، بسبب محاولة انقلاب شهيرة، أشارت إليها النصوص التاريخية تحت اسم: «مؤامرة الحريم».

١ - اليوبيل الملكى[1]

عند اقتراب العام الثلاثين من تولى رمسيس الثالث العرش، كانت كافة جوانب مصر تعتمل بالإثارة والترقب لاقتراب حدث غير عادى. إنه اليوبيل الثلاثينى، أو «عيد السد». إنه العيد الذى كان الاحتفال به مقصوراً على الملوك الذين عمروا طويلاً. ولم يحتفل به من قبله، سوى رمسيس الثانى، قبل ذلك بنصف قرن. وبهذا، والحال هكذا، كان يحق لرمسيس الثالث أن يقتبس من جده العظيم أحد ألقابه الهامة، وهى: «المفعم باليوبيلات مثل تاتنن» (الفصل الثانى (١)).

وعادة، كان هذا العيد العريق القدم يتم إحياؤه فى منف، مدينة الإله «بتاح». ويعتبر «تاتنن» أحد تجليات هذا الإله. وأساساً، يمثل هذا العيد التأكيد المتجدد للسلطة الملكية بعد انقضاء فترة محددة. وفى نطاقه، يتم أداء بعض طقوس الموت والبعث؛ ويستطيع الملك على ما يعتقد، أن يستعيد من خلالها قواه وحيوية شبابه. كما يتضمن هذا العيد استعادة فخمة ومهيبة لأعياد التتويج فى حضور آلهة مصر الرئيسية. وفى إطاره، يقوم الفرعون بالعدو السريع لمسافة محددة، من أجل إظهار سلامة كفاءته الجسدية. ثم تقام أيضاً بعض الطقوس الثانوية، إشارة إلى هيمنته وسلطته على الكون

كله. وتشارك أعداد غفيرة من أفراد الشعب فى هذه الاحتفالات الكبرى. وبهذا، فعند وصول الملك إلى منف، وخلال مختلف تنقلاته بها، كانت توزع كميات ضخمة من المأكولات والمشروبات على جموع المصريين الذين حضروا من أجل مشاهدة تلك الاحتفالات الضخمة.

وعادة، كانت هذه الاحتفالات الكبرى الخاصة بـ«عيد السد» تقام فى منشآت خاصة مثل «قصر عيد السد»، واقعة فى إطار «تيمينوس» بتاح[2] المترامى الأطراف. حقيقة أن تلك الأبنية قد أزيلت الآن تماماً من الوجود، ولكن من الممكن، بالرغم من ذلك، أن نكون عنها فكرة تقريبية. فإن المجمع الجنازى الخاص بالملك «جسر» بسقارة، والذى تمكن العالم الفرنسى «لوير»، من إعادة تصميمه، قد استطاع أن يقدم لنا، بشكل ما، نموذجاً[3] فعلياً لمثل هذه المنشآت. وبذلك، فبداية، نجد فناء واسعاً مترامى الأطراف مربع الشكل، خصص، على ما يبدو، من أجل سباق الجرى الذى كان يقوم به الملك فى تلك المناسبة. ثم هناك أيضاً، عدد من المقاصير التى كانت تؤدى بها بعض الطقوس الخاصة. وكذلك توجد حجرات خلع الملابس، حيث كان الملك يرتدى الملابس والتيجان التى يتحتم عليه الظهور بها فى تلك الاحتفالات. ويشاهد أيضاً فناء مستطيل الشكل، تقع على أحد جوانبه القصيرة منصة ضخمة، تعرف باسم «ثنثات». وفوق هذه المنصة، نجد كرسى عرش تعتليهما مظلتان مزدوجتان. أما على الجوانب المستطيلة لهذا الفناء، فيوجد صفان من المقاصير، لاستقبال تماثيل الآلهة الرئيسية بمصر، التى يتم إحضارها إلى هذا المكان للمشاركة فى تلك الاحتفالات.

والملاحظ أن تلك المنشآت لم تكن تستعمل منذ انتهاء عهد رمسيس الثانى[4]؛ ولكن عندما تولى رمسيس الثالث العرش كانت قد تحولت إلى ما يشبه الأطلال. ولهذا، فعند اقتراب موعد يوبيله، أمر الملك بإصلاحها وترميمها[5]. ولكن، على ما يبدو، أن تلك الاحتفالات كانت تقتضى أيضاً بعض الاستعدادات الأخرى التى تحتم المزيد من الوقت. فقد كانت الضرورة تستلزم أن تجمع وترسل إلى منف الكميات الهائلة من المأكولات والمؤن التى سوف توزع على جموع المصريين فى يوم الاحتفال، وكذلك القرابين التى لا تحصى ولا تعد من أجل الآلهة. بل وكان الأمر

يقتضى أيضاً إعداد المقر الذى سوف ينزل به الملك وعربات الاستعراض(٦) الخاصة به. وكذلك استوجب الحال جمع تماثيل الآلهة التى يعتبر وجودها خلال الاحتفال من الضرورات الهامة لأداء الشعائر، وهكذا، نجد أن كافة مؤسسات مصر كانت تعبأ من أجل تلك المناسبة. وكان مبعوثو الملك يتوغلون إلى أقصى أعماق القرى، من أجل إعلان موعد إقامة تلك الاحتفالات الكبرى.

ويبدو، أنه من أجل تحقيق النجاح والاكتمال لكل تلك الاستعدادات، كان الأمر يحتم وضع الإدارة المصرية كلها تحت قيادة موحدة(٧). وبذلك، فقبل موعد الاحتفال بيوبيل رمسيس الثالث بحوالى ثمانية أشهر، أسند إلى «تو» وزير مصر العليا فقط، منصب «الوزير الأوحد» لكافة أنحاء مصر(٨). ولقد قام الملك شخصياً بخلع هذه الوظيفة عليه، بهذه المناسبة. فمن المعتاد، أن الملك عند قدومه فى كل عام إلى طيبة لحضور بعض الاحتفالات، كان ينتهز هذه الفرصة ليقوم بتوزيع المكافآت والمنح والمناصب الرفيعة(٩) على كبار موظفيه.

وهكذا، أصبح «تو» «الوزير الأوحد» على كافة أنحاء مصر. وقد كرس الجزء الأكبر من وقته للإعداد لاحتفالات اليوبيل الملكى. ويلاحظ، أنه قبيل موعد الاحتفال بحوالى شهر، كان يشرف بنفسه على مهمة جمع تماثيل الآلهة التى سوف تحضر هذا الاحتفال، بمصاحبة كبار كهنتها. ولذلك، نجد فى جنوب طيبة، بمنطقة «الكاب»، لوحة منقوشة بمقبرة «ستاو»، كبير كهنة «نخبت» الإلهة المحلية، لإحياء ذكرى تلك المهمة. فتبين لنا اللوحة منظراً يمثل المركب الخاصة بهذه الإلهة، خلال قيام سفينة الوزير بجرها فى طريقها إلى بر رمسيس(١٠). ومن المعتقد، أن «تو» قد مر بهذه المواقع فى أوائل الشهر الرابع من فصل «البرت» بالعام التاسع والعشرين من حكم رمسيس الثالث. فقد تبين أنه قد وصل إلى طيبة فى الثامن والعشرين من نفس الشهر، من أجل أن يصطحب معه تمثال آمون الكرنك(١١). ولا شك أن «تو» هذا كان منهمكاً انهماكا شديداً فى مهمته هذه. وبالتالى لم يكن يعطى آذاناً صاغية لشكاوى وتظلمات عمال «دير المدينة»، الذين قاموا بإضراب فى تلك الفترة؛ بل وكانوا ينتظرون، من ناحيته، شيئاً من الاهتمام والرعاية لتحسين أحوالهم (لاحقا، ٢).

وبعد وقت وجيز، تحرك «الوزير الأوحد»، على رأس أسطول ضخم، متجهاً ناحية الشمال. وفى طريقه هذا، توقف فى جولته عند بعض المدن من أجل أن يصطحب معه تماثيل آلهتها. وفوق مياه النيل، يلتقى ببعض السفن الأخرى التى كانت تقوم بمهمة مماثلة فى مصر السفلى، لتنتهى رحلته، فى نهاية الأمر عند بر رمسيس بالميناء الخاص بالمقر الملكى. وتبين الكتابات المنقوشة على اللوحة القائمة بمنطقة «الكاب»، أن الملك شخصياً، قد هب لاستقباله. بل إنه، من أجل أن يبدى ورعه وتبجيله للآلهة ضيوفه، قد تنازل بأن يمسك بنفسه، بحبل المركب، لكى يثبته على الأرض.

مراسم اليوبيل

والآن، لم يعد يتبق سوى فترة وجيزة على موعد اليوبيل الملكى. واتخذ الملك والملكة وحاشيتهما الطريق النهرى من أجل الوصول إلى مكان الاحتفالات، وقد اصطحبوا المراكب التى تحمل تماثيل الآلهة. وعلينا أن نتصور إذن، منظر الجموع المحتشدة على ضفاف منف، لاستقبالهم بالهتافات والدعوات. ولم تكن فرق الشرطة المحلية لتستطيع كبح جماحهم. ووقف رجال السلطة المحلية هناك من أجل تحية الملك، وعلى رأسهم ابنه، المدعو خع ام واست، كبير كهنة بتاح. وغادر رمسيس الثالث وأفراد معيته الميناء النهرى متوجهين إلى المقر الملكى. ولا شك أن هذا المقر هو نفسه القصر الفسيح الأرجاء الذى كان مرنبتاح قد شيده قبل ذلك بحوالى أربعين عاماً.

حقيقة أن عيد «السد» كان يقام، على مدى التاريخ المصرى كله، منذ النشأة الأولى وحتى العصر البطلمى، ولكن ليس من السهل تماماً ذكر تفاصيل مراحله بكل دقة. ومع ذلك، فهناك بعض المصادر من مختلف العصور التاريخية التى تتضمن بعضاً من تفاصيله. ولذلك، يمكن من خلالها، أن نلم ببعض خطواته الرئيسية، كما يلى:

بعد استكمال الاستعدادات النهائية، يقوم الملك، فى صبيحة يوم الاحتفال، بمغادرة قصره وسط مظاهر الأبهة والفخامة الفائقة. ثم يستقل عربته أو مقعده المحمول،

ليصل إلى موقع الاحتفال وسط الهتافات الصاخبة التى تطلقها التجمعات المحتشدة على جانبى الطريق. ويتقدمه عندئذ، حاملو شارات وشعارات الإله ابن آوى «أوبواووت»، أى «فاتح الطريق». وعلى ما يبدو، أن رمسيس الثالث، كان قد أراد إحياء ذكرى الدور الذى يقوم به هذا الإله خلال يوبيله الملكى، فعمل، على أن يشيد من أجله فى مدينة أسيوط موطن عبادته، معبداً صغيراً أسماه: «قصر رمسيس حقا إيونو الذى يتجلى فى عيد السد» (الفصل الخامس (٥)). واستقبل الفرعون فى «قصر عيد السد» كبار الكهنة وموظفى الدولة. واصطحبه الكهنة بعد ذلك إلى إحدى مقاصير هذا المعبد، حيث استبدل ملابس الاستعراض التى كان يرتديها بكفن. وأخذ الكهنة يمارسون عليه بعض طقوس الموت والبعث الرمزى. وبعد انتهاء هذه الشعيرة الأولى، ارتدى الملك، بعد أن تطهر تماماً، معطفاً من الكتان الأبيض اللون ملتصقاً بجسده يصل طوله إلى ركبتيه ثم خرج من المعبد.

وعندئذ، توجه الملك إلى الفناء الذى تقع عدة مقاصير على جانبيه. وهناك، قام مرة أخرى بأداء مراسم تقديسه. وأمام تماثيل الآلهة الذين يرمزون باجتماعهم هذا إلى وحدة مصر السياسية؛ وأمام كبار كهنتهم المجتمعين معاً، استقر الفرعون، على التوالى، فوق العرشين القائمين على المنصة الواقعة بقلب الفناء. وخلال هذا المنظر، ارتدى الملك، فى البداية، التاج الأبيض الخاص بمصر العليا؛ ثم بعد ذلك، توِّج بالتاج الأحمر رمز مصر السفلى. ثم ظهر وهو يرتدى تاج البشنت، الذى يجمع بينهما. إنه يعبر من خلال ذلك عن بسط سلطته ونفوذه على جميع أنحاء مصر، بصفته ملكها المؤله؛ وبذلك، يكون الممثل النظرى الوحيد لأداء الطقس. وهنا، كان عليه أن يقدم القرابين من أجل كل إله من الآلهة الحاضرة بهذا الفناء، مراعياً فى كل مرة، أن يغسل يديه وقدميه جيداً.

وغادر الملك ساحة الاحتفالات، واتجه أخيراً إلى الفناء الكبير الذى تؤدى به آخر طقوس تلك المراسم. واستبدل ملابسه بمئزر قصير. ولكنه، فى نفس الوقت، احتفظ بالشارات والشعارات الدالة على مكانته الملكية: التاج، والصولجان،، والمروحة الكبيرة. وبدأ، يقوم، بداخل مساحة محددة، بالسباق الذى يبين عن تجدد قواه وحيويته الجسدية. ويعتبر ذلك بمثابة تأكيد ملموس عن مقدرته على إدارة شئون

الملك. بل ويتضمن ذلك أيضاً مغزى رمزياً: أن هذا السباق يحاكى المدار الذى يقطعه رع يومياً حول الكون؛ وبهذا فإن الملك، وهو يقوم به، يتماثل بأبيه رع إله الشمس، حيث يستطيع بسط سيادته على العالم كله. وهنا أيضاً يمكن للملك ارتداء الملابس الملكية التى كان يزهو بها فى بداية المراسم. وبعد أن أكمل زينته، أمسك بقوسه، وقام بإطلاق أربعة أسهم، نحو الجهات الأصلية الأربع. وبعد ذلك، بصفة رمزية، بمثابة إعلان عن تتويجه للمرة «الثانية» بكافة أنحاء الأرض. ومن خلال بعض التماثيل، قام الفرعون بتمثيل مشهد شعائرى يبينه وهو يقضى على أعداء مصر. وفى النهاية، لم يكن يتبقى أمامه سوى الرجوع إلى قصره، بين هتافات ودعوات أفراد الشعب المتجمعين على جانبى الطريق.

وفقاً لما تحتمه التقاليد، فقد مر رمسيس الثالث بجميع هذه المراسم: «لقد أحييت من أجلك أنت (بتاح) أول أعياد «السد» خلال فترة حكمى، التى تماثل أحد أعياد «تاتنن» المديدة. لقد كررت من أجلك أنت الطقوس فوق المنصة، وأتممت من أجلك مراسم القرابين، المفعمة بمنتجات ومؤن لا تحصى ولا تعد [...] التى جلبت من مختلف مناطق مصر، فى حضور آلهة مصر العليا والسفلى المتجمعين[١٢] هناك». وفى مساء يوم اليوبيل الملكى، يمكننا أن نتصور مدى سرور الملك ورضائه لأن فترة حكمه قد امتدت حتى هذا اليوم. ولا شك أنه كان يستعيد ذكرى أعماله وإنجازاته خلال الثلاثين عاماً هذه وذكرى معاركه الحربية، ومشاريعه الضخمة. بل لا شك أيضاً أنه كان يخطط من أجل أعمال وإنجازات جديدة. ويبدو أن الفرعون قد جاء ثانياً إلى منف، بعد مرور حوالى عام على هذه المناسبة الكبرى، لتحية الإله بتاح[١٣]. ووقتئذ، لم يكن قد تبقى له فى هذه الحياة الدنيا سوى عامين، وشهر واحد، وتسعة عشر يوماً.

٢- إضرابات دير المدينة[١٤]

فى أواخر العام (٢٩) من حكم رمسيس الثالث، أى قبيل عيد السد بقليل، اجتاحت مؤسسة «دير المدينة» الكثير من الإضرابات. وكان مبعثها: التأخر الدائم فى صرف أجور العمال[١٥] بها. وربما قد نلاحظ أن هناك صلة ما، بين هذا التأخير فى تسديد أجور العمال وبين اقتراب موعد اليوبيل الملكى.

لقد تفجرت أزمة «دير المدينة» فى اليوم العاشر من الشهر الثانى بفصل «البرت» بالعام التاسع والعشرين من حكم رمسيس الثالث(١٦) . فإن العمال لم يحصلوا على أجورهم عن الشهر السابق لذلك التاريخ؛ وبدأوا فى الصياح والصراخ قائلين: «نحن جوعى ! نحن جوعى !». واندفعوا جميعاً خارجين من دير المدينة من الناحية الجنوبية. وتعدوا مراكز الحراسة التى تحيط بها من هذا الجانب. واكتسحوا أبواب معبد مدينه هابو. وبعد ذلك، عادوا أدراجهم، ليتقدموا نحو منطقة «دير البحرى». وهناك توقفوا خلف المعبد الجنازى الخاص بتحتمس الثالث، الذى يقع شمال الرمسيوم. ومن أجل تهدئتهم، اندفع نحوهم الكاتب «آمون نخت» بن «إبوى»، واثنان من رؤساء المجموعات، ومساعديهما، واثنان من مفتشى غرب طيبة؛ ولكنهم لم يفلحوا أبداً فى ذلك. ووقفوا عاجزين أمام صرخات وصيحات الاحتجاج التى يطلقها العمال الثائرون. واستمرت هذه المظاهرة طوال اليوم. وفى المساء، وافق العمال الثائرون على الرجوع، على مضض إلى القرية. فلقد وعدهم رئيسهم بأنه سوف يحيط الملك علماً بأحوالهم المتأزمة.

والجدير بالذكر أن عمال «دير المدينة» كانوا قد ثاروا ثورة مماثلة قبل ذلك بفترة غير بعيدة. فعلى سبيل المثال، خلال العام الثامن والعشرين من الحكم، تأخر موعد سداد أجورهم حوالى ثمانية أيام(١٧) . ووقتئذٍ، وجه كاتب «المنطقة الخارجية» المدعو «نفرحتب»، رسالة إلى الوزير «تو» يخبره من خلالها عن عوز العمال واحتياجهم(١٨). ولكن، على ما يعتقد، أن أشد الإضرابات قوة وعنفاً، كان قد وقع منذ حوالى أربعة أشهر فقط: ففى اليوم الحادى والعشرين من ثانى أشهر فصل «الآخت»(١٩)، وهو نفس اليوم الذى حظى فيه «تو» بمنصب «الوزير الأوحد» على أنحاء مصر كافة، لاحظ الكاتب «آمون نخت»، الذى يرجع إليه الفضل فى تقديم العديد من المصادر الخاصة بإضرابات دير المدينة، أن سداد أجور العمال قد تأخر حوالى عشرين يوماً عن موعده. ويبدو، أنه بلباقته ومهارته فى قوة الإقناع، قد استطاع وقتئذ، أن يمنع حدوث أية اضطرابات. فلقد توجه إلى المعبد الجنازى الخاص بالملك حور محب، المجاور لمعبد مدينة هابو، واستطاع أن يحصل من الإداريين القائمين به على كمية من الغلال لا تقل عن ستة وأربعين زكيبة. وسارع إلى توزيعها على العمال بـ«دير المدينة».

ولكن، فى هذه المرة، لم تسنح له الظروف بإجراء بعض المباحثات والمفاوضات المماثلة من أجل حل المشكلة. وبذلك، ففى الأيام التالية، عاد العمال ثانياً إلى تمردهم واحتجاجهم. بل وتوجهوا نحو الباب الجنوبى بساحة الرمسيوم فى اليوم الحادى عشر من ثانى أشهر فصل «البرت»، حيث تمركزوا ورفضوا مغادرة مكانهم هذا. وقضوا ليلتهم هناك وسط مظاهر الفوضى والاضطرابات. وفى اليوم التالى، اقتحموا هذا المكان، آملين فى الحصول على بعض الغلال من الإداريين التابعين لغرب طيبة القائمين به(٢١). وهنا وجد كاتب «المنطقة الخارجية» المدعو «بنتاؤرت» أن الأحداث تتصاعد وتزداد عنفا. وكان فى اليوم السابق، قد حاول كبح جماح العمال وتهدئتهم، فأحضر اليهم كميات ضخمة من الفطائر والحلوى(٢٢)، لكن دون جدوى. وعندئذ، سارعت قوات الشرطة إلى موقع التمرد، وحاول قائدهم «منتومس» أن يثنى العمال عما يفعلونه، فصاح فيهم قائلاً: «توقفوا عن ذلك. وغادروا هذا المكان(٢٣)!»..... ولكن العمال الثائرين لم يأبهوا به، فتوجه إلى حاكم طيبة(٢٤) لكى يحيطه علماً بالأحداث.

والجدير بالذكر أن حاكم طيبة هذا، ويدعى «بتاح إم حب»، كان يشغل أيضاً منصب «رئيس التسعير(٢٥)»، وبالتالى كان يهيمن على مخازن الغلال بمصر. ولاشك أن قائد الشرطة كان قد توجه إليه هو بصفة خاصة على أمل أن يحصل منه على كمية من الغلال للعمال الثائرين الجائعين. وعند رجوع «مونتومس» قائد الشرطة إلى موقع المظاهرة، وجد زعماءها يحاولون التباحث والتفاوض مع سكرتير حكومة جنوب طيبة وكهنة الرمسيوم(٢٦)؛ ويقولون: «إن الجوع والعطش هو الذى دفعنا إلى الحضور إلى هنا !... إننا نفتقر إلى أى ملابس، وليس لدينا زيوت، أو مشروبات، أو خضراوات! أخبروا الفرعون، ملكنا العظيم بما نعانيه [...]، واكتبوا للوزير، رئيسنا!».

وربما وعدهم حاكم طيبة بالمساعدة. وعلى ما يعتقد أن الكهنة أيضاً قد قبلوا أن يقدموا لهم كميات من الغلال؛ فلقد حصل العمال فى ذاك اليوم، على جزء من رواتبهم المتأخرة عن أول أشهر فصل «البرت». وكان تأخر سدادها هو الدافع الرئيسى لمظاهراتهم وإضرابهم. وفى اليوم التالى، أى الثالث عشر من ثانى أشهر «البرت»، علم مونتومس، أن الحاكم سوف يحضر إلى الضفة الغربية للنيل ومعه كميات ضخمة

من المؤن، فأهاب بالعمال بمغادرة بيوتهم، وأن يتبعوه هم وزوجاتهم وأبناؤهم إلى المعبد الجنازى الخاص بسيتى الأول فى «القرنة»، وهناك، سوف ينتظرون جميعاً قدومه. ولا شك أنه كان يبغى، من وراء ذلك تكوين جمع كبير من أجل استقبال الحاكم رئيسه فى العمل. وأيضاً، كنوع من التعبيرعن الشكر والامتنان(٢٧).

ووقتئذ، وقد انتصف الشهر الثانى من فصل البرت، وسادت مشاعر الرضاء والاطمئنان بين جموع العمال لأنهم قد حصلوا، فى نهاية الأمر على أجورهم عن الشهر الماضى، تبين لهم أنهم لن يحصلوا على أجورهم عن الشهر الجارى. وبذلك، سرعان ما اندلعت ثورة جديدة. وفى اليوم السادس عشر من نفس الشهر، استطاع «منتومس» وبعض إداريى «المقبرة» أن يوفروا لكل عامل حوالى نصف زكيبة من الغلال ونصف جرة من الجعة. ولكن، لم يعمل ذلك على تهدئة غضبهم واحتجاجهم(٢٨). ومرة أخرى، غادروا قريتهم، واندفعوا فى أنحاء جبانة طيبة يطلقون صيحات الثورة والتمرّد. وفى المساء كانوا يجوبون طرقاتها وقد أمسكوا بمشاعل نارية(٢٩). وأثناء وجوده فى مدينة هابو، أخذ قائد شرطة المعبد يستمع إلى شكواهم؛ ثم وعدهم بأنه سوف يحيط الفرعون بها علمًا؛ وفى نفس الوقت أخبرهم بأنه لا يستطيع أن يعطيهم بعض الغلال؛ لأنه لا يملك أن يفعل شيئًا(٣٠). وعلى ما يبدو، فالحاكم،عندما طلب منه ذلك، قد قام، للمرة الثانية بتقديم المساعدة. واستمرت عملية توزيع الأجور المتأخرة(٣١) من مساء ذاك اليوم وحتى صبيحة اليوم التالى.

وفى أوائل الشهر التالى، أى فى ثالث أشهر فصل البرت(٣٢)، قام العمال مرة أخرى بإضراب جديد لنفس الأسباب المذكورة آنفًا. بل وقاموا أيضًا بمظاهرة أمام «مركز مراقبة المقبرة»(٣٣). وسارع رؤساؤهم إليهم محاولين إرجاعهم إلى قريتهم، ولكن سرعان ما ازداد الموقف حدة، وتعكر الجو بين الطرفين. بل إن أحد العمال ويدعى «موسى» بن «عحانخت»، أخذ يصيح ويقسم بحياة الملك قائلاً: «بحق الذى يفوق غضبه قسوة الموت نفسه»، أنه لو تعرض هو وزملاؤه لأعمال العنف من أجل إرغامهم على التحرك من مكانهم، فإنه سوف يقوم بنفسه باقتحام إحدى المقابر الملكية. ولكننا، لا نعلم بالتحديد بقية هذه الواقعة، وعما انتهى إليه أمر هذا العامل «موسى» بن «عحا نخت». ولكن، فى نهاية الأمر، تم تسديد أجور العمال بعد حوالى أسبوعين(٣٤)، أى فى اليوم السادس عشر من نفس الشهر.

وبعد مضى فترة وجيزة، بتاريخ لم يحدد تماماً، ربما كان أوائل الشهر الثالث من فصل البرت، أضرب عمال دير المدينة عن العمل للمرة الرابعة. وغادروا دير المدينة فى مظاهرة ضخمة من ناحية الجنوب، وتوجهوا نحو مدينة هابو. وفى نفس الوقت، كان رؤساؤهم يقفون عند بوابة القرية ويطلقون صيحات عالية، محاولين، بدون جدوى منعهم من الانطلاق خارجها. وهنا، اضطر الكاتب آمون نخت أن يرسل خلفهم مساعدى رؤساء المجموعة ومفتشى غرب طيبة لإرغامهم على الرجوع. وبعد فترة قصيرة، رجع أحد هؤلاء المبعوثين، ويدعى «رشب بحتى إف» إلى القرية وهو فى غاية الاضطراب، وردد أمام الكاتب العبارات التى قالها اثنان من العمال، وهما «كينا» بن «رونا»، و«حاى» بن «حوى»، بالنيابة عن بقية زملائهما العمال: «لن نرجع! قل ذلك لرؤسائك» وخلال تلك الفترة بالذات، يبدو أن الاضرابات قد بدأت تتسم بصبغة سياسية. ولم يكن ذلك ملحوظاً أبداً من قبل. ولهذا، نجد أن العمال قد بدأوا يجهرون بطلب فرض عقوبات ضد الإدارة التى تبين عجزها عن سداد أجورهم بشكل منتظم. وربما يبدو هذا الاتجاه السياسى واضحًا تماماً من خلال تلك العبارات التى وجهها العمال للمفتش: «إننا لم نضرب عن العمل بسبب الجوع. ولكننا فعلنا ذلك لأن لدينا اتهامات خطيرة نريد توجيهها: هناك فساد شديد بذاك الموقع الخاص بالفرعون». وهنا قرر «آمون نخت» نقل هذا التصريح الخطير بحذافيره من جانب العمال، إلى ذوى السلطة(٣٥).

إدارة مهملة

ترى، هل كانت السلطات المختصة جادة فعلاً فى إصلاح الأحوال المتردية التى كان يعيشها عمال دير المدينة ؟ فهذا هو السؤال الذى كان العمال يطرحونه على أنفسهم، بعد سلسلة من الإضرابات والاحتجاجات استمرت طوال شهرين كاملين. ولكن، يبدو واضحاً، أن السلطات المختصة لم يكن لديها الوقت الكافى الذى يسمح لها بمعالجة مشاكل هؤلاء العمال البؤساء. ففى ذاك الحين كان موعد «عيد السد» قد اقترب. ولم يكن قد تبقى على احتفالاته سوى شهرين فقط. ومن أجل هذه المناسبة الكبرى، عبئت الإدارة الملكية كلها تعبئة كاملة، بما تتضمنه من أفراد وممتلكات. وفى إطار كل ذلك، يبدو أنه كان قد ضغطت ميزانية أجور عمال دير المدينة. وكان

من الطبيعى أن يعانى عمالها من جراء ذلك. فلا شك أنه لا توجد أسباب أخرى وراء عدم انتظام تسديد أجور عمال هذه المؤسسة؛ أو وراء عدم الاهتمام بمطالبهم واحتياجاتهم. ويبدو أن العمال، قد تأكدوا تماماً، بعد فترة ما، من اللامبالاة التامة من ناحية السلطات المختصة إزاء مشاكلهم ومطالبهم.

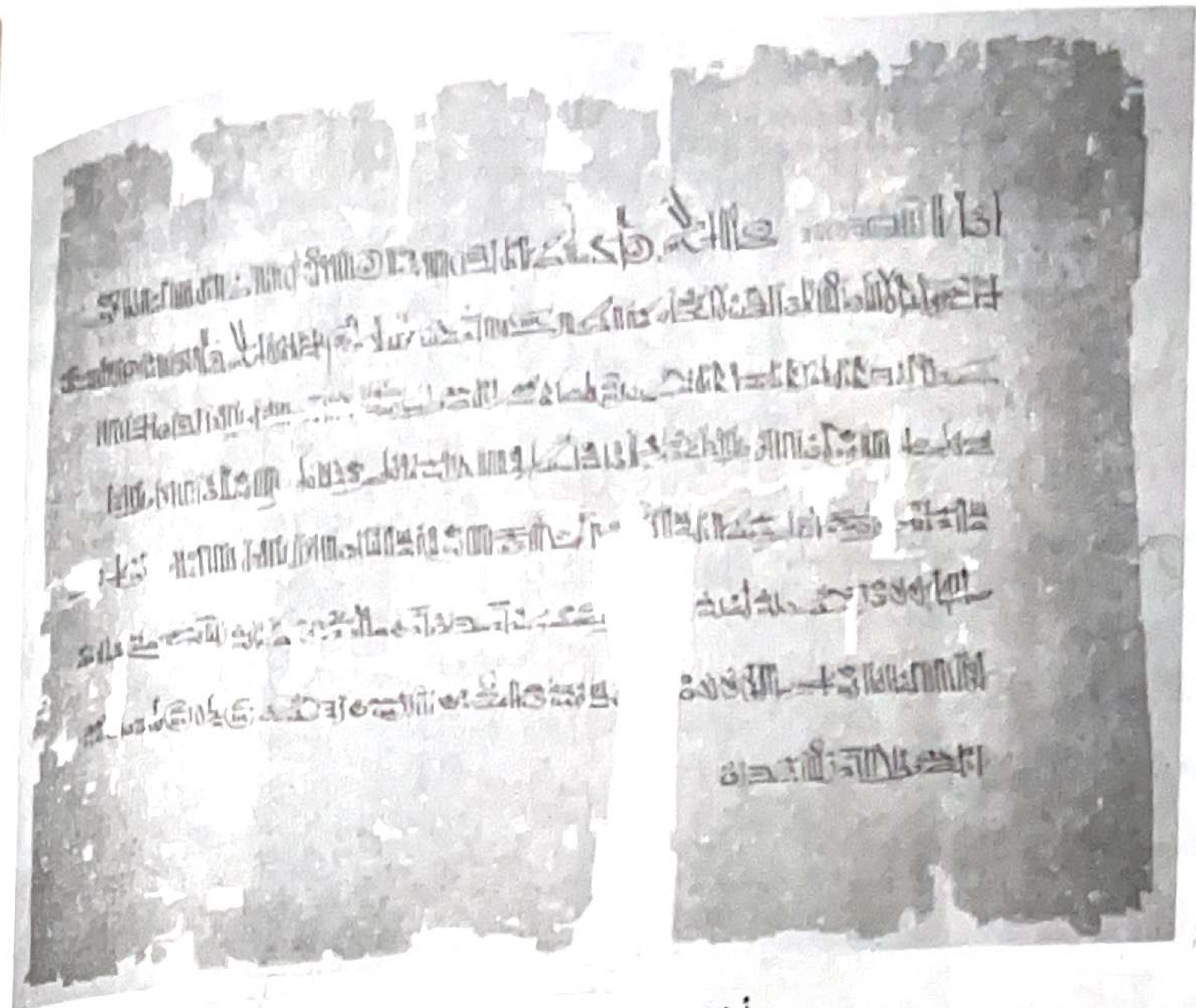
ففى الثامن والعشرين من رابع أشهر فصل البرت، قام الوزير «تو» الرئيس الأعلى للمؤسسة، بزيارة قصيرة لطيبة. وكان الأحرى به، خلال زيارته هذه، أن يولى مشاكلهم هذه بعض الاهتمام. ولكن لم يحدث ذلك أبداً. فقد كان الوزير «تو» منغمساً حتى أذنيه فى مشاكل الدولة. لقد كان يرأس أسطولاً من السفن، لنقل التماثيل الإلهية القائمة بمصر العليا، والتى سوف تمثل من خلال اليوبيل الملكى. ولم يكن وقته ليسمح له بالتوقف طويلاً عند الضفة التى يقع بها «دير المدينة»(٣٦). وهنا، ثار زعماء العمال الذين كانوا قد توجهوا لمقابلته وتوقعوا أنه سوف يقوم بزيارة «دير المدينة». ولكن لم يقم الوزير بهذه الزيارة وتذرع بكثرة مشاغله. واكتفى بإرسال شحنة ضئيلة من الغلال عن طريق قائد الشرطة المدعو نب سمنت. وبدا واضحاً، لزعماء عمال «دير المدينة»، أن الوزير «تو» رئيسهم الأعلى قد أهملهم وتخلى عن مساعدتهم. ولكنه، على ما يبدو، لم يكن ليستطيع أن يقدم لهم أكثر من ذلك؛ ففى ذاك الوقت بالذات كانت مخازن الغلال تبدو شبه فارغة(٣٧).

وبالقطع، لم تكن هذه الكمية من الغلال تكفى احتياجات العمال. خاصة بعد حوالى أربعة أشهر من الفاقة والعوز. فقد كان يحق لهم الحصول على ضعف هذه الكمية. واعتبر العمال ورؤساؤهم أن هذه اللامبالاة وعدم الاهتمام هى بمثابة تحد واستفزاز لمشاعرهم. بل وربما أنهم كانوا يعتقدون أن الكاتب «آمون نخت»، لم يوضح للوزير «تو» حقيقة أحوالهم المتردية.

عموماً، فقد اجتمع رئيس العمال خونسو برجاله. وكان يساندهم مساندة قوية، ونصحهم بأن يقبلوا تلك الكمية الضئيلة من الغلال التى أرسلت إليهم. ولكنه نصحهم أيضاً، بأن يتحركوا جميعاً نحو «مركز مراقبة المقبرة»، من أجل أن يعبروا هم أنفسهم عن مطالبهم ومشاكلهم لمرءوسى الوزير «تو» القائمين هناك. ولكن «آمون نخت» كان يراقب كل شىء. فحالما تعدى العمال مركز الحراسة الأول، لحق بهم هو ورجاله،



تمثال لرمسيس الثالث يحمل شارات الملك بالمتحف المصرى.



أولى صفحات بردية هاريس - ١.



مدخل مقصورة «ست نخت» بمعبد «موت» بالكرنك.



رأس مومياء رمسيس الثالث.

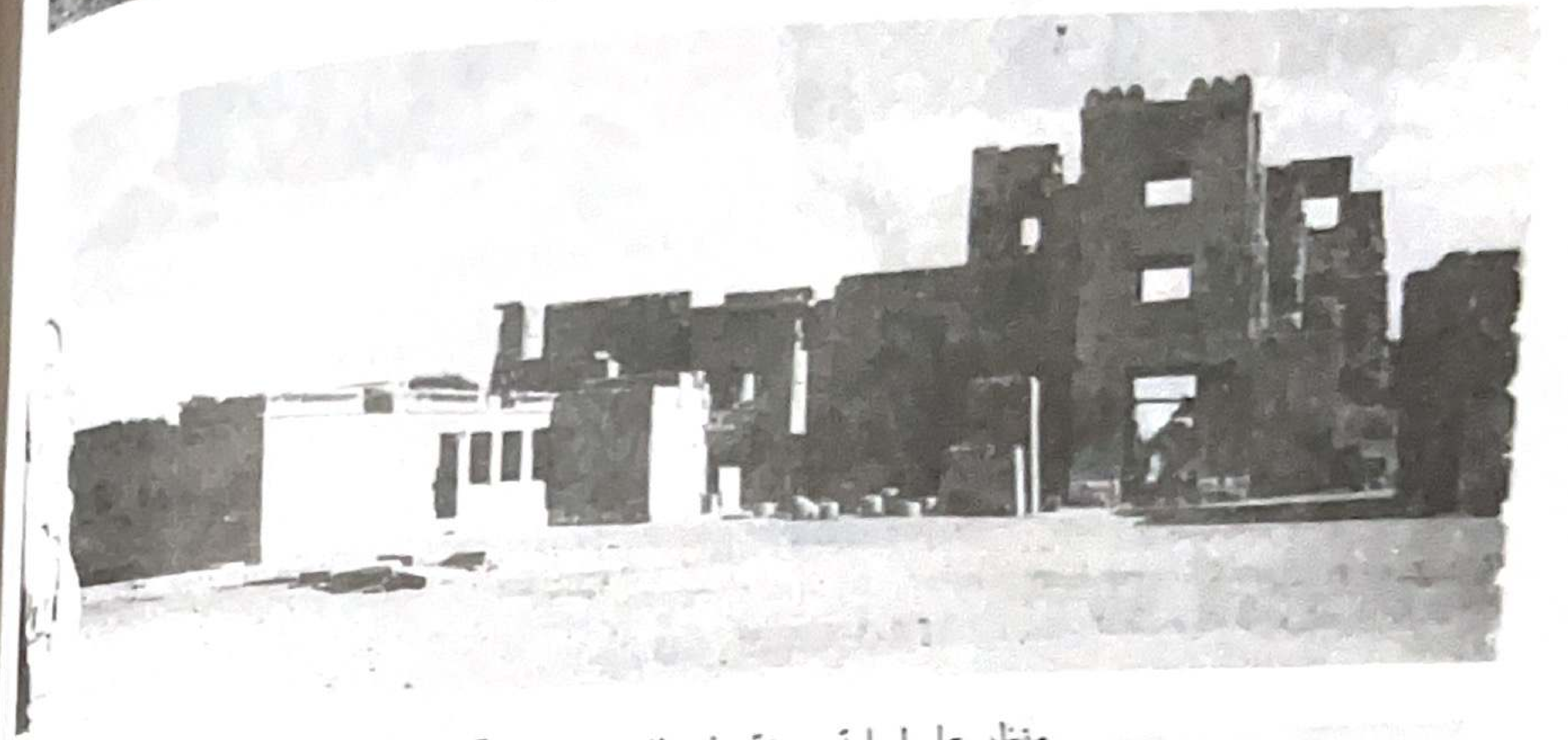
تخيُّل الفنان للملامح الحقيقية لرمسيس الثالث وفقًا لرأس موميائه.



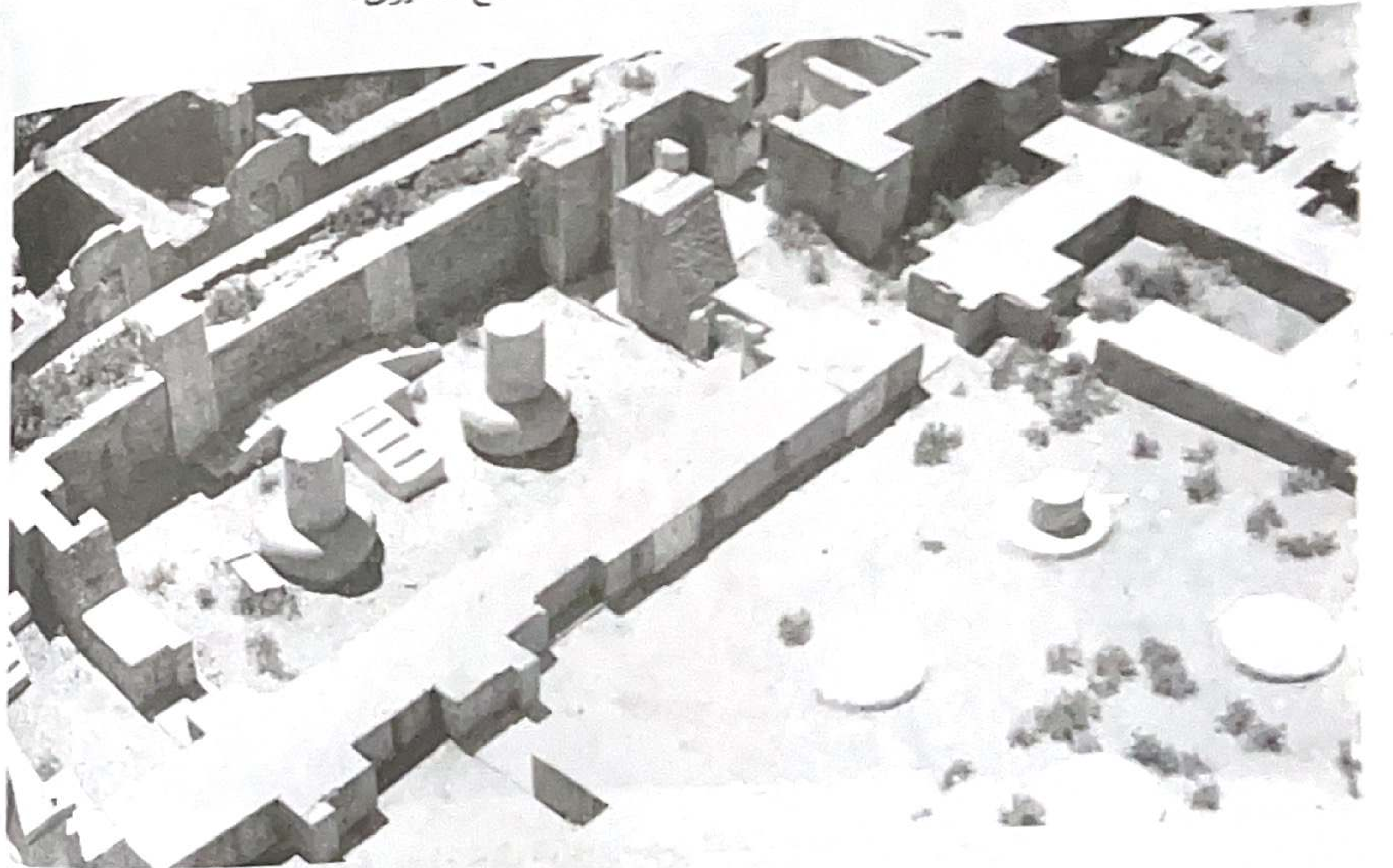
صورة لنقوش بارزة تمثل تتويج رمسيس الثالث بمعبد آمون بالكرنك.



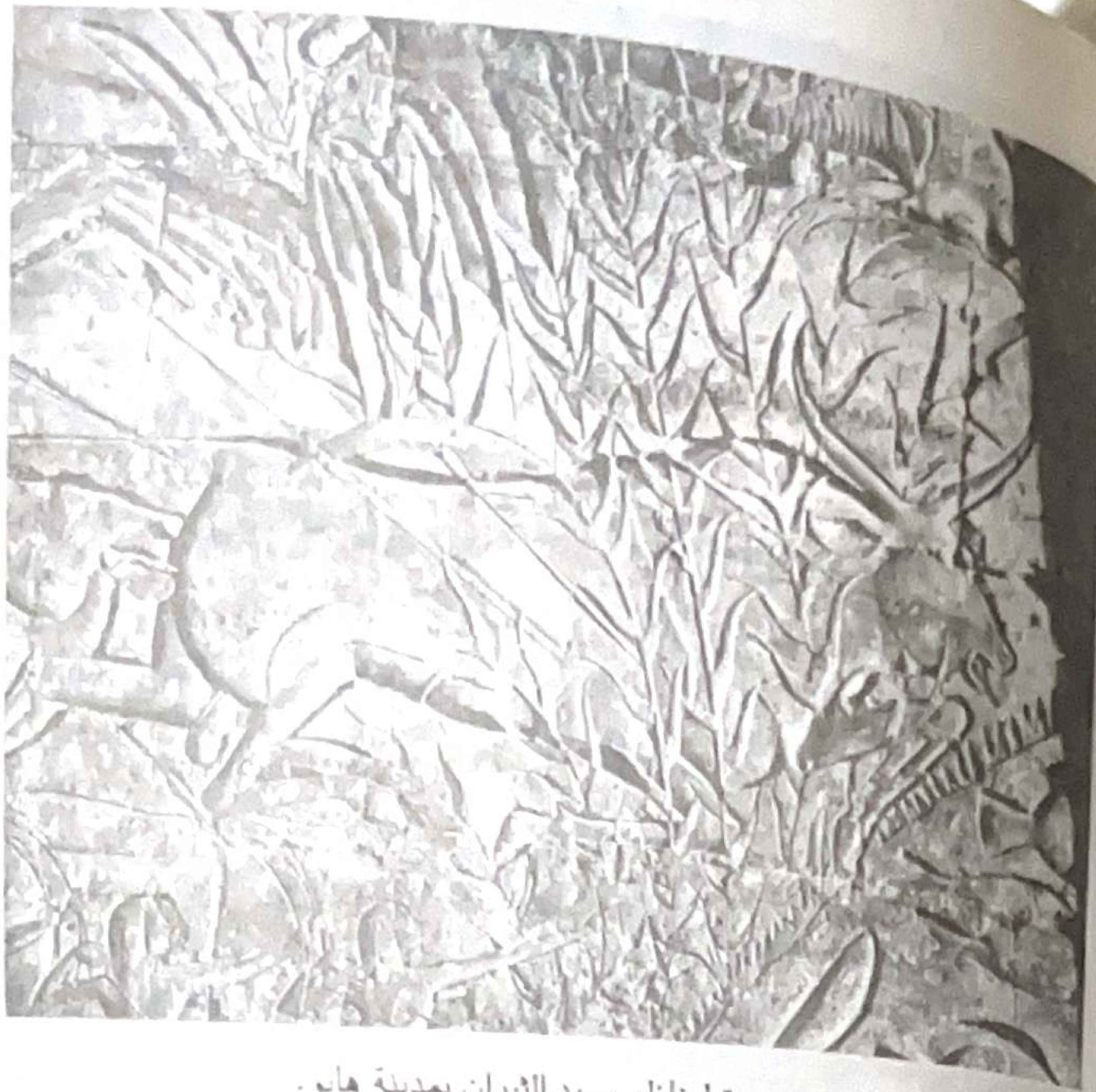
رؤية شاملة لمعبد مدينة هابو.



منظر عام لبوابة مدينة هابو ذات الطابع الآسيوى.



مسقط لقصر مدينة هابو

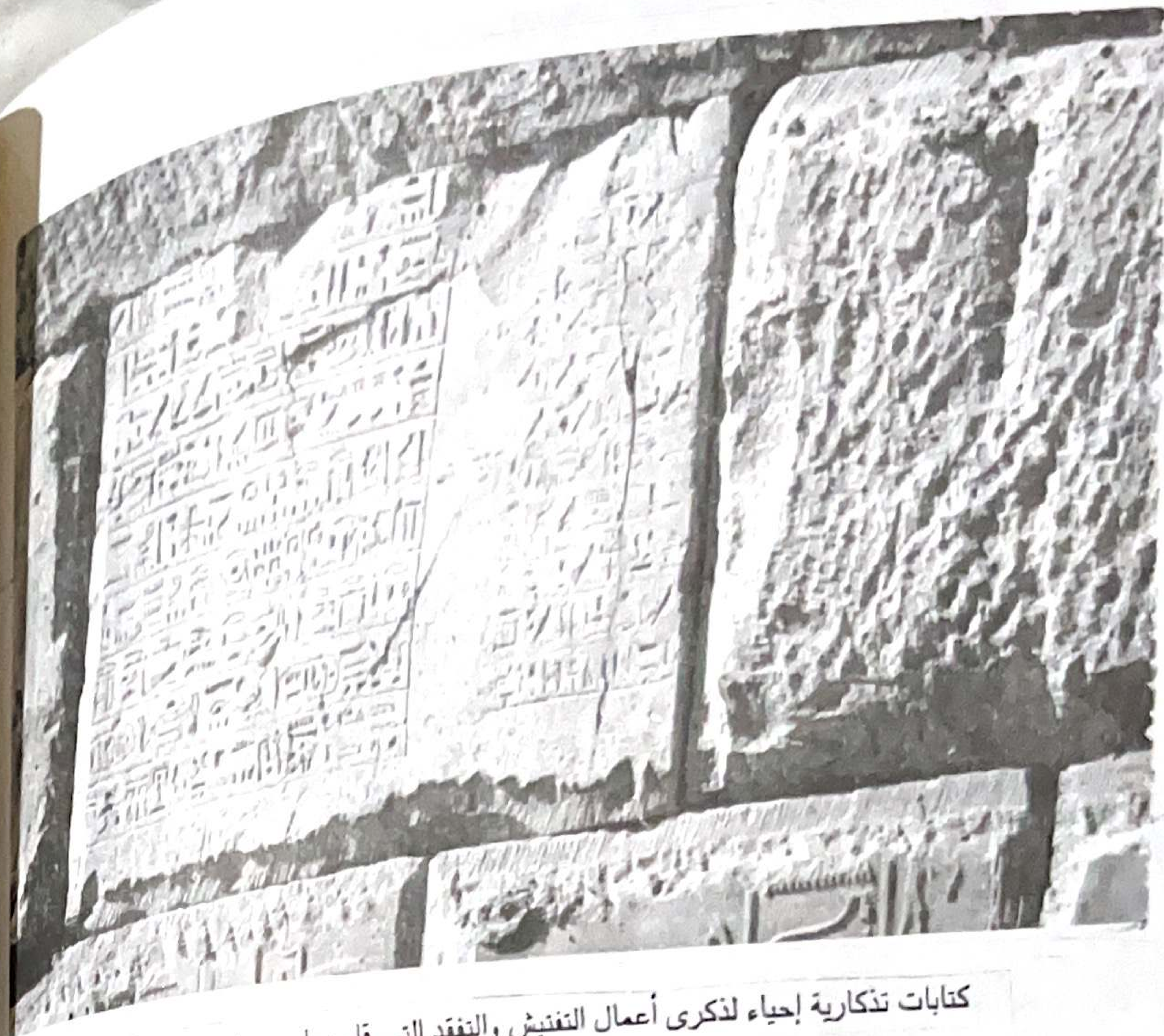


صورة لمناظر صيد الثيران بمدينة هابو.



صورة لغطاء تابوت رمسيس الثالث.

بمتحف فتز وليام بكمبردج.



كتابات تذكارية إحياء لذكرى أعمال التفتيش والتفقد التى قام بها «بن باتو» فى إلفنتين



واجهة المعبد- الاستراحة الخاص برمسيس الثالث بالكرنك.



رمسيس الثالث أثناء تأديته لبعض الطقوس الدينية.

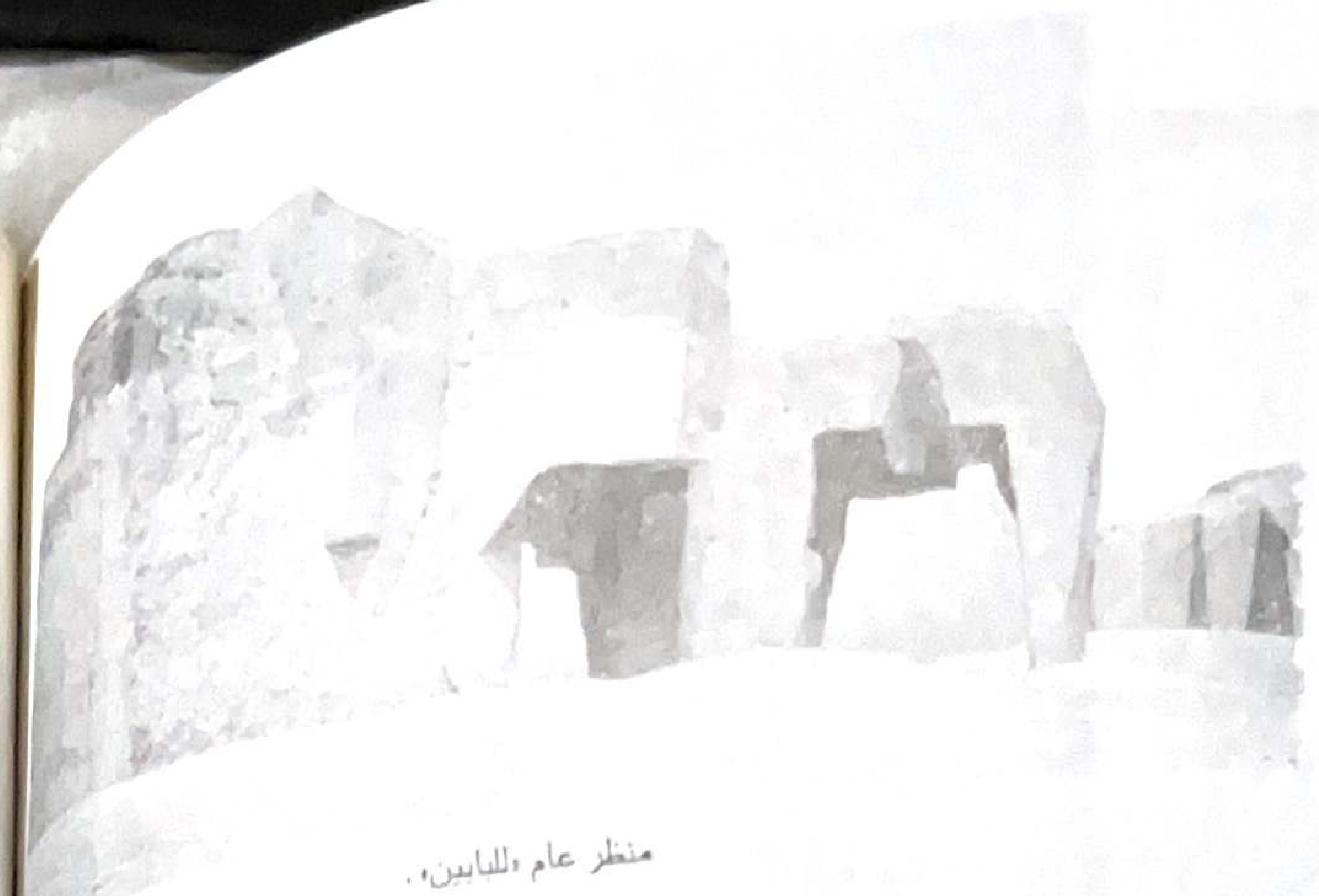


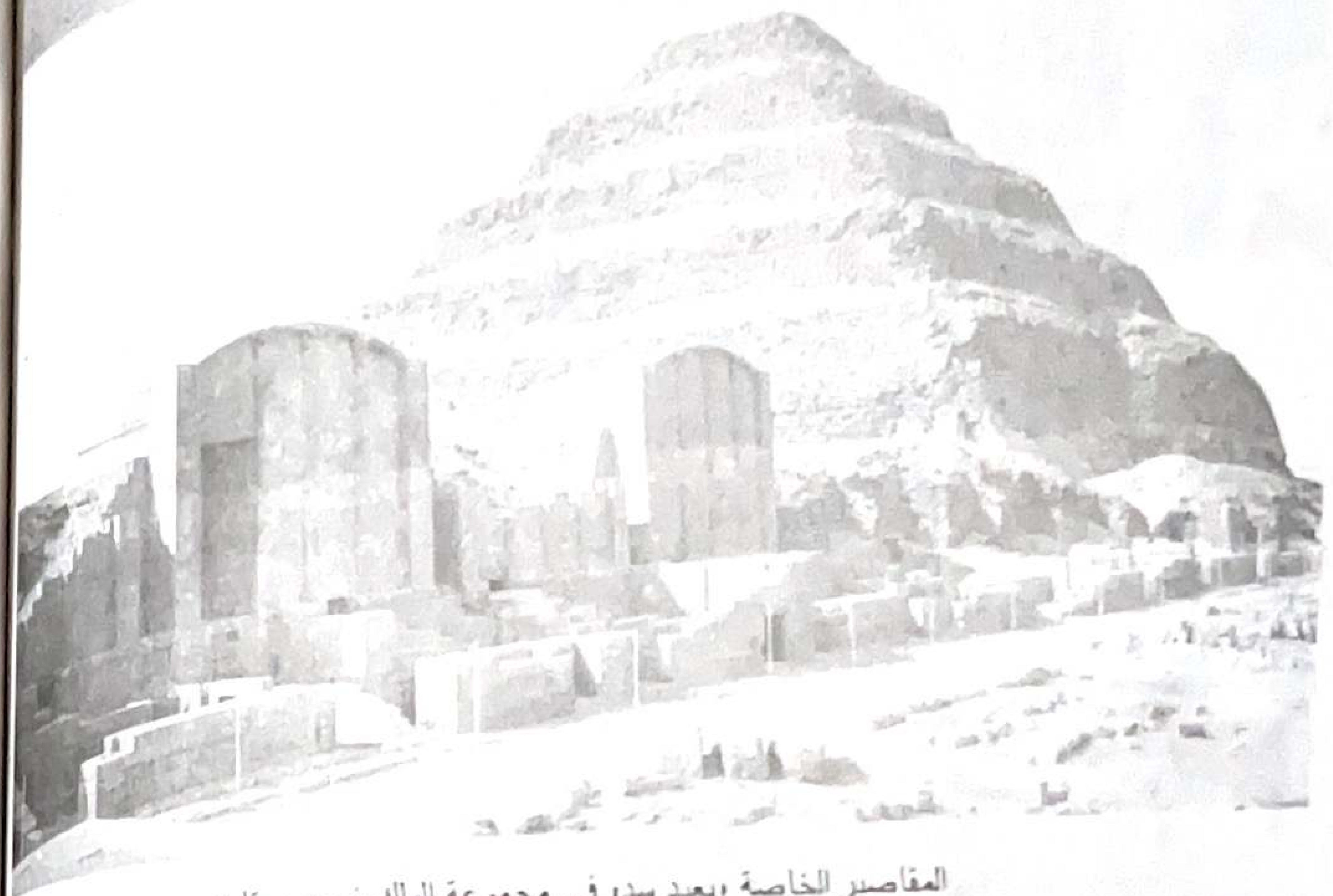
لوحات النيل وجبل السلسلة.

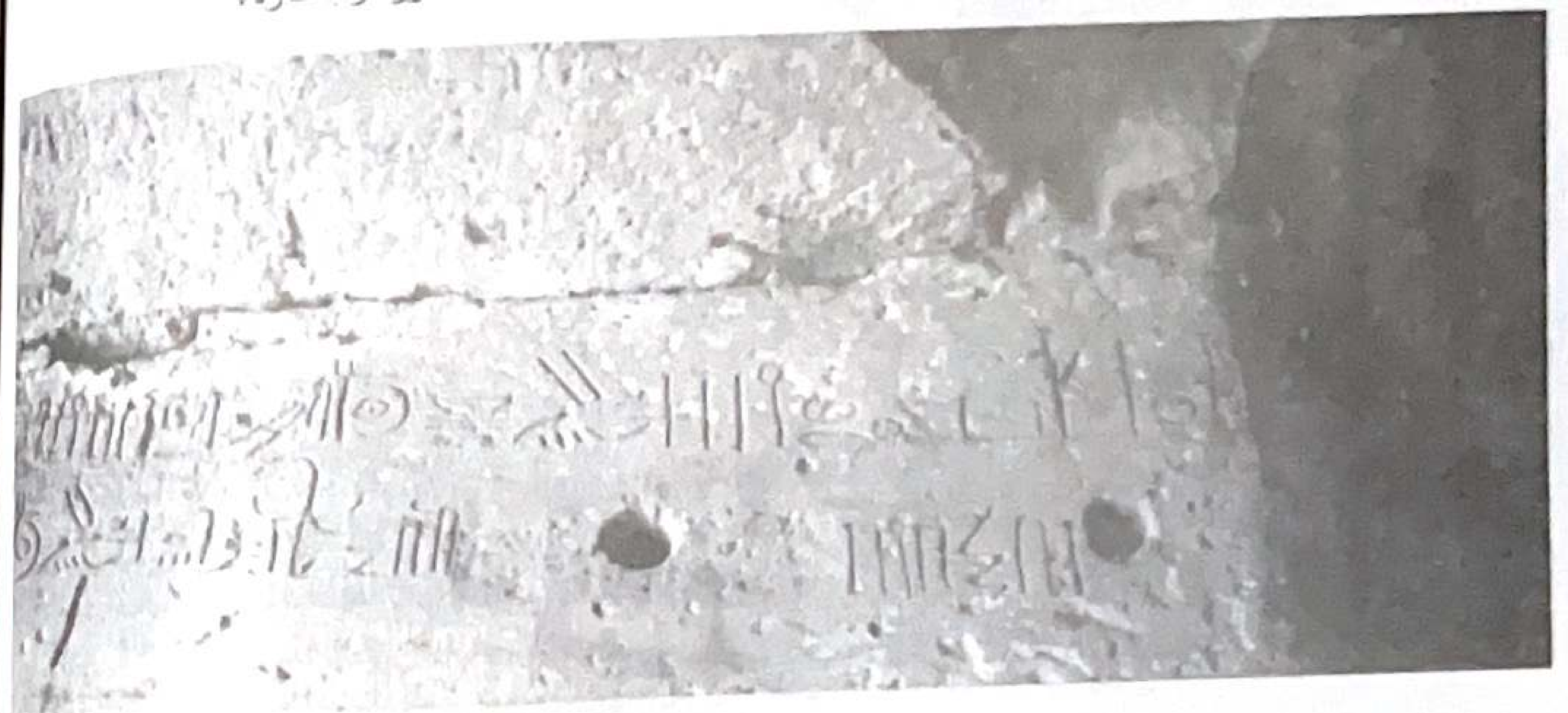
واستطاع، بتهديده لهم أن يجعلهم يعودون أدراجهم إلى قريتهم: وقال لهم: «لا تتخطوا مركز الحراسة من أجل الوصول إلى الوادى !.. لقد أعطيتكم زكيبتين من القمح. وإذا فعلتم ذلك، فسوف أجعلكم تمثلون أمام محاكم أى مكان تذهبون إليه !(٣٨)».

ويبدو واضحاً أن «آمون نخت» قد فاض به الكيل من كثرة هذه المظاهرات التى لا تتوقف أبداً. ولقد ضاق خاصة بذاك الإضراب الأخير الذى كان يعتبره بدون مبرر قوى. بل ربما أنه قد انتابه بعض القلق بالنسبة لمصيره هو شخصياً؛ أو أنه كان يشعر بحرج موقفه وتأزمه: فهو، من ناحية، يعتبر كمسئول عن تنفيذ الأوامر العليا، ومن ناحية أخرى، فهو يتعاطف مع العمال ويلمس صعوبة أحوالهم. بل هو يشاركهم أيضاً نفس المصير؛ وحياته ترتبط مثلهم تماماً، بانتظام ودوام تسديد أجورهم. ولكنه كان يعتقد، فى نفس الوقت، أنه ربما قد يثير ضيق ونفاد صبر الوزير بسبب كثرة التماساته ومطالبه لصالح العمال. أليس من المحتمل، والحال هكذا، أن يتخذ الوزير حياله موقفاً متشدداً ؟... إذن، كانت الضرورة تحتم عليه القيام سريعاً بالعمل على إعادة الانضباط فى نطاق مجتمع «دير المدينة». ومما زاد من مخاوفه وقلقه أن «خونسو» (رئيس العمال) قد ساند وآزر المضربين والمتظاهرين. وكمزيد للمشاكل والصعوبات، وبعد حوالى أحد عشر يوماً فقط، انفجر العمال فى ثورة جديدة: فإن كمية المؤن والغلال الضئيلة التى كان الوزير «تو» قد أرسلها لهم، قد انتهت تماماً؛ وليس لديهم ما يقتاتون به. وفى اليوم الثالث عشر من نفس الشهر، اندفع العمال ثائرين وهم يصرخون ويصيحون من قسوة الإحساس بالجوع. وانطلقوا من دير المدينة. ولم يفكر آمون نخت فى منعهم من ذلك. وتوجهوا إلى المعبد الجنازى الخاص بمرنبتاح، الواقع جنوب الرمسيوم. وهناك، خلف هذا المعبد، جلسوا متجمعين ومترقبين. ويبدو أن الظروف كانت مواتية لهم فى تلك اللحظة. فبالمصادفة، كان حاكم طيبة يمر بهذا المكان. فشاهدوه وأخذوا يصرخون ويصيحون ملوحين له بأيديهم. وتعجب الرجل مما يشاهده. واستفسر عن حقيقة هذا الأمر. وعندما علم بواقع المشكلة، أمر على الفور بأن تقدم لهم ما لا يقل عن خمسين زكيبة من الغلال(٣٩). وبذا، يكون قد أحسن إليهم للمرة الثانية.

وبانتهاء هذه المظاهرة بمثل تلك النهاية الحسنة، عاد النظام والانضباط ثانياً إلى أجواء «دير المدينة». ومنذ ذاك الوقت، لم تشر المصادر إلى وقوع أية اضطرابات


منظر عام «للبايين».


المقاصير الخاصة «بعيد سد» فى مجموعة الملك زوسر بسقارة.


صورة تدل على كشط اسم «باى إرى» بجبل السلسلة.

أخرى فى نطاقها بسبب عدم تسديد أجور العمال. فعلى ما يعتقد، أن الوزير قد أولاهم بعد ذلك شيئاً من اهتمامه وعمل على إصلاح أحوالهم وتسديد أجورهم فى الوقت المحدد لها. وحقيقة، أنه فى اليوم الخامس والعشرين من أول أشهر فصل «الشمو»، أى بالتحديد فى ليلة الاحتفالات باليوبيل الملكى، شوهد عمال دير المدينة، بجوار الرمسيوم، وهم يطالبون بنصيبهم من خبز القرابين. بل إن الكاتب «آمون نخت» قد توجه إلى طيبه من أجل أن يطلب من النبى الأول(٤٠) لآمون التدخل لكى يحصل العمال على مطلبهم هذا. ولكنهم،على ما يبدو، كانوا يطالبون بنصيبهم من خبز القرابين باعتباره منحة وهبة يحق لهم الحصول عليها بمناسبة عيد السد. وعندما تم لهم ما أرادوا، عادت الأحوال إلى هدوئها الطبيعى.ولكن، بعد حوالى عام، أى فى العام الحادى والثلاثين(٤١)، ثم فى العام الثانى والثلاثين من حكم الفرعون، أى قبيل وفاته بحوالى خمسة عشر يوما(٤٢)، وفى بداية حكم خليفته(٤٣)، انفجرت الإضرابات ثانية، كأقوى وأعنف ما تكون. فعلى ما يتراءى، أن العمال قد لمسوا أنها الوسيلة الوحيدة الفعالة من أجل الاستجابة لمطالبهم. ولهذا،كانوا يلجأون إليها على فترات متباعدة.وانتهى الأمر بتفكك(٤٤) وانهيار مؤسسة «دير المدينة».

٣-مؤامرة الحريم

لقد عرفت «مؤامرة الحريم» من خلال مجموعة من الوثائق الخاصة بطيبة،مثل «بردية تورين القضائية»، و«برديات لى» و«رولان» و«فارزى» و«نصوص ريفو»(٤٥). وكان الهدف الأساسى من ورائها هو قلب نظام الحكم، فى أواخر عهد رمسيس الثالث. ولقد استوعبت هذه المؤامرة عدداً كبيراً من أعضاء العائلة المالكة، وبعض الشخصيات الهامة فى نطاق البلاط الملكى، وفى إطار الجيش وفى المحيط الكهنوتى والإدارى. وبشكل إجمالى، بلغ عدد المتآمرين بها حوالى ثلاثين فرداً،حكم على أغلبيتهم بالإعدام. ولقد اعتبرت جريمتهم من الجرائم النكراء التى لا تغتفر أبداً. ولذا، حكم على البعض منهم بعقوبة النسيان: تم محو أسمائهم من فوق الجدران التى كانت قد نقشت عليها من قبل. بل لقد استبدلت أسماؤهم بأسماء تدل على التحقير والازدراء. وقد تم أيضاً تغيير أسماء البعض منهم إلى أسماء تدل على غضب الآلهة عليهم.

وهكذا، نجد، من خلال «بردية تورين القضائية»، أن المتهمين الأولين قد أطلق عليهما، على التوالى اسما «باى باك كامن»، ويعنى «هذا الخادم الأعمى»(٤٦)، و«مسدسورع»(٤٧)، ويعنى «الذى يكرهه رع». وكان من المعتقد أن النطق بمثل هذه الأسماء الشؤم قد ينزل على المجرم الأثيم النقمة الإلهية. وفى نفس الوقت، ومع مرور الزمن يتلاشى اسمه وهويته الحقيقية من الوجود.

وعلينا أن نعلم مدى الأهمية التى يوليها أى إنسان مصرى من أجل الاحتفاظ باسمه، وبالذكرى، التى سوف يتركها وراءه فى الحياة الدنيا كضمان لخلوده فى الحياة الأخرى. وبذا، فإننا سوف نتبين، أن محو اسمه أو تشويهه، مثله كمثل الموت،يعتبر بمثابة أشد وأقصى عقوبة ينالها.

إذن، فقد دبرت المؤامرة وأعدت تفاصيلها بداخل إطار «حريم» الملك. ويعتبر «الحريم» الملكى بمثابة مؤسسة مترامية الأطراف تستوعب فى جنباتها الملكة والأميرات (الفصل الثانى - ٢). وعلى ما يبدو، أن امرأة تدعى «تى»، ربما كانت إحدى زوجات رمسيس الثالث الثانويات قد عملت على تدبير تلك المؤامرة. ولا ندرى بالتحديد هل ارتكبت ذلك بوازع شخصى بحت أم بتحريض من آخرين. وكان الهدف الرئيسى لتدبير ذلك هو: أن يعتلى العرش ابنها «بنتاورت»،عند موت رمسيس الثالث، بدلاً من الأمير رمسيس، الوريث الشرعى(٤٨). وعندما أسرت بفكرتها هذه للنساء التابعات لها، سرعان ما قدمن لها المساعدة والمعاونة. بل لقد استملن إلى جانبهن «مدير الحريم» نفسه؛ الذى ذُكر من خلال «بردية تورين القضائية» تحت اسم شؤم ومزرٍ هو: «بانك»، أى «الشيطان»(٤٩). وكذلك، استطاع نساء الحريم أن يحرضن «كاتب الحريم» المدعو «بندواو»(٥٠)، على الاشتراك معهن فى المؤامرة. بالإضافة أيضا إلى أحد كبار موظفيه(٥١). وعلى ما يبدو،أن أسرار المؤامرة، بدأت تنتشر وتتناقلها الحريم فى ذاك الوقت، وبالتالى،علم بها بعض صغار الموظفين العاملين به. ولا شك أن هؤلاء الموظفين الصغار قد انتابتهم الحيرة ما بين ضرورة أداء واجبهم وإفشاء هذا السر، وبين الخوف من مديرهم الأعلى المتواطئ فى تلك المؤامرة. وأخيراً، فضلوا عدم المشاركة فيها، وفى نفس الوقت امتنعوا عن إبلاغ الملك بها، ولكنهم دفعوا حياتهم ثمناً لهذا التواطؤ السلبى(٥٢)،عندما كشفت المؤامرة بعد ذلك. وهم، بالتحديد: مساعد مدير الحريم «آمون خعو»، والكاتب «باى إرى»، وستة إداريين منتدبين.

وعندما قرر المتواطئون البدء فى تنفيذ مؤامرتهم،لجأوا، بداية، إلى الحصول على مساندة من بعض كبار موظفى الدولة. فقد رأوا، أن هؤلاء بصفة خاصة، قادرون، من خلال وظائفهم العليا الحيوية الفاعلية،على أن يحدوا من ردود أفعال السلطة الحاكمة فى لحظة حدوث الانقلاب المرتقب. بل وحصلوا أيضاً على معاونة العديد من القادة العسكريين القادرين على أن يوفروا لهم الفرق العسكرية اللازمة من أجل حركة الانقلاب. واستطاعوا كذلك أن يستقطبوا نحوهم وزيرين من الوزراء، هما: رئيس الخزانة «بررى» ابن «روما(٥٣)»، الذى ضم معه كاتبه «با - لوكا(٥٤)»، ومدير القطيع «بن حوى بين(٥٥)»، ومعناه «حوى الدنىء».

والجدير بالذكر أن الوزير الأول المذكور كان يعرف أيضاً باسم «سونخ إم حب»، وهو من مواطنى تل بسطة. وكان، قد قام، منذ حوالى خمسة وعشرين عاما، بقيادة حملة إلى منطقة «جبل السلسلة لجلب الأحجار اللازمة لبناء مدينة هابو. وبعد موته، تم كشط اسمه من بعض الكتابات المنقوشة التى كان قد تركها من بعده (الفصل الثالث-١). أما عن الوزير الثانى، فلا شك أنه «حوى»، الذى كان يقوم، فى أواخر عهد رمسيس الثالث، بالإشراف على القطيع الذى كان قد كرسه الملك لأحد المعابد التى كان قد شيدها فى منف (الفصل الخامس-٤).

وعلى ما يبدو أن العديد من رجال الحاشية الملكية،المقربين من الفرعون قد انضمّوا إلى المؤامرة: «مسدسو رع» الذى أشرنا إليه آنفا، وأورنا(٥٦)، و«إنينى»، وهو ليبى الأصل(٥٧)، و«نب جفاو(٥٨)»، و«حنتو إن آمون». ولكن، يبدو واضحاً، أن المدعو «باى باك كامن» الذى ذكرناه من قبل، قد احتل مكاناً هاماً فى نطاق تلك المؤامرة، وكان يشغل أساساً وظيفة «رئيس الغرفة» الفائقة الأهمية، أى أنه كان «رئيس خدم غرفة الملك» المقرب. ولقد تردد اسمه كثيراً من خلال الوثائق الخاصة بهذه المؤامرة. ولذلك، لا يستبعد أبداً أنه كان يهيمن على تنظيمها الخارجى(٦٠). ولقد استطاع أن يضم إليه مساعده «عشا حب سد(٦١)». وبذا، استطاع أن يساعد نساء الحريم على الاتصال بأمهاتهن وإخوتهن بالخارج. وبالتالى، العمل على نشر وترويج مبادئ وتعاليم المؤامرة التى دبرنها. فكنّ يقلن: «اعملوا على إثارة الفتنة بين الناس وانشروا عوامل الاضطراب والقلقلة، من أجل تفجير الثورة والتمرد ضد

الفرعون(٦٢)!»، بل لقد وجهت إحدى تلك السيدات، وكان شقيقها «قائد القوات العسكرية فى كوش»، أى القائد العسكرى للنوبة المصرية، رسالة إليه، تدعوه فيها إلى الاشتراك فى المؤامرة بمساعدة القوات الحربية التى يقودها. ومن خلال «بردية تورين القضائية» ذكر أن اسمه قد غير إلى «بين إم واست»، أى «الشرير القائم فى طيبة». وهذا يبين أنه ربما كان يحمل أساسا اسم «خع إم واست»، وهو من الأسماء الدارجة وقتئذ. وقد حكم عليه بالإعدام، بعد ذلك جزاء على فعلته وخيانته(٦٣).

وفى النطاق العسكرى أيضاً، استطاع المتآمرون أن يستقطبوا نحوهم أحد القادة، ويدعى «باييس»، أى «الأصلع». وبدوره، استطاع «باييس» هذا، خلال محاكمته، أن يستميل نحوه العديد من القضاة(٦٤). وعلى ما يبدو أن اسم «الأصلع» هذا كان مجرد اسم مستعار. والجدير بالذكر فى هذا الصدد،أن الصلع،خلال ذاك العهد، كان يعتبر من السمات المميزة لرجال الدين. وربما كان صاحب هذا الاسم المستعار هو، فى حقيقة الأمر أحد قادة جيش رمسيس الثالث ويدعى «باحم نتر»، ومعنى اسمه «الكاهن». وكان قد ساهم، فى العام الخامس من حكم رمسيس الثالث، بمصاحبة رئيس الخزانة «باى إرى»، أحد المتآمرين، فى بناء مدينة هابو (الفصل الثالث - ١ والفصل السابع -١). إذن، والحال هكذا، نستطيع أن نتبين أنه كانت هناك شبكة ممتدة ومتشعبة من الصداقات الوطيدة القديمة،ساعدت على اتساع مدى وتشعب أطراف المؤامرة، لتصل، بكل سهولة إلى قلب البلاط الملكى نفسه، وكل الأوساط الإدارية العليا بالدولة.

المؤامرة والسحرالأسود

لا شك أن الضرورة، كانت تستلزم أن ينتقل المتآمرون، ما بين أجواء الحريم الملكى حيث تعقد اجتماعاتهم، وبين العالم الخارجى، حيث كانت الضرورة تحتم قيامهم بنشر مبادئهم وتعاليمهم. ولكن، لا شك أن تنقلاتهم المتكررة هذه، كان من المحتمل، مع مرور الوقت، أن تلفت إليهم الأنظار وتثير عوامل الشك نحوهم.

وللعلم أن زوجات حراس الحريم الستة قد اشتركن هن أيضاً فى المؤامرة. وكان دورهن الأساسى يعتمد على شغل انتباه أزواجهن عما يحدث فى نطاق الحريم(٦٥). ولكن، على ما يبدو، لم يكن ذلك يوفر الأمان المطلوب. ولذلك، لجأ المتآمرون إلى

طلب نوع من المساعدة الخاصة جداً من اثنين من كبار الكهنة، هما: «بارع كامن إف» أى «رع أعماه(٦٦)»، و «إيروى»(٦٧). ومن الملاحظ أن الأول قد خلع عليه اسم التحقير والمهانة، ربما كان فى الأصل: «بارع حرو نمف»، ويعنى «رع يقف على يمينه». وكان يشغل وظيفة «رئيس الكهنة الشعائريين»، أى المسئول عن تنظيم رسميات المراسم الدينية التى تقام فى جميع أنحاء مصر. أما الكاهن الثانى، فكان يحمل هو أيضاً نفس اللقب، ويضاف إليه لقب آخر هو: «رئيس كهنة الإلهة سخمت تل بسطة».

ولعلنا نتذكر، أن رئيس الخزانة الوزير «باى إرى» أو الرأس المدبرة لتلك المؤامرة، كان هو الآخر، من مواطنى تل بسطة أيضاً. ولهذا، فلا يستبعد أبداً أن روابط الصداقة القديمة والموطن الواحد المشترك هى التى جمعت بين هذا الكاهن وبين «باى إرى» والقائد «باحم نثر» ليشاركوا معاً فى تلك المؤامرة الكبرى.

وتجدر الإشارة إلى أن كهنة الشعائر وكهنة سخمت، كانوا يعتبرون على كفاءة عالية فى مجالات السحر والطلاسم. جملة القول، كانوا من الشخصيات القوية البأس. وكانوا سحرة مهرة؛ يتقنون السحر الأسود بصفة خاصة. وهذا هو ما كان يبحث عنه المتآمرون من أجل الاستعانة به فى مؤامرتهم الكبرى، ويبدو أنه قد تم لهم ما أرادوا. فقد بدأ الكاهنان الساحران العمل فيما طلب منهما على الفور. فقام «بارع كامنف» و«إيروى» بتكوين صيغ سحرية، وعمل عدد من التماثيل الصغيرة السحرية، وإعداد مشروبات مخدرة. وأعطوها إلى «باى باك كامن» وشركائه؛ من أجل أن تعمل على سحر حرس الحريم أو جعلهم يغطون فى نوم عميق عندما يريد بعض المتآمرين الدخول إليه دون أن يراهم (٦٨) أحد.

وبالإضافة لكل ذلك، ومن أجل المزيد من السحر، قام أحد المتآمرين ويدعى «بن حوى بين»، بالاتفاق مع كاتب يدعى شعد نمت إتف(٦٩)، من أجل أن يمده بوثيقة تحمل اسم رمسيس الثالث كان قد سرقها(٧٠) من خزائن «بيت الحياة» أى مكتبة الملك(٧١).

وباعتباره كبيراً للكهنة الشعائريين، كان «إيروى» يملك منزلاً فخماً فى مدينة «بر رمسيس»، بأحد أحيائها الراقية الذى يقع غرب قصر قنطير الملكى. ولقد تبقى من هذا المنزل بعض إطارات(٧٢) الأبواب ولوحتان كانتا تزينان مدخله(٧٣). وفوق إحدى

اللوحتين اللتين كان ابنه حورى قد أهداها له ولأمه المدعوة «است نفرت»، وهما على قيد الحياة؛ يلاحظ أن اسم الجانى قد كشط من عليها، بعد إدانته بجريمة الخيانة العظمى. والجدير بالذكر أيضاً، أن ابنه حورى هذا، كان مثله، يشغل وظيفة كاهن سخمت و«الأب الإلهى لباستت».

إذن، فقد كانت هذه المؤامرة تتضمن عدداً كبيراً من المتآمرين. وكان ذلك من الأسباب التى جعلت أسرارها تتناثر هنا وهناك. جملة القول، وعلى ما يبدو، أن أحد أفرادها، أو بعض الإداريين الذين كانوا يدينون للملك بشىء من الولاء، قد سارعوا بإفشاء سر هذه المؤامرة والإبلاغ عن أفرادها. وسرعان ما تم القبض على المتآمرين، وقدموا للمحاكمة أمام محكمة غير عادية. ولم يكن الوقت قد سمح لهم بتنفيذ مؤامرتهم هذه. وللأسف الشديد نحن لا نعلم بالتحديد التفاصيل التى وضعت من أجل تنفيذ هذه المؤامرة، ولا تاريخ تنفيذها، وفى أى صورة، ومن خلال أية ظروف؟.... فمما يؤسف له أن «بردية تورين القضائية»، وهى مصدرنا الرئيسى فى هذا الشأن، قد اقتطعت منها أولى صفحاتها. ولا بد أن هذه المعلومات كافة كانت مدونة بها. أما عن برديات «لى، ورولان، وفارزى»، التى تضمنت تفاصيل مسهبة عن أنشطة بعض المتآمرين، فهى أيضاً قد شوهت ومزقت بعض صفحاتها. وكذلك الأمر بالنسبة للوثائق المماثلة المعروفة باسم «نصوص ريفو»، فهى تبدو فى حالتها الراهنة غير صالحة للاستعمال. إذن، فبالنسبة لتلك النواحى المستغلقة علينا ولا نجد لها إجابة محددة، لا يسعنا سوى الافتراض ولا شىء غير الافتراض.

ومع ذلك، فإن الأمر الوحيد الذى يمكن أن نتيقن منه تماماً، أن جميع الأحداث التى ذكرت من خلال تلك الوثائق قد وقعت قبيل وفاة رمسيس الثالث مباشرة. ونحن نجد أن مقدمة «بردية تورين القضائية»، قد سردت على لسان الملك؛ ومع ذلك، فهو يتراءى من خلالها وكأنه قد توفى فعلاً، ويتضح ذلك أيضاً من خلال «بردية هاريس -١»، خاصة أن تاريخها يسبق يوم وفاة الملك بحوالى عشرة أيام (ينظر لاحقاً - ٣). وربما أن المؤامرة كانت تستهدف الاستيلاء على مقاليد الحكم. ولكن، بالرغم من ذلك، فليس هناك أى دليل يبين أن هذا الاستيلاء على السلطة كان سيتم بواسطة

الإنهاء على حياة الملك. وعموماً، وبقدر ما نملكه من وثائق، فعلينا أن نعتقد أن تلك المؤامرة لم يكن «هدفها» الأساسى هو القضاء على حياة الملك. ولكن موته كان مجرد «منفذ» أو «حجة» بالنسبة لها. فقد كانت المؤامرة تهدف خاصة لاستحالة تولى رمسيس الرابع العرش، وهو الوريث الشرعى لأبيه رمسيس الثالث؛ ليحل مكانه على عرش مصر الأمير بنتاؤرت.

وتبدو «بردية هاريس – ١»، وكأنها حديث موجه من رمسيس الثالث، قبيل وفاته وتأليهه. ولكنها وفقاً لما ذكر آنفاً، قد أرخت بتاريخ السادس من ثالث أشهر فصل الشمو بالعام الثانى والثلاثين من حكم هذا الفرعون؛ وبالتحديد، قبيل وفاته بحوالى تسعة أيام. فقد توفى الملك فى (١٥) من نفس الشهر.

ولعلنا نلاحظ أيضًا، أن تاريخ كل من «بردية هاريس – ١»، ويوم وفاة رمسيس الثالث لا يفرق بينهما، على التوالى، و بين موعد الاحتفال النهائى بذكرى تتويج الملك إلا (٢٢) و (٣١) يوما. وبذا، يحق لنا أن نعتقد أن الملك، على ما يبدو، قد وصل إلى طيبة من أجل المشاركة فى تلك الاحتفالات، ولكن سرعان ما وافته المنية. فإن بعض الدلائل تبين أن وفاته قد حدثت بغتة(٧٤). وبالتالى، فعلى ما يعتقد، لم يستلزم الأمر نقله إلى مقره بالدلتا. وربما أن هذا الحدث هو الذى أوحى إلى الملكة «تى» بفكرة تدبير المؤامرة. وهكذا أصبح المتآمرون على أهبة الاستعداد للاستيلاء على مقاليد الحكم، حالما يصلهم الخبر بوفاة الفرعون.

إذن، فوفقاً لهذا الافتراض، يبدو أن الدور الرئيسى الذى قام به أحد هؤلاء المتآمرين المدعو «باى باك كا آمون»، الذى كان يشغل وظائف هامة لدى الفرعون، قد ساعده على إعلام بقية المتآمرين بدنو أجل الفرعون. وفى نفس هذا الصدد، نجد أن «نصوص ريفو»، تشير فى بعض فقراتها إلى: أن بعض المتآمرين المجهولى الهوية، قد قاموا بإغراق إحدى السفن الملكية؛ وأطاحوا بما كانت تحتويه من «تمائم واقية». ولو أننا حاولنا تفهم مضمون هذا النص، فربما أن «السفينة الملكية» المذكورة، هى المركب التى كانت تقل جثمان الفرعون المتوفى إلى الضفة الغربية لطيبة، حيث مثواه الأخير. أما «تمائم الحماية»، فلا شك أنها المصوغات والمجوهرات اللازمة لتزيين جثمانه.

ساعة الحساب

ما قد علمنا مدى الدقة المتناهية فى تدبير تلك المؤامرة والإعداد لها، ومدى اتساع وتشعب مداها. ومع ذلك، فلقد فشلت ولم تحقق أهدافها. وبالتالى، ارتقى رمسيس الرابع العرش بصفته الوريث الشرعى. ومن المحتمل جداً أنه منذ فترة ما، قبيل وفاة أبيه، كان، من خلال موافقته، يمارس معه مهام الحكم. ولعلنا نتذكر أنه كان يشغل منصب «القائد الأعلى للجيش». وكان يعاونه فى هذه المهمة أخوه «آمون حر خبشف» الثانى، الذى كان يشغل منصب «قائد سلاح العربات الحربية»؛ والذى أصبح فيما بعد الفرعون رمسيس السادس، (الفصل الثانى – ٣). ويبدو أن الخطأ المميت الذى وقع فيه المتآمرون، أنهم لم يقدروا كفاءته ومقدرته حق قدرها: فقد كان يهيمن على مختلف وحدات الجيش ويبسط نفوذه التام على جهاز الدولة. وبذلك، استطاع، بكل سهولة وبدون أى عناء، أن يطيح بمؤامرتهم هذه. وبمجرد، اكتشاف تآمرهم سرعان ما قدموا للمحاكمة لكى ينالوا عقابهم.

ووفقًا لما جاء «ببردية تورين القضائية»، سارع رمسيس الثالث، من أجل محاكمة أفراد المؤامرة، بتكوين محكمة مكونة من اثنى عشر عضواً يمثلون الهيئة القضائية وهيئة المحققين. وتكونت هذه المحكمة من: رئيسى الخزانة مونتو إم تاوى، و باى إفراوى، وأحد كبار الحاشية الملكية، وحامل المروحة الكبرى المدعو «كار»، وخمسة أفراد من المقربين من الفرعون و هم باى باست، و قد ندن، و بعل ماحى، وبا إروسونو، و حجوتى رخ نفر، والبشير الملكى المدعو بن رننوت، وكاتبين من «مكتب المراسلات»، هما: «معى» و«بارع إم حب»، وأحد حاملى الرايات بالجيش يدعى «حورى».

وتجدر الإشارة هنا، إلى أن ثلاثة ضمن هؤلاء، هم: «باى باست»، و«معى» و«حورى»، قد انحرفوا ناحية المتهمين خلال فترة المحاكمة. وبالتالى، قدموا هم أيضاً للقضاء. وقد تم انتداب أحد رجال الحاشية الملكية ويدعى «مروتوسى إمن» ليحل مكان «باى باست».

ووفقًا لما ذكر فى بداية «بردية تورين القضائية»، فقد أسندت إلى أعضاء تلك المحكمة القضائية مهمة استجواب ومحاكمة المتهمين. بل وأن يقوموا، على مسئوليتهم

الشخصية، بفرض العقوبات المناسبة لما اقترفوه من جرم. ومن خلال «بردية تورين القضائية»، يتراءى أن رمسيس الثالث كان يجهل كل شيء عن المؤامرة التى كانت تدبر حوله. بل ولا يعلم شيئًا مطلقًا عن المتآمرين. وترتكز البردية خاصة على ذكر خمس قوائم من المتهمين المتورطين مباشرة فى المؤامرة؛ أما القائمتان الأخيرتان فهما تتضمنان بعض أفراد اللجنة القضائية الذين، انحرفوا، خلال فترة المحاكمة ناحية هؤلاء المتهمين. كما يلاحظ أيضًا أن اسم كل متهم قد نعت بصفة «العدو الأكبر»؛ واقترن بوصف موجز لأفعاله، ولمحاكمته وعقوبته. ووفقًا لما ارتكبه كل منهم من إثم كان يطبق عليهم العقاب المناسب له. وعلى ما يبدو، أن هذا العقاب ينبثق من «قانون العقوبات» الذى كان قد وضعته الآلهة نفسها. عموماً، فإن كل ما اقترفه المتهمون من أفعال، حتى إذا كانت مجرد تواطؤ سلبى، قد اعتبرت بمثابة «خطايا تستحق الموت». ولهذا، فقد طبقت عليهم جميعاً العقوبة القصوى: الإعدام.

ومع ذلك، وحتى فى مصر القديمة، كان من الممكن استمالة بعض رجال القضاء ودفعهم إلى الانحراف عن الطريق القويم. فخلال تلك المحاكمة، فكر بعض المتهمين أنهم بمثل هذه الوسيلة، قد يفلتون من مصيرهم المحتوم. ولهذا، فقد عمل القائد «بائيز» (أحد المتهمين) وبعض نساء الحريم المتهمات أيضًا، على إقامة حفل صاخب ماجن؛ دعوا إليه بعض قضاة لجنة التحقيق، وهم: الحاجب الملكى «باى باست»، والكاتب «جاى»، وحامل الراية فى الجيش «حورى»؛ بالإضافة أيضًا إلى اثنين من حراس المتهمين، هما: الجندى «تاى نخت» ورئيس الشرطة المدعو «ناتاى». وتكشفت هذه الفضيحة أيضًا، وعرفت بكل تفاصيلها. ويبدو أن الذى أبلغ عنها هو حامل الراية بالجيش المدعو «حورى». ولذا،و بالرغم من تواطئه الفعلى بها، فقد خفضت عقوبته. فلم ينل سوى بعض التوبيخ. أما عن القضاة ورجال الشرطة الذين انساقوا إلى الانحراف والفساد فقد طبقت عليهم تلك العقوبة الرادعة: قطع أنوفهم وآذانهم. ولا شك أنها عقوبة رهيبة لا تحتمل. وبذلك، نجد أن «باى باست»، بعد الحكم عليه بها، قد فضل الموت: فانتحر.

وبعد انتهاء المحاكمة بفترة وجيزة، وبعد أن أطلق على كل من المتواطئين أسماء للتحقير والإهانة، وبالتالى يقاسون من «الموت الثانى»، والفناء الكلى بعد إعدامهم، بدأ

تنفيذ الأحكام فيهم. فقد نفذ حكم الإعدام فى كل من: «باى باكامن»، و«باى إرى»، وبين إم»، وجميع المتهمين الذين ورد ذكرهم بالقائمة الأولى فى «بردية تورين القضائية. أما الآخرون، وهم: «بائيز»، و «بارع كامنف»، و«إيروى»، و«شاد نم تيتف»، وأيضا الأمير «بن تاؤرت»، فقد كانت عقوبتهم أشد قسوة: فقد ألزم كل منهم بأن ينفذ حكم الإعدام فى نفسه، وينتحر (٧٥): «عندما تبين له بشاعة الجرم الذى اقترفه، لم يجد وسيلة أمامه سوى الانتحار». فعلى ما يبدو أن جرائم هؤلاء الأفراد قد بلغت الدرجة القصوى فى بشاعتها، لدرجة أن الجلاد نفسه كان يأنف من الاقتراب منهم؛ وربما أجبروا على تنفيذ حكم الإعدام فى أنفسهم. ومما زاد من فداحة جريمتهم وخيانتهم، أنهم كانوا يشغلون أعلى المناصب وأسماها. عمومًا، كانت تلك الوسيلة بمثابة أقصى ما يمكن تطبيقه من عقوبات.

فعلى سبيل المثال، نجد أن الكاتب «شادنم تيتف»، كان قد ارتكب جريمتين عظيمتين هما: الخيانة العظمى وانتهاك المقدسات. فبصدده، ذكرت «بردية رولان»: أنه بتواطئه فى تلك المؤامرة قد حنث بالعهد والقسم الذى يقسمه عادة كتبة المؤسسة الملكية عند بداية عملهم بها. وينص هذا القسم وبصفة خاصة على: ألا يحاولوا أبداً إعطاء الفرصة لأى إنسان للحصول أو الاطلاع على الوثائق التى يتضمنها «بيت الحياة». أما عن جريمة الأمير «بن تاؤورت» ابن رمسيس الثالث من زوجته الثانوية «تى»، فهى تواطؤه فى مؤامرة إجرامية موجهة نحو أبيه نفسه. وعن كل من «بارع كامنف» و «إيورى» فقد طبقت عليهما هما أيضًا عقوبة الإعدام جزاء على انتهاكهما للمقدسات. وربما أن تطبيق العقوبات القصوى على هؤلاء الأفراد يوضح فداحة جرمهم لأنهم كانوا من المقربين جداً من الفرعون وخانوا ثقته بهم. ولذلك، ومن خلال كل من «نصوص ريفو»، و«بردية فارزى» تتراءى عبارات العتاب والتوبيخ التى يوجهها رمسيس الثالث إلى بعض المتهمين الذين كان قد قربهم منه وأسبغ عليهم أعلى الرتب والمناصب، وكانوا أصلاً من الطبقات المتوسطة أو الفقيرة. بل إنه كان قد زوج إحدى بناته الأميرات لأحدهم. أما عن المصير الذى لاقته «تى» المحركة الرئيسية للمؤامرة وبعض نساء الحريم المتآمرات معها، فلم يذكر شىء عنه مطلقاً فى أى وثيقة من الوثائق المذكورة آنفًا. بل وليس لدينا حاليًا ما يبرر هذا الإسقاط. ولكن،

علينا أن نؤكد، بالرغم من ذلك، أن زوجات وبنات الفرعون كن يحظين مثله تماماً بصفة القداسة والتبجيل. ولهذا، فلم يكن من المسموح لأى محكمة، مهما كان قدرها، أن تقوم بمحاكمتهن. وبالتالى، لم يكن أى جلاد مهما كانت مكانته، يستطيع أن ينزل بهن عقوبة الإعدام. وبذلك، يكون مصيرهن بأكمله، بين يدى الفرعون، أو خليفته. ولا يستبعد أن يكون الفرعون قد أبدى نحو زوجته «تى» شيئاً من الرحمة والتسامح، فاكتفى بنفيها، طوال حياتها، بداخل الحريم الملكى حتى توافيها المنية بشكل طبيعى.

ولا ريب مطلقاً أن أى عقاب، مهما كانت قسوته، لا يكون له جدوى أو نفع، إذا لم ينشر على الملأ. ويلاحظ ذلك، بصفة خاصة، بالنسبة للجرائم السياسية. ولعل ذلك يبدو واضحا، من خلال الأمثلة العديدة الذى يتضمنها عصرنا الحالى. وأيضاً، العصور القديمة لم تكن تجهل هذه الحقيقة أبداً. فهذا ما تدل عليه بالفعل العديد من الأعمال التى قدمها المؤرخون الكلاسيكيون. وأوضح دليل على ذلك، هو تلك الوثائق التى تتناول موضوع «مؤامرة الحريم».

ولعلنا قد نلاحظ أن كُلاً من «برديات لى، ورولان، وفارزى» و «نصوص ريفو»، تبدو، من خلال مضمونها وكأنها مجرد «محاضر رسمية» من أجل وضعها فى المحفوظات فقط لا غير. ولكن، بالنسبة «لبردية تورين القضائية»، فهى تتميز بالتفاصيل الدقيقة المسهبة عن الأفراد الذين أدينوا. بل هى تتراءى فعلاً، فى هيئة عرض عام لإحدى المحاكمات ولقد كتبت «بردية تورين القضائية» بالكتابة الهيروغليفية المبسطة. ولا شك أن كل كاتب فى عصر الرعامسة كان يجيد قراءتها بل إن هذه الوثيقة، قد توحى، من خلال حجم أحرفها وأسلوب تنظيم نصها، بأنها أحد الإعلانات الضخمة التى تنشر فى مكان عام، لكى يراها الجميع. ولا يستبعد أنها قد عُلِّقت عند مدخل المعبد الجنازى الخاص برمسيس الثالث، فى يوم دفنه.

٤ – موت رمسيس الثالث وتولى رمسيس الرابع الحكم

لقد توفى رمسيس الثالث فى الخامس عشر من ثالث أشهر فصل الشمو، فى العام الثانى والثلاثين من حكمه، أى فى حوالى ١١٥٣ ق.م. وفى خلال فترة وجيزة جداً، اعتلى العرش مكانه الأمير رمسيس، الذى أصبح فيما بعد الملك رمسيس الرابع[٧٦].

ويبدو أن رمسيس الثالث قد توفى فى طيبة. ففى اليوم التالى، نقل الخبر مباشرة إلى عمال دير المدينة: «الشهر الثالث من فصل الشمو، اليوم السادس عشر [---]». فى نفس هذا اليوم، جاء رئيس الشرطة المدعو مونتومس من أجل إخبار عمال «المقبرة»، بأن: «الصقر قد حلق فى السماء – أى الملك أوسر ماعت رع مرى آمون، بن رع رمسيس حقا إيونو. وأن الملك أوسر ماعت رع ستب ان آمون، بن رع رمسيس [حقا ماعت] مرى آمون، الملك (رمسيس الرابع) قد جلس على عرش رع، مكانه». وعند سماعهم هذا الخبر، أمضى عمال «المقبرة» يومهم فى بكاء [٧٧] وأسى».

إن موت أى فرعون لا يعتبر مجرد وفاة شخص عادى. بل هو أيضاً بمثابة تمجيد وتعظيم لإله ما: «الصقر حورس قد حلق فى السماء»، فهذا ما ذكر من خلال النص المذكور عالياً. فمنذ لحظة وفاته، ينضم الملك إلى هيئة الإله آمون، ويعبد فى نطاق معبده الجنازى: «ها أنا قد جئت لأمكث بجوارك (يا آمون) فى طيبة، مدينتك الغامضة. لقد أصبحت أحد آلهة التاسوع المقدس الذين يمشون فى معيتك. ولقد أصبحت ضمن «آلهة الدوات»[٧٨]. إن موته، كان أيضاً بمثابة نهاية لحقبة ما، لدورة لا تعدو أن تكون، فى نطاق الأبدية، سوى يوم واحد: «ها أنا قد رقدت فى أرض الصمت مثل أبى رع. وها أنا قد اندمجت بالتاسوع الأعظم فى السماء، وعلى الأرض، وفى «الدوات[٧٩]».

إذن، فقد تولى رمسيس الرابع العرش. وكان أول واجباته وأهم التزاماته هى المساهمة فى عملية دفن أبيه. ففى اليوم الرابع من أول أشهر فصل الآخت خلال حكمه، ذكرت إحدى السجلات بدير المدينة، أن منطقة وادى الملوك قد استقبلت أثاثاً جنائزياً خاصاً برمسيس الثالث[٨٠]؛ الذى تم دفنه بعد ذلك بعشرين يوماً[٨١]. ويبدو أن الملك الجديد، قد انتهز فرصة فترة التحنيط التى تستمر حوالى سبعين يوماً، من أجل أن يقوم بكتابة «بردية هاريس ١». أو بالأحرى، تلك السيرة الذاتية الضخمة الخاصة بأبيه. وعلى ما يعتقد أنها قد أُرّخت بتاريخ اليوم الذى كان رمسيس الثالث، قبل وفاته، قد أنعم عليه بمهمة مشاركته فى مهام الحكم؛ أو على الأقل، قد أكد رغبته فى توليه العرش من بعده.

وتبدو هذه الوثيقة مسهبة ومفصلة للغاية. بل هى مدعمة بالكثير من الأرقام والإحصاءات. ووفقاً لما رأينا، فى «مقدمة» هذا الكتاب، أنها بمثابة سرد موجه للآلهة ولكبار الشخصيات بمصر. ومن خلالها، تعدد الإنجازات التى قام بها رمسيس الثالث من أجل الآلهة. وبالتالى، فهو يلزمها، مقابل ذلك، بأن تسبغ على ابنه رمسيس الرابع كل مقومات الملك المثالى النموذجى. وبالقطع، ومن أجل المطالبة بهذا الالتزام من جانب الآلهة، كانت الضرورة تحتم مراعاة الخشوع والتضرع الفائق: «(أيا آمون) فلتجعل ابنى ملكاً مكان آتوم، [---] فأنت الذى تنبأت بأنه سوف يعتلى العرش فى فترة شبابه! [---] ولتمنحه حياة مديدة، فى مقابل الخير والنفع الذى أنجزته من أجل «الكا» الخاصة بك !(٨٢)».. «(أيا رع) هل تستطيع أن تقدم لى مقابلاً للإنجازات العظمى التى قمت بها من أجلك، [---] فلتمنح لابنى الكمال والازدهار وهو ملك على مصر(٨٣) [---] فلتجعله يدير شئون القطرين وفقاً لأسلوبك أنت!» «فلتنظر إلى بعينيك، ولتعطنى آذاناً صاغية، يا إلهى بتاح، الذى أنجب جميع الآباء، الذى خلق التاسوع المقدس؛ فلتستجب للابتهالات التى أوجهها إليك، فإننى ابنك الذى تحبه والذى قدم العديد من الأعمال الطيبة: فلتمنح ابنى رضاك وحظوتك، باعتباره ملك مصر، ولتثبته فوق عرشك(٨٤) ....» «أنتم، يا كافة آلهة مصر، فلتجعلوا ابنى ملكاً فى مكان حورس، [---] فلتثبتوا التاج فوق رأسه، [---] وقد توّج بالحية الحامية مثل آتوم(٨٥) !».

أما عندما يوجه كلامه للبشر، فإنه يستعين بأسلوب مباشر، لا يختلف مطلقاً عن الأسلوب الأدبى المعروف تحت اسم «التعاليم»: حيث تختلط الوعود بالتهديدات. وهكذا، نجد رمسيس الثالث، من خلال «بردية هاريس -١» وهو يوجه كلامه للمصريين، فيبين لهم أنهم ملتزمون تجاه ابنه رمسيس الرابع، عرفاناً منهم بخيراته ونفعه لهم: «اسجدوا عند نعليه، واركعوا خاشعين أمامه، وانحنوا له إجلالاً وتعظيماً، وكونوا خدماً له فى كل وقت وزمن !... اعبدوه وبجلوه، ووقروه واحترموه، تغنوا واشدوا بروعته واكتماله مثلما تفعلون لرع عند الشروق !... وأحضروا هداياكم إلى قصره العظيم الفخم، وقدموا إليه الهدايا المجلوبة من أنحاء مصر ومن البلاد الأجنبية!.. عليكم أن تستوعبوا عباراته ومراسيمه التى يلقيها عليكم وأنتم مجتمعون

أمامه. تنبهوا لكل ما يقوله وبذلك تنجون من غضبه وثورته !... اعملوا فى خدمته وكأنكم رجل واحد فى كافة الأعمال والأشغال: شيدوا من أجله النصب والبنايات، احفروا له المجارى المائية والقنوات !... وإذا كان كل ما تؤديه سواعدكم لرضائه هو فقط، فإنكم سوف تحظون برضائه، وستغدق عليكم المأكولات والمؤن التى يوزعها كل يوم(٨٦) !».

ومن خلال الابتهالات الموجهة إلى الآلهة فى «بردية هاريس -١»، وأيضاً، فى تلك «التعاليم» التى تختتم بها الوثيقة، يلاحظ جيداً، أن المنتفع الرئيسى بها، هو رمسيس الرابع، بل إنه هو مقدمها ومحررها الفعلى. ومن الملاحظ أيضاً، أنها قد صدرت فى أثر وقوع فضيحة «مؤامرة الحريم». ولذلك، فلا يستبعد أبداً، أن الملك رمسيس الرابع قد قدمها فى ذاك الحين، بمثابة وسيلة مواتية للغاية من أجل أن يذكّر كبار موظفيه ورجال حاشيته بما يجب أن يلتزموا به من وفاء وإخلاص تجاهه. خاصة أن هذا الولاء والإخلاص، كان، على ما يبدو، قد شابته شوائب كثيرة خلال تلك «المؤامرة». ولكن، من أجل تحقيق الهدف المنشود بواسطة هذه الوثيقة، كانت الضرورة تستلزم نشرها على الملأ. بل كان الأمر يستلزم أن يوفر لها أكبر قدر ممكن من الإعلان والنشر. وبهذا، وكما سبق أن ذكرنا بالنسبة «لبردية تورين القضائية» (سابقاً - ٣)، علقت «بردية هاريس -١» هى أيضاً كإعلان عام، فى مدينة هابو، فى وقت وفاة رمسيس الثالث. ولذلك، فمن المؤكد أن جميع الكهنة وكبار موظفى الدولة ورجال الحاشية وقادة الجيش، الذين وفدوا من كافة أنحاء مصر، لحضور تلك المناسبة، قد قرأوا واستوعبوا جيداً ما تتضمنه «بردية هاريس -١» هذه.

ولقد دفن رمسيس الثالث فى المقبرة الفاخرة التى كان قد أعدها لنفسه فى وادى الملوك (الفصل الثالث - ٥). ولكن، على ما يبدو، أن جثمانه لم يسترح بها سوى فترة مؤقتة. فلقد لحق به ضرر كبير بسبب أعمال السلب والنهب التى وقعت على جبانة طيبة فى أواخر عهد الأسرة العشرين. بل لقد أخرج جثمانه من تابوته من أجل تجريده من كافة المجوهرات والحلى النفيسة التى كانت تزينه. ولذلك، فبعد مرور قرن من دفنه، عمل كبير كهنة آمون المدعو «بى نجم» الأول، خلال العام التاسع ثم العاشر من حكم سمندس، أول ملوك الأسرة الحادية والعشرين، على وضعه بداخل

تابوت جديد. وبعد مرور بضعة سنوات، لحقت بجثمان رمسيس الثالث انتهاكات وتعديات أخرى. وللمرة الثانية، وأيضاً خلال العام الثالث عشر والخامس عشر من عهد الملك سمندس أيضاً، أمر الكاهن الأكبر اثنين من الكتبة[٨٧] هما «جسرسو خونسو»، و «بوتح أمون» بأن يقوما بإصلاح شأن جثمان رمسيس الثالث وترميمه. والجدير بالذكر أن أحد هذين الكاتبين وهو «بوتح أمون»، كان فى الماضى، يعمل «بمؤسسة المقبرة» فى أواخر عهدها، أى فى بداية نهايتها. وبعد مرور حوالى قرن آخر، استطاع جثمان رمسيس الثالث، فى نهاية الأمر، أن ينعم بالراحة والاستقرار الأبدى. وفى العام العاشر من حكم الفرعون سيامون، خامس خلفاء سمندس (حوالى ٩٦٩ ق.م)، أعيد دفنه، مع أجساد بقية ملوك الدولة الحديثة، بمقبرة غير مخصصة بالتحديد، ربما كانت قد شيدت من أجل إحدى ملكات الأسرة الثامنة عشرة، وتدعى «إن حابى» إحدى زوجات أحمس الأول. وتقع هذه المقبرة أسفل الدير البحرى[٨٨]. وفى نفس هذه «الخبيئة»، وضعت أجساد هؤلاء الملوك، وبعد حوالى (٣٠٠٠) عام، اكتشف جثمان رمسيس الثالث. لقد اكتشفه اثنان من عائلة «عبد الرسول» التى تعيش فى قرية «القرنة» فى عام ١٨٧١. وفى عام ١٨٨١ نقله «إميل بروجش» إلى القاهرة حيث قام «جاستون ماسبيرو» بمهمة خلع الضمادات عن مومياته فى صبيحة اليوم الأول من يونيه عام ١٨٨٦، وفى حضور الخديو توفيق، وكبار الشخصيات البريطانية والتركية، ورئيس الوزراء «نوبار باشا»، وكافة أعضاء مجلس الوزراء وجمع كبير من الشخصيات الهامة. ومنذ هذا التاريخ، استطاعت مومياء رمسيس الثالث أن تستقر نهائياً بالمتحف المصرى بالقاهرة. ورقم تسجيلها هو: (٦١٠٨٣)[٨٩].

انحسار الدولة الحديثة

لا شك أن اندثار بعض الإمبراطوريات هو مظهر من مظاهر التناسق الهامة فى إطار التاريخ.

جان - بابتيست دوروسل[١]

حقيقة أن رمسيس الثالث قد قام بإنجازات وأعمال ضخمة؛ ولكنه، فى واقع الأمر يعتبر كآخر فراعنة الدولة الحديثة العظام. فلقد توفى هذا الفرعون عام ١١٥٣ ق.م. ومنذ هذا التاريخ، وحتى أوائل العصر المتأخر، أى عام ١٠٦٩ ق.م، نجد أن أنشطة كافة الملوك الذين خلفوه على العرش، وجميعهم يحملون اسم «رمسيس»، لا تتضمن أية إنجازات أو أعمال جديرة بالاهتمام. فلم يخوضوا أية حروب أو معارك. ولم يشيدوا نصباً هامة، ولم يضعوا خططاً أو نظماً سياسية واسعة المدى[٢]. وربما أن رمسيس الرابع كان يداعبه الأمل فى القيام ببعض المشروعات الطموحة، فى المجال المعمارى بصفة خاصة. ولكنه انتقل إلى العالم الآخر قبل تحقيقها[٣]. ومن بعده، بدأ تاريخ الأسرة العشرين يميل تدريجياً إلى الأفول. وكذلك الأمر بالنسبة للمؤسسة الملكية نفسها. وانتهى الأمر باندلاع القلاقل والاضطرابات الداخلية الخطيرة.

وخلال فترات حكم آخر الملوك الرعامسة، كان سكان غرب طيبة يغيرون على المقابر والمعابد الملكية الجنازية، ويقومون بسلبها ونهبها. وفى نفس الوقت، اندلعت سلسلة من الحروب الأهلية فى منطقة مصر العليا، وتمخضت عن قيام نظام سياسى جديد، يختلف كلية عن النظام الذى كان سائداً إبان الدولة الحديثة[٤]. ففى عهد

رمسيس العاشر أى فى حوالى عام ١١٠٥ ق.م، كان «أمنحتب» الكاهن الأكبر لآمون قد طردته من منصبه بعض حركات التمرد المجهولة الهوية. ولكن، سرعان ما عاد إلى وظيفته مرة أخرى، بأمر من الفرعون؛ وساندته فى ذلك بعض الفرق العسكرية التابعة «لنائب الفرعون فى كوش» المدعو «بانحسى»،(٥) الذى سارع إلى بسط نفوذه وسطوته على عدة مناطق شاسعة، تتضمن: النوبة ومصر العليا والوسطى. واستمر هذا الحال حتى العام التاسع عشر من حكم رمسيس الحادى عشر ١٠٨٠ ق.م، أى ما يقرب من ربع قرن. وفى نفس ذلك العام، حاول قائد يدعى حريحور الذى أصبح فيما بعد، النبى الأول لآمون، أن ينفذ أحد أوامر الفرعون التى لم تكن تلقى الاحترام الكافى: فخرج على رأس قواته العسكرية لمجابهة «بانحسى». واستطاع أن يطارده حتى أراضى النوبة. وفى النوبة، حكم «بانحسى» حكماً مستقلاً تماماً حتى وافته المنية. وهكذا، خرجت هذه المنطقة عن نطاق السيطرة الفرعونية المصرية. ولكن حريحور، هذا المحارب سليل إحدى العائلات الليبية التى كانت قد استقرت فى تل بسطة بعد انتهاء حروب رمسيس الثالث، انطلق ليحقق نفعه الشخصى منتهزاً فرصة تهاوى واضمحلال الملكية القائمة. وخرج على رأس جيشه لمجابهة «بانحسى»، واستطاع أن ينتزع منه المنطقة التى كان يسيطر عليها. وفى نفس الوقت، بالشمال، استطاع قائد آخر يدعى سمندس، ربما كان ابن حريحور(٦) أو أخوه الأصغر، أن يستحوذ على بقية أراضى تلك المنطقة. وهكذا، أصبحت السلطة والسيادة الملكية مجرد خيال ووهم. وبالرغم من ذلك، فلم يحاول حريحور أو سمندس أن يطمساها تماماً، ولكن، حالما توفى «رمسيس الحادى عشر، عمل سمندس على الاستحواذ على السلطة. ومن أجل أن يحقق شرعية وجوده فوق هذا العرش، حرص على الزواج من إحدى بنات الفرعون المتوفى (الفصل الثانى – ٢). لذلك فهو مؤسس الأسرة الحادية والعشرين، وليس حريحور، الذى كان قد توفى قبل ذلك بفترة وجيزة.

وربما أن رمسيس الثالث قد حاول جاهداً «إيقاف» هذا الأفول الذى تعرضت له مصر خلال عهد الرعامسة. ولكن، لا ريب مطلقاً أن هذا «الإخفاق» كان يرتبط بأسباب خارجة تماماً عن سيطرته وإرادته. بل هى أسباب لم يستطع هو والشخصيات التى عاصرته استيعابها وتفهم طبيعتها. ففى إطار المؤسسات المصرية (الفصل الثانى

– ٤)، لا ريب أن رمسيس الثالث قد قام بواجباته كملك خير قيام، فقد أغدق على المعابد من خيراته وهباته، وقام بحركة إصلاحات وإنشاءات واسعة فى نطاق العديد من مناطق مصر. وربما لم يجاره أحد فيما نفذه من إنجازات وأعمال ضخمة، ولكن، على ما يبدو، أن نفس ذلك الإطار، كانت الضرورة تحتم تغييره تماماً. فمن الملاحظ أن النظام التأسيسى فى عهد الرعامسة، كان يعانى من أزمات دائمة فى النطاق الاقتصادى بصفة خاصة. ولذلك، نجد أن كل فرعون، كان يحاول جاهداً إصلاحه وتقويمه. وكانت مؤسسات الدولة، تخضع، فى كثير من الأحيان لبعض الأزمات الاقتصادية، أو السياسية، وتواجه متطلبات إدارة ضخمة ومتشعبة الأطراف. وبذلك، كانت تعانى من حالة قلة إنتاج شبه مزمنة. وقد ساعد على استفحال هذه الحالة، بعض الأزمات الطارئة: سياسية؛ أو قلة المحاصيل، أو اختلاسات، إلخ... وهكذا، لم تكن تلك المؤسسات المكونة لنظام الدولة، لتستطيع من تلقاء نفسها، أن تحسن من أحوالها، حتى لو حاولت إجراء بعض التحسينات فى إداراتها. فلم يكن من المسموح مطلقاً، لتلك المؤسسات أن تطرد العاملين بها من وظائفهم لأنهم قد عينوا بها وفقاً لعقد قضائى. بل لم يكن مصرحاً لها أيضاً أن تتوقف عن التمويل الخاص بخدمة بعض الطقوس والمراسم المتناهية الضآلة، القليلة الأهمية. وقطعاً، لم يكن أحد من كبار المسؤولين ليفكر مطلقاً فى عمل ذلك، وإلا لفقد وظيفته الكبرى والعديد من امتيازاته. وهكذا، كانت هذه المؤسسات تعانى من تمدد وتشعب وامتداد لا يتوقف أبداً.

وهكذا نجد أن ممتلكات آمون نفسها، بالرغم مما كانت تحظى به من ثروات عقارية ضخمة وأراضٍ مترامية الأطراف، فإنها كانت تعانى من صعوبة إعالة وإطعام الأعداد الهائلة من العاملين بها. ولذلك، كانت تحصل دائماً على المزيد من الأراضى الزراعية. ولكن مثل هذه الهبات لم تستطع أبداً أن تصبح بمثابة رأس مال منتج للخيرات. بل هى تتمخض، مع مرور الوقت، وعلى أوسع مستوى، عن نفس المشاكل التى كان من المفروض أن تحلها: فالمساحات الشاسعة من الأراضى الجديدة تتطلب أعداداً هائلة جديدة من الفلاحين، والإداريين الإضافيين، ومزيداً من الطعام والغذاء والإعاشة لأعداد لا تحصى ولا تعد من العاملين. وقطعاً كان ذلك يستلزم تقديم هبات جديدة من الأراضى، وتكوين مؤسسات جديدة، تزيد هى الأخرى من تفاقم الوضع. إنها، إذن، دورة جهنمية لا أول لها ولا آخر.

ولعلنا نعلم، أنه خلال الجزء الأول من الدولة الحديثة، عملت هيمنة وسيادة الفراعنة على بعض المناطق والبلاد الأجنبية، وغنائم الحرب الوفيرة، على تزويد مصر بالثروات اللازمة لمثل ذاك التوسع. بل وعملت، بالتالى، على تأخير موعد انفجار الأزمة الكبرى التى كانت مصر تسير إليها بخطى ثابتة ومؤكدة. ولقد عمل السلام الذى قام بين مصر والميتانيين، فى عهد تحتمس الرابع ١٣٨٧ - ١٣٩٧ ق.م، ثم بين مصر والحيثيين فى العام الحادى عشر من حكم رمسيس الثانى، على إتاحة الفرصة لمصر، لفترة طويلة المدى، لاستغلال خيرات ومنتجات فلسطين. ولكن، خلال عهد رمسيس الثالث، عملت هجرة «شعوب البحر» التى امتدت بعد ذلك، على مدى قرن كامل نحو الشرق، بواسطة غزوات الأراميين، على تدمير النظام السياسى القديم الذى كان قائمًا بدول الشرق الأدنى. وسرعان ما تمخض عن ذلك ممالك مستقلة تماماً، استطاعت بكل جدارة، مجابهة النفوذ الفرعونى المصرى. ولا شك أن تمركز «شعوب البحر» فى فلسطين قد جر فى أعقابه فى أطراف عام ١٠٣٠ ق.م فقدان مصر لآخر مواقعها فى آسيا الواحدة تلو الأخرى.

وعندئذ، سطرت بكل وضوح النهاية المحتومة لمملكة الرعامسة. وبدأ ذلك يتحقق بشكل تدريجى، واضح المعالم. ولعلنا نعلم أن أحد العناصر الهامة التى تعتمد عليها الشرعية الملكية المصرية هى: أن يقر أفراد الشعب بسلطة وسيادة الفرعون المطلقة؛ فى مقابل أن يقوم الفرعون بسد كافة احتياجاتهم، بفضل نظام إعادة التوزيع الذى سبق وذكرناه فى بداية بحثنا هذا. ولكن لا شك أن ضياع مستعمرات الفرعون قد تسبب فى عجز بالغ فى إطار ذلك النظام. وبالتالى، أصبحت الملكية عاجزة عن الالتزام بأحد واجباتها الفائقة الأهمية. وكأنها بذلك قد نقضت «العقد الاجتماعى» الذى كان يربطها بشعبها. وسرعان ما انطلق سكان طيبة ينهبون ويسلبون المقابر الخاصة بالملوك القدامى الأجداد من أجل إشباع احتياجاتهم المعيشية. وفى نفس الوقت، انتقلت شرعية السلطة الملكية إلى المؤسسات الوسيطة بالبلاد. فقد كانت لا تزال قادرة إلى حد ما، على القيام بالمسئولية التى عجز الفراعنة عن القيام بها على المستوى المحلى. ولقد حاول ملوك الأسرة العشرين تلافى وقوع هذا الأفول التام. ولذلك، فكروا فى العودة مرة أخرى لسياسة فراعنة الدولة الحديثة العظام: شن حروب

جديدة، واستعادة البلاد والأراضى التى فقدتها مصر. ولكن، على ما يبدو، لم تواتهم الشجاعة أو الإقدام على فعل ذلك. فقد كانوا منغمسين فى مظاهر الفخامة والبذخ والأبهة، ولا يعلمون شيئاً عن مصادر التدهور والاضمحلال التى كانت تنخر فى أسس الكيان التأسيسى والاجتماعى. ولذا، فقد توهموا، أو بالأحرى أرادوا أن يتوهموا، أن مصر التى أبدع رمسيس الثالث وتألق فى إصلاحها خلال عهده المزدهر، هى كيان أبدى وخالد على مدى الدهر.

الأحداث الرئيسية خلال حكم رمسيس الثالث

ـ السنة الأولى (١١٨٤) :

ـ ارتقاء العرش.

ـ اتخاذ قرار تشييد مدينة هابو.

ـ التتويج.

السنة الثانية (١١٨٣) :

ـ تأسيس عبادة تمثال ملكى فى الميدامود.

السنة الرابعة (١١٨١) :

ـ إصدار مرسوم منح أراضى لمدينة هابو.

السنة الخامسة (١١٨٠) :

ـ إصدار قرار التفتيش العام على المعابد.

ـ إرسال بعثة إلى جبل السلسلة لإحضار مواد بناء معبد مدينة هابو.

ـ القيام بالحملة العسكرية الأولى على ليبيا.

ـ إقامة لوحة فى عمارة الغربية (بالنوبة) وحملة عسكرية على النوبة.

السنة السادسة (١١٧٩) :

ـ إقامة لوحات قريبة من النيل فى جبل السلسلة.

ـ إصدار أول مرسوم لتقديم القرابين بالكرنك.

ـ منح أراضى بالجيزة.

ـ ترميم معبد سيتى الأول بالقرنة.

ـ إقالة «بانب» من دير المدينة.

السنة السابعة (١١٧٨)

ـ إصدار ثانى مرسوم لتقديم القرابين بالكرنك.

السنة الثامنة (١١٧٧) :

ـ غزو شعوب البحر.

ـ القيام بحملة آسيوية (؟).

السنة التاسعة (١١٧٦) :

ـ تقديم قرابين لأعياد هليوبوليس.

السنة الحادية عشرة (١١٧٤) :

ـ الحملة العسكرية الثانية على ليبيا.

ـ قيام نائب الملك فى كوش «حورى بن حورى» بالتفتيش على عمارة الغربية.

السنة الثانية عشرة (١١٧٣) :

ـ إتمام تنفيذ معبد مدينة هابو.

السنة الثالثة عشرة (١١٧٢) :

ـ البدء فى تشييد معابد البر الشرقى بطيبة.

السنة الخامسة عشرة (١١٧٠) :

ـ التفتيش على معابد مصر.

ـ القيام بأعمال إنشاء مقبرة القائد «ماى» بمنف.

السنة السادسة عشرة (١١٦٩) :

ـ ثالث مرسوم لتقديم القرابين بالكرنك.

ـ ترقية «آمون نخت» بن «إيوى» إلى وظيفة كاتب دير المدينة.

ـ تقديم الأسرى الإيجيين كهبة لمعبد قوص.

السنة العشرون (١١٦٥) :

ـ نقش نصوص فناء خبيئة الكرنك.

ـ حوالى عام ٢٠ : القيام بحملة إلى بلاد بونت، وحملة ضد السارو فى إدوم. وبناء صهريج

محصن فى العين، وحملة على تيمناع، وقيام الأمير رمسيس بالتفتيش على صولب.

السنة الثانية والعشرون (١١٦٣):

- الاحتفال بالعيد التذكارى للتتويج بطيبة.
- أعمال الوزير «تو» بالكرنك.

السنة الثالثة والعشرون (١١٦٢):

- الحملة على سرابيط الخادم.

السنة الرابعة والعشرون (١١٦١):

- تأسيس عبادة التمثال الملكى بمنف.

السنة السابعة والعشرون (١١٥٨):

- تعيين أمنمؤوبى النبى الأول للإله موت.

السنة التاسعة والعشرون (١١٥٦):

- إقامة لوحة بمعبد قفط.
- تعيين «تو» وزيراً لمصر العليا والسفلى، وتجميع تماثيل آلهة مصر العليا بمناسبة العيد «سد».
- إضراب فى دير المدينة.
- تقديم القرابين لأعياد النيل بمنف.

السنة الثلاثون (١١٥٥):

- الاحتفال بالعيد سد فى منف.

السنة الثانية والثلاثون (١١٥٣):

- مؤامرة الحريم.
- وفاة الملك رمسيس الثالث.
- تولى الملك رمسيس الرابع العرش.
- تحرير بردية هاريس رقم (١).
- الدفن فى وادى الملوك.

يقـدم هذا الكتـاب القـصـة الكاملة لملك من أعظم ملوك مـصـر الفرعونية، رمسيس الثالث، الذى استطاع أن يقضى على أعداء مصر الطامعين فيها، وأن يمد أطراف الإمبراطورية المصرية إلى أبعد مدى يمكن أن يتصوره العقل، وأن ينتصر فى أعنف المعارك الحربية وقتئذ، البحرية والبرية، مسجلاً انتصاراته العظيمة فوق جدران معبده المهيب بمدينة «هابو». ومع ذلك، فمن سخرية القدر، أن هذا البطل الباسل، كاد يفقد حـياته وهو بداخل قـصره على أيدى أفـراد إحـدى «مـؤامـرات الحريم»، وكانت زوجتـه الملكة «تى»، قـد دبرتها واسـتـعانت بالسـحر للوصول إلى هدفها.

٩٥٠ قـــرشـــا

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب